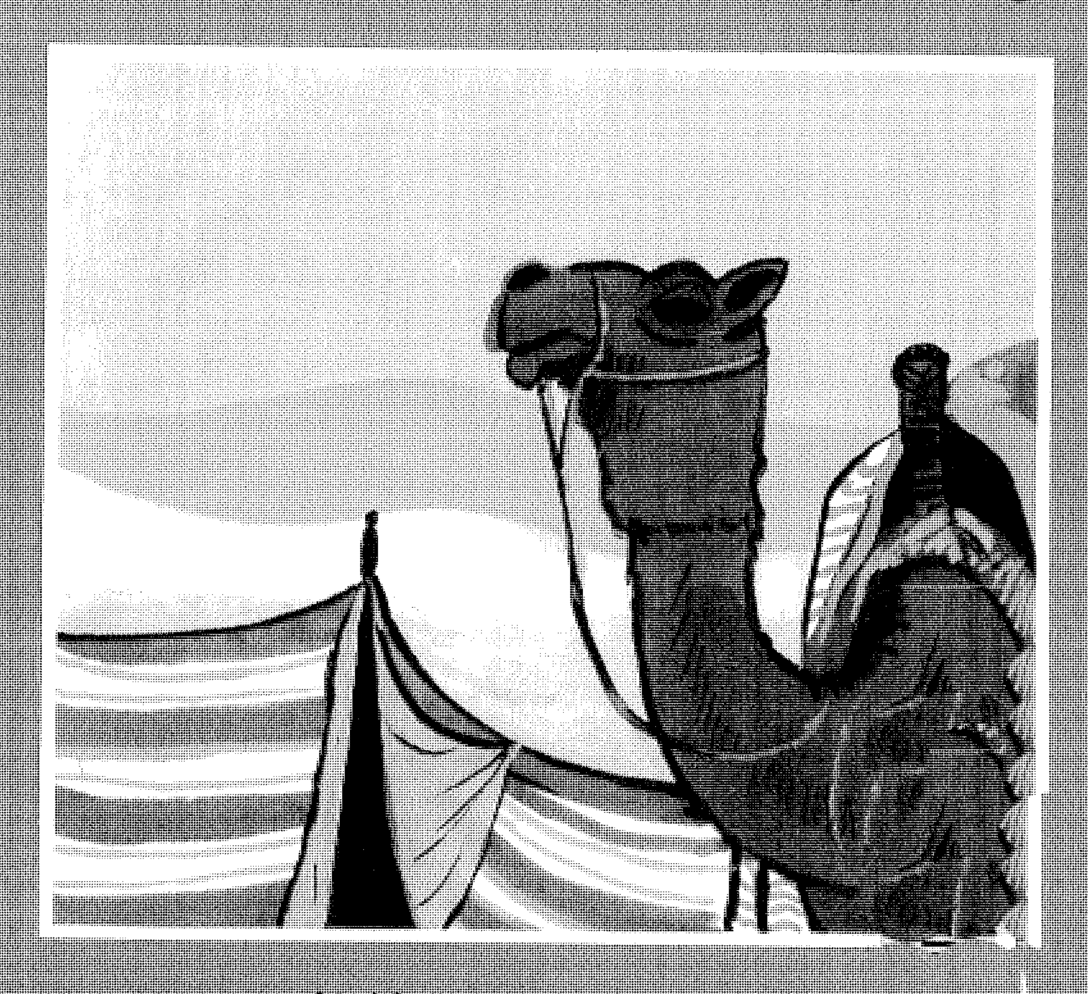
قريش قبل الإسلام

دورها السياسي والإقتصادي والديني

إعداد
عواطف أديب سلامة



إشراف
أ. د. / عبد الرحمن الطيب الأنصاري

قريش قبل الاسلام
دورها
السياسي والاقتصادي والديني

قريش قبل الاسلام

دورها السياسي والإقتصادي والديني

إعـــداد

عواطف أديب علي سلامة

قسم التاريخ ـ كلية الآداب

جامعة الملك سعود ـ الرياض

إشراف

أ.د/ عبد الرحمن الطيب الأنصاري

عميد كلية الآداب

جامعة الملك سعود ـ الرياض



ص. ب: ١٠٧٢٠ ـ الرياض: ١١٤٤٣ ـ تلكس ٤٠٣١٢٩

المملكة العربية السعودية ـ تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ ـ ٤٦٤٧٥٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله الذي هدانا . . والشكر له على أن وفقنا إلى السير في خضم العلم الزاخر بالنور والمعرفة . . وبتوفيق الله أنجزنا هذا البحث .

أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذي الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري الذي زودني بالكثير . . من التوجيه والإرشاد . وعلمني الأكثر من علمه . وشكري متواضع جداً وقاصر عن إيفاء الحق والواجب لأستاذي العالم الكبير بعلمه . . المتواضع تواضع العلماء الأفاضل ولكن الله الذي يجزي ويثيب . ومني كل الوفاء والتقدير والإمتنان .

وأتوجه بالشكر إلى كافة أعضاء جامعة الملك سعود . وأخص منهم أعضاء مجلس كلية الآداب وأعضاء قسم التاريخ وعمادة كلية الدراسات العليا . وعمادة شؤون المكتبات عامة .

كما وأشكر الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على كريم قبولهم قراءة وتحليل ونقد هذا البحث . فلا شك بأنهم بذلوا وقتاً ثميناً ، فإليكم أساتذتي الأفاضل الشكر الجزيل .

وأشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة بالقول أو بالعمل ، شكر تقدير وعرفان . وهم ولله الحمد كثيرون وكثيرات . فلن أحصيهم عدا ، ولن أوفيهم شكرا . . ولكن بكل الوفاء لهم أدعو أن يجزيهم الله خيرا .

وشكرا لكل من حضر معنا هنا من الأستاذات الفاضلات والزميلات الكريمات .

فهي كلمة شكر صادقة طيبة . . وتقدير وإعزاز وتكريم للجميع ومن القلب .

المقدمة

موضوع بحثنا موغل في أعماق التاريخ فعمره الزمني لا يقل عن ستة عشر قرنا. أما الفترة التي اهتممنا بها فعمرها قرنان من الزمان. ويهتم بحثنا بقبيلة قريش ودروها السياسي والإقتصادي والديني قبل الإسلام بقرنين.

وقد واجهتنا عقبة كأداء في جمع مادة البحث من تلك المصادر القليلة والمحدودة جدا. فباستثناء الأشارات القرآنية وما يلحق بها من معلومات منبثة في ثنايا كتب التفسير. وتكرر المصادر نفس المعلومات. وحتى هذه المادة النافعة عندما نعثر عليها نجدها متناثرة مبعثرة في مقدمة تاريخ عهد النبوة وأحداث الدعوة الاسلامية. مثل كتب السير والتراجم والتاريخ وفي مقدمتها كتاب تاريخ الطبري وطبقات ابن سعد والكامل وأسد الغابة لابن الأثير. وسيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير والروض الأنف للسهيلي. ثم وجدنا في كتب الأدب مادة مشابهة لما في سابقتها. وفي الكتب التاريخية الحديثة وجدنا نفس المعلومات مع إختلاف الصيغة والأسلوب أو مع اضافة وجهة نظر الكاتب وتحليل حادثة أو نحوها.

وجمعنا بعون الله الشتات المتفرق ليخرج بحثنا في قالبه الذي بين أيديكم فعسى أن يكون التوفيق حليفنا.

ومن تلك المادة العلمية جعلنا البحث ذا شقين (بابين رئيسين) فالباب الأول ويشتمل على ثلاثة فصول والباب الثاني ويشتمل على ثلاثة فصول أيضا.

الباب الأول : المجتمع في مكة

الفصل الأول منه : ويشتمل على دراسات تمهيدية عن منطقة الحجاز والمدن ذات الشأن بموضوع البحث.

الفصل الثاني والثالث : يشتملان على تفصيل ضافٍ عن المجتمع في مكة وعن كل مظاهر حياة قريش الاجتماعية والثقافية بما في ذلك العادات والتقاليد. ولذا جاء هذا القسم مطولا نظرا لأنه حفل بالمجتمع ومظاهره وحياة مكة الاجتماعية بجميع ارهاصاتها حية نابضة.

الباب الثاني : وهو يشتمل على دور قريش السياسي والاقتصادي والديني .

الفصل الأول منه : اختص بدور قريش السياسي حيث أوضحنا مبدأ أمر قريش ودور الزعماء في حياة الملأ القرشي ومعظم ما يتصل بتلك السياسة من نظم ووظائف وعلاقات وحروب .

الفصل الثاني منه : دور قريش الاقتصادي وتحدثنا فيه عن تجارة قريش والعرب في شبه الجزيرة وطرق التجارة وأسواقهم الدائمة والموسمية وعن الايلاف (ايلاف قريش) وعن أنواع التجارة العريضة الناجحة وأولئك التجار المهرة .

الفصل الثالث منه : وهو دور قريش الديني والذي كان عماد حياتها ومنه استمدت قريش سلطتها الروحية على جميع عرب الجزيرة فتحدثنا عن أديانهم ومعتقداتهم في الجزيرة عامة وعن الكعبة المعظمة في مكة وعن الأصنام ثم جميع طقوسهم الدينية وشعائرهم وأهمها الحج ومايتصل به من نسيء وأشهر حرم ومظاهر التحمس والذي كان خاتمة مطاف الجهد والعناء .

وخاتمة أوجزنا فيها أهم ما قدمناه في البحث وأهم ما نبغت به قريش . فالجهد مضني . . والباحث مقل مهما نقب وادخر ومهما أثبت وأظهر . والعراقيل كبيرة . . وبحر العلم محيط سيما وأنني باحثة من وراء ستار فأسأل الله التوفيق . وأن أكون قد خطوت أول خطوة على الطريق . وأن تكون هذه النواة غرسة تثمر في مقبل الأيام ان شاء الله .

المحتويات

الباب الأول

المجتمع في مكة

- الفصل الأول : الحجاز ومدنه
- الفصل الثاني : عناصر السكان
- الفصل الثالث : جوانب من حياة مكة الاجتماعية

الفصل الأول
الحجــاز ومدنـــه

وهي منطقة الجبال جغرافيا، أي جبال غرب شبه جزيرة العرب الموازية للبحر الأحمر (بحر القلزم) وهي جبال السروات. وإقليميا يشمل الحجاز المنطقة الممتدة من خليج العقبة شمالا إلى وادي الليث عند عسير جنوبا. بامتداد يبلغ ٧٠٠ ميلا بمحاذاة سهل تهامة الساحلي. ويعرض حوالي ٢٥٠ ميلا. وتقدر مساحة الحجاز بحوالي ٧٥٠٠ ميلا مربعا. وبذلك استثنينا الأجزاء الجنوبية من السراة فهي ليس من منطقة الحجاز[1].

ويحكم موقعه الطبيعي فقد حجز بين المنطقتين النجدية والتهامية فهو حجاز حاجز بين الشرق والغرب. ويعتبر حاجزا بين الشمال والجنوب[2]. وبذلك نعتبر سهل تهامة الداخل فيه حجازا، أي من اقليم الحجاز بدليل أن المدينة والطائف حجازيتان، ومكة

---

١ ـ ENCY. OF ISLAM 1971 NEW ED.، الشريف، أحمد ابرهيم، مكة والمدينة، القاهرة ١٩٦٧م ص ١٣-١٤، دور الحجاز، ط الأولى، القاهرة، ١٩٦٨م ص ٥، ٦.
عبد الجبار، عبد الله، قصة الأدب في الحجاز ١٩٨٠م، ص ١١٨، الموسوي، محمد بن عبد الله الحسين، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي ١٣٨٥هـ، بيروت ص٢٠، وهبة، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م القاهرة ص١٤، الموسوعة العربية، باشراف محمد شفيق غربال ١٩٧٢م، ص٦٩٠، السيد رجب، عمر الفاروق، الحجاز، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص، ٥٢.

٢ ـ المسعودي ـ أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٩٦٥م، جـ٢/٣٥، ٤٣، ابن بكار، الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر، ص ٥٢، ٥٣. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية، الطبعة الثانية ١٩٦٦م ص ١٦٧، الجاسر، حمد، المناسك وأماكن طرق الحج، الرياض، ١٣٨٩هـ، ص ٣٥٥، العلي، صالح أحمد، تحديد الحجاز عند المتقدمين، ص١، ٩، مجلة العرب، الجزء الأول السنة الثالثة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، الوهيبي، عبد الله، الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ص ٥٣، مجلة كلية الآداب، العدد الأول ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

تهامية[٣]. وجدة الواقعة على ساحل البحر كذلك . وهـن جميعهـن مـن أمهـات مـدن الحجـاز .

وطبيعة إقليم الحجاز متباينة فهي تشمل منطقة سهلية ساحلية (سهل تهامة) ومنطقة جبلية هي جزء من جبال السروات ومنطقة نجدية (هضبة) هي هضبة الحسمى وأرضها كثيرة الحرار [٤]. وتجري الأودية فيها. ونذكر بعضها مثل وادي القرى، ووادي جزل من الشمال والحمض من الجنوب وطوله ٩٠٠كم، ووادي العقيق، ووادي الصفراء. ومن الحجاز يبدأ وادي الرمة متجها إلى نجد شرقا[٥].

وتسمى هضبـة الحسمى هضبة الحجاز وترتفع بنحو ٢٨٠٠ـ٣٥٠٠ قدما، وهي كثيرة المياه وأراضيها خصبة ومن جبالها جبل إرم الذي يرتبط بقوم إرم المذكورين في القرآن الكريم ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾[٦]وقرب وادي القرى تقع مدينة قرح (وهي مدينة العلا المعروفة حاليا وهي مدينة صغيرة تقع في واحـة امتدادها ثلاثة أميال وبها جدول صغير، (نهير)، وحولها قرى ونخيل، وكانت قرح من أسواق العرب الموسمية في الجاهلية. وعبرها كان طريق الشام ومصر قديما[٧]. وحولها في الوادي آثار كثيرة منها معبد، وعدد كبير من الخرائب التي اشتملت على أحجار مكتوبة بالخط المسند وآثـار مبـاني، وألـواح حجـرية استعملت لذبـح القـرابين، وكمناضد لنقود الصيارفة. مما يدل على حضارة زاهية قامت في المنطقة[٨].

---

٣ ـ الحمـوي، ياقـوت، معـجم البلدان ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م بيروت جـ٢/٢١٨، ٢٢٨، الأصفهاني، ، الحسن بن عبد الله، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م الرياض، ص ١٤.

٤ ـ الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب ١٩٧٤م، ص٣٦٨، كحالة، عمر رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الناشر الكتبي ، دمشق، ص ١١٢، ١١٣، وهبـة ، المرجـع السـابق ص ١٤.

٥ ـ الشريف، مكـة والمـدينـة ص١٤، ١٥، جواد علي، المفصـل في تاريخ العـرب، بيروت جـ١/١٦٨، أبو العلا، محمد طه، جغرافية شبه جزيرة العرب، الطبعة الأولى، القاهرة جـ١/٣٧، ٣٨.

٦ ـ سورة الفجر آية ٦ ـ ٧.

٧ ـ الأصفهاني، بلاد العرب ص٣٩٧، حاشية رقم ٥، ابن خميس، عبد الله محمد، المجاز بين اليمامـة والحجـاز، دار اليمامـة، الـرياض ص١١٥، وهبة، المرجـع السـابق ص ٢٠ ، الجاسر ، المناسك ص٤١٣، حاشية ٢، ص٦٥٠ حاشية٧.

٨ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ١/١٦٩.

ومن أشهر جبال السروات في شمال منطة الحجاز دباغ فيبلغ إرتفاع قمته حوالي ٢٢٠٠ مترا وجبل وتر وشيبان . وكذلك جبال المدينة المنورة ثم ينخفض ارتفاع الجبال عند مكة حتى يصل إلى حوالي ٢٠٠ مترا وعند الطائف يزداد الارتفاع حتى يصل إلى ٦٠٠ مترا . فتعتبر الطائف المنطقة المتوسطة الارتفاع في السروات[٩]، ومن أشهر جبالها جبل الهدى (الهده) والمتصل بجبل كرى عند مكة[١٠] ثم جبال الشفا بطبيعتها الخلابة ومناظرها الساحرة ومناخها المعتدل صيفا وشتاء .

وفي الحجاز العديد من القرى والمدن ذات العمق التاريخي ، ولكننا سنذكر المدن الرئيسة فقط والتي كانت سببا في شهرة الحجاز لأهميتها البارزة . وهي مكة المكرمة ـ والمدينة المنورة ـ وجدة[١١] .

وللحجاز أهمية تاريخية قديمة تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ القديم فمنذ فجر تاريخ البشرية كان للحجاز كغيره من مناطق الجزيرة أهمية خاصة ومركزا استراتيجيا ، بين مراكز أعرق الحضارات القديمة في العراق ، ومصر ، والشام ، واليمن . وقد عدّه الحكيم هرمس الاقليم الثاني من أقاليم العالم القديم وذكره بلطليموس في تقسميه[١٢] ، ويقسم الحجاز إلى اثنتي عشر دارا أو قسما[١٣] وقد كانت معظم بقاعه عامرة آهلة في الأزمان القديمة وبه آثار تاريخية كثيرة . وينقسم الحجاز إلى ثلاث مناطق هي : المنطقة الشمالية . والمنطقة الوسطى ، والمنطقة الجنوبية .

وتمتد المنطقة الشمالية من العقبة إلى المدينة وتشمل مدن الحجاز الشمالية وهي العقبة ، وضبا ، والوجه ، وأملج ، والحجر ، والعلا ، وتبوك ، والمويلح وخيبر . وتليها المنطقة الوسطى ، والتي تمتد إلى الطائف . وهذه المنطقة تشمل أهم مدن الحجاز ومنها المدينة وميناؤها الجار ثم ينبع ، ومكة وميناؤها الشعيبة ثم جدة ، وأخيرا المنطقة الجنوبية الممتدة من جنوب الطائف إلى الليث وتشمل جبال الحجاز الأكثر ارتفاعا[١٤] .

---

٩ ــ الشريف ، مكة والمدينة ص١٣ ، عبد الجبار ، المرجع السابق ص٢٤ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ١/١٥٦ .

١٠ ــ ابن خميس ، المرجع السابق ص٢٧٣ ، الأصفهاني ، بلاد العرب ص٣١ .

١١ ــ ابن خميس ، نفس المرجع ص٣٢٩ ، عبد الجبار ، المرجع السابق ص٤٣ ، رجب ، الحجاز ص٤٢ ، ل. أ. ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م ص ٢٢ .

١٢ ــ الهمداني ، المرجع السابق ص١٠ ـ ١١ .

١٣ ــ البكري ، أبو عبد الله ، معجم ما أستعجم ١٩٤٥ ، جـ/١٠ ، ١١ .

١٤ ــ ENCY. OF ISLAM 3/362-363 ، ابن خميس ، المرجع السابق ص٣٢٩ .

وقد سادت قبيلة قريش في مكة بل وفي الحجاز برمته، كما سنرى وهي أعظم قبائل العرب قاطبة يومئذ قبل الإسلام وبعده. وكان الحجاز ممرا تجاريا يخترقه طريق القوافل التجارية عبر مدنه وقراه وقد ذكر القرآن تجارة قريش مما يوضح مدى أهميتها. وكان ملتقى قوافل تجارة اليمن والشام، والتجارة الدولية بين الهند ومصر، ودول شرق البحر الأبيض المتوسط.

ثم استقر في الحجاز بعض أهل الأديان المختلفة. فقد استقر بعض اليهود في المدينة وخيبر. وبعض النصارى وبعض المتحنفين من أهله وغيرهم وكان سكان الحجاز وثنيين وصابئة[١٥].

وبذا أصبح الحجاز ملتقى الحضارات، مما أثر في المجتمع من حيث التقدم والتطور. وكان خاتمة المطاف انبثاق فجر الإسلام في مكة وفي ربوع الحجاز على يدي النبي الكريم محمد ﷺ. مما أعطاه المنزلة العظمى والشرف الأسمى.

وقد أشرنا إلى أهم مدنه آنفا، وسنتحدث الآن عن أهم مدينة وهي مكة.

مكــة:

تقع مكة في واد ضيق بين سلسلة من الجبال التي تحيط بها[١٦] احاطة السوار بالمعصم. وقد عرفها القرآن بذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾[١٧].

ويرتفع هذا الوادي (ويسمى وادي إبراهيم) عن سطح البحر حوالي ٩٠٩ قدما، أي ٢٧٧ مترا[١٨] على بعد ٧٥ كم من ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم) وتقع إلى الشرق من مينائها جدة، وإلى الجنوب من منافستها يثرب، (المدينة المنورة).[١٩]

ويبلغ طول الوادي من الشمال إلى الجنوب حوالي ميلين، وعرضه حوالي ميل. أما

---

١٥ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص١١٨ـ١١٩، الشريف، مكة والمدينة ص١٦ ـ ١٧.

١٦ ــ وهبة، المرجع السابق ص٣٣.

١٧ ــ سورة إبراهيم آية ٣٧.

١٨ ــ ENCY. BRITANICA,MAC, 15th ED. 1974 U.S.A. VOL. 11/754.

١٩ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص٤٣، الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار، تحقيق رشيدي ملحس، طبعة جديدة، دار الأندلس جـ٢/ ٢٨٢ حاشية ٢.

مساحة وادي مكة فتبلغ حوالي عشرة أميال مربعة، ووادي مكة المبارك يقع بين الجبال ذات الصخور البركانية، ويسمى بطن مكة[٢٠] ولأهمية الجبال المحيطة بمكة يجمل بنا التعريف بها باختصار. الأخشبان أو الأخاشب، وهما جبلا مكة الشهيران. وقد يسميان الجباجب وأو الجبجبان[٢١]وهما أبو قبيس، وقعيقعان. فجبل أبو قبيس هو الأخشب الشرقي يشرف على الصفا بين أجياد الصغير إلى السويداء، والخندمة ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٢٢٠ قدما أي ٣٧٢ مترا وكان يسمى الأمين (لحفظه الركن والحجر الأسود في زمن الطوفان). ويعرف حاليا لدى العامة باسم (جبل قبيس). وقد لحقه الأسم كما يقال نسبة إلى اقتباس آدم النار بحك أحجاره، ويقال أيضا نسبة إلى أول من نزله فأتخذ فيه قبة وكان يدعى أبو قبيس، وهو من مذحج. وهذا الأرجح حيث قد يعم اسم المقيم على المكان فيرتبطان ببعضهما. وذكرت قصة أخرى لانرجحها لأنها في نظرنا حادثة فردية لا تعطي ديمومة الاسم.

ويعتبر أبو قبيس الجبل الأعظم والمبارك لوجود قبر آدم فيه وهذا غير ثابت. ويسمى الجزء الذي يلي أجياد الصغير رأس الانسان، كما يطلق على الجزء المقابل للمسجد الحرام اسم فاضح وكان يتعبد فيه[٢٢].

أما قعيقعان: (بلفظ التصغير) وهو الأخشب الغربي من جبلي مكة، الأخشبين أو الجبجبين فيسمى الجزء الذي يواجه أبا قبيس الأحمر (نسبة إلى اللون) وسمي في الجاهلية الأعرف. ويبلغ ارتفاع قعيقعان حوالي ١٤٠١ قدما أي ٤٢٧ مترا. وتعزى تسميته إلى قعقعة السلاح في حرب جرهم وقطوراء حيث كانت جرهم تتخذ الجبل

---

٢٠ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٩٧، رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ، ١٩٢٥م القاهرة جـ١/١٧٨.

٢١ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٢/١٠١.

٢٢ ــ الحموي، المرجع السابق جـ١/٨٠،١١٧، جـ٣/١٣، جـ٤/٢٣٠، الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١٩٥٦م، جـ/١٤/، ٢٧٥، الهمداني، المرجع السابق ص٦٢، السالم، عبد العزيز، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ١٩٧١م ص٣٥٠، عوض الله، أحمد أبو الفضل، مكة في عصر ما قبلا الإسلام، الطبعية الأولى ١٩٧٨م ص٣٨، الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٥٠، جـ٢/٢٦٦ إبن بطوطة، محمد بن عبدالله الطنجي، رحلة إبن بطوطة، ١٩٦٦م ص٩٨، ٩٩، البلادي، عاتق بن غيث، معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، مكة المكرمة ص١١،١٢،٢٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٤٠٤.

مستودعاً لأسلحتها من القسي والجعاب والورق[٢٣].

وأهم جبال بطحاء مكة جبلا الصفا والمروة وهما نتتان في البطحاء بينها وبين المسجد الحرام (الكعبة). والصفا أنف بارز من جبل أبي قبيس وجزء منه. والمروة أنف جبل قعيقعـان وحجـارتهـا ملسـاء وبينهـا المشعـر الحـرام (المسعى) ويسميان الميلان الأخضران[٢٤] قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾.[٢٥]

جبل أبي دلامة: (غير اسم الشاعر) وهو مشرف على الحجون ويعرف لدى العامة باسـم (ريع الحجون) وتقلب العامـة النـون لامـا فتقول (الحجول) وهو جزء من ثنية كـداء.[٢٦]

جبـل أجياد: ويبلغ ارتفاعه ١٣٣٢ قدما حوالي ٤٠٦ مترا، وهو جبل الخندمة، والذي يشرف على أجياد الصغير، والشعب أسفله حي كبير من أحياء مكة. وشعب إبن عامر في ظهر أبي قبيس[٢٧]. وهنالك جبل الفلق يصعد إليه من القرارة (حي في مكة)[٢٨]، وجبل الكعبة. وهذان الجبلان من منازل أهل مكة الآهلة بالسكان حاليا كغيرها من سائر جبال مكة الداخلية أي التي تحد الوادي من جانبيه وتشرف عليه. أما الجبال التي تحيط بمكة من خارجها فأهمها:

جبـل ثبير : جبل شامخ بمنى قرب مكة، وهو مبارك لكونه مهبطا لكبش فداء اسماعيل عليه السلام. وقال اعراب الجاهلية (أشرق ثبير كيما نغير) وهذا يحدد موقعه في شرق منى. وهـو أيضـا أحد الأثبرة الأربع التي في الحجاز. وهذا هو ثبير مكة، ويسمى ثبير حراء. والأخرى هي ثبير غيناء، وثبير الأعرج، وثبير الأحدب[٢٩]. وهو في

٢٣ ــ الحموي، المرجع السابق جـ١ / ٨٠، جـ٤ / ٣٧٩، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢ / ٢٦٧، البلادي، المرجع السابق ص٢٢٣، ENCY. BRIT, MAC, - VOL. 11/754
HITTI - PHILIP KHORI HITTI, THE ORIGIN OF ISLAMIC STATE 1966 - BEIRUT - P. 81.

٢٤ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١ / ٢٩٧، ٣١٥، ٣٤٤، ابن بطوطة، المرجيع السابق ص ٩٧.

٢٥ ــ سورة البقرة آية ١٥٨.

٢٦ ــ الحموي، المرج السابق جـ٢ / ٤٥٩، السالم، المرجع السابق ص٣٥٠، عوض الله، المرجع السابق ص٣٨، البلادي، نفس المرجع ص ٧٧، ٢٢٧.

٢٧ ــ ENCY. BRIT. MAC. VOL. 11/754 الأزرقي، المرجع السابق جـ٢ / ٢٦٩، الفاسي، المرجع السابق جـ١ / ٢٧٩، البلادي، المرجع السابق ص٢٢٣.

٢٨ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢ / ٢٦٨ حاشية ٥، جـ٢ / ٢٨٥.

٢٩ ــ البكـري، المرجع السابق جـ١ / ٣٣٥، الحموي، المرجع السابق جـ٢ / ٧٢، ٢٢٣، ابـن حوقل، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض ١٩٧٩م ص٣٧، البلادي، المرجع السابق ص ٥٥.

ثالـوث مكـة الجبـلي الـذي يتكون من حـراء ، وثبير ، وثور ، والذي يماثل ثالـوث المدينـة الجبلـي[٣٠].

جبل ثور : من جبال مكة بالمفجر في الطريق إلى اليمن، ويقال له ثور أطحل. ويه الغار الذي أشار اليه القرآن الكريم ﴿ثاني أثنين إذ هما في الغار﴾[٣١] والمقصود النبي ﷺ وصديقه أبوبكر، يوم هجرتهما إلى المدينة المنورة إذ اختبئا من قريش ويبلغ ارتفاع جبل ثور ٢٤٩٠ قدما حوالي ٧٥٩ مترا.[٣٢]

جبل حراء : ويقع في شمال شرق مكة[٣٣]وهو أول حد للأبطح (الوادي) على بعد ثلاثة أميال من مكة، ويبلغ ارتفاعه حوالي ٢٠٨٠ قدما حوالي ٦٣٤ مترا.

وفي أعـلاه الغار المشهور غار حراء. الذي أمه المتحنثون النساك، الزاهدون في عبادة الأوثان للتأمل والتعبد[٣٤]. وقد أمه الرسول الكريم ﷺ. فقد جاء في الحديث عن عائشة (حتى فجأه الحق وهو في غار حراء)[٣٥] وقد أمه أبو طالب للتوحد والتفكير. وهـو أحـد الخمسة أجبل التي بني مـن حجارتها البيت الحـرام . وقد ذكـره شاعـر جاهلـي فقـال :

فاني والــذي حجـت قـريش محارمــه ومــا جمعــت حــراء

واعتاد كبار قريش اللجوء إلى حراء لدعوة آلهتهم عند حلول الأحن والمصائب، ويسمى جبل النور بعد أن شع فيه نور الوحي وهدايتـه بالحـق المبين بالإسـلام دينـنا القــويـم[٣٦].

وقدقد: جبل قرب مكة فيه معدن البرام[٣٧]. وجبال مكة وما حولها عديدة ولكن

---

٣٠ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٨٢.

٣١ ــ سورة التوبة آية ٤٠.

٣٢ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٣٤٨، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٨٦، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٨١، البلادي، المرجع السابق ص٢٦، ٥٧.

٣٣ ــ البلادي، نفس المرجع ص٨٢.

٣٤ ــ ENCY. BRIT. MAC, VOL. 754 ، ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير ١٩٦٤م ص٩٠، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٢٣٣، الهمداني، المرجع السابق ص٢٤٤، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٨٠، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣٦، البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، الطبعة الثانية، ١٣٢٩هـ ص٥٥.

٣٥ ــ البخاري، صحيح البخاري، مكتبة ومطبعة دار التعاون، مكة المكرمة جـ٩/٣٧.

٣٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٤٠٤

٣٧ ــ الحموي، المرجع نفسه جـ٤/٣١١، جواد علي، المرجع نفسه جـ٧/٥٢٤.

هنالك بعض الجبال التي ترتبط بالمشاعر الدينية المقدسة مثل جبل الرحمة في عرفات.

وكبكب : هو الجبل الذي خلف عرفة وهنالك كبكب نجد فهذان كبكبان أحدهما من ناحية الصفراء، والآخر يطلع على العرج ويشرف على المغمس[٣٨]. وهنالك جبل الكدى، والكدي بين مكة والطائف. وجبل الكرى سافلة جبل الهدى الجميل[٣٩].

ومن خلال هذا السور الجبلي الذي أحاط بمكة فقد تحددت رقعتها، ومداخلها السهلية وصار لها أربعة منافذ: أولا ممر في الشمال الشرقي إلى منى، وعرفات، ثم إلى الطائف. الثاني: في الشمال الغربي إلى المدينة المنورة. والثالث: من الغرب إلى جدة. أما الرابع والأخير ففي الجنوب إلى اليمن[٤٠].

نشـــأة مكـــة:

عاشت مكـة فترة طويلة قبـل أن يدون لها تأريخ، ولكن الجهل بالشيء لا يعني انعدامه. فإن جهلنا بذلك لقلة المصادر بل وانعدامها لا يعني إلغاء ماضي مكة، بل هي مدينة قديمة قدم التأريخ، وهي بيت الله الحرام منذ مبدأ الخليقة، ومن أشهر مدن العالم. وهذه المدينة الحصينة بجبالها ملجأ آمن[٤١]. ظهرت تاريخيا بسكنى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فيها بصريح قول القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[٤٢].

وهكذا تأسست مكة حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد. بعد أن رزق إبراهيم بابنه إسماعيل وأسكنه مع أمه هاجر في مكة. فعاش إسماعيل بين ١٨٥٤ - ١٧١٧ ق.م. وتفجّر الماء المبارك تلبية لحاجة إسماعيل للماء. ثم بنى إبراهيم الكعبة (بيت الله) بمساعدة ابنه إسماعيل بعد أن يفع الابن وبلغ حوالي الثلاثين من عمره[٤٣]. كما قال

٣٨ ــ الحموي، المرجع نفسه جـ٤/٤٣٤، جـ٥/٢٦٤٥، البلادي، المرجع السابق ص٢٢٧.

٣٩ ــ البلادي، المرجع نفسه ص٢٢٧، ٢٢٨.

٤٠ ــ ENCY. BRIT. MAC. VOL. 11/754.

٤١ ــ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن الرابع عشر - العشرين، الطبعة الرابعة ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م مطبعة دائرة معارف القرن العشرين جـ٩/٣٢٦.

٤٢ ــ سورة ابراهيم آية ٣٧.

٤٣ ــ مهران، محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم ١٩٧٧م ص٣٩٧ - ٣٩٨، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت حـ١/١٢٨، ابن كثير، =

تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾(٤٤) وعليه يكون بناء الكعبة حوالي سنة ١٨٢٥ق.م . أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهذا مبدأ نشوء مكة كبلدة مقدسة(٤٥) .

أما مبدأ أمر التدوين لتاريخ مكة فان الكتب الإسلامية وروايات الاخباريين العرب تجمع على أنه بدأ بأحداث القرن الخامس الميلادي وهذه البداية توافق مبدأ استتباب أمر قريش في مكة وقد روى هذا التاريخ أساطير وقصصا تؤكد كينونة مكة كواد معمور منذ القدم . ولكنا قد جهلنا تفاصيل تلك الحقب التاريخية السحيقة حيث لا يوجد بين أيدينا نص جاهلي مدوّن يتحدث بالتفصيل عن مكة أو غيرها . وأقدم من تحدث عن مكة من الكتاب الكلاسيكيين الجغرافي بطليموس POTLEMY الذي عاش في القرن الثاني للميلاد فقد ذكر (مكربة) MACROBA وهو اسم آرامي يعني مكة الكبرى، أو هو تحريف يوناني للكلمة العربية مقرب أو مقربة، وهي نعت وصفي للبيت صار علما عليه . أما اسم مكة أو (مكا) فهو بابلي معناه البيت(٤٦) .

أما القرآن الكريم، فيذكر من أسمائها مكة، وبكة قال تعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾(٤٧) وقال تعالى : ﴿أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام

= عماد الدين أبو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٩٣٢م جـ/ /١٦٣، ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى ١٩٥٧م بيروت جـ١/ ٤٦، ٥٢،

J. SPENCER TRIMIGHAM, CHRISTIANITY AMONG THE ARABS 1979, P. 285

أبو الفدا، الملك المؤيد اسماعيل، تاريخ أبي الفدا جـ١/ ١٥-١٦ .

٤٤ ــ سورة البقرة آية ١٢٧ .

٤٥ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص٣٩٧ .

٤٦ ــ سيديو، المرجع السابق ص٢٢ حاشية ١ ، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٩ - ١٠ ، عبد الحميد، سعد زغلول، تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩٧٦م ، ص ٢٨٠ .

SHORTER ENCY. OF ISLAM, $&]) NETHERLANDS - P. 963, MAXIME RODINSON MOHMMAD, 1971 PENGUIN PRESS G.B. P.39.

٤٧ ــ سورة الفتح آية ٢٤ ، الطبري، جامع البيان، الطبعة الثانية ١٩٥٤م جـ٢٦/ ٩٣، الرازي، الامام الفخر، التفسير الكبير، الطبعة الثانية جـ ٢٨/ ٩٨، التجيبي، أبو يحي محمد بن صمادح، مختصر تفسير الطبري ١٩٧١م جـ٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩ ، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تفسير الجلالين، دار الفكر ص٦٨٠ .

إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾[٤٨]، وهي البلد قال تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾[٤٩]، وهي البلد الأمين قال تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين﴾[٥٠] وهي أم القرى قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[٥١]، ﴿وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[٥٢]، وهي معاد قال تعالى: ﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[٥٣]. وبالتأويل هي البلدة قال تعالى: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾[٥٤].

ولا فرق بين مكة وبكة حيث أن العرب تقلب الميم باء في بعض لهجاتها. هما علمان أحدهما لبطن الوادي (الأبطح - ذو طوى)، والآخر لما حوله.[٥٥] وبتحديد أعلام (حدود) الحرم يصبح في العرف ما بين الأعلام كله حرما أي أراضي مقدسة محرمة على غير أهلها ومسلميها. وهذه الحدود من عهد إبراهيم الخليل وقد أقرها النبي ﷺ.[٥٦]

وقد كثرت أسماء مكة وتعددت صفاتها، واشتقاقات اسمها تحفل به معاجم اللغة ولا مجال للشرح المفصل هنا. ونكتفي بذكر الأسماء الأخرى ومنها: البيت العتيق،

---

٤٨ ــ سورة آل عمراين ٩٦ - ٩٨، الطبري، جامع البيان جـ٤/٧، الرازي، المرجع السابق جـ٨/١٤١، التجيبي، المرجع السابق جـ١/٨٣، السيوطي المرجع السابق ص٨٣.

٤٩ ــ سورة البلد آية ١-٢، الطبري، جامع البيان جـ٣٠/١٩٣، الرازي، نفس المرجع جـ٣١/١٧٩، التجيبي، نفس المرجع جـ٢/٣٨٢، السيوطي، نفس المرجع ص٧٩٩.

٥٠ ــ سورة التين آية ١ - ٣، الطبري، جامع البيان جـ٣٠/٢٤٢، الرازي، نفس المرجع جـ٣٢/٩ - ١٠، التجيبي، نفس المرجع جـ٢/٤٩٤، السيوطي، نفس المرجع ص٨٠٣.

٥١ ــ سورة الشورى آية ٧، الطبري، جامع البيان جـ ٢٥/٨، الرازي، نفس المرجع جـ٢٧/١٤٦ - ١٤٧، التجيبي، نفس المرجع جـ ٧/٢٧١، الرازي، نفس المرجع جـ٢/٢١٥، السيوطي نفس المرجع ص ٦٣٩.

٥٢ ــ سورة الأنعام آية ٩٢، الطبري، جامع البيان جـ٧/٢٧١، الرازي، نفس المرجع جـ١٣/٨١، التجيبي، نفس المرجع جـ١/١٧٦، السيوطي، نفس المرجع ص ١٨٣.

٥٣ ــ سورة القصص آية ٨٥، الطبري، جامع البيان جـ٢٠/١٢٥، الرازي، المرجع السابق جـ٢٥/٢١، التجيبي، المرجع السابق جـ٢/٧٥، السيوطي، المرجع السابق ص ٥٢٢.

٥٤ ــ سورة سبأ آية ١٥، الطبري، جامع البيان جـ٢٢/٧٦، ٧٧، الرازي، نفس المرجع جـ ٢٥/٢٥٠، السيوطي، نفس المرجع ص٥٦٧.

٥٥ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٢٦٩، الحموي، المرجع السابق جـ١/٤٧٥، الماوردي، الأحكام السلطانية، الطبعة الثانية ١٩٦٦م ص١٥٧، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١.

٥٦ ــ ابن خميس، المرجع السابق ص ٣.٢٢.

البيت الحرام، وبيت الله، والمسجد الحرام[٥٧]، وأم زحم[٥٨]، وأم رحم وصلاح لأمنها، والباسة والناسة،[٥٩] والنساسة، والحاطمة، وكوثى[٦٠]، وسيل، [٦١] والمعطشة، والعروض، وفاران[٦٢] والبلد الحرام، والرتاج، والناشة، وأم صبح، قرية النمل، قرية الحمس، ونقرة الغراب، ومنونة، وسبوحة، والسلام، والعذراء، ونادرة، وهي الوادي، والرأس وأم روح، والمقدسة، والعرش، وبساق، وبرة، وأم الرحمن، والمكتان، والحطيم، وأم القرى، البلد الأمين[٦٣]. والمكتان اسم أطلقة ورقة بن نوفل في شعره وهي تثنية دارجة في الشعر ولكن ورقة بناها على أساس قريش البطاح، وقريش الظواهر فقال: ببطن المكتين على رجائي . . . . حديثك أن أرى منه خروجا[٦٤].

وقد يكون بعض من أسماء مكة هي أسماء الكعبة أيضا. وعندما بدأ التدوين في العهد الاسلامي، عمدوا في مقدمة سرد الأحداث إلى ذكر الأحداث الجاهلية القديمة وقد جاءت تلك المقدمات كأخبار ونبذ مفككة متفرقة وشجّع على ذلك ما بلغته مكة من شهرة.

وفي ابان هجرة إبرهيم الخليل بزوجه هاجر وابنهما إسماعيل لم تكن مكة بقعة مهجورة خاوية بل كانت محطة للقوافل التجارية التي تضرب خيامها وتقيم فيها سوقا تجارية كبرى فهي منقطة التقاء الشماليين بالجنوبيين[٦٥]. وبعد وصول إسماعيل وأمه تفجّر الماء المبارك ماء زمزم، مما شجع على الاستقرار والاستيطان. وكانت قبيلة جرهم (جرهم الثانية) قد استوطنت مكة.

---

٥٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١ /٨٧ ــ ٨٩.

٥٨ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١ /٤٧.

٥٩ ــ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد أبي الحسن الخثعمي، الروض الأنف، طبعة جديدة ١٩٧١م مصر جـ١ /١٣٩، البكري، معجم ما استعجم جـ١ /٢٧٠.

٦٠ ــ أخبار مكة المشرفة الجزء الثالث، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، الشيخ قطب الدين النهروالي ــ ١٢٧٤هـ ص١٨، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، طبعة دار الكتب جـ١ /٣١٣، ٣١٤، البكري، نفس المرجع جـ١ /٢٧٠.

٦١ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٣ /٢٩٩.

٦٢ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٣ /١٧.

٦٣ ــ لجميع هذه الأسماء أنظر الفاسي، المرجع السابق جـ١ /٤٧، الأزرقي، المرجع السابق جـ١ /٢٨٣ حاشية ١.

٦٤ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١ /٢١٧.

٦٥ ــ الشريف، مكة والمدينة، ص٩٦.

ويستمر الاخباريون في رواياتهم فيذكرون أن اسماعيل نشأ بينهم، وتكلم بلغتهم وتزوج منهم زواجه الأول ثم الثاني. ولكن جرهم غلبت بني اسماعيل وتفردت في مكة وتولت سدانة البيت (الكعبة) وطال العهد بها فبغت وتجبرت، حتى اشتق ذلك المعنى من اسمها فالمجر هم لغة يعني الباغي[٦٦].

وتوالت هجرات القبائل اليمنية الجنوبية إلى الشمال لتستقر في مختلف البقاع. ومنها قبيلة من الأزد اليمنيين استقرت في بطن مر (وادي فاطمة حوالي سنة ١٨٠م) ولما طغت جرهم وبغت، أو بالأحرى انحلت أيضا وضعف أمرها قامت قبيلة خزاعة وهي بطن من الأزد فحاربت جرهم، وأجلتهم عن مكة، واحتلت مكانتهم في ولاية البيت، وسدانته وكان ذلك في أوائل القرن الثالث الميلادي[٦٧] بقيادة عمرو بن لحى الذي يعزى إليه ادخال الكثير من العادات وعبادة الأوثان الى مكة.

وقد خرجت خزاعة من اليمن تبعا لنبوءة الكاهن بانفجار السد الذي حدث فيما بعد ولأضطرابات أحوال بلادهم خاصة الأحوال السياسية. واستعانت خزاعة بقبيلة كنانة من مضر على جرهم. ونظير مساعدة كنانة هذه فقد منحها عمرو بن لحي الاجازة والافاضة والنسيء[٦٨] كما سنفصله فيما بعد.

وبقي بنو إسماعيل على الحياد فلم يعينوا فريقا على الآخر بل كانوا فئة مسالمة اجتنبت السياسة والتزمت الحياد. وسادت خزاعة على مكة وتبعا لقانون الغالب طردت جرهم ومزقتها فصار لخزاعة الكلمة العليا في سياسة مكة. واستمر عهدها إلى أيام عمرو بن الحارث أبي غبشان، والذي يبدو أنه كان رئيسا خليعا ماجنا، فاسطورة شراء قصي ولاية

---

٦٦ ــ أنظر الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الظاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل جـ٤/٩١.

٦٧ ــ حوالي سنة ٢٠٧م، أنظر سيديو، المرجع السابق ص ٤٤.

٦٨ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٩٨، ابن الأثير، أبو الحسن بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م جـ٢/٢٧، الفاسي، المصدر السابق جـ١/٣٥٩، المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٢٤، ٣٠، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٨٠، ٨٦، Grunebaum, G.E. VON, Classical Islam Tran. K. Watson, London 1970. ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، المرجع السابق جـ٢/٣٩، حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام، الطبعة السابعة ١٩٦٤م جـ١/٤٥، أبو الفداء، المرجع السابق جـ١/٧٧، ٧٩، ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، سيرة النبي، مراجعة محمد خليل هراس، الناشر مكتبة الجمهورية جـ١/١٢٤، ١٢٥، الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، بغداد، ص ٨ ــ ١٠.

البيت أو سدانة البيت منه بزّق خمر لتؤكد لنا ذلك عن أبي غبشان مما هيأ لقصي زعيم قريش إنتزاع ولاية البيت من خزاعة حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد ٤٤٠م(٦٩) فغدا زمام أمر مكة بيد قريش. وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في مكانه. وبذا نال قصي النفوذ السياسي إضافة إلى ما كان لكنانة من الأمور الدينية المشار إليها آنفا.

هذه لمحة عن التسلسل التاريخي لنشوء مكة المكرمة، أو البلدة الطيبة حضاريا وتاريخيا وقد كان نشوءا مصحوبا بقداسة دينية بتأسيس بيت الله، الكعبة المعظمة. ومنذ ذلك الحين غدت الكعبة محط أنظار العرب ومهوى أفئدتهم استجابة لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾(٧٠).

فالقداسة لزمت مكة المكرمة وطوقتها بالهالة العظمى دون سائر مدن الجزيرة العربية، للحكمة الإلاهية التي تجلتّ في أن غدت مكة مهبط الإسلام أيضا كخاتمة للمطاف. وقد تحرمت منذ دعوة إبراهيم وقد كانت حلالا(٧١). فأصبحت لها قدم ثابتة دينيا ومكن لها أمرها وجعلها مركزا إلتقاء قوافل تجارية وسوقا دائمة، ومركزا حضاريا متطورا بلغ أوج رقيه وتحضره في عهد قبيلة قريش المضرية التي سادت في مكة وما حولها، وذاع صيتها بين قبائل العرب عامة حتى أعطوها الأعتبار الأول. فكان لمكة الفضل كله وقد ذكرها الرسول ﷺ بقوله (والله أنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله لو لا أني أخرجت منك ما خرجت)(٧٢).

المدينة المنورة (يثـــرب)

تقع المدينة المنورة على بعد ٣٠٠ ميل إلى الشمال من مكة المكرمة في منطقة الحجاز،

---

٦٩ ــ سيديو، المرجع السابق ص ٤٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٣٧، ابن خلدون، جـ٢/٣٣٢. مهران، المرجع السابق ص ٣٩٤، رفعت، المرجع السابق جـ١/١٥٢، البتنوني، المرجع السابق ص ٦٩، ٧٣.

٧٠ ــ سورة البقرة آية ١٢٥ ـ ١٢٦.

٧١ ــ الماوردي، المرجع السابق ص ١٦٥.

٧٢ ــ الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن هرام، سنن الدارمي، الناشر دار المحاسن للطباعة، سنة ١٩٦٦م جـ٢/٢٣٩.

وترتفع عن سطح البحر بحوالي ٦٠٠ مترا.[٧٣] وهي واحة خصيبة بين لابتين بركانيتين (حرتين) هما حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب[٧٤].

وفي المدينة جبال مشهورة منها جبل أحد، وجبل سلع في شمالها، أما جبل عير فيقع في الجنوب الغربي منها[٧٥].

وتجري أودية المدينة من الجنوب باتجاه الشمال، تحمل مياه الأمطار التي تسقي مزارع المدينة الخصبة والتي تنتج التمور والفواكه والخضار. وأهم أوديتها وادي العقيق، وقناة، ورانونا، ثم وادي مذينيب ووادي مهزور ويحصران بينهما عوالي المدينة، ثم سبخة حذيفة، وإعتمادها الرئيسي على مياه الآبار[٧٦].

ونشأت يثرب كما يذكر المؤرخون على أيدي العماليق، فهم أول من سكنها وشادها[٧٧] وفي القرن الثاني ق.م. قدمت إلى الحجاز جماعات يهودية بادت واندثرت[٧٨] ثم بعد حرب اليهود مع الرومان ودمار هيكل بيت المقدس على يد تيتوس سنة ٧٠م تشتت اليهود في أصقاع البلاد، قصدت جماعة منهم الحجاز مرة أخرى.[٧٩] واستقر بعضهم في خيبر، وفدك وتيماء[٨٠]، واتجه الآخرون إلى يثرب ومنهم بنو النضير،

٧٣ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٤٨، ومكة والمدينة ص٢٨٧، عبد الجبار، المرجع السابق ص٥١، حتى، تاريخ العرب ص١٢٥.

٧٤ ــ الشريف، مكة والمدينة ص٢٨٧، الأنصاري، عبد القدوس، آثار المدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٣٧٨هـ ص١٥٠، ١٥٣، الفيروز أبادي، المغانم المطابة في معالم الصحابة، تحقيق أحمد الجاسر، ط ١، ١٣٨٩.

٧٥ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/١١٧، الحموي، المرجع السابق جـ١/١٠٨، الأنصاري، المرجع نفسه ص١٤١، ١٤٦، ١٥٠، الشريف، مكة والمدينة ص٢٨٩، الفيروز أبادي، معالم طابة ص١٠، ١٨٣، ٢٨٨.

٧٦ ــ الهمداني، المرجع السابق ص ٢٦٤، الشريف، مكة والمدينة ص٢٨٧، ٢٨٨. الأنصاري، المرجع السابق ص١٥٨، ١٦٨، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦، ابن حوقل، المرجع السابق ص٣٨، رفعت، المرجع السابق جـ١/٤٣٤.

٧٧ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٥/٨٤، سيديو، المرجع السابق ص٤٤، السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفا، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٩٥٤م جـ١/١٥٧.

٧٨ ــ ولفنسون، اسرائيل (أبو ذؤيب). تاريخ اليهود في بلاد العرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٧م، مطبعة الاعتماد، مصر ص٤.

٧٩ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٤٩، ٤٥٢، حتى، تاريخ العرب ص ١٢٦.

٨٠ ــ ولفنسون، نفس المرجع، ص ١٤، ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، الطبعة الثامنة، ١٩٧٧م القاهرة ص٩٨.

وبنـو قريظة، وبنـو قينقاع، وبنو هدل (بهدل)[٨١]. استقروا في أخصب بقاع المدينة وعاشوا حياتهم متكتلين في أحياء خاصة بهم[٨٢]وابتنوا الحصون والآطام[٨٣] على التلال المرتفعة. وهو طراز معماري ابتدعه العماليق فهم أول من ابتنى الآطام[٨٤]. وفي اتخاذ اليهود هذه الحصون دليل على غربتهم وأنهم كانوا غير مطمئنين بين ظهراني المجتمع العربي الجديد الذي حلوا فيه. وقد عدوا من آطام اليهود ٥٩ أطما. وامتلك العرب الأطـام أيضـا.[٨٥] حتى قيل أن في المدينة وحدها ١٩٩ أطما[٨٦]. والآطام المشهورة حصن كعب بن الأشرف[٨٧]. وأطم أحيحة بن الجلاح وهو الضحيان[٨٨]. وأطم واقم لحضير بن سماك، الرعل، والمسير[٨٩]، والشنيف أو الأشنف[٩٠] والمعرض[٩١].

ونتيجـة لاضطراب أحوال اليمن السياسية، وتهدم سد مأرب بدأت هجرة قبائل الأزد اليمنية إلى المنـاطق الشمالية من الجزيرة. وفي حوالي سنة ٣٠٠م استقرت أول هجرة من قبيلتي الأوس والخزرج الأزديتين في يثرب[٩٢] ثم تتابعت عشائرهما في النزوح إلى أن اكتمل عقد القبيلتين. وفي أواخر القرن الرابع للميلاد تكون مجتمع عربي كبير في يثـرب له شخصيتـه العربية المتميزة مثلته قبيلتا الأوس والخزرج[٩٣]ونزلت الأوس

---

٨١ ــ ولفنسون، نفس المرجع ص ١٣، ١٤، الشريف، مكة والمدينة ص ٣٠٧.

٨٢ ــ الشريف، مكة والمدينة ص٢٩٥.

٨٣ ــ واحـدهـا أطم ويعني القصر والصيصة والحصن بمواصفات معينة، أنظر الحموي، المرجع السـابق جـ١/٥١، الأنصـاري، آثـار المـدينة ص ٤٢، ٥٢، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٣٢، الشريف، مكة والمدينة ص ٢٩٣، مدني، السيد عبيد، أطوم المدينة المنـورة ص ٢١٣، ومـا بعدها، مجلة الآداب، مج ٣، س ٣، ١٣٩٣هـ، ١٩٨٣م، ولفنسون، المرجع السابق ص ١١٦، ١١٧، ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت جـ١/٧١، ٧٢.

٨٤ ــ الحموي، نفس المرجع جـ٥/٨٤، مدني، أطوم المدينة ص٢٢٠، ٢٢١.

٨٥ ــ الشريف، دور الحجاز ص٤٩، ومكة والمدينة ص ٢٩٥، ٣١٩.

٨٦ ــ مدني،أطوم المدينة ص٢٢٣.

٨٧ ــ الأنصاري، آثار المدينة ص٤٣.

٨٨ ــ الأنصاري، آثار المدينة ص٥٢، مدني،أطوم المدينة ص ٢١٧، ٢١٨.

٨٩ ــ السمهودي، المرجع السابق جـ١/١٩٠، ١٩١.

٩٠ ــ السمهودي، نفس المرجع جـ١/١٩٣، مدني، أطوم المدينة ص٢٢٤.

٩١ ــ مدني، أطوم المدينة ص٢٢٤.

٩٢ ــ السمهــودى، نفس المرجع.جـ١/١٦٦، سيديو، المرجع السابق ص٤٤، الشريف، دور الحجاز ص ٥٣.

٩٣ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٥٧، الشريف، دور الحجاز ص ٥٣، ٥٤.

بجوار أهم قبائل اليهود في عوالي يثرب، ثم حلت الخزرج في الشمال في سافلة يثرب والتي هي من المناطق الأقل خصبا[٩٤].

وعاش العرب مع اليهود في يثرب. وكانت الغلبة والأولوية لليهود إلى أن غلبت الأوس والخزرج بعد أيام وحروب بسبب التنافس الذي قام بينهم على الزعامة، وعلى الموارد الاقتصادية فمنذ نهاية القرن الخامس للميلاد حوالي ٤٩٠م دار التطاحن بينهما واستمر في الفترة ٤٩٧ ـ ٦١٧م[٩٥]. وتحاربوا يوم سمير،[٩٦] وفي حرب الفجار الأول والثاني، وفي يومي معبس، ومضرس[٩٧]. وأرادت الأوس أن تحالف قبيلة قريش ضد الخزرج فخرجت إلى مكة لتحقيق ذلك مظهرة الرغبة في أخذ العمرة، ولكن لم يتم التحالف لأن أبا جهل كره ذلك فنقض الحلف بحيلة. [٩٨]وآخر أيامهم يوم بعاث[٩٩]. وكان المال والثروة للأوس، والصدارة والجاه السياسي للخزرج لمكانة مالك بن العجلان، وبعد أن عاد السلم والهدوء وسادهم الوئام قبل الهجرة بخمس سنوات ثم اتصلا بالنبي ﷺ[١٠٠].

مارس اليهود تجارة القوافل، ونجحوا فيها، وأشاعوا الربا الذي هو من عاداتهم المتأصلة فيهم[١٠١]. واحترفوا الزراعة وبعض الحرف البسيطة، وصناعة الأسلحة، والحلي وكذلك مارس العرب الزراعة والتجارة[١٠٢]. وحالف الأوس والخزرج اليهود، فكان لكل قبيلة منهما أحلاف يهودية خاصة بها، دون الأخرى في السلم والحرب[١٠٣].

وسكن عامة الناس في بيوت مبنية بالآجر والطين تتكون من طابق أو طابقين. أما

---

٩٤ ــ السمهودي، نفس المرجع جـ١/١٧٧، ص١٩٠.

٩٥ ــ طه حسين، اسلاميات، الطبعة الأولى ١٩٦٧م مصر ص١٨، مهران، دراسات في تاريخ العرب ص٤٧٧، ٤٧٩.

٩٦ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٤٠٢، مهران، دراسات في تاريخ العرب ص٤٨٠.

٩٧ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٤١٤، ١٤٥، السمهودي، نفس المرجع جـ١/٢١٥.

٩٨ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٤١٥، السمهودي، المرجع السابق جـ١/٢١٦.

٩٩ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٤١٧، مهران، دراسات في تاريخ العرب ص٤٨٠.

١٠٠ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٧٩، الشريف، مكة والمدينة ص ٣٣٩.

١٠١ ــ سيديو، المرجع السابق ص ٤٥، ولنفسون، المرجع السابق ص ١٨، الشريف، مكة والمدينة ص ٣٦٨.

١٠٢ ــ ولفنسون،المرجع السابق،ص١٩، الشريف، مكة والمدينة ص ٣٤٩، ٣٧٧.

١٠٣ ــ ولفنسون، نفس المرجع ص ٥٥، الشريف، مكة والمدينة ص ٣٢٠، ٣٢٥.

علية القوم والموسرين فقد سكنوا القصور والحصون (الآطام) التي انتشرت في يثرب وفي الشمال في مقار اليهود مثل خيبر وتيماء على طريق التجارة، وكذلك الطائف.[١٠٤]

ويثرب ذكرها الملك البابلي نبونيد حوالي القرن السادس ق. م. باسم أتريبو وذكرها بطليموس باسم يثربا، ولاثربا LATHRIPPA وهي مدينتنا ولها ٩٤ اسما. وفي الإسلام سميت المدينة المنورة وهي طيبة وطابة[١٠٥].

وكان ليثرب أسواق تجارية منها سوق بني قينقاع، وسوق زبالة، وسوق الصفاصف باعوا فيها الخيل والابل والغنم والسمن. وكانوا يستوردون من الطائف الزبيب، ومن اليمن المنسوجات القطنية والحريرية ومن الشام الحنطة[١٠٦].

وكان ساحل يثرب (ميناءها) الجار على بحر القلزم ويبعد عنها حوالي ١٨٠كم، وتجارتها عبره مع مصر وكان هذا قبل اتخاذ ينبع ميناء لها[١٠٧]. فمنذ بروز يثرب وهي تواكب مكة مسيرة وتختلف عنها وتنافسها، إلى أن ولد الهدى في مكة وظهر الاسلام فاحتضنته المدينة، وأصبحت العاصمة الأولى للدولة الاسلامية.

الطائف :

هي ثاني القريتين اللتين عناهما عز وجل في قوله: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[١٠٨]. احدى القريتين وجارة مكة. وأولاهما مكة المكرمة والطائف مصيفها ويقع على بعد ٧٥ ميلا إلى الجنوب الشرقي من مكة على ربى عالية

---

١٠٤ ــ عبد الحميد، المرجع السابق ص ٣٩٩.

١٠٥ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٣٠، السمهودي، المرجع السابق جـ١/٨، وما بعدها، الأنصاري، آثار المدينة المنورة ص ١٢٣، نافع، المرجع السابق ص٢١، الحموي، المرجع السابق جـ٥/٨٣، السالم، المرجع السابق ص ٣٨٥، الشريف، مكة والمدينة ص ٢٩١، البتنوني، المرجع السابق ص ٢٥٢، رفعت، المرجع السابق جـ١/٤٠٧.

١٠٦ ــ السمهودي، المرجع السابق جـ٢/٧٤٨، الشريف، مكة والمدينة ص٣٥١، ٣٦٥، السالم، المرجع السابق ص٤٠٤.

١٠٧ ــ السالم، نفس المرجع والصفحة، الموسوي، المرجع السابق ص٠ الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ص١٦٨، ٢١١، الحموى، المرجع السابق جـ٢/٩٢، ابن حوقل، المرجع السابق ص ٣٩، ٤٠.

١٠٨ ــ سورة الزخرف آية ٣١، الطبري، جامع البيان جـ٢٥/٦٤، ٦٥، التجيبي، المرجع السابق جـ٢/٢٦٦، الرازي، المرجع السابق جـ٢٧/٢٠٩، السيوطي، المرجع السابق ص ٦٤٩.

من سلسلة السراة يبلغ ارتفاعها أكثر من ٥١٠٠ قدما[١٠٩]. أشهر جبالها جبال الهدى وبالقرب منها جبال الشفا[١١٠]. وتحف بالطائف البساتين الغناء لخصوبة أرضها وكثرة أو ديتها مثل وادي وج، والوهط ووادي لية ثم وادي المحرم (قرن المنازل)[١١١]. وبها الكثير من العيون والآبار الغنية بالمياه العذبة وتنتج الخضار والفواكهة مثل العنب، والموز والتين، والبطيخ والزيتون والخوخ، والسفرجل والعسل ولها شهرة في انتاج الورود العطرية التي تستخرج منها العطور مثل ماء الورد، ودهنه، وماء الكادي الذي تمد به مكة ومنطقة الحجاز كلها[١١٢]. اضافة إلى فواكهها وكرومها وزبيبها. ويزرع في الطائف بعض أنواع الحبوب أهمها القمح والشعير والذرة[١١٣].

وندرك أن مناخها معتدل لطيف صيفا أشبه بمناخ البحر الأبيض المتوسط[١١٤]. والطائف مدينة قديمة المنشأ حيث كانت لعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر ومن حولهم ثقيف من بني مالك والأحلاف. ثم ما لبثت أن غلبت ثقيف على الطائف بزعامة مسعود بن معتب. ونزل حول ثقيف جماعات من الأزد، وقرشيون من كنانة، وبعضهم سكن في معدن البرام بنواحي الطائف، وبعض بني عذرة، وهوازن ومزينة وجهينة وجماعات من الأوس والخزرج[١١٥].

وتعزى تسمية الطائف إلى السور الذي أطيف بها وقد بناه لهم الدمون بن عبد الملك الحضرمي بعد فراره من بلده اليهم. وهذا أول دخول طراز بناء الأسوار حول المدن اليهم، حيث أنه معروف في الجنوب[١١٦].

وكان أمر الطائف يتبع مجلس الملأ في السلم والحرب حيث لكل حي رئيس يعملون

---

١٠٩ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٧٦٥ الشريف، مكة والمدينة ص١٧، أرسلان، المرجع السابق ص٢٥٦.

١١٠ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٥/٣٩٤، أرسلان، المرجع السابق ص ٢٦١، ٢٦٢.

١١١ ــ أرسلان، المرجع السابق ص ١٧٢.

١١٢ ــ عبد الجبار، نفس المرجع ص ٦٥، حتى، تاريخ العرب ص ١٢٤، الحموي، المرجع السابق جـ٤/٩.

١١٣ ــ نافع، المرجع السابق ص ٢٨.

١١٤ ــ ابن حوقل، المرجع السابق ص ٣٩، أرسلان، المرجع السابق ص ٢٥٦.

١١٥ ــ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب سنة ١٩٥١م جـ١/١١،١، الهمداني، المرجع السابق ص٢٦٠.

١١٦ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٤/٩، البكري، المرجع السابق جـ١/٦٧.

بمشورته وله كلمته في حيه، فهم من السادة[١١٧]. ولثقيف صلات قوية بيثرب ولذا فقد استقدموا أحد الخبراء في بناء الأطام، وابتنوا عددا منها[١١٨].

لثقيف علاقـة إقتصادية واجتماعية بقريش فقد كانت الطائف مصيفا لأهل مكة وامتلك أثرياء مكة المزارع الخاصة بهم في الطائف فامتلك عمرو بن العاص مزرعة كرم كبيرة بالوهط، كلفته ألف درهم ثمنا لخشب عرائش العنب وبلغ عددها ألف عريش[١١٩].

واشتهرت الطائف بالصناعة وخاصة دبغ الجلود فهي (بلد الدباغ) حيث كانت جلود المواشي تدبغ هناك وتجهز للأغراض المتعددة في البيوت وللملابس[١٢٠]. فشهرة الأهب الطائفية لا زالت إلى زمن قريب. حيث كنا نراها معلقة على بعض الحوانيت الصغيرة في شوارع المدينة القديمة.

ومن أهم نواحي الطائف تربة، ورنية، وتبالة[١٢١]، وبالقرب منها موضع عكاظ السوق المشهورة[١٢٢]. وكان للطائف سوق خاصـة بها تسمى المشرق[١٢٣].

جـــــدة :

ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم). تبعد عنها حوالي ٥٥ ميلا. وتقع جدة في سهل تهامة[١٢٤].

وقد استقرت قبيلة قضاعة في جدة، وقضاعة هذا هو الابن الثاني لمعد الذي هو الجد

---

١١٧ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٢٥٢.

١١٨ ــ ابن الأثير، الكامل جـ/٤٢١. مدني، أطوم المدينة المنورة ص٢٢٥.

١١٩ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٥/٣٨٦، ابن خميس، المرجع السابق ص٢٥٥.

١٢٠ ــ SIDDIQUI, ABDUI Hameed, The Life of Mohammed Beirut, P. 31 الهمداني، المرجع السابق ص ٢٦٠، أرسلان، المرجع السابق ص ١٧٢.

١٢١ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٣٠٨، ٣٠٩، الهمداني، المرجع السابق ص ٦٣، ٣١٢، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٢٠.

١٢٢ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٣٠٩، الحموي، نفس المرجع جـ٢/١٣٨، الأصفهاني، بلاد العرب ص ٣٢.

١٢٣ ــ الحموي، نفس المرجع جـ ـ ٥/١٣٣.

١٢٤ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٦١، نافع، المرجع السابق ص ٢١.

التاسع للنبي ﷺ. وقد ولد بها جدة بن حزم من قضاعة فحمل اسمها[١٢٥]. وهي جدة (بضم الجيم وتشديد الدال) بإجماع المصادر[١٢٦].

وكانت حوزتها بيد مالك وملكان إبني كنانة وكان لهما صنم يقال له سعد بساحل جدة[١٢٧].

وروي الاخباريون أن الاسكندر المقدوني (توفي ٣٢٣ق.م) زار مكة في عهد خزاعة في أواخر القرن الرابع ق.م. وقد خرج إلى البحر عن طريق جدة[١٢٨]. وان كان هذا حديث خرافة الا أنه يشير إلى استعمال موضع جدة كميناء لمكة منذ ذلك العهد. وأثبت من هذا قصة عمرو بن لحي مع رئى له من الجن، الذي أرشده على أصنام شط جدة والتي هي دليل على بقايا حضارة قد دثرت[١٢٩].

ولم يعتمد العرب على البحر كخط رئيسي في مواصلاتهم. لتخوفهم من ركوبه وأهواله، ولكن ذلك لا يعني عدم معرفتهم بالبحر فقد أوضح القرآن معرفتهم به وبسفنه، وأسماكه، ولؤلؤه فصيد اللؤلؤ معروف في الخليج العربي، اضافة إلى وجود اللؤلؤ في البحر الأحمر بقرب جدة[١٣٠]. وكانت الشعيبة ميناء مكة مرسى لها قبل جدة. أو كانا ميناءين لها في آن واحد، فالمسافة بين جدة والشعيبة حوالي)٨كم فقط[١٣١]. ولم تكن لهما الأهمية البارزة لخوف العرب من البحر الأحمر.

ويعزى تعمير مدينة جدة إلى الفرس ابان عهدهم في جنوب جزيرة العرب حوالي القرن السادس الميلادي في عهد كسرى أنوشروان حفيد يزدجرد ابن قباذ. وقد كان

---

١٢٥ ــ الحموي المرجع السابق جـ٢/١١٤، الأنصاري، عبد القدوس تاريخ مدينة جدة، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ص ٢٥، ٥٢.

١٢٦ ــ ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٤١٣، ٤١٣، الحموي، المرجع السابق جـ٢/١١٤، ابن حوقل، المرجع السابق ص ٣٩، الأنصاري، تاريخ مدينة جدة ص٣٧.

١٢٧ ــ ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، كتاب الأصنام الطبعة الثانية ١٩٢٤م، مصر ص٣٦، ٣٧.

١٢٨ ــ الدينوري، المرجع السابق ص٣٣، الأنصاري، تاريخ مدينة جدة ص ٥٧، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٥.

١٢٩ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص٥٤، الأنصاري، تاريخ مدينة جدة ص ٥٢.

١٣٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٧/١٢٢.

١٣١ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٧/٢٥٩ ص٢٧٢، الأنصاري، مدينة جدة ص٤٣، ٤٤، الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ص ١٦٧، ١٧٢.

حولها خندق، يرجح أنه من عملهم لشهرتهم بذلك، كما كان لها سور[١٣٢] ذو بوابات معروفة إلى اليوم مثل باب مكة وباب شريف وغيرهما.

وقيل أن جدة خزانة مكة[١٣٣]، والأحرى أنها بابها ومنفذها البحري، وقد قام الفرس بتجارة جدة، وهي تأتي بعد مكة ثروة وتجارة[١٣٤]. وقد تبعت مكة منذ فجر الاسلام وتولى الحارث بن نوفل عليها[١٣٥]. وبناء على طلب قريش أمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه باتخاذ جدة ساحلا رسميا لمكة وميناءها التجاري في سنة ٢٦هـ[١٣٦]. وبالتالي أصبحت ينبع ميناء المدينة المنورة[١٣٧]. وفتح عمرو بن العاص قناة تراجان بين النيل وبحر القلزم، وأرسل عبرها السفن المحملة بالقمح ثم أصبحت تفرغ في جدة التي غدت أكبر موانيء بحر القلزم (البحر الأحمر)[١٣٨].

وكانت مباني جدة القديمة أرضية تتكون من طابق واحد مبنية من خصاص وأكواخ من اللبن. ثم تطور العمران إلى أبنية عالية من أحجار الجبال والصخور الرملية (الحجر المنقبي)[١٣٩] ذات نوافذ كبيرة تغطيها رواشين خشبية جميلة النقوش.

وجدة مدينة ساحلية تغلب عليها الرطوبة الشديدة مع الحرارة العالية في فصل الصيف الطويل وهي مشتى جميل.

---

١٣٢ ــ الأنصاري، تاريخ مدينة جدة ص٢٥.

١٣٣ ــ أبو عبد الله محمد بن اسحاق الفاكهي، أخبار مكة المشرفة، المنتقى ٢/٢٤، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٨٧.

١٣٤ ــ ابن حوقل، المرجع السابق ص ٣٩.

١٣٥ ــ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبع على ذمة جمعية المعارف جـ١/٣٥٠، ٣٥١، جـ٥/٤٦.

١٣٦ ــ أخبار مكة المشرفة، الاعلام جـ٣/٧٩، الأنصاري، تاريخ مدينية جدة ص ٤٣، رفعت، المرجع السابق ص ٢٣، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٨٧، ٨٨.

١٣٧ ــ سيديو، المرجع السابق ص٢٢، نافع، المرجع السابق ص٢١.

١٣٨ ــ حوراني، جورج فاضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي. ترجمة يعقوب بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة ص١٨٨.

١٣٩ ــ الأنصاري، تاريخ مدينة جدة ص ١٨، ٢٧، ابن جبير، المرجع السابق ص ٥٣.

الفصل الثاني
عناصـــر السكـــان

سكن العماليق حول وادي مكة[1]. وهم من العرب البائدة[2]. ثم سكنتها قبيلة جرهم الثانية[3]. وهم من قحطان. وقد صهر إليهم إسماعيل بن إبراهيم[4].

وأقامت جرهم تحكم في مكة وبنو إسماعيل معها إلى ما شاء الله لهم وإلى أن أخرجت خزاعة جرهما. وحكمت خزاعة في مكة. وارتحل بعض جرهم بعيدا. وخرجت بقية منها إلى ضواحي مكة. وبقي الاسماعيليون مع خزاعة في مكة على الحياد التام. وأقام بعض بني كنانة حول وادي مكة أيضا[5].

فقد حل الفاتح الجديد (خزاعة) مع سابقيه بالاضافة إلى الأقوام الأخرى المشار إليها أعلاه. ثم إذا نظرنا إلى عوامل الاستقرار وأهمها ظهور ماء زمزم. وعامل التكاثر مما أدى إلى نمو مطرد في السكان. فمثلا بني كنانة صار لهم قوامهم الاجتماعي الذي هيأهم لمساعدة خزاعة ضد جرهم.

ونستنتج من ذلك أن قوام المجتمع في مكة يتكون من قبيلة رئيسة كبرى بيدها أمر الوادي. وتجاورها عمائر وبطون أخرى منها ومن غيرها من القبائل العربية.

وتقـوم قاعدة النسب على أن القبائل تتألف من طبقات أو مراتب، الأصل فيها الشعب الذي هو المجتمع الكبير (الأم) أو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان[6]. ثم

---

١ ــ الطبري، تاريخ جـ١/١٣٠.
٢ ــ القلقشنـدي، أبـو العبـاس أحمـد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهرة ص٢١١.
٣ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ١/٣٤٥.
٤ ــ الطبري، نفس المرجع، جـ١/١٣١، القلقشندي، نفس المرجع ص٢١١.
٥ ــ القلقشندي، نفس المرجع ص٢٤٤، ٤٠٩.
٦ ــ الماوردي، المرجع السابق ص٣٦، القلقشنندي، نفس المرجع ص٢٠.

تأتي القبيلة مثل مضر، وربيعة. ثم العمارة مثل قريش وكنانة ثم البطن مثل بني عبد مناف، وبنو هاشم وبني مخزوم وبني أمية. ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب، وبني العباس.

والفخذ أكبر من الفصيلة. والعشيرة طبقة تلي الفخذ وقبل الفصيلة وهو رهط الرجل وجماعته الأقربون من بني عمومته[٧]. ثم يطرد النمو السكاني، وتتباعد الأنساب فتصير القبائل شعوبا. والعمائر قبائل. وهكذا ترتقي الوحدة القبلية الصغيرة إلى المرتبة الأعلى منها. مثل قريش التي ارتقت من مرتبة عمارة إلى قبيلة.

وقد حفظ علماء النسب (النسابة العرب) أنساب القبائل كلها. وتخصص كل منهم بنسب جماعة من قومه أو ممن ارتبط بهم بنسب[٨].

---

٧ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ١٣، إبن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر جـ٣/٢٥٥، جواد علي، المرجع السابق جـ١/٥٠٩.

٨ ــ ومن أشهر هؤلاء النسابة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأبو عبد الله أحمد بن محمد أبي الجهم بن حذيفة العدوي، ويعرف بالجهيمي، أنظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م، مصر ص٥، ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست، ١٩٧٨م بيروت ص١٦٢.

والنسابة جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف من أعلم الناس بأنساب العرب قاطبة. وأرسخهم في علم النسب. وكان الخلفاء الثلاثة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم من علماء النسب المتخصصين في أنساب أقوام معينة، أنظر ابن حزم، نفس المرجع والصفحة، والسدوسي، مؤرخ بن عمرو، كتاب حذف من نسب قريش، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية ١٩٧٦م ص ٤١.

وعقيل بن أبي طالب الذي تخصص في نسب قريش وكان أبو الكناس الكندي متخصصا في نسب كندة. وحفظ النجار بن أوس العدواني نسب معد بن عدنان، وتخصص عدي بن رئاث الأيادي في نسب أياد. أنظر جواد علي، المرجع السابق جـ١/٤٧٢.

وحماد الراوية الذي روى الكثير من ذلك ونقلوا عنه الكثير. وتوفي سنة ١٥٦هـ أنظر ابن النديم، نفس المرجع ص ١٣٤.

وأبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي توفي سنة ٢٠٧هـ. وكتب في تصنيف القبائل وطرقها وأنسابها أنظر، ابن النديم، نفس المرجع ص ١٤٤.

واختص خالد بن خداش بن عجلان في نسب ربيعة. وقد توفي سنة ٢٢٣هـ أنظر ابن النديم، نفس المرجع ص١٥٨.

ومن المختصين بنسب أقوامهم مصعب بن عبد الله الزبيري الذي توفي سنة ٢٣٣هـ والزبير بن بكار صاحب كتاب نسب قريش وأخبارها، الذي توفي سنة ٢٥٦هـ، أنظر ابن النديم، نفس المرجع ص١٦٠.

وأقر الخليفة عمر بن الخطاب قواعد النسب التي التزم النسابون بها من بعده في تقسيم العرب إلى الأصلين المعروفين. ولا بد أن الخليفة النسابة قد استند في وضع قاعدة النسب على أساس قديم ومعروف بين العرب. وسار النسابة في أنسابهم إلى عدنــان وقحطان. وقد هدف عمر إلى غرضين، أولا الغرض الاداري عندما فرض العطاء فبدأ بالأصلين الرئيسين فالعرب عدنان وقحطان. وقدّم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم، فبدأ بالعباس عم رسول الله[٩].

وأضاف الخليفة عمر قاعدة جديدة في النسب. فالأولوية والتقدم لفرع النبوة، من عدنان والذي ينقسم إلى مضر وربيعة. ومضر تشمل قريشا. وبنو هاشم من قريش فهم عمود الترتيب في النسب في الاسلام. ثم أدرج من يليهم وهكذا.

والغرض الثاني من ذلك التقسيم. تحديد الأنساب وحفظها. وقد أقر الخليفة عمر فرض العطاء والديوان في سنة ١٥هـ[١٠]

وقد استند عمر على حقيقة هي قاعدة ثابتة. فالفرق بين عدنان وقحطان واضح فمنازل قحطان أرض اليمن (جنوب الجزيرة). ومنازل عدنان شمال الجزيرة. وقريش العدنانية في مكة[١١]. ورغم استقرارها وتحضرها في بلدها إلا أنها بقيت قبيلة. وقد التزم النسابون باسم القبيلة لجميع سكان الجزيرة سواء كانت في البادية أو في المدينة (الحضر). وبقية بني عدنان بادية متفرقة في تهامة والحجاز ونجد[١٢].

ومن قحطان الأوس والخزرج قبيلتان مستقرتان في يثرب. وثقيف قبيلة مستقرة في الـطائف. فكانت هذه الأقوام كلها قبائل مع استقرارها وتحضرها فقد حافظت على العنصر القبلي فيها. وتمسكت بالأنتساب إلى الجد الأعلى[١٣]. ولم يطلق عليهم إسم شعب ولا أمة مثلا.

وكعادة العرب في حفظ نسبهم بل والافتخار به. مثل افتخار قحطان بالتبابعة ثم بالأنصار. وإفتخار عدنان بقريش. من أجل النبوة[١٤]. وقد افتخر النبي ﷺ بجده الأعلى النضر وانتسب له مفتخرا على الأشعث بن قيس قائلاً: (لا بل نحن بنو النضر

٩ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٤/١٦٢، ابن حزم، المرجع السابق ص٦.
١٠ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٤/١٦٢، جواد علي، المرجع السابق جـ١/٤٧٠.
١١ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ١/٤٧٨.
١٢ ــ زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام بيروت، ١٩٧٩ ص ٢٢٦.
١٣ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٣١٤.
١٤ ــ إبن حزم، المرجع السابق ص٤٨٨.

بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا)[١٥].

فقد حافظت القبيلة التي استقرت في بلد ما على انقسامها إلى بطون وعشائر ودامت على النخوة والعصبية على مذهب أهل الوبر. وهجرت الترحال وانتجاع مراعي الكلأ في المواسم فقط[١٦]. وقد استقرت قريش في مكة ودعوا بأهل مكة ولكنهم حافظوا على الوحدة القبلية أيضا مع أن مكة تسمى دار قريش أحيانا.

التأم شمل قريش وارتقت من مرتبة العمارة إلى القبيلة وصارت صاحبة السيادة في مكة في الفترة الزمنية المعنية بالبحث. وغدت قوام الهيكل الاجتماعي فيها وقد نزلت معظم بقاعها فمن ذلك نستنتج أن السكان في مكة يتألفون من القبائل التالية :ــ

١ ــ قبيلة قريش، وتشكل الكثافة السكانية الأولى عددا ومكانة.

٢ ــ طبقة اجتماعية ثانية من قبيلتي خزاعة وكنانة.

٣ ــ فئات صغيرة من حلفاء وموالي وعبيد وأجانب وتشكل كثافة سكانية كبرى وهي الثالثة والأخيرة من طبقات السلم الاجتماعي.

قريـــــش :

ومع أننا لا نملك نصا جاهليا يذكر لنا اسم قريش (أهل مكة) وكذلك لم تذكرها كتب اليونان أو الرومان، ولا قدماء السريان ولكن هذا لا ينفي وجود قريش قبل أن يجمعها قصي، فقد ورد ذكرها في النصوص الجنوبية القديمة ففي عهد الملك الحضرمي (العز بن العز يلط) الذي حكم في القرن الأول قبل الميلاد، وقيل حكم في القرن الثالث الميلادي، وهذا هو الأرجح عندما نعتمد على ماورد في النص الذي يفيد أن الملك العز استقبل ضيوفا آراميين، ومن تدمر ومن الهند. وذكر أن عشر نساء قرشيات كن في معية الملك عند زيارة (حصن أنود) وأن كاتبا يدعى (حبسل قرشم) وكلمة قرشم أو قريشم هي قريش. مما يوحي بأن الكاتب كان من قبيلة قريش[١٧]. التي غدت صاحبة مكة فيما بعد.

ونعرف نحن أن قصي بن كلاب (مجمع قريش) قد جمعهم واستقر بهم في مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي[١٨]. وتبعا لتسلسل النسب يكون بين قصي وجده فهر

١٥ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٤/٢١٤، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٠٠.

١٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٣١٤.

١٧ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص٤٠٩، ٤١٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٢/١٤٣، ١٤٥، جـ٤/٢٣.

١٨ ــ سيديو، المرجع السابق ص٤٤، RODINSON, OP., CIT, P, 39

ستة أجيال[١٩] . أي حوالي ١٨٠ سنة (قرنين) فندرك أن فهر وهو قريشي قد عاش في مطلع القرن الثالث الميلادي . ولكن الرسول ﷺ عندما ذكر نسبه لم يجاوز معد بن عدنان بن أدد حيث لم يعتمد على النسابين إلى أبعد من ذلك الجد (معد)[٢٠] . وروى الاخباريون الكثير عن أصل تسمية قريش بهذا الاسم . وسنورد بعض رواياتهم لنتعرف على أصل التسمية ولنتوصل إلى زمن ظهورها .

١ ـ سميت قريش بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة وقد كان قريش بن بدر هذا دليل بني النضر في أسفارهم وصاحب ميرتهم . فاذا قدمت عير بني النضر قالت العرب أقبلت عير قريش باسم دليلهم[٢١] .

٢ ـ أن قريش جماع نسب فليس بأب ولا بأم . وانما نعتت بعض العرب النضر بن كنانة بهذا الاسم . ثم خرج يوما على نادي قومه فقالوا انظروا النضر كأنه جمل قريش[٢٢] .

٣ ـ القـريش تصغـير كلمة قرش وهي دابة البحر الكبيرة التي تأكل دواب البحر الأخرى (وهي الحوت الكبير) الذي يلتهم كل ما يلقاه[٢٣] . وقيل بل أن النضر كان في البحر فهاجم سفينته القـرش (أي الحوت) إلا أن النضـر تمكـن مـن قتلـه[٢٤] .

٤ ـ التقريش لغة يعني التفتيش . وكان النضر يقرش أو يبحث ، ويفتش عن حاجة

---

١٩ ـ الطبري ، تارخ الأمم والملوك جـ٢/١٨١ .

٢٠ ـ ابن سعد ، المرجع السابق جـ١/٥٦ .

٢١ ـ ابن كثير ، المرجع السابق جـ٢/٢٠٢ ، ابن حزم ، المرجع السابق ص ١١ ، الحموي ، المرجع السـابق جـ٤/٣٣٧ ، ابن منـظور ، المـرجـع السابق جـ٣/٥٨ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/٢٣ ، كحالة ، معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة بيروت جـ٣/٩٤٧ .

٢٢ ـ ابن الأثـير ، الكامل جـ٢/١٧ ، الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٧ ، القلقشندي ، المرجع السابق ص ٣٩٧ ، الأصمعي ، محمد عبد الجواد العرب وأطوارهم ، الطبعة الأولى جـ١/٥٧ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/٢٣ ، ومعنى جمل قريش أي في اعتمادها عليه لقوته . فتقول المرأة عن زوجها جملها أي كل ما تعتمد عليه ، راجع ابن منظور ، المرجع السابق جـ١/٥٠٢ مادة جمل .

٢٣ ـ الـطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٧ ، ابن كثـير ، المـرجع السابق جـ٢/٢٠١ ، ابن خلدون ، المرجع السابق جـ٢/٢٣٤ ، الحموي ، المرجع السابق جـ٤/٣٣٦ ، ابن منظور ـ المـرجـع الســابق جـ٣/٣٥٨ ، الـزبيدي ، محمـد مرتضى ، تاج العـروس ١٩٦٦م جـ٤/٣٣٨ـ٣٣٨ ، RODINSON, OP. , CIT., P.39

٢٤ ـ القلقشندي ، المرجع السابق ص٣٩٨ .

ذوي الفاقة، فيقضيها لهم. والتقرش لغة أيضا يعني التجمع، ولذلك عندما جمع قصي بني قومه إلى مكة سموا كذلك[٢٥].

٥ ــ وقيل أن قريش كان إسما للنضر ولقريش أيضا من بعده. [٢٦]

٦ ــ وقيل أن التقريش من جمع المال عن طريق التجارة. وقد سمي بنو النضر بذلك لشهرتهم التجارية[٢٧].

٧ ــ وقيل أيضـا لإجتنـاب قريـش وبعدهـا عـن الغـارات فهـي قـد تقرشـت عـن الحـروب. [٢٨]

نستنتج مما سبق أن قريش لقب منح للنضر أو لحفيده فهر بن مالك وأولاده من بعده للاسباب المذكورة. وخاصة أن بعضها منطبق تماما على أوضاع قريش. فاشتهروا بهذا الاسم حتى صار في عداد النسب ومنه، لجميع أحفاد فهر وأسباطه.

وعليه فقد عرف اسم قريش منذ النضر، أو فهر. ولكن قد عم عليهم واشتهروا به منذ عهد قصي، لتضافر أسباب عدة فقد جمعهم وبني كيانهم الاجتماعي، ثم ضربوا للتجارة، وجمع القروش بصورة دائمة، وبدأب منتظم. واجتنبوا الحروب والغارات، فجنحوا إلى السلام، وعاشوا في مكة في أمان.

اشتهرت القبيلة بإسمها المتميز بعد أن جمعها قصي[٢٩] كما ذكرنا وارتبطت بمكان

---

٢٥ ــ ابن هشـام، المرجع السابق جـ١/١٠٤، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٧، الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٧، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١١٦ ـ ١١٧، ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٤، ٢٣٥، ابن حبيب، محمد كتاب المنمق ـ تحقيق خورشيد أحمد، الطبعة الأولى ١٩٦٤م ص١٣ـ١٤، العصامي، عبد الملك ابن حسين، سمط النجوم العوالي ١٣٧٩هـ، القاهرة جـ١/١٥٦، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧١ ـ ٧٢، كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/٩٤٧، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٣.

٢٦ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٠٠، ابن هشام، نفس المرجعع جـ١/١٠٣، الأصمعي، المرجع السابق جـ١/٥٧، ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، كتاب الأشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية ١٩٧٩م جـ١/٢٧، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٥.

٢٧ ــ ابن هشـام، المـرجـع السـابق جـ١/١٠٤، الحمـوي، المرجـع السـابق جـ٤/٣٣٦، القلقشندي، المرجع السابق ص٣٩٨، ابن كثير، المرجع السابق، جـ٢/٢٠١، ابن منظور، المرجع السابق جـ٣/٥٧ ـ ٥٨، الزبيدي المرجع السابق جـ٤/٣٣٧، ٣٣٨، جواد علي، المرجع السابق جـ١/٤٠١، إبن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٢٣٤..

٢٨ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٧، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٢٣ـ٢٤.

٢٩ ــ RODINSON, OP., CIT., P.39 سيديـو، المرجع السابق ص ٤٤، شلبي، أحمد، التاريخ الأسلامي والحضارة الأسلامية، الطبعة الرابعة جـ١/٦٨ وظهرت خزاعة حوالي سنة ٤٤٠م.

معلوم مشهور، وهو مكة، ونزلوا حول الكعبة المعظمة وحينئذ لم يكن في الوادي بناء أو بيت قائم سوى الكعبـة. حيث عاش أهلها قبل قريش خارج مكة وفيما حولها، في الشعاب ورؤوس الجبال، أي في الحل منها تقديسا للبيت العتيق، والوادي المبارك. فكـانوا يدخلونها نهارا حتى اذا أمسى القوم خرجوا إلى الحل لأنهم استحرموا اصابة الجنابة، وغيرها في مكة . وكذلك الدخول اليها على الجنابة اعظـامـا لهـا وللكعبـة وصيانـة لهمـا[٣٠].

وبعد أن دخلت قريش مكة، وجمع قصي قبائلها تحت لوائه بعد التفريق والتشتت في ضواحي مكة لم تبرحها قط[٣١] وأدخلهم قصي بطن الوادي. (أبطح مكة) فأنزل خاصة قريش فيه، وخطط الوادي فقسّمه رباعا فيما بينهم[٣٢]، وبقية قريش فيما حولهم وقد كان قصي من أدهى العرب[٣٣]، والمشهور تبعا لذلك أن قريشا كانت على فئتين أو قسمين هما قريش البطاح، وقريش الظواهر[٣٤]وقد ورد ذكر أقسام قريش الأخرى لماً في كتب الـتراث، ورغم اغفال الشرح المفصل عنها، فمن الاشارة الموجودة واللمحة العابرة سنثبت ذكرهم، فنقرر أن قريشا انقسمت إلى أربعة أقسام، الفئتان الرئيستان وأخرتان أقل شأنا وذكرا وعلى ذلك فأقسام قريش هي :-.

١ ــ قريش البطاح.
٢ ــ قريش الظواهر.

---

٣٠ ــ أخبار مكة المشرفة، كتاب الأعلام جـ٣/٣٥، اليعقوبي، أحمد بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقـوبي، بيروت ١٩٦٠م جـ١/٢٣٩، باسلامة، حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ص٦، البكري، معجم ما استعجم جـ١/٨٩، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٧٢.

٣١ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٧.

٣٢ ــ البـلاذري، أحمـد بن يحي، أنسـاب الأشراف، تحقيق محمـد حميد الله، يخرجـه معهـد المخـطوطـات بجـامعـة الـدول العـربية جـ١/٥٠،٥٢، ابن سعـد، المرجـع السـاق جـ١/٧٠،٧١، اليعقـوبي، نفس المرجـع جـ١/٢٤٠، الـطبري، تاريـخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٤، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٠٧، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٤٩.

٣٣ ــ اليعقوبي، نفس المرجع جـ١/٢٣٩.

٣٤ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٣، الزبيري، المرجع السابق جـ٢/١٣٥، ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٢٢٥، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢١٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٦.

٣ ــ قريش العائذة[٣٥].
٤ ــ قريش العارية.[٣٦].

أولا : قريش البطاح :

وهم الذين نزلوا الأبطح بين أخشبي مكة[٣٧]، وهم منحدرون من كعب بن لؤي[٣٨] في عدة بطون :

أولا : بنو قصي بن كلاب وهم بنو عبد مناف، وبنو عبد العزى، وبنو عبد الدار وبنو عبد بن قصي.

ثانيا : سائر بني كعب بن لؤي، وهم بنو زهرة، وتيم، ومخزوم، وجمح وسهم (إبنا عمرو بن هصيص بن كعب)، وبنو عدى بن كعب، وبعض بني عامر بن لؤى وقد دخل مع قريش البطاح غيرهم مثل بنو هلال بن ضبة رهط أبي عبيدة عامر بن الجراح ورهط سهل وسهيل ابني البيضاء.[٣٩]

وقد لزمت قريش البطاح الحرم، ومكانها في الأبطح لا تبرحه حتى سميت قريش الضب[٤٠]. والأبطحيون[٤١]، وكذلك سميت قريش البواطن[٤٢] والعصب[٤٣]، وفيها البيت والمجد والشرف، وسدانة البيت الحرام، واحترفت

---

٣٥ ــ البلاذري، أنساب الأشراف جـ١/٤١، ٤٤، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٦٣، إبن الأثير، الكامل جـ٢/١٥، ١٦، ابن حبيب، المحبر، صححته، ايلزة لنجتن شتيتر، دار الأفاق، بيروت ص ١٦٨، ١٦٩، العصامي، المرجع السابق جـ١/١٦٤.

٣٦ ــ العصامي، نفس المرجع جـ١/١٦٤، الفاسي، نفس المرجع جـ٢/٦٢.

٣٧ ــ إبن سعد، المرجع السابق جـ١/٧١ RODINSON, OP., CIT., P.39. جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٧، الزبيدي، المرجع السابق جـ٢/١٣٥، ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٢٢٥.

٣٨ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٦٢، الحموي، المرجع السابق جـ١/٤٤٤.

٣٩ ــ العصامي، المرجع السابق جـ٢/٦٢، ١٦٣، القلقشندي، المرجع السابق ص ٣٩٨، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣٩، ٤٠، المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٣٢، أخبار مكة المشرفة جـ٢/٣٣٩.

٤٠ ــ البلاذري، نفس المرجع جـ١/٣٩، إبن الأثير، الكامل جـ٢/١٣، الشريف، مكة والمدينة ص١٢٢.

٤١ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٨٩، إبن حبيب، المحبر ص ١٦٧، ١٦٨.

٤٢ ــ حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام الطبعة الثالثة، جدة١٤٠٠، ١٩٨٠ص٧.

٤٣ ــ العصامي، نفس المرجع جـ١/١٦٤.

التجارة التي درت عليهم الأرباح الوفيرة فأثرت. وصاروا أصحاب المجد والمال، وملكوا الأملاك في مكة، وخارجها خاصة في الطائف، وملكوا قطعان الابل والمواشي، ولكنهم تركوا رعيها للأعراب[٤٤]. وقد خططوا مكة بأمر من قصي، وبنوا البيوت فاستقروا وتحضروا.

ثانيا : قريش الظواهر :

وهم الذين نزلوا بظاهر مكة على المرتفعات وفيما حولها على أقل من مرحلة، ومن نزل أبعد من ذلك سموا بقريش الضواحي[٤٥].

ومن بطون قريش الظواهر بنو محارب، والحارث بني فهر، وبنو الأدرم بن غالب، وبنو معيص بن عامر بن لؤى ومن دخل فيهم[٤٦]. وكانت قريش الظواهر تغير وتغزو، فتقوم بحماية نفسها، وحماية قرش البطاح أيضا. فظواهر قريش هم أعراب مكة وباديتها[٤٧]. ومن ذلك يتضح أن ارستقراطية قريش تقيم في وادي مكة[٤٨].

ثالثا ورابعا قريش العائذة ـ وقريش العارية وغيرهم[٤٩].

---

٤٤ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٨، الموسوعة العربية الميسرة ص١٣٧٨.

٤٥ ـ ابن خلدون، المرج السابق جـ٢/٣٣٤، عبد الحميد، المرجع السابق ص ٢٨٦، الزبيدي، المرجع السابق جـ٣/٣٧٣، ابن منظور، المرجع السابق جـ٢/٦٥٧.

٤٦ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١١٩، أخبار مكة المشرفة، جـ٢/٣٣٩، كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/٣٢، القلقشندي، المرجع السابق ص١٤٢، العصامي، المرجع السابق جـ١/١٦٣.

٤٧ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١١٩، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٤، ابن الأثير، الكامل جحـ٢/١٣.

٤٨ ـ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 368.

٤٩ ـ خرجت فروع من قريش، فهم ليس من الأبطح ولا من الظواهر. ومنهم خزيمة بن لؤى وارتحل إلى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، سموا عائذة قريش نسبة الى أمهم عائذة بنت الخمس بن قحافة بن خثعم. وقد ولدت حاكما وتيما. وعرفوا أيضا باسم بنو عائذة، أنظر العصامي، المرجع، السابق جـ١/١٦٤، ابن حبيب، المحبر ص١٦٨، ١٦٩، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٦، القلقشندي، المرجع السابق ص٣٣٤، ابن حزم، المرجع السابق ص ١٣، ١٧٤، الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله، نسب قريش، الناشر، أ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية ص١٣، ١٤، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٤٢، ٤٤، كحالة، معجم قبائل العرب جـ١/٣٤٣.

=

المرأة في المجتمع القرشي :

تضـاربت آراء الرواة والكتاب المسلمين حول وضع المرأة العربية ومكانتها بصفة عامة، وبالغ البعض منهم في رفع مكانتها وعلى عكس ذلك هبط بها البعض الآخر إلى آخـر درجـات التخلف والانحطاط. ومانعتقده هو أن المرأة أخذت مكانها الطبيعي وأصبـح لها امتيازات متعددة الجوانب. وبعض السلبيات التي تعتبر فعلا وصمة في تاريخها. وأقبـح مـا نفـذ فـي حقهـا الـوأد (وأد البنات).

وفيما عدا ذلك نلمس أن المرأة نالت حظها من الحرية، والمشاركة في أمور هامة، في شتى النواحي الاجتماعية. فعلى صعيد أسرتها كانت تشارك زوجها في كثير من أعمال حياتهم اليومية. فهي تهتم بأمـور بيتهـا وهي المسؤولة عنه، وكذلك فهي تحتطب، وتجلب الماء، وتنسج الملبس والمأوى. وقامت علاقتها بزوجها على أساس من التفاهم والتكافؤ[٥٠].

وقد علت مكانة المرأة حتى شعرت بمساواتها للرجل كانسان كائن أوجدهما الله معا للتكاتف والتعاون على وظائف الحياة ونواميسها، مع اختلاف طبيعة وظائف أحدهما

= وخرج سامة بن لؤى إلى عمان، وصار بنوه حلفاء لأزد عمان وهم عازبة قريش وسموا كذلك لأنهم عزبـوا من قومهم، وأمهم ناجية بنت جرم بن ربـان. أنظر ابن حزم، نفس المرجع ص١٣، ١٧٣، الـزبـيري، نفس المـرجـع ص ١٣، ٤٤، ابن هشـام، المـرجـع السـابق جـ١/١٠٨، البلاذري، نفس المرجع جـ١/٤٦، العصامي،المرجع السابقجـ١ ١٦٤.

ثم خرج الحارث بن لؤى إلى اليمامة ونزل في بني هزان، أنظر ابن حبيب، المحبر ص١٦٩، ابن حزم، نفس المرجع ص١٣، البلاذري، نفس المرجع جـ١/٤٥.

ونزل سعد بن لؤى، وبنو عون بن لؤى في غطفان. وقيل بني سعد بن لؤى بنانة نسبة إلى أمهم أيضا. وقد أعاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان هذه القبائل إلى أصلها وألحقها بقريش، أنظر ابن حبيب، المحبر ص ١٦٩، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٥، ١٦، القلقشندي، نفس المرجع ص ٢٩٠، ابن حزم، نفس المرجع ص ١٣، ابن هشام، نفس المرجع جـ١/١٠٩، ١١٠، البلاذري، نفس المرجع جـ١/٤٤.

وقد انفصلت هذه الفروع عن القبيلة الأم انفصالا مؤقتا طال أمده أم قصر ولكنهـم حفظوا أنسابهم، والتزموا بانتمائهم إلى قريش، فما لبثوا أن عادوا إلى قبيلتهم الأم. وإستعادوا إنتسابهم إليهـا في العهد الاسلامي. وبذلك يتعين أن سكان وادي مكة هم قريش البطاح فقط وان خالطهم غيرهم من موالي وعبيد. وحتى قريش الظواهر فقد نزلت فيما حولهم خارج الأبطح.

٥٠ ــ حسن، المرجع السابق جـ١/٦٤، أحمد أمين، فجر الإسلام، الطبعة السابعة، سنة ١٩٥٩م ص١٠، الحوفي، محمد أحمد، المرأة في الشعر الجاهلي، الطبعة الثانية، القاهرة ص٩٦٠.

عن الآخـر حسب التكوين الفسيولوجي لكليهما. فالواحد منهما يكمل مهنمة الآخر وطالبت مجتمعها أن يعترف لها بذلك فقالت أحداهن:

أيزجـر لاهينـا ونـلحى على الصبى ومـا نحـن والـفـتيان إلا شقـائق[٥١]

وقالت أمثالهن: (أن النساء شقائق الأقوام)[٥٢]. وأقدم حكمهن تقول: (المرأة من المرأ وكل أدماء من آدم)[٥٣]

واشتهر بعض النساء بالفطنة والدهاء، والفصاحة البليغة، ومنهن مجيدات في الشعر والمثل السائر[٥٤]. وكانت تتمتع بالأخلاق العربية بصفاتها الحميدة، وقد امتازت المرأة بالعفة وفصاحة لسانها، وحسن تربيتها لأبنائها[٥٥]. وامتازت بالخجل الأنثوي الرقيق، وبحياء المرأة الرائع والمطلوب دوما[٥٦].

واشتهرت المرأة بالكرم، ولكن كرمها كان انسانيا خالصا، فهي لا تجود بالمال رغبة في الثناء والمديح كما يفعل الرجل[٥٧]، وعلى العكس فقد اشتهر بعضهن بالبخل وعموما كانت المرأة أحرص على المال من الرجل[٥٨].

ومن مظاهر اعزاز المرأة العربية أن كثيرا من الآباء كنوا بأسماء بناتهم، أمثال: ربيعة بن رياح والد زهير كنى باسم (أبو سلمى)، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية فهو (أبو أمية)، والنابغة الذبياني سمى (أبو أمامة).[٥٩]

٥١ ــ القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي، دار الأتفاق بيروت جـ٢/١٠٥.

٥٢ ــ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم، مجمع الأمثال تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ١٩٧٧م جـ١/٤٨.

٥٣ ــ الميداني، المرجع السابق جـ٣/٣٤٤، الأفغاني، سعيد، الإسلام والمرأة، الطبعة الثانية ١٩٦٤مم صن١٤.

٥٤ ــ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، الطبعة الرابعة ١٩٧٥م جـ١/٣١٢ وص٣٦٤، الجوفي، المرجع السابق ص ٥٣٤.

٥٥ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ٢/٢٧، الأفغاني، الإسلام والمرأة ص١٩.

٥٦ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٢٢٩، ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر، أخبار النساء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٧٣.

٥٧ ــ القالي، أبي علي اسماعيل بن القاسم، كتاب ذيل الأمالي والنوادر، دار الآفاق بيروت ص٢٣.

٥٨ ــ الأصفهاني، أبو الفرج الأغاني سنة ١٩٦٥م، بيروت جـ١١/٢٦٣، الحوفي، المرجع السابق ص٣٦٣.

٥٩ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٤٤٧، ٢٣، الأصفهاني، الأغاني جـ٨/٩٥ و جـ٩/٢٩٤ وص٣٢٨.

ومكانة المرأة الممتازة والتي بلغت عزها في القرنين السادس والسابع الميلادي تدل على رقي المجتمع العربي بصفة عامة . وان نظر العرب إلى المرأة على أنها في مكانة تقل درجة عن مكانة الرجل فيرجع ذلك إلى أن المرأة لم تكن تشارك في الحروب التي كانت عماد حياتهم بمثل نصيب الرجل . حيث كان دورها في الحرب ثانويا ، فالفارس المقاتل دائما هو الرجل وإذا اسهمت بنصيب في القتال فلن يكون أكبر من طاقتها ، بحسب تكوينها الطبيعي . فهي الأضعف جسديا وعضليا ، ولذلك آثروا البنين على البنات ،[٦٠] في حياة الترحال الدائم والغارات المتتالية .

ودور المرأة في مجتمعها كبير جدا ، فبالاضافة إلى دورها الرئيس في بيتها وأسرتها فقد تولت فض المنازعات والخلافات العائلية والقبلية كغيرها من الرجال[٦١] .

وجمالها ، أمر مقدس لدى الرجل ، فهذا الجمال الفاتن ، والسمرة العربية الجذابة هي مصدر الهام ووحي الشاعر العربي . ولكنه لا يتقبل أن ينظر غيره إلى هذه الفتنة والتي تخصه وهي ملك له وحده[٦٢] . فلذلك تعتبر اهانة المرأة أو مساسها بقول أو أذى ، اهانة عظمى ، وكفيل بأن تقيم حربا شعواء بين القبيلتين ، قبيلة المرأة وقبيلة الآثم المعتدي . فقد ثار اليوم الثاني من أيام الفجار بسبب امرأة جميلة .[٦٣]

والمرأة القرشية في مجتمعها الراقي تمتعت بكل ما نالته المرأة العربية بل وأكثر من ذلك ، لأنها حصلت على امتيازات متعددة . فالقرشية عاشت حياة الترف والنعيم في عز وثراء وأهم ميزاتها أنها لم تسب فلم يحدث قط أن تعرضت المرأة القرشية للسبي مع أن سبى النساء منتشر في الغزو ، والحروب . إلا أن القرشية مصانة عن ذلك ، فلم تسب ولم توطـأ قهرا ، ولم ترم بالسهام في تاريخ جاهليتها[٦٤] . وذلك أيضا لأمن مكة وعزة قريش بين العرب .

والمرأة القرشية قوية الشخصية ، عزيزة الجانب ، ولكنها خاضعة في مراحل حياتها للرجل الأب ، والأخ ، والزوج ، والعم ، وابنه أحيانا . وقد عامل بعض الرجال نساءهم معاملة فيها غلظة وجفاء[٦٥] . ولكن المرأة قوية النفس دائما ، وشجاعة لا تحيد عن دينها

٦٠ ــ أحمد أمين ، المرجع السابق ص١٠ ، السالم ، المرجع السابق ص٤٤٧ .

٦١ ــ بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعـوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى ط٤ ، بيروت ١٩٦٥م .

٦٢ ــ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٥م جـ١٣/٣/ .

٦٣ ــ ابن الأثير ، الكامل جـ١/٣٥٩ .

٦٤ ــ الحوفي ، المرجع السابق ص٤٦٥ .

٦٥ ــ ابن الأثير ، الكامل جـ٢/٥٧ ، ٥٨ .

ومبادئها قاومت بهما الرجل في مبدأ أمر الدعوة الإسلامية، فأم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب[٦٦]، لها مواقفها مع نبي الإسلام، وكذلك فعلت العصماء بنت مروان من بني أمية[٦٧]. وقد فعل نساء قريش الشيء نفسه بعد اعتناق الإسلام. فقد ثبتن على عقيدتهن رغم التعذيب والاضطهاد من قبل مشركي قريش.

وقد استن الجاهليون التعري من الملابس في الطواف لاستحرامهم أن يطوفوا بملابس غير نظيفة أو اقترفوا الذنوب والخطايا فيها. ولكنهم صيانة للمرأة ولمفاتنها فقد جعلوا طوافها في جنح الليل حتى يستر الظلام جسدها العاري[٦٩]. أو تطوف في درع واحد من ثيابها[٧٠].

وبلغت المرأة قدرا من الوعي والنضج لأنها نالت قسطا من الاطلاع بفطرتها وذكائها فقد تأملت الطبيعة التي تحتويها فعرفت الكثير عن أحوال الجو والأجرام السماوية وحركتها، ومنازل القمر، والأنواء، وقرب سقوط المطر وجهاته[٧١].

ونال بعض النسوة قسطا محدودا من التعليم فقد عرف البعض منهن القراءة والكتابة. فهذه فاطمة بنت مر الخثعمية تعيش في مكة وهي ذات ثقافة وعلم، قرأت الكتب[٧٢]. وأجادت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية القرشية، القراءة والكتابة واحترفت الرقية[٧٣]. وتعلم حماز بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه[٧٤].

وحفظ العديد من أمهات المؤمنين (زوجات النبي ﷺ) الكثير من الأحاديث النبوية، وروينها. وفي مقدمتهن السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. وأصابت قدرا كبيرا من المعرفة في الفقه والشعر وروت الحديث[٧٥].

---

٦٦ ــ السيوطي، المرجع السابق ص ٨١٣، السهيلي، المرجع السابق جـ٢/١١١، الحوفي، المرجع السابق ص٣٤٦.

٦٧ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٤/٢٤٤، ابن حبيب، المحبر ص٢٨٣.

٦٨ ــ الطبري، تاريخ جـ٣/١٤٢، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٤٧.

٦٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص٢٧٠ وما بعدها، العطار، محى الدين، كتاب بلوغ الأرب في مآثر العرب، لبنان ١٣١٩، ص٢٣، ٢٤.

٧٠ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٢٠٥، ابن حبيب، المنمق ص١٤٥.

٧١ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٤٢٧.

٧٢ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٨٠.

٧٣ ــ العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، الأصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ القاهرة جـ١٣/٤ـ٥.

٧٤ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٢/٣٦.

٧٥ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٥٠١، وقد ولدت عام ٦١٣ أنظر :

ونالت المرأة حظها من التعليم في صدر الإسلام . فهذه خديجة بنت إبراهيم حفيدة حكيم بن حزام تكتب الرسائل معاتبة عمها في رسالتها إليه على عدم اعتنائه بالرد على رسالتها بخط يده بل اعتمد على غيره في ذلك[٧٦] .

وقد قالت المرأة القرشية الشعر بفطرتها واتقنت عروضه وقوافيه فعاتكة بنت عبد المطلب تفخر بنصر قومها وتخلده قائلة :

سائل بنا في قومنا وكفاك من شر سماعه
قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باقٍ شناعُه[٧٧]

وقتيلة بنت الحرث رثت أخاها عقبة بن أبي معيط عندما أسره النبي ﷺ يوم بدر فقالت :

يا راكبا أن الأثيلَ مَظِنةٌ من صبح خامسةٍ وأنت موفّقُ
أبلغ به ميتا بأن تحية ما أن تزال بها النجائب تخفق[٧٨]

وشاركت في الرثاء أيضا هند بنت عتبة بن ربيعة في لقائها بشاعرة العرب الخنساء ، في سوق عكاظ ، وكانت هند تتعاظم لمصيبتها في مقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد بن عتبة يوم بدر ، والخنساء تنوح على بلواها في أبيها عمرو بن الشريد ، وأخويها صخر ، ومعاوية وقالت هند :

أُبكّيِّ عميد الأبطحين كليهما وحاميهما من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آلُ المجدِ من آلِ غالبٍ وفي العزِّ منها حين ينمي عديدها[٧٩]

وهند نفسها قالت الرثاء ، وتفاخرت ، وهجت[٨٠] ابنة عمها رملة بنت شيبة عندما أسلمت وتزوجت عثمان بن عفان وهو أحد قاتلي أبيها[٨١] .

= NARYAN B.K, MOHAMMAD THE PROPHET OF ISLAM, A FLAME IN THE DESERT, FIRST EDITION 1978, P. 137. SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 25.

٧٦ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص٢١٩ .

٧٧ ــ أبو طاهر، أبو الفضل أحمد، كتاب بلاغات النساء، تصحيح أحمد الألفي، ١٣٢٦هـ، القاهرة، ص١٩١ ، الأفغاني، سعيد، أسواق العرب، الطبعة الثانية ص١٨٠ .

٧٨ــ الأصفهاني، الأغاني جـ١ /١٧/ ١٨ .

٧٩ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٤ /٦٢ .

٨٠ ــ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢ /٢٦٣ .

٨١ ــ الطبري، تاريخ جـ٥ /١٤٨ .

وكما قالت السيدة القرشية شعرا، فقد روت الكثير منه، والسيدة عائشة رضي الله عنها كانت مثلا في رواية الشعر، وعرفت نقد الشعر لحسن تذوقها له[82]. وعرض قدماء الشعراء، وكبارهم الكثير من أشعارهم على نسائهم وبناتهم، لشدة رقة عاطفة المرأة وحسها الفني[83].

وأما دور المرأة الطبيعي وهو أمومتها الرائعة فقد كانت الأم الرؤوم التي أدت واجبها الكامل تجاه أسرتها وبيتها، فأشبعت حاجاتهم الطبيعية، في حياتهم اليومية. وأمدتهم بنفح من نتاج عقلها، وعلمها وحكمتها. كان هذا دورها الطبيعي كأم، ولكنها قامت أيضا بدور الأب في غيابه. حتى أنها لترفض الزواج بعد فراقه، حرصا منها على أبنائها كما فعلت أم هانيء بنت أبي طالب، عندما رفضت الزواج من ابن عمها محمد ﷺ، خشية التفريط في حق أيتامها أو في حق زوجها[84] حيث أنها طبيعيا لن تضمن الكمال في عطائها للطرفين وكذلك فعلت سودة القرشية[85].

وان تزوجت المرأة مرة أخرى لفشل زواجها الأول لحاجة أبنائها لمعيل بعد موت عائلهم الأول أو لغير ذلك من الأسباب، فإذا أنجبت من الزواج الثاني تقوم بدور عظيم رائع في تنشئة بنيها من الزوجين على المحبة والألفة. ولذا نلاحظ أن الأخوة لأم واحدة أكثر محبة وإتلافا من الأخوة لأب واحد[86]. وذلك تأكيد لعجز الرجل عن هذه المهمة الحساسة لدى أبنائه. ولكنها عظمة الأم وضعف القوى في المرأة. ولا غرابة بالنظر لكون الأم ينبوع الحنان دفقه من قلبها الحاني، ولالتصاق الأطفال بالأم دوما. وانتمائهم المعنوي والنفسي لبطن واحد.

وبالخبرة والتجارب النافعة اكتسبت الأم أصول التربية فاهتمت بتربية أبنائها تربية جسمانية سليمة، وحرصت عليهم منذ طور التكوين إلى التربية في المهد والرعاية في النشأة. وكذلك ربتهم خلقيا بالتوجيه والوعظ، والمراقبة، ولقنتهم سمو الأخلاق ونبلها[87]. وكانت الأم تربي بحزم وجد ولكنها أيضا تدللهم وتغنيهم وترقصهم فأم عبد

---

٨٢ ــ SHORTER ENCY OF ISLAM, P. 26.

٨٣ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٥٩٠، ٥٩١.

٨٤ ــ ابن حبيب، المحبر ص٣٩٦، ابن الجوزي، الامام عبد الرحمن، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، ١٩٧٥م القاهرة ص٢٦ وص٣١٨.

٨٥ ــ ابن الجوزي، نفس المرجع ص٢٧.

٨٦ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٩/٧، الحوفي، المرجع السابق ص١٢٩.

٨٧ ــ الحوفي، المرجع السابق ص١١٢، ١١٦.

الله بن الحارث بن نوفل لقبته بإسم (ببة) وحين ترقصه تقول:

لأنحكن ببة جارية خدبة تجب أهل مكة[٨٨]

وإذا ما كبر الأبناء وبزغ فجر مجدهم تاهت الأم فخرا وزهوا بأبنائها الأماجد ومكارمهم، وأعمالهم الجليلة. ومن دواعي فخر الأم أن تكنى باسم ولدها أو ابنتها فتنادى (بأم فلان). [٨٩] وكذلك الأبناء فقد امتلأوا فخرا وتيها بأمهم إذا كانت من أسرة عريقة أو أنها برزة، ذات حكمة وعقل وشهرة. فسيد البشر محمد ﷺ افتخر بأمهاته العواتك مرارا. [٩٠] بل لقد انتسب بعض الأبناء إلى أمهاتهم[٩١]. ويرجع الانتساب إلى الأم لعوامل مختلفة منها التكريم للأم، والافتخار بها عندما تكون أعظم ذكرا من الأب. ولمدح الأبناء بأنهم من نسلها، أو بسبب الطلاق. فالأبناء ملتصقون بالأم دائما وهي تحملهم معها إلى قبيلتها عند طلاقها أو أن يرحل الأب ويتركها وبنيها بين عشيرتها وذويها[٩٢] وقد يكون إسم الأم أو حرفتها أيضا مدخلا إلى الذم والتحقير أو التعيير بالأم.

والفتاة تتزوج إذا اكتمل نموها الجسدي، وتأهلت للزواج والأمومة، فإذا بلغت هذه المرحلة ودخلت سن الزواج الذي يبدأ من العاشرة إلى الخامسة عشر من العمر. فقد ابتنى النبي ﷺ بالسيدة عائشة وهي بنت تسع أو عشر سنوات، وزوج ابنته فاطمة وهي إبنة خمس عشرة سنة[٩٣]. وكان من غادة أهل مكة إذا بلغت الفتاة تلك المرحلة شقوا عليها درعها في دار الندوة وزينوها بأحسن زينة. ثم طافوا بها حول الكعبة. وبعد ذلك تعود إلى منزلها تلازمه ولا تبرحه إلا إلى بيت الزوجية عندما يتم زواجها. وفي عملهم هذا إعلام للخاطبين الراغبين في الزواج بالفتاة في مأمن عن الفساد الفسق، بجوار الكعبة المعظمة[٩٤]. ولقريش عادات حسنة في الزواج وأقرها الإسلام. فكانوا يختنون الصبيان ويغتسلون من الجنابة. وقد إجتنبوا المحارم في الزواج، فاجتنبوا زواج البنت أو بنت الأخ، وكذلك الأخت وابنتها. ولكنهم استباحوا الجمع بين الأختين[٩٥].

٨٨ ـ أي تغلب نساء قريش بجمالها، أنظر ابن دريد، المرجع السابق جـ١/ ٧٠.

٨٩ ـ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٣/ ١٧٣ وما بعدها، الحوفي، المرجع السابق ص ٨٣، ولأن عائشة رضي الله عنها ليس لها ولد فقد تكنت بإبن أختها فدعيت بأم عبدالله، SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 25

٩٠ ـ إبن الأثير، الكامل جـ٢/ ٢١، ٢٢.

٩١ ـ الأصفهاني، لأغاني جـ٩/ ٣٠١.

٩٢ ـ الأصفهاني، الأغاني جـ١٤/ ٤.

٩٣ ـ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٥/ ٥٢٠.

٩٤ ـ أخبار مكة المشرفة، جـ٢/ ٤.

٩٥ ـ العطار، المرجع السابق، ص٣٠، مهران، دراسات في تاريخ العرب ٤٢٥.

فجمع أبو أحيحة سعيد بن العاص بين صفية وهند بنتي المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وكذلك مارسوا نكاح المقت وهو أن يرث الولد الأكبر نساء أبيه من غير أمه ، بعد وفاة الأب[٩٦] . ويسمى هذا الابن الوريث لزوجة أبيه (الضيزن)[٩٧] .

وليس لهم عيوب أخرى في الزواج غير ما ذكرناه آنفا وأما فيما عدا ذلك، كانت سننهم محمودة. فهم يعقدون خطبة النكاح كما يجري في عرفنا الحالي بالاضافة إلى أن الذي يتولى الحديث في الخطبة يذكر في معرض كلامه حسنات ومميزات الخاطب، وكذلك نقائصه. ويتضح ذلك في خطبة أبي طالب عند تزويج ابن أخيه محمد بن عبد الله من خديجة، فقد ذكر مزايا محمد من نبل وشرف وفضل وعقل، وأوضح ما ينقصه أي فقره في المال، وأعرب عن رغبة محمد في الزواج من خديجة[٩٨] . وهذه كانت عادتهم في الخطبة فلابد من كلمة يلقيها ولي الخاطب أو من ينوب عنه ويبدأها (باسمك اللهم ذكرت فلانه، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت)[٩٩] وتوجه الخطبة إلى ولي المرأة أو من ينوب عنه[١٠٠] .

ونتوقف هنا لنوضح حرية الفتاة سواء كانت بكرا أو ثيبا في اختيار شريك حياتها، والموافقة على المتقدم أو رفضه. وأنها تستشار لتختار. فقد استشار عتبة بن ربيعة ابنته هندا في زواجها حيث تقدم لها سهيل بن عمرو وأبو سفيان فاختارت الثاني[١٠١] . وقد تختار المرأة زوجها ممن تستحسن وترغب أو تهبه نفسها للزواج كما عرضت فاطمة بنت مر الخثعمية نفسها على عبد الله بن عبد المطلب، وحقيقة أن فاطمة ليست قرشية ولكنها عاشت في مكة[١٠٢] .

ولقريش عادة دينية انبثقت عنها عادة إجتماعية تقيدوا بها حيث أنهم ابتدعوا التحمس في الدين. ولذا انفردت قريش من بين العرب باشتراط التحمس على كل من صاهرهم. وكذلك أبناء بناتهم بذلك فيصيرون حمسا مثل قريش[١٠٣] .

٩٦ ــ ابن حبيب، المحبر ص٣٢٧، ابن حزم، المرجع السابق ص١٤ .
٩٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٢٥ .
٩٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢١٣ .
٩٩ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/٤٠٨ .
١٠٠ ــ الألوسي، محمود شاكر، المختار من كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، اختيار محمد خالد الصحفي ، القاهرة ص٧٨، ٧٩، ابن حبيب، المحبر ص٣١٠ .
١٠١ ــ القالي، كتاب الأمالي جـ٢/١٠٤ .
١٠٢ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٨٠ ، طه حسين، المرجع السابق ص٢٠٥ ، أبو طاهر، بلاغات النساء ص٢٠ .
١٠٣ ــ إبن الأثير، الكامل جـ١/٢٦٦ ، مهران، دراسات في تايخ العرب القديم ص٤٢٥ .

وللمرأة الحق في صداقها، وقد تعارفوا على دفع الصداق لها أو لوليها[١٠٤]. ومارسوا الطلاق ثلاثا. باستثنان اسماعيل عليه السلام. ومارسوا الظهار كذلك. والايلاء للسنة والسنتين، والمخالعة[١٠٥]. وكان الرجل يسترد مهره اذا ظلق زوجته رغم أنه يكون هو المتسبب في الطلاق لكراهية استمرار الحياة بينهما أو لرغبته في الزواج بغيرها[١٠٦]. ومن حق المرأة أن تشترط أن تكون العصمة بيدها فتطلب طلاقها. أو تطلق نفسها إذا لم ترغب في البقاء مع الزوج وأمثلة ذلك بين العرب كثيرة. وقد نالت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب وهي زوجة هاشم بن عبد مناف عصمتها بيدها[١٠٧]. ونالت زوجة أحد رجال آل أبي طالب عصمتها. وأحسنت هذه الزوجة التصرف بعصمتها ولم تستغلها في لحظات الضعف والحماقات[١٠٨].

ولم يكن للمطلقة عدة تعتد بها بعد طلاقها. وقبل الزواج ثانية ولكن الأرملة التزمت بعدة عام كامل[١٠٩].

وتعدد الزوجات شائع بين العرب وفي المجتمع المكي لأسباب عدة وليس له علاقة بإمتهان كرامة المرأة أو انتقاص حقوقها.[١١٠] بل على العكس فأنه كان عملا إنسانيا والتزام إجتماعي فيه تكامل وشمولية العطف والانسانية المحضة غالبا. لأن في ذلك صيانة للزوجة الأولى من الطلاق ومآسيه. إذ أنه يلتزم بكل مطالبها، واحتياجات بيتها، وأطفالها. ويتمثل السمو والنبل نفسه تجاه الزوجة الجديدة إذا تم الزواج بدافع إنساني وليس بدافع الرغبة المجردة فقط، والمتعة بالنساء والتنقل بينهن.

وتزوج الرجل القرشي من نساء متعددات، والأمثلة أكثر من أن تحصى فتزوجوا من الأجنبيات مثل النبطيات ومنهن زوجة عقيل بن أبي طالب، وزوجة عمارة بن عقبة بن أبي معيط[١١١].

١٠٤ ــ إبن حزم، المرجع السابق ص ١٤٢، ٣٨٢، ألحوفي، المرجع السابق ص٩٠.

١٠٥ ــ الأصمعي، المرجع السابق جـ١/ ٣٢٩، ٣٣٠، الألوسي، المرجع السابق، ص٨٥، ٨٦.

١٠٦ ــ الطرازي، مأمونة مبشر، حقوق المرأة وهي زوجة. المجلة العربية ، العدد (١) السنة (٥) جمادي الثانية ١٤٠١هـ ص١٦، ١٧.

١٠٧ ــ إبن حبيب، المحبر ص٣٩٨.

١٠٨ ــ أبو طاهر، بلاغات النساء ص١٣٢.

١٠٩ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٣٣٨، ٣٣٩.

١١٠ ــ لوبون، جوستاف، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٩٧، الحوفي، المرجع السابق ص ٢٤٢.

١١١ ــ إبن حبيب، المنمق ص٥٠٥، ٥٠٦.

وكذلك تزوجوا من النصرانيات فزوجة عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي نصرانية حبشية اسمهـا سبحـاء، وكـذلك زوجة عنبسة بن أبي سفيان بن حرب[١١٢]. ومن الزوجات اليهوديات، زوجة هاشم بن عبد مناف وهي من أهل خيبر، واسمها واخذة ثم تزوجت بعده المطلب فأنجبت مخرمة، والذي تزوج هو أيضا يهودية. من أهل خيبر. وكذلك الشاعر الجمحي أبو عـزة، وهو عمـرو بن عبد الله، والخيار بن عـدي بن نوفـل، والحصيـن بن سفيان بن أمية أمهـم الربـاب من أهـل يثرب وجدتهم مـن أشـراف اليهـــود[١١٣].

ومكانة المرأة العربية بصفة عامة والمرأة القرشية خاصة كانت معززة، محترمة بالنظر إلى وضع غيرها من نساء العالم حينذاك. فقد كانت المرأة اليهودية تباع، فللآباء الحق في بيع بناتهم القاصرات بيع الأماء، وقتلهن، وتورث، وتسبى أيضا[١١٤]. وكذلك احتقر اليهود، والمجوس المرأة خاصة في فترات الدورة الشهرية، فابتعدوا عنها واجتنبوا الاختلاط بها[١١٥]. واضافة إلى ذلك أن الفرس اعتبروا المرأة من الممتلكات فيتصرفون بها كما يشاءون. ولهم الحق في الحكم عليها بالموت، وفرضوا عليها الحجاب خاصة بين طبقات المجتمع الراقية[١١٦]. فبينما كان للمرأة العربية حريتها ولم تكن تتحجب[١١٧]. وكذلك كانت المرأة الأغريقية مضطهدة من قبل الرجل فليس لها الحق في أن ترث، أو تملك أي لم يكن لها حقوقا مدنية، بـل انحـط مستـوى المـرأة حتـى اعتبروهـا مـن سقـط المتـــاع[١١٨].

وكانت المرأة الرومانية والمسيحية عامة أفضل من غيرها، ومع ذلك لم تنل حقوقها ولم تعامل كالرجل مثلا[١١٩]. ولم تضارع المرأة العربية مكانة الا أختها المصرية والتي كان لها الكثير من الامتيازات[١٢٠].

---

١١٢ ــ إبن حبيب، المنمق ص٥٠٨، المحبر ص٣٠٥.
١١٣ ــ إبن حبيب، المنمق ص٥٠٦، ٥٠٧.
١١٤ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٣٠.
١١٥ ــ قرضاوي، يوسف، الحلال والحرام في الإسلام ١٩٧٨م ص١٨٥.
١١٦ ــ الحوفي، نفس المرجع ص٥٦، ٥٧.
١١٧ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ١٦/٢٤٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦١٧.
١١٨ ــ لوبون، المرجع السابق ص٤٠٦، ٤٠٨.
١١٩ ــ لوبون، نفس المرجع ص ٤٠٦، الحوفي، المرجع السابق ص٤١، ٦١.
١٢٠ ــ الحوفي، نفس المرجع ص٧٠.

وكانت المرأة القرشية عامة تعيش مرفهة نتبين ذلك من ثراء أهل مكة الذي عاد عليها بالرفاهية والخير، ونتبين ذلك من تعدد أنواع ملابسها واختلاف أسمائها وأشكالها وأنسجتها ومن الملابس المعروفة حينذاك مثل الريطة والمرط[١٢١]، والصدرا والسابري، الجبـة والحبـرة[١٢٢] وكـذلك اللفاع والملحفة (كالخمار أو الشال)، والنطاق والمنطقة، والـطيلسـان، والحلة، والـبرد، والمعـرض، والـبرنس، والمرجّل ثوب منقوش برسوم الرجال[١٢٣]. واستعملت أنواع أخرى من الملابس خاصة بالرأس كالخمار، والمقنع، والبخنق وبعضها لتغطية جزء من الوجه كالنقاب، والوصواص (البرقع)[١٢٤].

واهتمت المـرأة بتجميل نفسهـا وتـزيينها عامة فعمدت إلى الاثمد لتجميل عينها وتكحيلها وأول من اكتحلت به زرقاء اليمامة[١٢٥]، وزينت جسدها ووجهها بطريقة الوشم بواسطة غرز الابر حتى يسيل الدم ثم تذر عليه نوع من الكحل لتلوين الجلد امـا باللون الأخضر أو الأزرق، على أشكـال مختلفـة كصور الحيوانات أو النباتات واستعملت الوسم أيضا الذي يتم بواسطة الكي بقطعة حديد مسخنة على النار[١٢٦].

إضـافـة إلى ذلـك إستعملت المـرأة التنميص لازالـة ما بين الحاجبين من شعر. والتزجيج لازالة زوائد الحاجبين ثم تحديدهما بالاثمد أيضا. وعرفت التفليج بين الثنايا، والرباعيات، وكذلك اتخذت الوشر وسيلة أخرى لتجميل الأسنان وتحزيزها. وتلمية الشفايف بالخضاب. وتولت النساء عمليات التجميل هذه لبعضهن البعض. وكان منهن محترفات يقمن بتجميل السيدات والعرائس ليلة زفافهن[١٢٧].

---

١٢١ ــ الريطـة الملاءة وهي قطعة واحدة، أنظر ابن منظور، المرجع السابق جـ١/١٢٦٦، والمرط كساء من صوف أو خز أو كتان، أنظر ابن منظور، نفس المرجع جـ٣/٤٧١.

١٢٢ ــ السابري، الثوب الرقيق، ابن منظور، نفس المرجع جـ٢/٨٥، الجبة: ضرب من الثياب الواسعة خصص للاماء، ابن منظور، نفس المرجع جـ١/٣٩٣، مادة جب.

١٢٣ ــ الطيلسان، ضرب من الكساء وربما هو كساء أسود، ابن منظور، نفس المرجع جـ٢/٦٠٤ مادة طلس.

١٢٤ ــ ابن منظور، نفس المرجع جـ١/١٦٩، مادة بخنق، وص٢٠٠ مادة برقع، وص٩٠ مادة خمر جـ٣/١٧٤ مادة قنع، وص٦٩٨ مادة نقب.

١٢٥ ــ العسكري، أبو هلال، الأوائل، تحقيق محمد الوكيل، المدينة المنورة ١٣٨٥، ١٩٦٦.

١٢٦ ــ الألوري، آدم عبد الله، الإسلامي وتقاليد الجاهلية ص١٤٠، إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/٩٢٧ مادة وسم وص٣٣ مادة وشم.

١٢٧ ــ إبن منظور، نفس المرجع جـ٢/١١ مادة زجج وص١١٢٤ مادة فلج، جـ٣/٤٠٠ مادة لما ص ٧٢٢ مادة نمص وص٩٣٠ مادة وشر، ، عبد الجبار، المرجع السابق ص٥١٧.

ومن احترفن تجميل النساء وتمشيطهن من المكيات القرشات آمنة بنت عفان، وهي أخت عثمان بن عفان[128]. وتسمى هذه المرأة التي تزين العرائس بإسم القينة.[129] وتعرف بالعامية (المقينة) وكانت تقوم بعملها هذا ولازالت في عصرنا الحديث مع تطور كبير شمل المهنة والاسم أيضا.

وأعطت المرأة اهتماما كبيرا لشعرها والذي هو تاج رأسها، فاعتنت بجماله واطالته، واستعملت لتسريحه أمشاط خشبية أو معدنية من معادن رخيصة أو من فضة أو ذهب، وعملت على تنظيفه بمواد مختلفة فغسلته بنوع جيد من الطين النقي، ومادة الأشنان والخطمى. وكذلك استعملت بعض أوراق الشجر ولحائها في غسل شعرها مثل (ورق الآس)[130]. وأيضا كان بعض النسوة يقمن بعمل الماشطة خاصة للعرائس[131]. وتولت الاماء تمشيط السيدات. وغذت المرأة شعرها ببعض أنواع الدهون. وإذا عجزت عن تطويل شعرها لجأت إلى توصيله بشعر مستعار لاظهاره أكثر طولا[132].

ولم تهمل المرأة البخور والعطور بل اهتمت به أولا ولدرجة انتشاره بين النساء فقد كان منهن بائعات للعطور مثل منشم العطارة[133].

ولاظهار الزينة والجمال عمدت المرأة إلى اظهار بعض مفاتنها ومحاسنها إذا خرجت من بيتها فتكشف عن نحرها، وعنقها وأحيانا تسدل شعرها وتظهره[134] فتجعله في جدائل ملقاة على ظهرها.

واهتمت أولا بالحلي وتزينت بلبسها فمنها الحلي الذهبية، والفضية، فلبست القلادة (العقد) في عنقها والسوار في معصمها، وكذلك لبست الخلخال في أرجلها. والوشاح (الحزام) في خصرها. واستعملت اللؤلؤ في حليها والمرجان. وجلبوا هذين النوعين من بحر الخليج[135]. وقد زينت آذانها بالأقراط الذهبية واللؤلؤية. وذلك تقليدا لهاجر أم اسماعيل حيث أن سارة زوج إبراهيم أرادت التمثيل بهاجر، لينفر منها إبراهيم فثقبت

---

١٢٨ ــ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢/١٠٥.
١٢٩ ــ إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/٢٠٤ مادة قين.
١٣٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦٢٠ وما بعدها.
١٣١ ــ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢/٢٣٠.
١٣٢ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٢٥٧.
١٣٣ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٣/٦٨، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٦٢٦.
١٣٤ ــ قرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، دار القرآن الكريم ١٩٧٨م، ص١٥٥.
١٣٥ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٣٩٢، وما بعدها.

لها أذنيها وخصفتها فكانت هاجر أول امرأة فعلت ذلك[١٣٦].

ولبست المرأة الخواتم في أصابع يدها وفي أصابع أرجلها أيضا: وقد رأينا ذلك كثيرا بين الأعرابيات في البادية إلى وقتنا الحاضر.

هذه الأزياء والحلي الجميلة، والثمينة بمختلف أنواعها جلبها الرجل لأرضاء المرأة وللتعبير لها عن محبته، واعزازه لها سواء كانت أمه أو أخته أو زوجه أو ابنته. وفي ذلك دليل على تكريم المرأة، وعلو مكانتها[١٣٧].

وليس ذلك وحسب بل أنها كانت مستقلة في شؤونها وخاصة الشؤون المالية حيث كان لها مال خاص وتتصرف به كما تشاء سواء باستثماره في أعمال التجارة مثلا أو هبته وأعطاء الغير منه. ولها حرية العمل لتكسب المال وجمعه[١٣٨]. كان لها مالها الخاص، تتاجر فيه مع رجال قومها فتشارك من تشاء وتستأجر الآخر ليذهب بتجارتها ويجلب لها ما ترغب به من بضائع تبيعها في مكة[١٣٩]، مثل السيدة خديجة بنت خويلد.

وأما مصدر ثروتها هذه فقد ورثتها من زوجيها السابقين[١٤٠]. حيث تزوجت السيدة خديجة أولا من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ثم تزوجت أبا هالة وهو هند بن زرارة، ثم تزوجت محمد بن عبد الله. وكانت السيدة خديجة عظيمة القدر في قومها فهي الطاهرة هكذا سميت في الجاهلية وفي الإسلام. وهي سيدة نساء قريش تسابق رجال قومها للزواج منها[١٤١]. وفي نظرنا أنها حصلت على جزء من ثروتها عن طريق والدها أو أحد أفراد أسرتها فقد اشتهر منهم أثريا. واشتهرت السيدة بالحزم والعقل، والشرف. أشتغلت بالتجارة وبرعت بها. وكان لها من الخدم والرقيق الذين يتولون أعمالها التجارية منهم ميسرة خادمها والذي يرافق أجرائها من رجال قريش الذين يذهبون بتجارتها[١٤٢]. واشترى لها إبن أخيها حكيم بن حزام زيد بن حارثة من سوق

١٣٦ ــ العسكري، المرجع السابق ص٣١٣.

١٣٧ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٣٩٧.

١٣٨ ــ وقد ولدت السيدة خديجة سنة ٥٥٦م أنظر،

NARYAN OP., CIT, P. 165.

١٣٩ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ ١٩٦/٢، حتى تاريخ ص١٣٦.

١٤٠ ــ بروكلمان، المرجع السابق ص٣٣.

١٤١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٢١٥/١.

١٤٢ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١٩٠/١، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢٤، ٢٥، الأفغاني، أسواق العرب ص ١٣٢.

حباشة. وهو الذي وهبته إلى محمد بن عبد الله بعد زواجها[١٤٣]. وكان لها مخزن ملحق بدارها تحفظ فيه بضائـع تجارتها وقـد تاجرت في المـادة الأكثـر ربحـا وهـي تجـارة البـر[١٤٤].

وبلغ من استقلال هذه السيدة الثرية وحريتها أنها هي التي اختارت محمدا زوجا لها وأنها أرسلت اليه نفيسة بنت منية لتحدثه في ذلك وتبحث معه الأمر قبل الخطبة[١٤٥].

وكذلك الأمر لأسماء بنت مخربة[١٤٦] وهي أم أبي جهل وأم عبد الله بن أبي ربيعة فكانت تاجرة، تخصصت في تجارة العطور، التي تجلبها من جنوب الجزيرة وأسواقها وتبيعها في مكة. وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان، من تاجرات مكة المعروفات[١٤٧]. والتجارة هي الحرفة الأولي التي مارستها المرأة القرشية يليها بعض الحرف البسيطة التي اشتغلت بها، ولكن بقـدر ضئيل وأعـداد صغـيرة وما عدا ذلك فمارسته الأماء فقط وسنذكره في موضعه.

وهنالك العديد من النساء الموسرات، فهذه نتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب سيدة ثرية. قامت بكسوة الكعبة الديباح والحرير الخالص[١٤٨]. على حسابها الخاص عندما وجدت العباس بعد أن تاه منها. وهذا يدلنا على أن المرأة ملكت المال الخـاص بها وتصرفت به وأتـاها هذا المال عن طريق الصداق، أو الارث أو الهبات والأعطيات من ذويها كالأب أو الأخ أو الزوج[١٤٩].

كما احترفت المرأة بعض المهن الشريفة فمن ذلك أنها تغزل وتنسج حتى لو كانت ثرية غنية حيث تتـولى الغـزل والنسج مع جواريها وإمائها فكان لسمراء زوجة عبد المطلب ثلاث جوار، يخدمنها ويجلسن معها لتسليتها فيحدثنها بأخبار بلادهن ويغنين لها، ويغزلن معها[١٥٠].

وزينب بنت جحش وهي من أسد خزيمة، أمها أميمة بنت عبد المطلب القرشية.

---

١٤٣ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ١/٢٨٦.
١٤٤ ــ إبن بكار، المرجع السابق ص ٢٧١.
١٤٥ ــ إبن الأثير، الكامل جـ٢/٢٥، طه حسين، المرجع السابق ص٤٠٠.
١٤٦ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ١/٥٤.
١٤٧ ــ SIDDIQUI, OP., CIT, P. 29 - 30
١٤٨ ــ إبن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٦٥، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٨.
١٤٩ ــ أبو طاهر، بلاغات النساء ص ١٦ وص ١٢٨ و ١٢٩.
١٥٠ ــ طه حسين، المرجع السابق ١٩٣.

فعاشت زينب في مكة، وكانت امرأة صناع تتكسب بعمل يدها. وقد تزوجت مولى النبي زيد بن حارثة ثم طلقها فتزوجها النبي ﷺ واستمرت تعمل وتتصدق بكسبها في سبيل الله[١٥١].

وكذلك كانت منشم العطارة تبيع الطيب وتقدمه في الجفان عند الحرب ليغمس القوم أيديهم في عطرها كعادتهم. ولشهرة عطرها صار مضربا للمثل (عطر منشم) وباعت أيضا حنوط الأموات من طيوب وأعشاب توضع للموتى[١٥٢].

واحترفت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن عدي بن كعب[١٥٣]، الطبابة فكانت تعالج النملة بالرقية[١٥٤]. وعموما كان التمريض هو عمل المرأة في الحروب[١٥٥].

ورغم إنتشار الاسترضاع، واحتراف بعض النسوة به والتماس الأجر عليه ولكن بعض العربيات أنفنه حتى قالوا مثلا يجرى كالقانون بينهن (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها)[١٥٦]. ولم تحترفه القرشية فلم تسترضع قط. وبصفة عامة فقد كان الأسترضاع في البوادي والنجوع. ولذلك إلتمسوا المراضع خارج مكة لأسباب عدة منها التفرغ للزوج، وعدم الانشغال عنه بالأطفال وارضاعهم والعناية بهم. وأيضا الحرص على تنشئة الأطفال في البادية لاكتساب قوة الجسد، وفصاحة اللسان[١٥٧]. وكذلك في حالة يتم الطفل بموت أمه. والتمسوا لمحمد بن عبد الله حليمة بنت ذؤيب السعدية، لترضعه وتنشئه بين أحضان الطبيعة النقية في البادية (بادية بني سعد)[١٥٨]. ومن المعروف بين العرب أن تقوم النسوة من ذوي القربى أو الصواحب بارضاع أولاد

---

١٥١ ــ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٤٦٣، ٤٦٤، العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢/٢٧٥، ٢٧٦.

١٥٢ ــ إبن الجوزي، المرجع السابق ص ٧٠٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦٢٦.

١٥٣ ــ إبن حزم، المرجع السابق ص١٥٠.

١٥٤ ــ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٣/٤، ٥ إبن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر، الطب النبوي، حققه عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ صض ١٣.

١٥٥ ــ إبن قيم الجوزية، نفس المرجع ص٣٠، ٣١.

١٥٦ ــ أي لا تكون ظئرا وان آذاها الجوع، أنظر الميداني، المرجع السابق جـ١/٢١٥.

١٥٧ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٨٧.

١٥٨ ــ إبن هشام، المرجع السابق جـ١/١٦٧، ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٣٢٢
RODINSON, OP. CIT P. 44

بعضهن البعض، وهذه هي (الاخوة بالرضاع) وكان حمزة بن عبد المطلب عما لمحمد بن عبد الله وأخا في الرضاع[١٥٩].

والكهانة احترفها العديد من الرجال والنساء، ولم يكن أحد من أهل مكة كاهنا، بدليل ذهاب عبد المطلب الى خارج مكة للاحتكام إلى الكاهنة في أمر نذره بذبح أبنه عبد الله.[١٦٠] وذهب عتبة بن ربيعة كذلك مع ابنته هند والفاكه بن المغيرة زوجها، إلى كاهن باليمن. ومن كاهنـات العـرب طريفة الكاهنة[١٦١]، وكاهنة بني سعد اسمها هذيم[١٦٢]، والغيطلة كاهنة بني مرة[١٦٣]. ماعدا واحدة منهن قرشية وهي سوداء بنت زهرة. وقد ولدت سوداء هذه زرقاء شيباء رغب أبوها في وأدها كعادتهم في وأد البنات وذوات العاهات منهن ولكن هاتفا، أو هي يقظة ضمير الدافن منعت ذلك فعاشت ثم احترفت الكهانة وهي التي تكهنت لآمنة بنت وهب بمولود النذير وهو ابنها محمد.

هكـذا كانت المـرأة القـرشية تعيش في حرية أعـطتها قوة في الشخصية ومنحتها الشجاعة النفسية. واتساع الأفق للتعبير عن رأيها بفصاحة لسان، وجرأة جنان ولعلو مكـانتهـا في مجتمعها لقد استأمنها القوم على عهودهم، ومواثيقهم الخاصة والعامة. والمتعلق منها بأخطر أمور الساعة وأعظمها شأنا، وما يخص سياسة مكة الداخلية. فقد حفظت قريش لدى أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية ميثاق المقاطعة ضد بني هاشم وبني عبد المطلب بعد أن كتبه منصور بن عكرمة العبداري[١٦٤]. وهذا أوضح دليل على ما كان للمرأة من مشاركة فعلية في حياة الأمة.

وهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية أول خلفا بني أمية، وكانت قبل ذلك زوجا للفاكه بن المغيرة المخزومي[١٦٥] فلما شك في شرفها وأساء الظن بها حتى تكلم الناس بسيرتها. احتكموا إلى كاهن باليمن هي وأبوها عتبة وزوجها الفاكهة فلما برأ الكاهن ساحتها، وبشرها بمعاوية وأنه سيكون ملكا، طلبت الطلاق من الفاكهة،

---

١٥٩ ــ طه حسين، المرجع السابق ص٤٩٧.

١٦٠ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٧٧.

١٦١ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٦٧.

١٦٢ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٤٠٨، ٤٠٩.

١٦٣ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٦.

١٦٤ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة جـ٢/١٠١)، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٨٤، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٦١.

١٦٥ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٥٦٣.

وأملت أن تتحقق النبوءة من غيره[١٦٦].

واشتهرت هند بالعقل وسداد الرأي وأنها ذات كبرياء وأنفة، وقد شاركت وفد نساء مكة يوم الفتح لمبايعة النبي ﷺ وقبول اسلامهن فتلى قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾[١٦٧] عندها قامت هند لتناقش وترد قائلة: (يارسول الله وهل تزني الحرة أو تسرق)[١٦٨] وأثر عنها أيضا قولها: (انما النساء أغلال فليختر الرجل غلا ليده)[١٦٩]. وشهدت مع قومها معركة أحد لتثأر لأبيها وعمها وأخيها (عتبة، وشيبة، والوليد) قتلى بدر. وكانت تبث الحماس بين صفوف المحاربين من قريش وتهزج قائلة:

نحن بناتُ طارق نمشي على النمارق أن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وعملت على استهداف حمزة بن عبد المطلب قاتل ذويها. حيث أرسلت العبد وحشي بين المقاتلين. فقتله وأخبرها، فذهبت إلى حمزة وبقرت بطنه ثم أخرجت كبده، وبوحشية الثأر والانتقام نهشت قطعة من كبد حمزة ولاكتها ثم ألقت بها من فمها[١٧٠]. ولذا عرفت باسم (هند آكلة الكبود). وفي يوم أحد أيضا أشارت على قومها أن ينبشوا قبر آمنة بنت وهب أم محمد حيث موضعه بالأبواء، ليستعملوا رفاة القبر في فداء أسرى قريش. ولكن خاف القوم من نتائج هذه الفعلة، ورفضوا مشورتها تلك[١٧١].

ومن هنا تتضح لنا مشاركة المرأة القرشية في حروب ومعارك قومها في أيام الفجار، وفي معاركهم مع المسلمين في بدر، وأحد. وخرجت مع هند في موقعة أحد أمية بنت سعد بن وهب، وبرزة بنت مسعود الثقفي، والنعوم بنت المعذل[١٧٢]. وكذلك اشتركت عمرة بنت علقمة الحارثية وهي التي حملت لواء قريش ورفعته بعد سقوطه. فعاد الفارون إلى دائرة الوغى وحاربوا مرة أخرى وانتصروا[١٧٣]. وفي المعركة نفسها،

---

١٦٦ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٨/١٠٣.
١٦٧ ــ سورة الممتحنة آية ١٢.
١٦٨ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٥٦٣، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/١٣٤.
١٦٩ ــ المبرد، المرجع السابق جـ١/١٧٧، الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/٢٦٧.
١٧٠ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٥٦٢.
١٧١ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٧٢، ٢٧٣.
١٧٢ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٠٤، السالم، المرجع السابق ص٤١٩.
١٧٣ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٠٧، الحوفي، المرجع السابق ص٤٤٠.

مع المسلمين شاركت نسيبة بنت كعب وهي أم عمارة، وأم أيمن (بركة)، وشاركت بعض المسلمات بالقتال الفعلي بالسيوف والرماح، وأولهن صفية بن عبد المطلب، وخولة بنت الأزود، والربيع بنت معوذ الأنصارية[١٧٤]. وقد سار المسلمون في اصطحاب النساء في معاركهم كعادتهم منذ الجاهلية ومنذ زمانهم الأول وداموا على تلك العادة في صدر الإسلام حيث قامت السيدة عائشة (أم المؤمنين) وتزعمت موقعة الجمل ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[١٧٥].

وساهمت المرأة العربية عامة بمجهودها في المعارك في مختلف النواحي، تبث الحماس في قلوب الرجال وتحثهم على التغلب على أهوال المعارك وذلك ما حققته بنت عتبة كما ذكرناه آنفا، وتولت النساء تمريض الجرحى، والعناية بهم من تضميد جروح، وتغذية وسقي الماء للمحاربين أيضا[١٧٦].

وقامت المرأة بأعمال التجسس، فتلك الجاسوسة سارة مولاة بني عبدالمطلب استأجرها حاطب بن أبي بلتعة بجعل كبير على أن تذهب بكتابه إلى قريش في مكة. لابلاغهم بعزم محمد بن عبد الله على المسير إليهم. وقد أخفت الكتاب بين جدائل شعرها، وسارت فتمكن علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام من اللحاق بها، وأخذ الكتاب منها[١٧٧]. وان كانت هذه الجاسوسة غير قرشية الأصل ولكنها مولاة أحد القرشيين، فهي قرشية بالولاء ولعلها مارست مثل هذا العمل قبلا.

ونالت المرأة القرشية حق اجارة المظلوم واستئمان الخائف، وفداء الأسير ويقبل ذووها منها كل ذلك. فأم حكيم بنت الحارث المخزومية بنت فاطمة بنت الوليد (أخت البطل) شهدت أحدا مع قريش وأسلمت يوم الفتح. ولكن هرب زوجها عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن فأستأمنت له النبي ﷺ، واستأذنته في البحث عنه وارجاعه. وفعلا تمكنت منه وأعادته، فأسلم. وبعد موت عكرمة تزوجها خالد بن سعيد أثناء معركة المسلمين مع الروم وحاربت معهم أم حكيم فقتلت سبعة من الروم يومئذ[١٧٨]. وأجارت أم

١٧٤ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص٤٥٦، ٤٥٧، العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢/٢٥١، ٢٥٢، جـ١٣/٢٠ و ص ١٥١ ـ ١٥٢، ص١٧٩، السالم، المرجع السابق ص ٤٥٣، ٤٥٤.

١٧٥ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥.

١٧٦ ــ الأفغاني، الإسلام والمرأة ص٢٠، السالم، نفس المرجع ص ٤٥٣ ، ٣٥٤.

١٧٧ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص١٤، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/١١٣، ١١٤

١٧٨ ــ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٥٧٧

هانيء بنت أبي طالب الرجل الذي طارده أخوها علي وأراد قتله يوم الفتح[١٧٩]. وافتدت زينب بنت محمد بن عبد الله زوجها أبو العاص بن الربيع لما أسر في غزوة بدر وأرسلت في فدائه بمال وقلادة وهبتها اليها أمها خديجة يوم زفافها إلى أبي العاص[١٨٠].

وسنذكر أسماء بعض النسوة اللائى ذهبن للمبايعة يوم فتح مكة. منهن هند بنت عتبة كما ذكرنا، ويبلغ عدد المبايعات ثلاثون امرأة وهن بناته ﷺ زينب، وأم كلثوم، وفاطمة، ورقية. ثم عماته صفية بنات عبد المطلب وأخواتها أروى وعاتكة. ثم بنات العمومة صفية، وأم الزبير، وضباعة، وأم الحكم بنات الزبير بن عبد المطلب. وأم هانيء وجمانة بنتا أبي طالب. ودرة بنت أبي لهب، وأم أيمن (بركة أم أسامة بن زيد) وسلمى زوج أبي رافع وهي مولاة النبي ﷺ.

ومن آل المطلب أم رقية بنت عمرو بن هاشم، وبحينة بنت الحارث ومن آل نوفل خولة بنت حكيم، وآل عبد شمس أروى بنت كريز أم عثمان بن عفان وهي أم الوليد بن عقبة، ومعها ابنتها أم كلثوم بنت عقبة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ومن حلفاء قريش زينب، وأم حبيبة وحمنة بنات جحش، وجدامة بنت جندل الأسدية، ومن آل عبد الدار بركة بنت يسار مولاة لهم يمنية[١٨١].

بايعت النسوة من قريش في هذا الوفد مبايعة اسلام وتسليم بالطاعة لولي الأمر، وهي مشاركة فعالة من المرأة في أحداث الأمة في السلم والحرب. وفي تاريخ الإسلام نجد في بيعة العقبة الثانية امرأتين هما أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب زوجة زيد بن عاصم والأخرى أسماء بنت عمرو (وأم منيع) وليس ذلك فحسب بل كن يطالبن بحقوقهن من النبي في صراحة وجراءة وموضوعية[١٨٢].

وكانت المرأة تحضر اجتماعاتهم السياسية وتشارك فيها فمن ذلك أن عاتكة بنت مرة بن هلال زوج عبد مناف اشتركت في حلف الأحابيش بل أنه تم على يديها.[١٨٣] واشتركت احدى بنات عبد المطلب وهي أم حكيم البيضاء، في حلف المطيبين فهي التي أخرجت لهم جفنة الطيب ليتضمخوا بعطرها[١٨٤].

---

١٧٩ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٤/٩٣، الحوفي، المرجع السابق ص٥٣٧.
١٨٠ ــ السهيلي، نفس المرجع (متن السيرة) جـ٣/٥٨، الحوفي، نفس المرجع ص٢٨٧.
١٨١ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٤٠٦، ٤٠٩.
١٨٢ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/٢٠١، ٢٠٢.
١٨٣ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٤١، ٢٤٢.
١٨٤ ــ اليعقوبي، نفس المرجع جـ١/٢٤٨.

ولذات الناطقين شهرة عظيمة في التاريخ الإسلامي لأنها كانت بطلة أنجبت بطلا. فهي أسماء بنت أبي بكر التيمية القرشية، والبطل ابنها عبد الله بن الزبير. وكانت تقوم بحمل الطعام في حزام ثوبها (نطاقها) وتوصله إلى النبي ﷺ وأبيها حيث كانا في غار ثور يوم هجـرتهـما من مكة إلى المدينة، وكانت تتخفى عن عيون القوم من قريش. فتزودهما باحتياجاتهما من الماء والطعام في ذلك المخبأ. وهي أخت عائشة رضي الله عنهما وأسن منها وقد كان مولدها حوالي عام ٥٩٥م[١٨٥].

ويقابل شجاعة أسماء اشتهار المرأة التيمية بالدلال والحظوة[١٨٦]. وكانت أم أنمار الفـارية تعيش في ضواحي مكـة، ويجتمع اليها رجال قريش في فناء دارها تخالطهم وتشاركهم الحديث. وقد وصفت بأنها (برزة من النساء)[١٨٧].

ويقابل شهرة المرأة القرشية وفعالية دورها في المجتمع أن وصمت سعيدة الأسدية، بالحمق وسميت (خرقاء مكة) وقد ذكرها القرآن الكريم[١٨٨] وحسبنا أنه مثال فردى لا يدل على عمومية فأن لكل مجتمع مثالبة ومناقبة.

ومن ذلك نلمس أن المرأة القرشية وغيرها ممن عشن في مكة تمتعن بحرية في تعاملهن مع المجتمع وشاركت في حياة أمتها بأحداثها المختلفة وفي شتى المجالات سواء منها الاجتماعية أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الدينية فقد أثبتت المرأة وجودها وتعايشت مع الـرجـل بلا ضغـوط أو تمرد. وأخذت العطاءات لتردها إيجابيات فعالة في حياة المجتمع المكي الآمن.

الرقيـــــق :

الحرية أو الرق لا تمنع الانسان من شعوره بإنسانيته وآدميته مهما اختلفت أوضاعه ومهـما ارتقت أو دنت منـزلتـه. هذه حقيقـة لم يدركهـا ولم يعيها أثرياء مكة وتجارها

---

١٨٥ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٣٩٢، ٣٩٣، العسقلاني، المرجع السابق جـ١٢/ ١١٤، ١١٥.

١٨٦ ــ العقاد، عباس محمود، عبقرية الصديق، مصر، ١٦١ ص١١.

١٨٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٥٥، ٢٥٦، وامرأة برزة، جليلة تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون عنها، أنظر إبن منظور، المرجع السابق جـ١/١٩٣ مادة برز.

١٨٨ ــ (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) سورة النحل آية ٩٢، السيوطي، المرجع السابق ص٣٦٤.

وفرسانها، الذين تكالبوا على جلب الرقيق إلى مكة بوسائل متعددة إما عن طريق الشراء أو السبي. وقد انتشر الرق في العالم منذ القدم.

وكثر الرقيق في بيوت أغنياء مكة، فامتلك السيد القرشي العديد من ذلك الرقيق بنوعيه ذكورا وإناثا، وبلونية الأسود والأبيض. وتناسى السيد المالك في معظم الحالات أن عبيده واماءه كائنات بشرية فلم يصن انسانيتيهم وآدميتهم وعلى ذلك فقد كانت هذه الفئة ترزح في الحضيض تحت نير سادتهم وطغيانهم عليهم. وتعتبر أدنى طبقات المجتمع في مكة وتقوم بكافة أعمال الخدمة[١٨٩].

وامتلك أهل مكة عبيدهم واماءهم عن طريق الشراء غالبا. وقلة منهم عن طريق الأسر والسبي، نظرا لقلة حروب قريش وقلة اشتراكهم في الغزو والغارات[١٩٠]. وشراء رقيقهم يتم من أسواق تجارة الرقيق. فلشدة حاجة المجتمع إلى هذه البضاعة الحية خصصوا لها الأسواق وشدوا الرحال إليها لجلب الرقيق ومن مصادره الأصلية في شواطيء افريقية كالحبشة ومن هنا يكون الرقيق الأسود[١٩١]. وفي الشمال كبلاد الشام والعراق وأسواق أوروبا جلبوا الرقيق الأبيض اللون. ويكون أغلى ثمنا من الرقيق الأسود[١٩٢]. وكذلك جلبوا الرقيق من الهند وفارس، ومصر، وبلاد الروم[١٩٣]. وكان بعض الرقيق من أصل عربي حيث تأسر القبيلة بعض أفراد قبيلة أخرى في غارة من غاراتهم ثم تسترق هذا بالسبي العنف والقوة وتبيعهم في أسواق الجزيرة بالمال إلى المشترين من تجار القبائل، وعرفت تجارة العبيد بإسم النخاسة. وقد كان عبد الله بن جدعان تاجر للرقيق أو (نخاسا) بل أكبر تجار قريش. ودليل على أهمية النخاسة في مكة ورواجها بين قريش سوق الرقيق الذي نظم خصيصا لهذا النوع من التجارة عند جبل أبي قبيس قبل جبل فاضح[١٩٤]، أي في وسط المدينة تقريبا. وعلى مقربة من الحرم. وتداولها في سوق عكاظ أيضا. وفي الجزيرة العربية أسواق للنخاسة غيرها مثل سوق دومة الجندل[١٩٥].

---

١٨٩ ــ كحالة، مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام ١٩٧٤م دمشق ص٦.
١٩٠ ــ طه حسنين، المرجع السابق ص١٥.
١٩١ ــ الشريف، مكة والمدينة ص٣٧.
١٩٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٩.
١٩٣ ــ الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي ١٩٦٩م ص٣٤.
١٩٤ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٨٢ حاشية ٧، جـ٢/٢٦٩ حاشية ٢.
١٩٥ ــ الأسد، القيان والغناء ص٣٥.

تاجرت قريش في الرقيق وجلبته إلى مكة للتجارة والربح ، ولتوظيف هذه الآلات البشرية وطاقاتها لخدمتهم في شتى المجالات.

وأسوأ أوضاع هذه الفئة المستعبدة أنها مملوكة للسادة ولا تملك شيئا فلا تملك المال على الاطلاق ولا حتى أمر نفسها ولم يكن للعبد حق حتى في تزويج نفسه الا برضاء سيده وعلى أن يتزوج أمة من جنسه(١٩٦) . وليس لهم أية حقوق مادية أو معنوية، ولا حقوق اجتماعية ولا سياسية(١٩٧) . فليس لهم حقوق مدنية . ويعمل هؤلاء الرقيق بقوت يومهم أي بمأكلهم وملبسهم وسكنهم، مقابل الأعمال العديدة الملقاة على عواتقهم(١٩٨) .

وتعددت جنسيات أولئك الرقيق فمنهم الحبشي ومنهم الرومي ، والفارسي ، ودان الرقيق الأبيض بالنصرانية . كما أجاد البعض من هذا الرقيق القراءة والكتابة(١٩٩) . وأتقن البعض الآخر المهن الحرفية اليدوية وبرع فيها كالحدادة والنجارة . وكذلك الحلاقة ، والحجامة . حيث كان العربي يأنف من هذه الحرف(٢٠٠) . إضافة إلى انشغال أهل مكة بالتجارة وسدانة البيت وخدمة الحجاج ونحو ذلك من أعمالهم الخاصة بهم والتي تفرغوا لها ، ووظفوا عبيدهم في تلك الأعمال الأخرى التي تركها السادة ، وتخلوا عنها . وقد وزعوا عبيدهم على مختلف الأعمال مع ايجاد نوع من التخصص وجعلوا ذلك على عدة أوجه :

١ ــ الرقيق الأبيض وظفوه في أعمال فنية تحتاج إلى الخبرة والمران إضافة إلى البراعة والمهارة في انجاز العمل مثل البناء ، والنجارة ، والحدادة ، وبعض الحرف الدقيقة . والمساعدة في إدارة أعمال التجارة وشؤونها(٢٠١) .

٢ ــ الرقيق الأسود وقد عمل في رعي المواشي . وساس الخيل ، والخدمة في البيوت وفي الأسفار . ثم استغلال مجهودهم العضلي في العمل في مزارعهم ، وأراضيهم خارج مكة(٢٠٢) .

---

١٩٦ ــ الشريف ، مكة والمدينة ص٣٨ .
١٩٧ ــ كحالة ، مباحث اجتماعية ص٧ .
١٩٨ ــ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/١١٨ .
١٩٩ ــ جواد علي ، نفس المرجع جـ٦/٥٨٩ .
٢٠٠ ــ الشريف ، نفس المرجع أعلاه ص٣٨ .
٢٠١ ــ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/١١٩ ، ١٢٠ .
٢٠٢ ــ طه حسين ، المرجع السابق جـ١/١٥ .

٣ ـ خصصوا للاماء عامة الخدمة في البيوت كاعداد الطعام ونحوه وكذلك في خارجها لجمع الحطب وحلب النوق. والاعتناء بسيدات قريش من تلبيس وتزيين وتمشيط وعناية خاصة بالشعر وتفلية الرأس، وتقوم الأمة بعملية التفلية للرجال والنساء على السواء(٢٠٣). وكذلك اتخذ السادة بعض الاماء زوجات، أو خليلات لامتاع السيد في أوقات السمر والتسلية يدخل بهن السيد دون عقد فهن ملك يمينه.
وقسم أكبر من الاماء للتجارة بيعا وشراء. أو غانيات للترفيه عن شباب مكة ومضيفات لتقديم وادارة كؤوس الخمر بين السمار، وتأجيرهن للبغاء، وللاستيلاد فيبيع أولادهن اماء وعبيدا(٢٠٤).

٤ ـ توظيف الرقيق في الحروب للدفاع عن السيد، حيث يدفع كل سيد بعبيده للحرب مع الفرسان عند الدفاع عن القبيلة(٢٠٥). والاماء لخدمة ومساعدة النساء المشتركات في المعركة. وقد اشتهر الكثير من العبيد وأبناء الاماء بالفروسية(٢٠٦).

وقد بلغ من كثرة الرقيق في مكة أن هندا بنت عبد المطلب أعتقت أربعين عبدا في يوم واحد، وكذلك فعل سعيد بن العاص اشترى مائة عبدا وأعتقهم(٢٠٧).

ونعرف من هذا الرقيق ميسرة خادم خديجة بنت خويلد الذي قام بأعمال تجارتها مع من تستأجر من رجال قريش. فقد صحب محمد بن عبد الله عندما ذهب إلى الشام بتجارة السيدة(٢٠٨). ونعرف زيد بن حارثة وهو عربي من قضاعة اشتراه لها ابن أخيها حكيم بن حزام بأربعمائة درهم. وقد وهبته إلى محمد بعد زواجها(٢٠٩).

وهنالك في مكة العديد من هذا الرقيق، وكان منهم جبر، ويسار عبدين لبني الحضرمي وهما أصلا من صقلية. ثم بلعام وقيل اسمه أبو اليسر وهو نصراني(٢١٠).

---

٢٠٣ ـ الأسد، القيان والغناء ص٣٦، ٣٧.
٢٠٤ ـ الأسد، القيان والغناء ص٣٨، ٣٩، ٤١، الحوفي، المرجع السابق ص٥٠٣ وما بعدها.
٢٠٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٩.
٢٠٦ ـ الحوفي، نفس المرجع ص٤٩٦.
٢٠٧ ـ الشريف، مكة والمدينة ص٢٢٨، ٢٢٩.
٢٠٨ ـ السهيلي، المرجع السابق (السيرة) جـ١/٢١٢.
٢٠٩ ـ إبن سعد، المرجع السابق جـ٣/٤٠.
٢١٠ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٢١.

وبلال بن رباح، أمه حمامة وكان عبدا لأمية بن خلف[٢١١]. وسمية كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي زوّجها إلى خليفه ياسر فأنجبا عمار بن ياسر[٢١٢].

وأم أيمن الحبشية اسمها بركة تزوجها عبيد الحبشي وكنيت بابنها أيمن وكانت أمة لعبد الله بن عبد المطلب فأعتقها ثم صارت مولاة لأبنه محمد وهي التي قامت بحضانته ثم تزوجت زيد ابن حارثة[٢١٣]. وسلمى امرأة أبي رافع كانت مولاة لصفية بنت عبد المطلب وقد احترفت مهنة التوليد فكانت (داية) أو قابلة كما تسمى اليوم[٢١٤].

وكـان لابن جدعـان ست قيان للبغـاء ثم يستغـل نتـاج هذا البغاء للبيع (يبيع أولادهن)[٢١٥] وكان للبغايا رايات منصوبة على بيوتهن، وفي أسواق العرب أيضا[٢١٦]. للتعريف بتلك البيوت فيأمها قاصدها. وعرف أولئك النسوة بإسم (صواحب الرايات الحمـراء)[٢١٧]. ولابن جدعـان أيضا قينتان للغناء[٢١٨]. ومن هذا يتضح أن الاماء احترفن الغناء واشتهرن به. والأمة الغانية هي القينة، واشتهرت القينة بغنائها منذ عهد العمالقة في مكة حيث كان لمعاوية بن بكر العمليقي أمتين للغناء. وإذا اشتهر أحد الناس قيل (صار فلان حديث الجرادتين). ولذا سميتا جرادتا ابن جدعان بجرادتي عاد[٢١٩].

وكان لقيس بن عبد قيس قينتان تغنيان لشباب قريش في ليالي سمرهم[٢٢٠]. وكان لابن خطل وهو هلال بن عبد الله بن عبد مناف قينتان للغناء أيضا. وقد غنتا بهجاء النبي ﷺ وسلم[٢٢١].

وعـرفت المغنية بأسـماء متعـددة منهـا الكـرنية، والمسمعة، والداجنة والصدوح،

---

٢١١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/٧٨.
٢١٢ ــ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٤٨١، ابن الجوزي، المرجع السابق ص٣٢٠.
٢١٣ ــ إبن الأثير، أسد الغابة نفس الجزء ص ٥٦٧.
٢١٤ ــ إبن الأثير، أسد الغابة نفس الجزء ص ٤٧٨.
٢١٥ ــ الحوفي، المرجع السابق ص ٥٠٦.
٢١٦ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٢٤٠.
٢١٧ ــ جواد علي ، المرجع السابق جـ٥/١٣٩.
٢١٨ ــ الأصفهاني، المرجع السابق جـ٨/٤.
٢١٩ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٥٦٢.
٢٢٠ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/١١٨.
٢٢١ ــ ابن دريد، المرجع السابق ص١٠٦.

والصناجة، والجرادة[٢٢٢].

وتمارس القينة غناءها فيكون خاصا مقتصرا على سيدها، أو عاما لجميع رواد الحانة[٢٢٣]. وهنا تكون محترفة للغناء تتعيش منه. أو أجيرة لسيدها فتدفع له أجرها مقابل تكلفه بها وبنفقاتها. أو تدفع له جزء من الأجر كضريبة وتقوم باعالة نفسها. وكذلك الأمر بالنسبة للبغاء فهي تدفع له أجرها، ونتاج بطنها أيضا[٢٢٤].

من كل ما تقدم يتضح لنا أن للسيد سلطة كاملة، ونفوذ تام على عبيده، وامائه. وتتضح سلطته أكثر في تعذيب أولئك العبيد والاماء أيضا إبان ظهور الدعوة الإسلامية في مكة لأن الرقيق المضطهد سارع إلى إعتناق الإسلام والمشاركة الفعالة في هذه الثورة الدينية الحقة والاجتماعية. خاصة وأن الإسلام أعطاهم حقوقا كثيرة أفتقدوها في حياتهم. وضمن لهم المساواة والعدالة الانسانية الاجتماعية الرائعة. فما كان من السادة إلا أن هبوا لمقاومة الرقيق وازدادوا في اضطهادهم بالتعذيب بشتى ألوانه وأنواعه الممكنة. فلجأوا إلى جلدهم بالسياط، وكيهم بالصخور الملتهبة من حرارة الشمس كما فعل أمية بن خلف بعبده بلال بن رباح[٢٢٥].

وكما فعلوا بآل ياسر حتى أن سمية ماتت بالتعذيب فكانت أول شهيدة في الإسلام[٢٢٦].

وهكذا سام السادة عبيدهم أسوأ ألوان العذاب والاضطهاد. وأساءوا معاملتهم اجمالا ولم يكن لهذا الرقيق أملا في الخلاص من ذلك الا بوسيلة العتق عندما يقوم السيد بتحرير رقيقه من العبودية، ويتم عتق العبيد في مناسبات متعددة. منها إذا أدى لسيده عملا جليلا، وخدمة عظيمة أنقذت السيد من خطر محدق كموت أو فضيحة أو خسارة مادية، أو انقاذ أحد أفراد الأسرة. أو يقوم العبد بدور بطولي في حرب من الحروب. وكذلك عند وقوع حادثة مفرحة للسيد كمولد طفل منتظر، أو زواج أو كسب مالي فيقوم السيد عند ذلك بعتق أحد عبيده. ويكون العتق تقربا إلى الآلهة، أو بعد موت السيد ويسمى العبد المحرر في هذه الحالة المدبر وأحيانا يقوم العبد بتحرير نفسه بالمال، أي يشتري حريته بأن يدفع لسيده المبلغ المطلوب ثمنا له مقابل منحه الحرية ويسمى العبد

---

٢٢٢ ـ الأسد، القيان والغناء ص٢٥ وما بعدها

٢٢٣ ـ الأسد، القيان والغناء ص٤٢.

٢٢٤ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٥٠٦.

٢٢٥ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ٤٨٠.

٢٢٦ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/٧٨.

المحرر لنفسه المكاتب[٢٢٧]. وكذلك الحال بالنسبة للأمة. ويجمع العبد هذا المال الذي يشتري به نفسه عن طريق العمل بحسب مهارته في ذلك وقد يدفع العبد ذلك المبلغ على دفعات متعددة. ويكون العبد بعد حصوله على العتق وتحرره من الرق حليفا مواليا لسيده[٢٢٨].

وكان هذا الرقيق من جنسيات مختلفة (من بلاد مختلفة) ويدين بالنصرانية واليهودية، والمجوسية. انبث في المجتمع المكي بعاداته وعقائده. ولكن لسوء أوضاع الرقيق عامة كان تأثيرهم الديني ضعيفا على المجتمع رغم كثرة أعدادهم وعظم خدماتهم للمجتمـــع عامة وفي شتى المجالات.

عناصر سكانية من غير قريش:

ذكرنا أن قريش البطاح هم سكان بطن وادي مكة وقريش الظواهر هم أولئك الذين نزلوا حول الوادي أي بضواحي مكة وظواهرها على بعد مرحلة. وكان سيد الظواهر الخطاب بن مرداس، وكان يأخذ منهم المرباع وقد حضر حروب الفجار[٢٢٩].

وقد ساكن أهل مكة سواء في بطاح الوادي أو في ظواهره بقية من قبائل أخرى تخلفت في مكة ممن كان فيها قبل قريش مثل عشيرة من قبيلة كنانة ومنهم بنو فقيم وهم نسأة الشهور[٢٣٠]. وانتجع آخرون من بني كنانة تهامة واليمن[٢٣١]. كذلك عشائر من قبيلة خزاعة القبيلة الأزدية التي عاشت في مكة[٢٣٢]. وحكمتها قبل قريش لمدة ٣٠٠ وقيل ٥٠٠ سنة[٢٣٣].

ولما انتقلت السلطة إلى قريش بقيت خزاعة في مكة ولها بطون متعددة معروفة حتى في الإسـلام[٢٣٤]. وانتجع بعض خزاعة في مر الظهران وكانوا أحلافا لقريش[٢٣٥].

---

٢٢٧ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٣٨، ٣٩.
٢٢٨ ــ الشريف، مكة والمدينة ص٣٩.
٢٢٩ ــ ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٢٤.
٢٣٠ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٢.
٢٣١ ــ اليعقوبي، نفس المرجع والجزء ص ٢٢٩.
٢٣٢ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص٢٤٤.
٢٣٣ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣٧٨، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٣٢، ٥٣٣.
٢٣٤ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٢٦٦، ٤٤٠.
٢٣٥ ــ القلقشندي، نفس المرجع ص ٢٤٥.

ومنهم أم معبد عاتكة بنت خالد من بني كعب من خزاعة التي مر بها النبي ﷺ في خيمتها التي كانت بقديد[٢٣٦].

ونزلت قبيلة هذيل الشمالية أطراف مكة بينها وبين الطائف قبيلة لحيان[٢٣٧].

وعاش في مكة من أفخاذ طابخة بن اياس، وصوفة ومحارب[٢٣٨]، وكانت الاجازة إلى صوفة. وقد قاتل بنو جمح بني محارب، واحتربوا بشدة في الردم[٢٣٩].

وسكن الأحابيش خارج وادي مكة. وهم بطن من بني عوف بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة واسمهم بنو غوي. وقد غيره النبي ﷺ وسلم وأسماهم بني رشد. وكان الشماخ وتيم ولدي عامر بن الحارث سيدا الأحابيش[٢٤٠]. واجتمع بنو الحارث بن عبد مناة، وبنو المصطلق الحيا بن سعد، والقارة وهم بنو الديش بن ملحم بن غالب من بني الهون عند جبل حبشي أسفل مكة على بعد سبعة أميال منها[٢٤١]. وقاد بني الحارث عامر بن عوف[٢٤٢]، وقتل عمرو بن هلال بن معيط بن عامر ومعهم خزاعة، وتحالفوا مع بعضهم ثم عقدوا حلف الأحابيش مع عبد مناف بن قصي[٢٤٣].

وكان الحليس بن يزيد من بني عبد مناف سيد الأحابيش وزعيمهم يوم الفجار الرابع[٢٤٤].

وخرج الأحابيش مع قريش يوم ذات نكيف، وقائدهم حطمط بن سعد من بني الحارث بن عبد بمناة. وكذلك كان أبو حارثة والحبش بن عمرو رئيس بني الحارث بن عبد مناة[٢٤٥].

---

٢٣٦ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/٢٣٤.

٢٣٧ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/١٢١٣.

٢٣٨ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٢/٦٧٣.

٢٣٩ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ١/٢٠٢، ٢٠٣.

٢٤٠ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ١٨٨.

٢٤١ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٥، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٢١٤، وذكره ابن حبيب في المنمق أنه يبعد عشرة أميال عن مكة ص ٧٦.

٢٤٢ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٢٧٥، العصامي، المرجع السابق ص ١٩٢، ١٩٣.

٢٤٣ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٤١، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥٢.

٢٤٤ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٠٦، ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٦١.

٢٤٥ ــ إبن حبيب، المنمق ص١٢٧

ورغم انكار بعض المستشرقين ومنهم لامانس LAMMENS لعروبة الأحابيش[٢٤٦] فانه قد ثبتت عروبتهم وأنهم من بني كنانة[٢٤٧]. وأطلق عليهم هذا الاسم لتجمعهم عند جبل حبشي. وعرفوا بأحابيش قريش[٢٤٨]. ولأنهم تميزوا بغلبة السواد على ألوانهم أعتبروا في عداد الحبش، ولكن نتج اسوداد بشرتهم من اقامتهم على الساحل في تهامة. وخـالـطوا الزنج بالتزاوج منهم. وقد انتشر الزواج من الاماء حتى بين سادة قريش وأشرافهم[٢٤٩]. وازدادت المخـالـطة بينهم زمن نزول الأحبـاش في منازل كنانة على ساحل تهامة المواجه للحبشة.

وكان للأحابيش من بني كنانة سيادة ومكانة مكافئة للقبائل الكبرى، بدليل تحالفهم مع قريش محالفة الند لصنوه. وكان لقريش على الأحابيش حقوق منها النصرة والحماية، ولذلك أمرتهم قريش ومعهم بني بكر البقاء جنوب مكة للدفاع عنها من هذه الجبهة وذلك عام الفتح[٢٥٠].

ومن سادة الأحـابيش الذين شاركوا في ادارة شؤونهم الجليس بن علقمة من بني الحارث بن عبد مناة. وقد رأسهم يوم موقعة أحد[٢٥١]. وقد أوفدته قريش ليتفاهم مع النبي ﷺ يوم الحديبية[٢٥٢]. ويدل ذلك على مكانته في مكة وليس بن الأحابيش فقط.

ثم ابن الـدغنـة وهـو ربيعـة بن رفيع السلمي، الـذي أجار أبابكر وحاول رده عـن هجـرته[٢٥٣].

واشتهر عضل بن الهون، وأخوه الديش ابن الهون باسم القارة. وعرفوا بذلك[٢٥٤].

وعاش حول مكة بنو عامر بن صعصعة بن هلال، وبنو هلال بن عامر وقد نزلوا بين منـازل هوازن وسليم وثقيف. وكذلك بعض بطون قضاعة. وغيرهم من قيس

---

٢٤٦ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ١٤٤.

٢٤٧ ــ أبو الفدا، المرجع السابق جـ١/١١٣.

٢٤٨ ــ الزبيدي، المرجع السابق جـ٤/٢٩٣، إبن منظور، المرجع السابق جـ١/٥٥٢، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٣٣.

٢٤٩ ــ جواد علي، نفس المرجع والجوء ص ٣٠، ٣١١.

٢٥٠ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص٣٥.

٢٥١ ــ إبن حزم، المرجع السابق ص ١٨٨.

٢٥٢ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ٢/٥٤، إبن الأثير، الكامل جـ٢/١٣٧.

٢٥٣ ــ البخاري، المرجع السابق جـ٥/٧٣، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٣٣.

٢٥٤ ــ أبو الفدا، المرجع السابق جـ١/١١٢، إبن حبيب، المنمق ص١٢٧.

وخندف وأشجع، وعبس، وفزارة. كان كل هؤلاء بادية وظعونا منتجعة في الضواحي[٢٥٥].

وعاش في مكة مجموعة كبيرة من أفراد مختلفي الأجناس والألوان من عرب وغيرهم وكون هؤلاء طبقة سكانية كبيرة تميزت إلى فئتين هما:

١ ــ الرقيق : وقد تحدثنا عنهم سابقا.

٢ ــ الموالـي :

بعد أن استتب أمر قريش في مكة وصار للبلدة وأهلها مركز مرموق بين سائر بلاد العرب مما ميزها وأعطاها الهيبة والاحترام. إضافة إلى زعامتها الدينية القديمة جدا. فقد اكتسب السمعة الحسنة. والمركز الاقتصادي الممتاز، والتجارة الرابحة. فعم الاستقرار والأمن على مكة التي غدت محط أنظار العرب وملاذهم وملجأهم. مما شجع بعض الأعراب والأعاجم على اللجوء إلى مكة وحرمها الذي تتولى قريش حمايته وحماية من يلجأ إلى الحرم[٢٥٦].

فلجأ إليها بعضهم لجوءا سياسيا إذا جاز هذا التعبير. وقدم آخرون للتجسس لحساب الروم والتقاط أخبار الفرس وعلاقتهم بمكة. وقدم غيرهم طلبا للرزق والعمل. وطلب بعض القادمين الاقامة في ظل الحماية القرشية بل دفع إتاوة مقابل حمايته وحماية أمواله وتجارته.

ولم تبخل قريش على الموالي بمطالبهم، لمصالح مشتركة قامت بين الطرفين. مما فتح باب الاقامة للعديد من الناس، الذين قدموا مكة وعاشوا فيها على مبدأ الجوار أو الحلف مع أحد سكانها فيكون مواليا وحليفا[٢٥٧] لأحد أفراد قريش. فأم مكة أقوام وأفراد مختلفو الأجناس والألوان.

ومن أوائل هؤلاء الموالي الذين عقدوا الأحلاف. حارثة بن الأوقص السلمي وكان من المهتمين بأمر الدين. فلما سمع عن بيت مكة ترك التعبد في بيت ضمار وعقد النية على الذهاب الى مكة فبيتها أولى بتعبده وطوافه. ولما قدمها حالف أمية بن عبد شمس وعاش حارثة في مكة ثم أنجب ابنا اسماه حكيم، الذي استعملته قريش

٢٥٥ ــ إبن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٤.
٢٥٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٦٣.
٢٥٧ ــ السالم، المرجع السابق ص٣٦٠، ٣٦١.

على سفهائها[٢٥٨].

وقدم جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي إلى مكة وحالف أمية بن عبد شمس أيضا فلما سمع عن عظمة عبد المطلب ندم على أنه لم يحالفه فعزم على مصاهرته، وتزوج أميمة بنت عبد المطلب[٢٥٩]. ثم صار آل جحش حلفاء لحرب بن أمية[٢٦٠].

ومن حلفاء بني هاشم الأسود بن خلف الخزاعي، ومن حلفاء بني عبد المطلب آل عتبة بن فرقد السلمي[٢٦١].

وحالف مرثد بن مرثد الغنوي حمزةبن عبد المطلب. وكان كلاهما من هواة الصيد والقنص[٢٦٢].

ومن حلفاء بني عبد شمس أيضا ميمون بن الحضرمي[٢٦٣]. وأخوه العلاء بن الحضرمي[٢٦٤] وهما حليفان لحرب بن أمية[٢٦٥]. وكذلك أبوهما الحضرمي وهو زرمهر الحضرمي والذي ينحدر من أصل فارسي. وكان عبدا يحترف التجارة في حضرموت قدم به كلثوم والأسود إبنا رزن، إلى مكة حيث أنهما شجعاه على الهرب من سيده ثم اشترياه. ولما عتق حالف حرب بن أمية وأقام بمكة وكثر ماله، وأنجب بنات حسان، وفتيان تزوجوا ممن شاءوا[٢٦٦].

وحالف مرداس بن أبي عامر حربا بن أمية بن عبد شمس وأبا العاص بن أمية بن عبد شمس[٢٦٧] وحالف آل الأزرق بن عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني المغيرة بن أبي العاص بن أمية[٢٦٨].

يتضح لنا مما سبق أن آل عبد شمس عقدوا العديد من الأحلاف. ونعلل لذلك

---

٢٥٨ ـ إبن حبيب، المنمق ص٢٨٥، ٢٨٦.

٢٥٩ ـ إبن حبيب، المنمق ص٢٨٥، ٢٨٦.

٢٦٠ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٤٤..

٢٦١ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٤، ٢٣٥.

٢٦٢ ـ إبن حبيب، المنمق ص٢٩٣، ٢٩٤، اليعقوبي، المرجع السابق جـ٢/٧٠.

٢٦٣ ـ HITTI, THE ORIGIN OF ISLAMIC STATE P.78.

٢٦٤ ـ جوادي علي، المرجع الساق جـ٨/١٢٨، ١٢٩.

٢٦٥ ـ HITT, THE ORIGIN OF ISLAMIC STATE P. 80.

٢٦٦ ـ إبن حبيب، المنمق ص٣٢١، ٣٣٣.

٢٦٧ ـ إبن حبيب، المنمق ص٣٣٠.

٢٦٨ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٤٧.

بأنهم هدفوا إلى تقوية نفوذهم بتجميع الناس وتجمهرهم حولهم فلعل هذه المحالفات التي تخولهم فرض السلطة والسيطرة على هؤلا الموالي تفيدهم في تقوية نفوذ عبد شمس في مكة وتؤهلهم لمنافسة بني هاشم.

ورحبت قريش بكل هؤلاء، وأتاحت لهم سبل العيش بل لقد أتاحت لبعضهم أن يصبح في عداد أغنياء مكة تحت ظل الحياة الآمنة المستقرة التي هيأتها قريش في رحاب مكة. ومنهم بديل بن ورقاء الخزاعي الذي كان ملاذا لجميع الخزاعيين، وداره مأواهم وملجأهم وخاصةعندما هاجمهم بنو بكر وساعدت قريش خزاعة لأنهم حلفاؤها. وقد بلغ من شأن بديل بن ورقاء أنه كان أحد الثلاثة الرجال الذين خرجوا للقاء النبي ﷺ مع أبي سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام يوم فتح مكـة سنة٨هـ. فأخذوا لأهل مكـة الأمـان.

وكان الأخنس بن شريق الثقفي حليفا لبني زهرة. وحاز مركزا مرموقا وصارت له الكلمة والنفوذ وقد أقنع حلفاءه بني زهرة بالرجوع وعدم الخوض في معركة بدر[٢٦٩]. وبلغت شهـرة الأخنس مداهـا حتى عرف الشعب الـذي أقام فيه باسم شعب آل الأخنس[٢٧٠]. ومن حقـوق الحليف والمـولى أن يمنح غيره الموالاة أيضا فقد حالف الأخنس بن شريق بكار بن رباح واتخذه مولى له[٢٧١]. وكذلك خالد بن عرفطة من بني عذرة، ويعلي بن منبه وعكاشة بن محصن لهم أحلاف مع قريش[٢٧٢].

ومن أهم شروط الحلف والمولاة. الالتحام والتضامن في الشدائد فصار هؤلاء الموالي مع قريش في الحرب والسلم. واعتمدت عليهم قريش، وأفادت منهم كثيرا فمثلا في معركة بدر بين قريش والمسلمين. اشترك هؤلاء الموالي بفعالية تامة حتى أنهم احتملوا ٤٠٪ من خسائر المعركة[٢٧٣].

وقـد استغلت قريش خبرة الموالي العملية ومواهبهم وطاقاتهم وأحسنت معاملتهم فأحلت كل منهم المنـزلة اللائقة به. وكان موالي قريش في وضع أفضل من أحلاف وموالي القبائل الأخرى. وذلك نابع من سياسة قريش التي عمدت إلى تنشيط الحركة

٢٦٩ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٢٢٦، ٢٢٧.
٢٧٠ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٧.
٢٧١ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٢/١٣.
٢٧٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٨٨.
٢٧٣ ــ الشريف، مكةوالمدينة ص ٢٢٧.

التجارية. واشراك القبائل العربية معها والمحافظة على حسن الصلات والسمعة الحسنة. وكل هذا لتدعيم وابراز جرمة مكة، واثباتا بأن الحرم ملاذ العرب أجمع على الدوام.

وكان قمطة الرومي تاجرا بمكة له ثروة عظيمة. فهو حليف ثري. وقد أهدى إلى نبيه بن الحجاج قويصرة مملوءة فضة عندما تزوج نبيه من ابنته قميطة فاتخذ نبيه تلك الفضة رأس مال لتجارة درت عليه الأرباح الوفيرة. وهو الذي طلبت زوجته الطلاق منه لفقره[٢٧٤].

ويستلحق بعض الأفراد بقبيلة ما، أو يستحلق فرد بشخص آخر من القبيلة كأن يتبنونه. ويعتبر أهل الجاهلية هذا الاستلحاق تبنيا كاملا له حقوق الأبناء الشرعيين من نسب، ووراثة ويسمونه الدعى. وإذا لم يكن دعيا أي لم يتنسب اليهم واكتفى بالاقامة بين القوم فهو ملصق[٢٧٥]. وبالتالي يدخل في عداد الموالي والأحلاف. له حقوق وعليه واجبات.

مما تقدم ذكره نستنتج أن الحلف يقوم على عدة أوجه. فيعقد الحلف بين شخصين أو بين بطن وآخر. أو يكون بين قبيلة وأخرى. ويحالف الرجل مجموعة أفراد من عشيرة واحدة كحلف عبد المطلب مع آل عتبة بن فرقد السلمي. ولكن حقوق وبنود الحلف المتعارف عليها نافذة على الجميع مهما اختلف نوع الحلف فحقوق حليف الرجل محفوظة ومؤادة له من جميع أفراد القبيلة أو سكان مكة فعندما يحالف الرجل حرب بن أمية أو عبد المطلب فالجميع ملزم باحترام هذا الحليف.

وقد دخل في عداد الموالي والحلفاء الرقيق المعتق. سواء كان هذا العتق بالمكاتبة أو تحريرا برغبة السيد[٢٧٦]. وكان غالبية الرقيق من الغرباء عن مكة والجزيرة أي أنهم غير عرب. أو أنهم عرب من أسرى الحرب والغزو. حيث يكون مصير الأسير التملك فيباع ويشتري أو إذا كان شريفا في قومه يتخذ مولا وحليفا. وإذا أنعموا عليه أطلقوه وجزوا ناصيته فتكون الناصية فخرا له عند اطلاق سراحه من الأسر[٢٧٧].

وبفعل التجارة وازدهارها في مكة، فقد أمها الكثير من التجار الأجانب سواء من

---

٢٧٤ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٥١، ٥٢

٢٧٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٥٨، ٣٥٩.

٢٧٦ ـ الشريف، مكة والمدينة ص٣٨، ٢٢٦.

٢٧٧ ـ النويري، المرجع السابق جـ٣/١٢٢، كحالة، مباحث اجتماعية ص٦.

داخل الجزيرة أو من خارجها كبلاد الشام والروم، والفرس والأحباش. وكان جلهم يأتي لتصريف بضائعه وقضاء أعماله التجارية ثم يعود إلى بلاده. ولكن يتخلف البعض من أولئك التجار في مكة، ويحالف أهلها ويواليهم.

وفي مطلع القرن السابع الميلادي كان في مكة أفراد من أولئك الغرباء الذين حفلت كتب السير بأسمائهم اضافة إلى الرقيق الأجنبي أيضا. وكل هؤلاء الأجانب الذين وفدوا من بلادهم إلى مكة للاقامة فيها حملوا معهم شيئا من ديانتهم، وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم. ومنهم تميم الداري. وكيسان، اللذان حالفا أثرياء مكة ولكنهم كانوا يعظمون الكعبة كما سنرى.

وأشار القرآن إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى. ولكن فئة النصارى كانت أغلب في مكة نظرا لأن النصرانية كانت منتشرة في جنوب الجزيرة في اليمن ونجران، وفي الحبشة القريبة من الجزيرة جدا. وقد وفد إلى مكة الكثيرون من نصارى اليمن، ونجران اثر الاضطهاد الديني المعروف[٢٧٨]، قال تعالي: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾[٢٧٩]. وليس ذلك وحسب بل وفد بعض النصارى من بلاد الشام، التي كانت مرتعا لكثير من الفتن والثورات والاضطهادات الدينية أيضا. وبتشجيع من المكيين للأستفادة من خبراتهم. وتوظيف هذه الطاقات البشرية لخدمة أغراضهم.[٢٨٠]

وزار مكة رهبان أيضا، بل أقام فيها بعض الشمامسة. واحترفوا الطبابة فأقام أحدهم في وادي مر الظهران، واسمه عيصا وكان حليفا للعاص بن وائل[٢٨١]. كما تزوج بعض أهالي مكة من نصرانيات، غير قرشيات[٢٨٢].

وانتشرت النصرانية في الجزيرة العربية حتى وصلت مكة بفضل نشاط الطوائف النصرانية في التبشير وبتشجيع من الرومان الذين هددوا إلى تحقيق مطامع وأغراض سياسية تحت ستار النصرانية. ولذا فقد تنصر بعض أفراد المجتمع المكي. ومنهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث. من بني أسد بن عبد العزي وهما من قريش.[٢٨٣] ثم صار ورقة من الحنفاء.

---

٢٧٨ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٢٣١.

٢٧٩ ــ سورة البروج آية ٤.

٢٨٠ ــ الشريف، مكة والمدينة ص٢٣١، ٢٣٢.

٢٨١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٠٥، ٣٠٦.

٢٨٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٦٠٦، الشريف، المرجع السابق ص٢٣٣ حاشية ٢.

٢٨٣ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٧، جواد علي، نفس المرجع والجزء ص٦٠٦، ٦٠٧.

وتعاطف مسلمو الجزيرة مع الروم والنصارى بمشاعرهم وقد بين القرآن ذلك حيث بشرهم بفوز الروم بعد الغلب قال تعالى: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعـد غلبهم سيغلبون﴾[٢٨٤] وذكر القرآن الكثير عن المسيح عيسى بن مريم، وعن يحي، وانكار ألوهية عيسى. وهكذا.

يتضـح مما سبق أن فئـات عديدة نزحت إلى مكـة بأسبـاب مختلفة. بالاسترقاق والعبودية، أو للتجارة أو للتبشير. أو طلبا للزرق والعمل باحتراف الحرفة. ومن أمثلة ذلك سلمان الفارسي، ويسار أو جبر. وله غير ذلك من الأسماء. والذي يعنينا أنه رجل نصراني من طبقة مستنيرة، أتقن القراءة والكتابة وله حرفة في يده حتى قيل أنه عمل في صناعة السيوف وكان معه آخرون غيره. ولدرجة علم يسار ومبلغ شهرته بذلك ادعى أهل مكة أنه هو الذي علم الرسول محمد بما يقول من أخبار وعلوم[٢٨٥]. قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾[٢٨٦]. وبذا رد عليهم القرآن الكريم بدليل قاطع لمسوه بأنفسهم حيث كان ذلـك النصراني حديث عهد باللغة العربية ولم يتقنها. ولا زالت العجمة تغلب على لســانـه. وكـذلـك كان منهم نسطاس أو أنبستاس مولى لصفوان بن أمية. ويوحنا، ونسطور عبد من مماليك صهيب الرومي. وكان صهيب نفسه روميا مولى لعبد الله بن جدعان. وقد قيل أنه من أصل عربي، تغرب ثم عاد الى عروبته (استرد جنسيته) ولكنه في فترة غربته عاش بين الروم وحذق منهم بعض علومهم ودان لمعتقداتهم[٢٨٧].

وهـذا عدا النساء من الاماء وزوجات الموالي. فقد ملك بنو مخزوم اماء يونانيات وكذلك ملكهن العباس بن عبد المطلب. وملك أهل مكة اماء فارسيات. وأغلبيتهن تدين بالنصرانية[٢٨٨]. وكان منهم أقباط مصريون[٢٨٩] مثل النجار القبطي[٢٩٠] المسمى (باقوم) والذي شارك في تجديد بناء الكعبة مع قريش[٢٩١].

---

٢٨٤ ــ سورة الروم آية ٢، ٣.

٢٨٥ ــ جواد علي، المرجع السابق والجزء ص ٦٠٤، الشريف، مكة والمدينة ص ٢٣٣، ٢٣٤.

٢٨٦ ــ سورة النحل آية ١٠٣.

٢٨٧ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٦٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٢١، جـ٦/٦٠٥.

٢٨٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٦٠٥.

٢٨٩ ــ السالم، نفس المرجع ص٣٦٠.

٢٩٠ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠٠.

٢٩١ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/١٢٢.

استوطن هؤلاء النصارى، مكة وأثروا، واكتسبوا قوة وضعة وشخصية اجتماعية ومنهم من كانت له ثقافة دينية مميزة بوأته مكانة علمية لائقة وممتازة حتى شهد له بمكانته وعلوها القرآن قال تعالى: ﴿فاسلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾[٢٩٢].

وكان لنصارى مكة مقبرة خاصة بهم أقاموها على طريق بئر عنبسة في ذي طوى خلف جبل المقلع الذي يقع جنوب مكة[٢٩٣]. ويدل وجود مقبرة خاصة لهم على أنهم طائفة كبيرة لها نفوذها وحقوقها الاجتماعية ومعترف بوجودها رسميا.

أما عن اليهودية فقد كانت أقل انتشارا في جزيرة العرب وأقل وجودا في مكة رغم أنه قد عاشت جاليات يهودية كبيرة العدد في بعض نواحي الجزيرة العربية مثل يثرب وخيبر وفي وادي القرى وفي الجنوب خاصة في اليمن. ولكن نظرا لطبيعة اليهود الانعزالية والمنطوية، ورغبتهم في التقوقع على أنفسهم فقد حدوا من انتشار ديناتهم. ولكن ذلك لم يمنع وجود الصلات القوية بين اليهود والمكيين خاصة فيما يتعلق بالمعاملات التجارية. وقد أقام بعض اليهود في مكة للاتجار أيضا. ولكن من المؤكد أن هذه الفئة اليهودية التي قطنت مكة كانت صغيرة الشأن قليلة العدد لا تعدو في كونها مجموعة صغيرة من الأفراد فقط. بالنظر الى جالية النصارى السابقة الذكر.

وتحدث القرآن بالكثير عن موسى وفرعون وأحوال بني اسرائيل. مما يؤكد الصلة بين أهل مكة (قريش) وبين اليهود الذين أموا مكة وعرفوها، وتاجروا مع أهلها واشتغلوا باقراض المال بالربا الفاحش للمعوزين المحتاجين[٢٩٤].

ومن يهود مكة جار عبد المطلب بن هاشم واسمه أدينة وكان يزاول التجارة في حماية عبد المطلب وجواره. فاغتاظ منه حرب بن أمية، ثم ألب حرب فتيان قريش على اليهودي وقتلوه مما تسبب في قطع المنادمة بين عبد المطلب وحرب[٢٩٥]. وقد تعارفوا على أنه اذا أساء الحليف معاملة مولاه أو أتى عملا مشينا فمن حق مولاه أن يخلعه، وينفيه عن القبيلة متبرئا من فعلته. وبذلك يكون في حل من حلفه وولائه لذلك الرجل (المولى) ويعلن ذلك الخلع في سوق عكاظ مناديا. أو يكلف مناديا يجوب البلدة ليعلن نبأ الخلع. أو يكتب كتابا بذلك ويعلقه[٢٩٦].

---

٢٩٢ ــ سورة النحل آية ٤٣، السيوطي، المرجع السابق ص ٣٥٧.

٢٩٣ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٩٨.

٢٩٤ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٥١١، ٥٣٠، ٥٤٣، الشريف، مكة والمدينة ص٢٣٤.

٢٩٥ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٧٢، ٧٣، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٨، ٩.

٢٩٦ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص١٦٧.

وكان رافع بن قيس الكناني (وهو البراض) حليفا لبني سهم بعد أن خلعه قومه[٢٩٧] واشتهر بأنه من فتاك الجاهلية. فقتل رجلا من هذيل مما أدى إلى أن يخلعه بنو سهم. فحالف حرب بن أمية. وكرر الغلطة حيث قتل رجلا من خزاعة ثم هرب[٢٩٨]. لأنه أدرك عاقبة فعلته الوخيمة.

وبذلك يتضح لنا أن قريشا والعرب عامة قدموا معونتهم للناس بحماية الغرباء منهم ولكن حماية لكل فرد اشترعوا عقاب المسيء، والتخلص من شروره فيما لو تمكنوا من حده بالعقوبة أو خلعه، وانتفائه عن القوم. وقد يمنحونه الفرصة تلو الأخرى بقصد استصلاح أمره. لو كان الخطأ نادرا وغير محتمل الوقوع والتكرار. ويمدون حبل الموالاة وعقدها بتجديده مع حليف آخر إلا إذا استطال شره فقد يحرم من الولاء.

منازل قريش :

كانت مكة تخلو من أهلها ليلا حيث إنهم يدخلون الوادي نهارا فقط، لزيارة الكعبة والطواف بها. أو للجلوس عند البيت لادارة بعض شؤونهم. وذلك قبل قصي ودخول قريش ونزولهم بالوادي. أما قبل قصي فقد اتخذت القبائل دورها خارج الوأدي فيما حولـه، وسكنـوا الجبال المحيطة به. فسكن بعض جرهم جبل أبي قبيس وهو أحد أخشبي مكة[٢٩٩].

وقـد اعتاد سكان الأودية أن يرتقوا بدورهم إلى الجبال ليكونوا بمنأى عن مجاري السيول التي تجتاحهم فجأة. فخشية على أنفسهم، وتقديسا لبعض الجبال[٣٠٠].

وقد قام قصي بن كلاب زعيم قريش وسيدها بالقبض على زمام الأمور وأخذ ولاية البيت من خزاعة، لأنه رأى أحقيته بهذا الأمر دون سواه[٣٠١]. وبحنكة ودهاء ذكي من قصي أقنع قريشا بأنهم اذا سكنوا وادي الأبطح فيما حول الكعبة (البيت الحرام) وقاموا على خدمته عظّمتهم العرب وهابتهم[٣٠٢]. وقد تم لقصي ما أراد وتحقق له كلما دار بخلده، وفكر فيه من هذا الأمر.

---

٢٩٧ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١ / ٣٥٩.
٢٩٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٣ / ٢٧٦.
٢٩٩ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤ / ٧.
٣٠٠ ــ حيث كان أبو قبيس من الجبال المقدسة عند الجاهليين فقد أموه للتحنث والاعتكاف ـ أنظر جواد علي، المرجع السابق جـ٤ / ٨.
٣٠١ ــ الطبري، ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ / ١٨٢.
٣٠٢ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٣ / ٤٥.

فقد أسكن قريشا حول الكعبة، وقسم الوادي بينهم. فنالت قبيلته الشرف الأسمى بأن عظّمها العرب. وهابها القوم. واعتبروها القبيلة المشرفة المهابة. مستمدين هذه الهيبة من جوارهم للبيت المقدس.

وبـدأ قصي بنفسه اعداد الوادي لبناء البيوت وسكناها فاقتطع الأشجار الشوكية المتناثرة، وهيأ الأرض، بعد أن هاب الناس قطع شجر الحرم وشوكه[٣٠٣].

ومع أن قصيا بدأ العمل الا أن الناس هابوا الاقدام معه، وانتظروا حلول العقاب عليه. ولكن لما سلم قصي ولم يتعـرض لما دار في خلد النـاس وظنـونهم قامـوا إليه وساعدوه، وهابوه إعجابا بتلك الشخصية الفذة.

عاش قصي طفولته في أرض بني عذرة الواقعة على مشارف الشام[٣٠٤]. فتربى ونشأ هناك مما أعطاه فرصة الاطلاع على المدن الشمالية أضف إلى ذلك رأيه السديد والبصيرة الرشيدة[٣٠٥] مما أعانه على تخطيط وادي الأبطح، ليكون أساسا بسيطا لتخطيط مدينة مكة، ولكنها سابقة عظيمة، وبادرة قديمة جدا في تاريخ تخطيط المدن وقد اعتمد خطة رباعية في تقسيم الوادي حيث (اقتطع مكة رباعا)[٣٠٦] بما معناه أنه جعل الوادي أربعة أحياء كبرى دائرة حول مطاف الكعبة.

فقد ترك بين الكعبة وبين الأحياء السكنية دائرة، قيل أنها كانت على قدر المطاف المحيط بالكعبة، وهي تلك المسافة الخالية بين الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام، وما يقارب هذا القدر من جميع جهات الكعبة الأربع. على شكل دائرة بيضاوية تقريبا من الشـمال الى الجنـوب[٣٠٧]. فقـد جعـل مركز الخطة هو الكعبة المعظمة (كالمحور في الدائرة). ثم بدأ العمران فابتنى قصي لنفسه دارا هي أول دار بجوار الكعبة من جهتها الشـمالية الغربية (الشامية) وأشرع بابها إلى الكعبة، فهي دار قصي التي سميت دار الندوة، واشتهرت شهرة تاريخية عظيمة، لما كان لهذه الدار من شأن هام في حياة قريش.[٣٠٨]

---

٣٠٣ ـــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٤.
٣٠٤ ـــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨١، RODINSON, OP. CIT. P. 39.
٣٠٥ ـــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٤٩.
٣٠٦ ـــ تاريخ الأمم والملوك، البلاذري، نفس المرجع جـ١/٥٠
٣٠٧ ـــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣١٧، البتنوني، المرجع السابق ص١٢٢.
٣٠٨ ـــ الأزرقي، المرجـع السـابق جـ٢/١٠٩، ١١٠، حاشية ٢ ص١١٤، البتنـوني، المرجع السابق ص٩٥، عوض الله، المرجع السابق ص٥٥، الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٩، =

وهي أول دار بنيت في مكة، ولكن ذكر بعض الرواة أن سعيد بن عمرو بن هصيص السهمي أول من بنى بمكة دارا هي دار العجلة[٣٠٩] ونرجح هذه الرواية حيث لا بد من مشجع لقصي على البناء في قلب والوادي لأنه قادم جديد على مكة فلا يجرؤ على كل هذه التغييرات دفعة واحدة. ولكن كانت دار السهمي تلك على مسافة أبعد عن الكعبة في طرف الـوادي. مما أوحى لقصي بالاقتراب فعلا من قلب الوادي ومركزه فكـانت دار قصي وهي دار النـدوة قريبـة من الكعبة. وهي أول دار قابلت الكعبة واقتربت منها.

وكان عرض دار الندوة ٧٠ ذراعا في طول حوالي ٧٤ ذراعا[٣١٠]. وهي دار فسيحة متسعة إلى حد ما. وعندما هدمت دارالندوة وأدخلت أرضها الى المسجد الحرام أنشيء على هذا الجزء الجديد ستة أبواب كبيرة، سعة الباب الواحد منها حوالي خمسة أذرع[٣١١].

ودار النـــدوة مواجهـة للكعبـة، ويقـع في جهـة الـدار الخلفية طريق يفضي الى السويقة[٣١٢]. وقد بناها قصي لسكناه[٣١٣]. وهو سيد القوم وزعيمهم. وتيمنا بقصي وأمره أصبحت داره مقر اجتماعهم. ودار مشورة لهم[٣١٤]. وتحولت فيما بعد الى مقر رسمي لنزول الخلفاء[٣١٥].

= ENCY. OF ISLAM, VOL. 2/128، الحمـوي، المرجـع السابق جـ٢/٤٢٣، باسلامة، المرجع السابق ص٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٥٠ ـ ٥١، البلاذري،المرجع السابق جـ١/٥٢.

٣٠٩ ــ PHILIP HITTI, THE ORGIN OF THE ISLAMIC STATE BEIRUT 1966, P. 81. الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٩، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٤٢٢.

٣١٠ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٣٢.

٣١١ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١١٢.

٣١٢ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٢/١٣.

٣١٣ ــ العسكري، المرجع السابق، الأوائل، ص٢٠، البكري، المرجع السابق جـ١/٢٥٨.

٣١٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٤، العسكري نفس المرجع والصفحة، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/١٠٩، ابن حبيب، المنمق ص١٩، ٢١.

٣١٥ ــ نزل الخلفاء في دار الندوة إلى عهد بني أمية، وأولهم معاوية بن أبي سفيان، أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/١١٠، البتنوني، المرجع السابق ص ٩٥. نفس المرجع جـ٢/١١٠، البتنوني، المرجع السابق ٩٥. وفي نزول الخلفاء في دار الندوة دليل واضح على سعة الدار بشكل مقبول ومناسب للفترة الزمنية المعنية. وان لم يضارع السعة والفخامة التي تعهدها القصور الحديثة.

هكذا بنى قصي داره، واختط لقريش دورها فيما يلي داره فكانت خطة الدور ثنائية حيث كانت بين كل دارين طريق تفصـل بينهـما، ليكـون مسلكـا ينفـذ منـه إلى المطاف[٣١٦]. أو إلى خارج نطاق الدور أي أنها منافذ أيضا إلى خارج حدود الأبطح.

ونظرا لوجود أخشبي مكة (جبل قعيقعان وأبي قبيس) فقد تحدد البنيان من جهتي الأخشبين. فأدى ذلك إلى أن يتخذ عمران مكة شكلا هلاليا يميل إلى الاستطالة يحده سفوح أخشبي مكة، اللذان هما حداها الشرقي والغربي[٣١٧].

فاصـطفت الدور متراصة متناسقة في هذا التخطيط المتواضع الذي وضعه قصي لوادي مكة. وكل ما نزل عن الوادي جنوبا من الصفا إلى أجياد عرف باسم سافلة مكة (المعلاة)[٣١٨].

وسكن بنو قصي في بطن وادي مكة ومعهم كل بطون قريش البطاح المعروفة. ومن ضاق به الوادي من غيرهم فقد سكن شعاب الجبال[٣١٩]. تلك الشعاب التي كانت مسرحا لأحداث تاريخية في مبدأ الدعوة الإسلامية. وحفظت لنا كتب السير أسماء هذه الشعاب الجبلية مثل شعب أبي طالب، وشعب عامر[٣٢٠]. ولا زالت إلى اليوم أحياء عامرة بسكانها في مكة المكرمة.

وأما بقية قريش الذين نزلوا على أطراف الهلال العمراني، فقد عرفوا بإسم قريش الظواهر.

وقد تحكمت هذه الخطة لمكة عندما قرروا تجديد بناء الكعبة حيث قسّموا جهات الكعبة الأربع فيما بينهم. وكلفوا كل مجموعة من قريش بأن تتولى أمر هدم وبناء الجزء الذي خصص لها. فكانت خطتهم كما يلي: كان شق الباب لبني عبد مناف وبني زهرة، ومـا بين الركن الأسود، والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل أخرى من قريش انضمت اليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم. وشق الحجر وهو الحطيم لبني عبد الدار

---

٣١٦ ـ العصـامي، المرجع السابق جـ١/١٦٢، أخبار مكة المشرفة جـ٣/٤٦، باسلامة المرجع السابق ص٦.

٣١٧ ـ السالم، المرجع السابق ص ٣٤٩، ٣٥٠، عوض الله، المرجع السابق ص٣٦، ٣٧، ENCY, BRITANICA, MAC, VOL. 11/754

٣١٨ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٧.

٣١٩ ـ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣٩ـ٤٠ البكري، المرجع السابق جـ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

٣٢٠ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٠١، ص٢١٦ حاشية ٢، ص ٢٢١.

بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي وبني عدي بن كعب[٣٢١].

توحي هذه الخطة الينا بأن هذا التقسيم قد يكون موافقا لمنازل قريش ومواقعها من الكعبة. فيكون كل فريق قد نال الجهة التي تقابل أحياءهم ودورهم. وتخصص في هدمها وبنائها. ومما يدعم استنتاجنا هذا أن بني عبد الدار أخذوا جهة الحطيم والحجر وهي الجهة التي تقابل فعلا موضع دار الندوة التي ورثها عبد الدار عن قصي الذي خصه بهذا الارث العظيم لينال الشرف الأعظم بتولي شؤون مكة والبيت، وقريش أيضا. وقد ذكرنا أن موقع دار الندوة في جهة الكعبة الشمالية.

فتم التقسيم على أسـاس أن يختص كل فريق بجـزء الكعبـة الذي يقابل منازله لتسهيل الأمـر عليهم. فاقتضت خطتهم ذلـك ليقـوم كل حي بتعمير الجزء المقابل لدورهم ومواقعها من جهات الكعبة.

هكذا خطت مكة البلد المقدس. ونزل بنو عبد مناف، وبنو زهرة، في مقابل باب الكعبة ونزل بنو مخزوم ومعهم بطون أخرى من قريش مقابل الواجهة التي بين الركنين ناحية أجيادين ونزل بنو جمح وبنو سهم في ظهر الكعبة ـ في المسفلة ـ ونزل بنو عبد الدار وبنو أسد في مقابل وجه الكعبة من جهة الحطيم. ونزل بنو عدي أسفل الثنية بين بني جمح وبين بني سهم[٣٢٢].

وعلى ذلك تكون منازل قريش حسب ما أوضحناه بالنسبة لجهات الكعبة في الأحياء التالية. منازل قصي وبنو عبد الدار في محلة كوثى[٣٢٣]. وقد ذكرنا الطريق الذي خلف دار الندوة المفضي إلى السويقة ثم إلى قعيقعان[٣٢٤]. وسكن بنو عبد مناف في المعلاة. ونزل بنو مخزوم، وبنو تيم في أجيادين (أجياد الكبير والصغير)[٣٢٥]، ونزل بنو جمح في المسفلة ولبني سهم الثنية منها، يليهم بنو عدى أسفل الثنية. ونزل آل نوفل بن الحارث

---

٣٢١ ــ الطبري، تاريخي الأمم والملوك جـ٢/ ٢٠٠، ٢٠١، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/ ٣٠١، ٣٠٢، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/ ١٦١.

٣٢٢ ــ البكري، معجم ما ستعجم جـ١/ ٢٧٠، الحموي، المرجع السابق جـ٤/ ٤٨٧.

٣٢٣ ــ البكري، معجم ما استعجم جـ١/ ٢٧٠، الحموي، المرجع السابق جـ٤/ ٤٨٧.

٣٢٤ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/ ٢٨٤.

٣٢٥ ــ عن أجياد أنـظر الحمـوي، نفس المـرجـع جـ١/ ١٠٤، ١٠٥، الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ٣٦٦، ٣٧٨، البكـري، نفس المـرجـع جـ١/ ١١٥، النسهيلي، المـرجع السابق جـ١/ ١٣٦، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/ ٢٩٠، ٢٩١ HITTI, THE ORIGIN OF THE ISLAMIC STATE, P. 81.

بن عبد المطلب ناحية جبل أبي قبيس في الجزء المعروف باسم فاضح . وعللوا لهذا الاسم بأسباب كثيرة[٣٢٦] .

ويدأ العمران وقامت الدور في مكة . ولكن اعظاما لحرمة الكعبة فقد اجتنبوا تربيع بيوتهم فجعلوها دائرية الشكل . أي أنهم اتخذوا طرازا معماريا مخالفا لطراز بناء الكعبة . فجعلوا بيوتهم مدورة[٣٢٧] . وقد دام هذا الطراز في مكة الى حوالي النصف الثاني من القرن السادس الميلادي عندما قام حميد بن زهير ببناء دار مربعة الشكل[٣٢٨] . فارتجز الرجاز من قريش وهم يبنون بيت حميد بقولهم :

اليوم يبني لحميد بيته امـا حياتـه وامـا موتـه[٣٢٩]

وحميد بن زهير هو ابن الحرث بن أسد بن عبد العزي[٣٣٠] ، واليه ينتسب الحميدات من بني أسد[٣٣١] .

وقد حذا بديل بن ورقاء بن عبد العزي[٣٣٢] الخزاعي حذو حميد وبني بيتا مربعا واتخذ به روشنا[٣٣٣] ولعله أول روشن في مكة . فلشدة إعظامهم لأي عمل فيه تجديد عن المألوف كعادتهم كانوا يتوقعون الشر بفاعله ، واذا لم يصبه مكروه ، انتحوا منحاه وقلدوه . كما فعلوا مع قصي عندما قطع غوطة الحرم وأشجاره[٣٣٤] .

وقد بنيت بيوت مكة من المادة الأكثر وفرة في جبال الوادي فقد شيدت البيوت من أحجار الجبال[٣٣٥] . واتخذوا جريد النخل ، وأخشاب شجر الدوم لسقوفها . وقد استخدمت نفس المواد في بناء الكعبة عند تجديده الذي تم فيما بعد[٣٣٦] .

---

٣٢٦ ــ الأزرقي ، نفس المرجع جـ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
٣٢٧ ــ باسلامة ، المرجع السابق ص٧٦ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤ / ٥١ .
٣٢٨ ــ كستر ، م . ج . ، مكة وتميم ، ترجمة يحيى الجبوري ١٩٧٥م بغداد ص ١٣ ، جواد علي ، نفس المرجع جـ٤ / ٥٢ .
٣٢٩ ــ ابن بكار ، المرجع السابق ص ٤٤٣-٤٤٤ ، جواد علي ، نفس المرجع جـ٤ / ٥١ ، كستر ، نفس المرجع ص١٣ ، ١٤
٣٣٠ ــ جواد علي ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
٣٣١ ــ الزبيدي ، المرجع السابق ص ٢٣٩ .
٣٣٢ ــ ابن حزم ، المرجع السابق ص٢٣٩ .
٣٣٣ ــ نافذة في الجدار أنظر ، العسكري ، المرجع السابق ص ٤٥ .
٣٣٤ ــ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ / ١٨٤ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٤ / ٥٢ ـ ٥٣ .
٣٣٥ ــ وهبة ، المرجع السابق ص ٣٠ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٤ / ٥٢ .
٣٣٦ ــ الماوردي ، المرجع السابق ص١٦٠ ، جواد علي ، نفس المرجع جـ٤ / ٥٣ .

أما دور الأثرياء والسادة فقد كانت كبيرة، وتحتوي على عدد من الغرف. وللدار بابان متقابلان أحدهما للدخول، والآخر للخروج. ويدل هذا على أن الدار كبيرة تطل على واجهتين (زقاقين)، فهي دار كبيرة لها سعة بينة[٣٣٧].

أما ما ذكر عن تخصيص الباب الآخر لخروج النساء عندما يكون في رحبة الدار ضيوف فلا نعتقد ذلك، حيث أن لاحجاب في الجاهلية فما الذي يوجب هذه العزلة، وقد ثبت أن وجود بابين للدار دليل على سعتها وليكون لها منفذ على الواجهتين.

واتخذ أهل مكة في غرفهم أرففا تكون من صفائح الحجر من أصل البناء وتكون داخلة في الجدار نفسه وتستعمل لوضع بعض متاعهم النادر كالتحف، والأصنام الصغيرة التي يحتفظ بها الرجل في بيته[٣٣٨].

ويكون لبعض الدور مظلات خارجية تبرز عن أصل البناء وهي من الحجر أيضا ليستظل بها من الشمس عند الجلوس تحتها، مثل دار خديجة بنت خويلد[٣٣٩].

وأقرب منازل مكة إلى الكعبة كانت دار زهير وهاشم ابني الحارث بن أسد بن عبد العزى حتى سميت دارهما بإسم (رضيعة الكعبة) لقربها منها ومدى التصاقها بها. فقد كانت تفيء عليها الكعبة عند الشروق وتفيء الدار على الكعبة عند الغروب، وكانت بها دوحة تعلق فروعها بثياب بعض الطائفين وقد تنقطع شسع (حذاء) أحد الطائفين من بني أسد فيرمي به إلى منزله، فتصلحه جاريته وتأتيه به.

وقد بقيت هذه الدار إلى العهد الإسلامي حيث شعر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن دار بني أسد تعرقل حركة الناس في الطواف حول الكعبة. فقال لهم: (أن داركم قد ضبنت الكعبة) فهدمها وقرر لهم التعويض المناسب ثمنا لدارهم، ولكنهم غضبوا، ورفضوا أخذ الثمن. فحفظ المبلغ في بيت مال المسلمين، ثم بعد موت عمر قبض بنو أسد ثمن دارهم[٣٤٠].

---

٣٣٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص١٤٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٢.

٣٣٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٠٠، وقد شاهدنا هذه الأرفف في بيوت مكة وجدة، والطائف، وبيوت بعض القرى في الحجاز عامة، وهنالك أنواع أخرى تتخذ من ألواح خشبية وتكون اما داخلة في بناء الجدار نفسه، أو بارزة ومثبتة على حوامل معدنية مثبتة بمسامير على الحائط. وهذا طراز معماري حديث ولكنه مقتبس عن الطراز القديم.

٣٣٩ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٩٧، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٢.

٣٤٠ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص٤٤١، ٤٤٢.

وحفظت لنا كتب التراث وصف بعض الدور المباركة والتي كانت مبنية في مكة، وأهمها دار عبد الله بن عبد المطلب، تلك الدار التي شهدت مولد النبي الكريم ﷺ.

ويقع منزل عبد الله (مولد النبي) في سوق الليل[٣٤١] أحد أحياء مكة المعروفة إلى يومنا هذا. ويقع سوق الليل في فم شعب بني عامر ضمن منازل بني عبد مناف وبني زهرة وسمي بسوق الليل نظرا للبيع والشراء فيه ليلا ابان فترة حصار النبي[٣٤٢]، وصفه الدار هي منزل مربع الشكل ينخفض عن الطريق بنحو متر ونصف وينزل إلى الدار نزولا عبر درجات حجرية.

وهذه هي دار عبد الله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب التي ولد بها رسول الله محمد ﷺ، الذي وهبها فيما بعد إلى عقيل بن أبي طالب[٣٤٣].

وهنالك أيضا دار خديجة بنت خويلد، وتقع هذه الدار في زقاق الحجر ويسمى أيضا زقاق العطارين، وتسمى هذه الدار «مولد فاطمة» حيث ولدت بها السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ. وهي في جملتها دار متواضعة تحتوي على أربع غرف[٣٤٤].

أما الدار الثالثة المشهورة، والتي لعبت دورا هاما في مبدأ أمر الدعوة الإسلامية فهي دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وقد اشتهرت فيما بعد باسم دار الخيزران[٣٤٥]. وتقع دار الأرقم في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا، وقد كان النبي ﷺ يجتمع فيها مع أصحابه خفية عن قريش. يفتح بابها إلى الشرق، ولها فسحة (رحبة) سماوية مكشوفة. ويوجد في احدى الغرف حجران من الصوان عليهما كتابة مستحدثة اسلامية تفيد أن هذا المكان مخبأ رسول الله ﷺ وقد باعها أحفاد الأرقم الى أبي جعفر

---

٣٤١ ـ عن سوق الليل .ENCY, BRITINICA, VOL. 11, P. 754

٣٤٢ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٢. حاشية ٣، البتنوني، المرجع السابق ص ٥٢، ٥٣، جـ١/٢٦٩.

٣٤٣ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٧٠، البتنوني، نفس المرجع ص ٥٢-٥٣، رفعت، المرجع السابق جـ١/١٦٨، ابن جبير، المرجع السابق ص ٩١،٩٢.

٣٤٤ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٧٠، ٢٧٢، ابن جبير، المرجع السابق ص ٩١، رفعت، المرجع السابق جـ١/٨٩، ١٩٠، البتنوني، المرجع السابق ص٥٣.

٣٤٥ ـ حتة، محمد كامل، في ظلال الحرمين، دار المعارف سنة ١٩٧٨م ص١٣٢، (الخيزران نسبة إلى أم هارون الرشيد)، البتنوني، المرجع السابق ص٥٥، رفعت، المرجع السابق جـ١/١٩٢، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٧٤، ابن جبير، المرجع السابق ص٩٢.

المنصـور[٣٤٦]. ثم صارت مدرسـة لتـدريس الحـديث النبوي وبعد ذلك دخلت في مشروع توسعة الحرم[٣٤٧].

وهنالك عدد من الدور المشهورة نذكر منها دار العباس بن عبد المطلب التي تطل على المسعى وهي دار كبيرة، استعملت فيها بعد نزلا للفقراء (رباط) عرف باسم (رباط العباس) وعرف الشق الآخر من الدار باسم رباط الموفق. وهذا دليل على سعة هذه الدار حتى أنها جعلت رباطا. وفي دار العباس يقوم أحد الميلين الأخضرين (العلمين) فهذا العلم الأول قائم في دار العباس، والعلم الآخر في دار عباد بن جعفر. وهما حدا المسعى[٣٤٨]. وفي دار العباس حجران كبيران يظن أنهما الصنمان إساف ونائلة. وتقع دار العباس بين الصفا والمروة وزعموا أنها كانت لهاشم بن عبد مناف[٣٤٩]. وتطل الدار على منطقة السعي.

ومن الدور المعروفة أيضا دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٣٥٠] ودار عبد الله بن جدعان على الأجيادين[٣٥١]. ودار أبي سعيد وفيها ولد جعفر (الصادق) وهو بن أبي طالب، وهي قرب دار العجلة[٣٥٢]، ثم مولد حمزة بن عبد المطلب ثم الدار التي ولد بها عمر بن الخطاب عند جبل النوبي جبل عمر حاليا[٣٥٣].

ثم دار القوارير[٣٥٤] وهي دار عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وصارت للعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، ثم انتقلت لأم جعفر السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد. واستعملت في تجديد بنائها القوارير فعرفت من ذلك اليوم باسم دار القوارير، وقد بناها حماد البربري وضم إليها بئر جبير بن مطعم بن عدى[٣٥٥]. وتقع

٣٤٦ ــ العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي المعروف بابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابـة ١٩٧٨م جـ١/٢٨، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٦٠، البتنوني، المرجع السابق والصفحة، رفعت، المرجع السابق والجزء والصفحة.

٣٤٧ ــ حته، المرجع السابق ص ١٣٢.

٣٤٨ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٧٥، ٣٢٤.

٣٤٩ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٣، ٣٣٤.

٣٥٠ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٥٧، الفاسي، نفس المرجع جـ١/٢٧٣، ابن جبير، المرجع السابق ص٩٢.

٣٥١ ــ ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٢٦، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٩٠، ٢٥٧.

٣٥٢ ــ الفاسي، نفس المرجع جـ١/٢٧١، ٢٧٢، ابن جبير، المرجع السابق ص٩٣.

٣٥٣ ــ الفاسي، نفس المرجع جـ١/٢٧١، حاشية ٣.

٣٥٤ ــ القوارير أي الزجاج أنظر ابن منظور، المرجع السابق جـ٢/١٢.

٣٥٥ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٢/٤٢٣، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١١٣، جـ٢/٨٥.

هذه الدار بين الصفا والمروة ملتصقة بالمسجد الحرام ثم دخلت فيه[٣٥٦]

وأخيرا دار شيبة بن عثمان قرب دار الندوة وتحتوي على خزانة الكعبة وهي دار أبي طلحة بن عبد العزي بن عثمان عبد الدار.[٣٥٧] وتسمى منطقة منازل بني عبد الدار باسم كوثى الذي هو من أسماء مكة المكرمة. وتشمل محلة كوثى دور بني عبد الدار وأهمها دار الندوة ودار شيبة بن عثمان[٣٥٨].

وقد كانت أغلب أبواب الدور المحيطة بالكعبة تشرع اليها حتى الدور التي تبعد عن الكعبة فهي تواجهها وأبوابها تشرع اليها مثل دار شيبة فهي تواجه الكعبة[٣٥٩].

وفي المعلاة جبانة مكة (مقبرة المعلا) وقد كانت مقبرة المطيبين خاصة بهم دون غيرهم منذ الجاهلية. وفي الإسلام صارت مدفنا لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم، وهي معروفة مشهورة لازالت تستعمل لدفن الموتي[٣٦٠]. قبل الزاهر على طريق التنعيم، وفي الشبيكة مقبرة الأحلاف[٣٦١].

ومن الأحياء القديمة والمعروفة بمسمياتها: الحجون من أصل المعلاة وبه مقبرتها في الطريق إلى منى ويشرف على شعب الجزارين[٣٦٢].

ومن الأحياء الكبيرة أيضا القرارة، وكانت تسمى قرارة المدحي وتتصل بالفلق (فلق ابن الزبير) وهما معروفان حاليا[٣٦٣].

وسوق الليل حي في شرق مكة يميل الى الجنوب عند سفح جبل أبي قبيس وهو في شعب بني هاشم أو شعب الهواشم[٣٦٤].

---

٣٥٦ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢١٧.

٣٥٧ ــ الأزرقي نفس المرجع جـ٤/٤٨٧.

٣٥٨ ــ البكري، معجم ما أستعجم جـ١/٢٧٠، الحموي، المرجع السابق جـ٤/٤٨٧.

٣٥٩ ــ أخبار مكة، المنتقى جـ٤/٤٨٧.

٣٦٠ ــ الفاسي،المرجع السابقجـ١/٢٨٤، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٠٩،٢١٣ حاشية ١.

٣٦١ ــ الحموي، المرجع السابق جـ١/٢٨٤، الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٠، حاشية٣، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢١٣، حاشية ١.

٣٦٢ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٧٣، الفاسي، نفس المرجع جـ١/٢٩٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٣٨، الحموي، نفس المرجع ٢/٢٢٥.

٣٦٣ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٦٨ حاشية ٥.

٣٦٤ ــ وكان يسمى شعب أبي يوسف أما حااليا فيعرف باسم شعب علي، أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٢، حاشية٤ ص٢٣٣، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٣٤٧، وهنالك

والشعب هو الطريق بين الجبال. وشعاب مكة كثيرة ومعروف منها شعب الخوز[٣٦٥] وشعب ابن عامر وهو المطابخ. [٣٦٦] وهو شعب بني هاشم الذي قيل أنه كان في ملك هاشم بن عبد مناف دون غيره[٣٦٧].

وشعب أبي دب[٣٦٨]، وشعب آل الأخنس[٣٦٩]. وشعب سفى السباب وهو خيف بني كنانة[٣٧٠]. وهو المحصب مسيل مكة[٣٧١].

وهكذا نرى أن تخطيط مكة قد اعتمد على جعل الحرم في وسط المدينة كالمركز في وسط الدائرة. وقد امتد العمران إلى الشمال والجنوب فيها. نظرا لما ذكرناه عن أخشبي مكة فقد حدّا من امتداد العمران شرقا وغربا. ولكن البنيان قد امتد شمالا وجنوبا. واعتلى أهل مكة رؤوس الجبال فاتخذوا بيوتهم على جبالها المحيطة[٣٧٢].

وبناء عليه فقد استقرت قريش في مكة. وكان لكل بطن منها منازل خاصة بها (رباع)[٣٧٣]. ونستطيع أن نقول أن لكل عشيرة منهم منطقة معروفة تخص ذلك الفرع القرشي ومعه مواليهم (حلفائهم) ورقيقهم.

وقامت الأسواق في مكة، بالقرب من البيت الحرام مثل السويقة التي تجاور الحرم

العديد من الأحياء مثل الحزورة، أنظر الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٩٤، والمسفلة من أحياء مكة أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٦٦.

وزقاق النار شارع صغير من شوارع مكة، أنظر الحموي، نفس المرجع جـ٣/١٤٥، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٩٥، وزقاق العطارين من شوارع مكة أيضا، أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٦٠، والمدعى حي معروف الى الآن في مكة، أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/١٦٨ حاشية ١، والسوق الصغير من أسواق مكة، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٢، حاشية ٦.

والسويقة من أسواق مكة بلفظ التصغير أنظر الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٦٦، ٢٨٤.

٣٦٥ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٣/٣٤٧، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٧٥.

٣٦٦ ــ الحموي، نفس المرجع جـ٥/١٤٧، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٧١.

٣٦٧ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٣.

٣٦٨ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٣/٣٤٧، الأزرقي المرجع السابق جـ٢/٢٧٢.

٣٦٩ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٨٧.

٣٧٠ ــ الحموي، نفس المرجع جـ٣/٢٢٥، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٧٣، ٢٧٤.

٣٧١ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣١٣، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/١٦٠، ص٢٧٧ حاشية ٤.

٣٧٢ ــ الفاسي، نفس المرجع جـ١/١٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٧.

٣٧٣ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٣٣.

حتى أن أحد أبواب المسجد عرف فيها بعد باسم باب السويقة[٣٧٤]، وكان من ضمن تلك الأسواق أيضا سوق خاصة بالرقيق وتجارته عند جبل أبي قبيس[٣٧٥].

وقامت المدينة بمرافقها الأساسية، في أحياء تشمل الدور والأسواق ومصادر المياه، وقد عرفنا أن المياه في مكة شحيحة نادرة وأن الله كرمهم وفجّر النبع المبارك زمزم، والاعتماد الكلي على مياه الأمطار التي تجري وتتجمع في مواجن وبرك، وأما القسم الآخر الذي يتسرب الى باطن الأرض ويختزن في جوفها. فتحفر الآبار لاستخراج هذه المياه الجوفية والتي هي مصدر أساسي لمياه مكة[٣٧٦].

«وبئر كر آدم» هي أول بئر مذكورة وكانت في شعب حواء[٣٧٧]. ثم احتفر غالب بن لؤي «بئر العسرة» خارج الحرم، واحتفر مرة بن كعب «بئر الروى» بعد عرفات وحفر كلاب بن مرة آبار ثلاث هي «خم»، «ورم»، «وجفر». وحفر قصي بئر العجول بمكة ولم يكتف بحفر البئر وحسب بل هيأ لها حياضا للشرب متصلة بالبئر، وقد سقط رجل من بني نصر فيها فمات فطمرت ولم تستعمل بعد ذلك[٣٧٨]. ثم حفر قصي بئرا أخرى عند ردم عمر وطمرت أيضا ثم أحياها جبير بن مطعم بن عدى[٣٧٩].

ثم حفر هاشم بن عبد مناف «بئر بدر» قرب الخندمة عند فم شعب أبي طالب، وحفر «بئر سجلة» وقيل أن أسد بن هاشم وهبها لمطعم بن عدي أو باعها اليه[٣٨٠].

ويظهر لنا أن جبير بن مطعم كان مهتما بالمياه وحفر الآبار. وذلك اما بدافع الاهتمام الخاص حيث كان من أشراف قريش. واما أن يكون ذلك بتكليف يعتمد على مسؤولية عن المياه وشؤونها.

وقد حفر هذه الآبار، وبئر زمزم لا زالت مطمورة منذ عهد جرهم وظلت على دفنها إلى أن أعاد احياءها عبد المطلب بن هاشم فحفرها واستخرج ثرواتها المائية،

---

٣٧٤ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٩٤، حاشية ٢.

٣٧٥ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٨٢، حاشية ٧، جـ٢/٢٦٩، حاشية ٢.

٣٧٦ ـ ابن حوقل، المرجع السابق ص٣٧، ارسلان، المرجع السابق ص ٣٠.

٣٧٧ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢١٤.

٣٧٨ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٥٦؛ HITTI, ORIGIN OF THE ISLAMIC STATE, P.77، ارسلان، المرجع السابق ص١٦.

٣٧٩ ـ عوض الله، المرجع السابق ص٣٩، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢١٥، ٢١٦.

٣٨٠ ـ HITTI, OP. CIT. P. 77، الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢١٦، ٢١٧، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٥٦.

والذهبية[٣٨١].

ومع ازدياد النمو السكاني في مكة تشح المياه وتصير هذه الآبار غير كافية بحاجة البلد، مما يؤدي إلى حفر آبار جديدة، حتى أن البعض منهم كان يحفر آبار خاصة به ولقومه دون غيرهم وكانت بعض الآبار خاصة بأفراد معينين.

ومنها «بئر الطوى» «والجفر» (غير جفر كلاب)، وكانتا خارج مكة وهما لعبد شمس بن عبد مناف وكذلك احتفر «خما» قرب السد، «ورما» قرب منزل خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[٣٨٢]. «والثريا» لعبد الله بن جدعان[٣٨٣]، ولجبير بن مطعم بئر، «والسعّية» لهشام بن المغيرة، وحفر عقيل بن أبي طالب بئرا وبئر للأسود بن أبي البحتري قرب سوق الحناطين. وبئر ميمون بن الحضرمي حليف بني عبد شمس وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية[٣٨٤].

وهنالك نوع آخر من ملكية الآبار، حيث تكون خاصة لبعض البطون القرشية مثل «بئر الشامية»، «وشفية» «وملكوم» (ممكول) لبني أسد، «وأم أحراد» لبني عبد الدار بن قصي، ولبني جمح «السنبلة»، ولبني سهم «بئر الغمر»، «الجفير» لبني عدي، «والنق» لبني عامر، «وبئر بني نفيل» هي التي أدخلت في دار القوارير[٣٨٥].

وقد بلغ عدد الآبار في وادي مكة ٥٨ بئرا[٣٨٦]، ويذكر أن هنالك عينا جارية في مكة من أعلى الوادي إلى أسفله، فإذا كثر ماؤها وصل إلى بركة ماجن. وإذا نقص وقل بلغ العين التي في سوق الليل وتعرف باسم (بازان سوق الليل) وحاليا تعرف باسم (الآبار السبع)[٣٨٧].

ونستنتج أن ملكية الماء كانت قائمة ولها ثلاثة أنواع الأول: الملكية العامة وتشمل آبار عامة مشاعة للجميع وهذه الآبار يقوم بحفرها الزعماء وسادة القوم.

---

٣٨١ ـ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٨.

٣٨٢ ـ HITTI, THE ORIGIN OF ISLAMIC STATE, P. 77, 78. الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢١٧، ٢١٨.

٣٨٣ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٢٣،

٣٨٤ ـ HITTI, THE ORIGIN, P. 78. الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٢٢، ٢٢٣.

٣٨٥ ـ HITTI, THE ORIGIN, P. 78. الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢١٨، ٢٢٢.

٣٨٦ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣٤٠.

٣٨٧ ـ الفاسي، نفس المرجع جـ١/١٩.

النوع الثاني : ملكية خاصة بالبطون والبيوتات وتكون لكل بطن منهم آبار لا يحق لغير أفراد هذا البطن استعمالها.

النوع الثالث : آبار خاصة بالأفراد من كبار أعيان المجتمع من التجار والأثرياء وذوي السيادة والنفوذ وتكون البئر أحيانا في داخل الدار.

وبمضي الزمن واطراد النمو السكوني والعمران قام عبد مناف بن قصي بعمل خطة جديدة للتوسعة والتعديل ولاستيعاب النمو والتطور داخل مكة فقد (اختط بمكة رباعا بعد الذي كان قصي قطع لقومه)[٣٨٨] أي أنه قام باضافة أحياء سكنية جديدة.

ومع البديء في العمران والبناء إلا أننا نلاحظ أن المسجد الحرام بقي بغير سور ولا أبواب. فلم يفكروا في حجزه والبناء حوله، لأنه لم تلحف بهم الحاجة إلى ذلك وبقي المسجد كذلك في فترة الجاهلية وصدر الاسلام. في عهد الرسول ﷺ وخليفته الصديق رضي الله عنه. وعندما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أن كثرة الناس حول الكعبة والتصاق دورهم بها قد ضيق رحبة المسجد، فاشترى تلك الدور المجاورة وهدمها. وضم أراضيها إلى مساحة للمسجد الحرام وبنى له سوراً (جدار دون القامة).

وكانت المصابيح توضع على السورة لاضاءة المسجدة ليلا. وتبع عثمان بن عفان رضي الله عنه سلفه عمر وزاد في التوسعة وزاد الأبواب وحسّنها وتتابعت التوسعات في العهد الإسلامي[٣٨٩].

وقد بقيت بطون قريش في منازلها إلى ما بعد ظهور الإسلام بوقت طويل جدا بدليل أن معظم أبواب المسجد كانت تحمل أسماء بيوتات قريش فعلى سبيل المثال لا الحصر كان هنالك باب بني عبد شمس بن عبد مناف، وباب بني شيبة وباب النبي ﷺ ويؤدي إلى زقاق العطارين. حيث منزل خديجة. ثم باب هاشم، وباب العباس بن عبد المطلب، وباب بني سفيان بن عبد الأسد، وباب بني مخزوم وباب بني تيم، وباب أم هاني بنت أبي طالب. والذي يتضح من أسماء هذه الأبواب أنها عندما اتخذت في سور المسجد سميت باسم منازل القوم في تلك الجهة.

---

٣٨٨ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦٠.

٣٨٩ ـ الحموي، المرجع السابق جـ٥/١٢٤، ١٢٥.

الفصل الثالث
جوانب من حياة مكة الاجتماعية

التكافل الإجتماعي:

الاجتماع سنة الطبيعة وناموسها بين جميع المخلوقات الحية الحيوانية منها، والبشرية. بل حتى النباتات تعيش معتمدة على بعضها البعض. وجبل البشر على الانتماء إلى المجتمع، للحصول على الفوائد والخدمات الاجتماعية. فالمجتمع السليم يقوم على أساس من التعاون والتكاتف الذي يؤمن حياة الفرد والجماعة في اطار الدولة، أو المدينة أو القبيلة.

وقد كان من عادة قريش أنه إذا افتقر أحدهم واشتدت به الحاجة والعوز خرج هو وعياله إلى مكان ناء ونصبوا لأنفسهم خيمة يختبئون فيها، ولا يتروكنها إلى أن يموتوا جميعا الواحد منهم تلو الآخر. ثم حدث أن كان لأسد بن هاشم بن عبد مناف صديق من بني مخزوم وألمت مخمصة شديدة بأسرة هذا المخزومي حتى اشتكى إلى صديقه أسد فقرهم وتلك الحال. فأبلغ أسد أمه وشرح لها حال أهل صديقه المخزومي، فتصدقت عليهم بدقيق وسمن ولما نفذ طعامهم مرة أخرى لم يصبر هاشم بن عبد مناف على أن يحدث مثل ذلك لبعض أفراد المجتمع القرشي. فقام خطيبا في قومه واستن الرحلتين رحلتي الشتاء والصيف أي أنه نظم تجارة مكة على فترتين صيفية إلى الشام، وشتوية إلى اليمن. ولكنه اشترط عليهم أن يكون ربح الأغنياء مشتركا بينهم وبين الفقراء منهم حيث خصصوا جزءا من ربحهم يوزع على الفقراء منهم. وبذلك حل هاشم مشكلة الفقر والفاقة وتحسنت أوضاع جميع أفراد المجتمع فعاش الجميع في بحبوحة وسعة من الرزق. وبذلك تغلب هاشم بن عبد مناف على مشكلة اجتماعية خطيرة، وكبيرة وهي مشكلة الفقر والعوز والتي تلم بالأفراد والمجتمعات وتعاني منها الحكومات الحديثة حاليا وتعجز عن تقديم الحلول. وبذلك كانت قريش من أقدم الأمم رقيا وكفلت العيش

الهانيء لجميع أفراد المجتمع المكي وصارت قريش أعز العرب جميعا وأكثرهم مالا إلى أن جاء الإسلام وهي على ذلك دائمة[1].

وإذا حللنا عمل هاشم نلمس فيه الحنكة، ومعالجة الأمور، وبالذات الوضع الذي عانت منه مكة. معالجة واقعية فعالة، مستنبطة من واقع حياتهم. فليس هنالك مجالات أخرى للعمل فلا زراعة أو فلاحة نظرا لطبيعة الوادي القاحلة. كذلك انتشار آفة الفقر والحاجة تؤدي إلى هلاك المجتمع القرشي. واندثار لسؤددهم ومجدهم. ولذا اتخذ هاشم ذلك العلاج الحاسم وألزم الأغنياء بهذه الضريبة الجزئية مما حقق التكافل والالتزام تجاه المجتمع برقيه حرصا على أفراد قريش، واستمرارية الحياة في مكة.

وفي عمل هاشم هذا دليل على درجة الرقي المتقدم جدا، والوعي الكامل لقائد قريش، وسمو فكره الانساني الرائع. ثم فعالية أقواله وأعماله وقوة نفوذه وزعامته بين قومه في ظل البداوة بنظرتها السليمة في قلب الوادي المقدس وبذلك نستنتج أهم ظواهر الرقي والتحضر الاجتماعي الذي حققه هاشم، وحكومة الملأ في مكة في تلك العصور القديمة، وبتلك الموارد الاقتصادية البسيطة.

اضافة إلى ذلك نلمس بعض الظواهر الاجتماعية الحسنة والتي تثبت وتؤكد تكافلهم وتضامنهم الاجتماعي الواعي ما يلي:

أولا : لا يطلق الرجل زوجته فيما لو كبرت في السن أو مرضت أو رغب عنها. وليس لها معيل خشية عليها من الفقر والتشرد. فيبقيها في بيته ويمسكها خوفا عليها من الضياع وخوفا على المجتمع الذي ستصبح عالة عليه بعد طلاقها. مثل قصة سمراء مع زوجها عبد المطلب[2].

ثانيا : تعاونهم وتآزرهم في الشدائد فإذا لحق أحدهم قريبا كان أو جارا، دينا أو ضائقة لا يتأخرون عن مساعدته واعانته حتى يقضي دينه ويسدده. ويخلصونه من ضائقته نهائيا وقد ذكرنا آنفا مساعدة أسد بن هاشم لصديقه المخزومي.

ثالثا : اكرام الضيف صفة عربية مشهورة وقريش بذلت الجهد في سبيل راحة

---

١ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٨٣، عبد الجبار، المرجع السابق ص١٤٩، ١٥٠، وص١٥٢، كستر، المرجع السابق ص١٠، وقد اعتفدوا اعتفادا أي أنهم كانوا إذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم بابا، أنظر ابن منظور، المرجع السابق جـ ٢ / ٨٢٠ مادة عفد.

٢ ـ طه حسين، المرجع السابق ص١٩١، ١٩٣، ١٩٥.

الضيف وبره[٣]. ونعرف العديد من الكرماء القرشيين الذين اشتهروا بكرمهم، وجودهم مثل ـ حاسي الذهب ـ عبدالله بن جدعان، والفياض هاشم بن عبد مناف، والفيض المطلب بن عبد مناف وطلحة الجود. وازواد الركب وغيرهم كثيرون.

وأما أعظم ارهاص لمثالية المجتمع القرشي وتكامله فقد تحقق في ظاهرتين وهما تلكما الوظيفتين اللتين قام بهما القرشيون منذ عهد قصي لتكريم الحجاج ضيوف الله فعمدوا إلى الرفادة لأطعام الحجاج وكذلك السقاية بتأمين الماء لحجاج بيت الله في وادي مكة القليل المياه. وسنذكر ذلك مفصلا في موضعه.

وأخيرا عقدهم حلف الفضول الذي يعد بحق مفخرة لقريش وأنه كان عملا نبيلا، جليلا من أشرف أعمال الخير وأبرها. بل وأعظمها قدرا وأفضلها ثوابا وقد توجت به قريش حضارتها ورقيها الانساني في أسمى معانيه.

العلـــوم والمعـــارف :

لا نقطع جازمين بجهل العرب وقريش منهم ولا نؤكد أنهم كانوا على مستوى علمي وثقافي عالي. وإنما كان الجهل متفشيا بينهم كما كانت المعرفة منتشرة حيث كانت لهم علوم ومعارف زمانهم، والتي برعوا فيها وبزوا أقرانهم. وكتب تفسير القرآن ومعاجم اللغة توضح لنا أن الأمية والجهل لهما مدلولات أخرى ومرادفات تؤدي إلى معان أخرى ولا تقتصر على عدم المعرفة فقط وعدم إتقان العلوم أو عدم القراءة والكتابة[٤].

قال تعالي: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾[٥] وقد فسر العلماء معنى الأميين في هذه الآية أنهم مشركو العرب[٦] أي أن المقصود بذلك الأمية في الدين حيث لم يكن لهم كتاب[٧].

وقال تعالي: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب

---

٣ ـ الألوري، المرجع السابق ص ١٤٧.
٤ ـ مدني، أمين، التاريخ العربي ومصادره. سنة ١٩٧١م دار المعارف بمصر جـ٢ / ١٤٤، ١٤٥.
٥ ـ سورة آل عمران آية ٢٠.
٦ ـ السيوطي. المرجع السابق ص٧٠.
٧ ـ الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٨م القاهرة ص ٤٥.

وهم يعلمون﴾[٨] وفي هذه الآية فسروا الأميين بأنهم العرب عموما[٩]. علما بأن من الثابت أنه كان في العرب كتاب وقراء وكذلك في قريش باثبات القرآن الكريم أيضا قال تعالى: ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[١٠]. وبذلك يتأكد وجود التعليم بين العرب وقريش وأن من قريش من كان يجيد القراءة والكتابة بل أن منهم من تعلم لغات أجنبية غير العربية، وأتقنها قراءة وكتابة مثل ورقة بن نوفل[١١] فقد قرأ وكتب بالعبرانية[١٢].

إذاً الجاهلية والأمية العربية تعني ما هو ضد الروح الإسلامية وعقيدتها فهي تشمل الشرك بالله، وأخلاق ذميمة وعادات سيئة كالربا وشرب والخمر[١٣] ونحو ذلك.

وأول أدلتنا على وجود القراءة والكتابة بين العرب والقرشيين، هو عقود الايلاف التي أخذها بنو عبد مناف من كسرى الفرس، وقيصر الروم ونجاشي الحبشة، وملوك اليمن[١٤]. فكيف يأخذون مواثيق الأمان هذه وعقود التجارة ليسيروا بها آمنين في رحلاتهم التجارية ويظهروها لعرب الجزيرة في جميع أنحائها. وليس هنالك من يتمكن من قراءتها ويثقف مضمونها. فذلك أمر مردود. حيث لا بد من وجود أولئك القراء ولو كان العدد محدودا أوقليلا جدا.

اضافة إلى ذلك فقد عرف العرب التدوين، في كثير من نواحي حياتهم والكثير من الفاظ العربية دلت عليه. كما عرفوا أدوات الكتابة من قلم وقرطاس، وصحيفة، والمجلة، والكتاب[١٥].

وكان التعليم والذي يشمل القراءة والكتابة محصورا بين الحضر في مواطن استقرارهم ومدنهم. وقريش في مدينة مكة عرفت القراءة والكتابة بين رجالها وقد سبق أن مر بنا ذكر المتعلمات من نساء قريش[١٦]. وتولى مهمة التعليم بعض الرجال بل كانوا

---

٨ ــ سورة آل عمران آية ٧٥.

٩ ــ السيوطي، المرجع السابق ص٧٩.

١٠ ــ سورة الاسراء آية ٩٣.

١١ ــ مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢ / ١٤٠، ١٤١.

١٢ ــ الأسد، مصادر الشعر ص٥٥، ٦١.

١٣ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص١١٥.

١٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢ / ١٨٠،

١٥ ــ مدنى، التاريخ العربي ومصادره جـ٢ / ١٦٠.

١٦ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٤١٤.

من أشراف الناس مثل سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهـرة[17]. وذكروا أن المتعلمين في قريش عددهم سبعة عشر رجلا[18]. وذلك عند مجيء الاسلام ولكن باضافة سابقيهم اليهم سيكون عددهم أكثر وهم :

١ ــ عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب من بني زهرة كان متعلما وكاتبا ذو أمانة وكان ثقة استكتبه النبي ﷺ، ثم كتب لأبي بكر ولعمر بن الخطاب رضي الله عنهم في خلافة كل منهما[19]. وكتب للنـاس سجلاتهـم ومعاملاتهم من ديـون وعقود[20].

٢ ــ كاتب صحيفة مقاطعة بني هاشم وهو منصور بن عكرمة[21] بن عامر بن هاشم بن مناف[22].

٣ ــ خالد بن سعيد بن العاص بن أمية كتب للنبي ﷺ.

٤ ــ الزبير بن العوام من كتابه ﷺ كان مختصا بأموال الصدقات.

٥ ــ عبد الله بن أبي سرح من كتاب النبي ﷺ.

٦ ــ معاوية بن أبي سفيان كتب للنبي ﷺ.

٧ ــ أبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي.[23]

٨ ــ عثمان بن عفان كتب لأبي بكر الصديق.

٩ ــ مروان بـن الحكم كتب لعثمـان بن عفـان ، ثم صـار مروان أحـد خلفاء بني أمية[24].

١٠ ــ ورقة بن نوفل سبق ذكره وكان يسجل الحسابات والأمور التجارية[25].

١١ ــ الشفـاء بنت عبـد الله العدوية، والتي علمت حفصة بنت عمر بن الخطاب القراءة والكتابة[26].

---

١٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص٤٧٥.

١٨ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/ ٢١، ٢٢.

١٩ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/١١٥.

٢٠ ــ المسعودي، عبد الله، التنبيه والأشراف، ١٩٦٥م. بيروت ص ٢٨٢.

٢١ ــ إبن الأثير، الكامل جـ٢/٦١.

٢٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٧.

٢٣ ــ المسعودي، التنبيه والأشراف ص٢٨٢، ٢٨٣.

٢٤ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٣٧٧، المسعودي، التنبيه والأشراف ص٢٨٩، ٢٩٣.

٢٥ ــ إبن بكار، المرجع السابق ص ٤١١.

٢٦ ــ العسقلاني، المرجع السابق جـ١٣/ ٤، ٥، الأسد، مصادر الشعر ص٥٦.

١٢ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب المذكورة أعلاه.
١٣ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص وكان أيضا يسجل الحسابات وكل ما يخص التجارة[٢٧].
١٤ ـ أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة وذكرنا أنه تولى مهمة التعليم والتدريس وقيل أنه أول من علم قريشا الكتابة.
١٥ ـ حرب بن أمية حيث قيل أنه أول من تعلم الكتابة ونقلها إلى مكة.
١٦ ـ عبد المطلب بن هاشم حيث وجد مكتوبا بخطه في خزانة المأمون مدونا فيه دين عبد المطلب على رجل حميري من أهل وزل بمدينة صنعاء وقد أوضح قدر الدين وأنه كان ألف درهم فضة كيلا سلمت بالحديدة.
١٧ ـ أسيد بن أبي العيص[٢٨].
١٨ ـ النضر بن الحارث القرشي وكانت له مدونات[٢٩].
١٩ ـ عقبة بن أبي معيط، وكذلك كانت له مدونات[٣٠].
٢٠ ـ الزبير بن عبد المطلب حيث ذكروا أنه كتب كتابا لتسجيل حلف الفضول[٣١].
٢١ ـ علي بن أبي طالب، وكان من كتبة الوحي[٣٢]. وقد احتفظ بنو الحسن بمصحف مكتوب بخط جدهم علي[٣٣].
٢٢ ـ بشر بن عبد الملك أخو اكيدر (صاحب دومة الجندل) وقد تعلم الخط بالحيرة وتزوج الضهباء بنت حرب أخت أبي سفيان فولدت له ابنة هي جدة عمر بن هبيرة[٣٤].
٢٣ـ المغيرة بن شعبة الثقفي كتب للنبي ﷺ.
٢٤ ـ الحصين بن نمير كتب للنبي ﷺ.
٢٥ ـ العلاء بن عقبة كتب للنبي ﷺ وسجل للناس معاملاتهم من عقود وديون.

---

٢٧ ـ حمور، عرفان محمد، أسواق العرب، الطبعة الأولى ١٩٧٩م بيروت ص ٣٨.
٢٨ ـ إبن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (الوراق)، الفهرست تحقيق رضا، تجدد سنة ١٩٧٢م بيروت ص ٨.
٢٩ ـ مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢/ ١٤٠، ١٥٥.
٣٠ ـ مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢/١٥٥.
٣١ ـ إبن حبيب، المنمق ص ٢٢١.
٣٢ ـ الطبري، تاريخ جـ٣/١٨٢، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢١٣، نهج البلاغة شرحه محمد عبده، حققه محمد يحي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، مصر، المقدمة ص و.
٣٣ ـ إبن النديم، المرجع السابق ص ٤٢.
٣٤ ـ إبن حزم، المرجع السابق ص ٤٢٩.

٢٦ ــ جهيم بن الصلت كتب للنبي ﷺ أموال الصدقات.
٢٧ ــ حذيفة بن اليمان كتب للنبي ﷺ خرص الحجاز .
٢٨ ــ معيقب بن أبي فاطمة الدوسى حليف بني أسد وقد اختص بكتابة مغانم النبي ﷺ .
٢٩ ــ حنظلة بن الربيع بن صيفي من تميم كان كاتبا إحتياطيا إذا غاب أحد كتّاب الرسول ﷺ قام بعمله حتى سمي حنظلة الكاتب.
٣٠ ــ ومن كتّابه ﷺ شرحبيل بن حسنة من خندف، وحليف لقريش وقيل أنه كندي .

إضافة إلى ما تقدم فقد كان يوجد العديد من الكتّاب حيث استعملهم النبي ﷺ مرة أو مرتين أو ثلاثا[٣٥]. ثم لا يعود إلى استعمالهم بعد ذلك ولربما كان يعزلهم لعدم تجويد الكتابة أو لأنه استعملهم لحاجة طارئة .

٣١ ــ عبيد الله إبن رافع كان كاتبا لعلي بن أبي طالب[٣٦].
٣٢ ــ أما أستاذ المدينة زيد بن ثابت الأنصاري فقد كان كاتبا مترجما لأنه اتقن العديد من اللغات حيث كتب بالفارسية والرومية والقبطية، والحبشية والعبرية إضافة إلى اللغة العربية وكان معلما أيضا، فقد علم عبد الله بن العباس، وعروة بن الزبير[٣٧]. وأجاد عبد الله بن عمرو بن العاص السريانية قراءة وكتابة وكان مهتما بكتب أهل الكتاب[٣٨]. وقد تكسب بعض العرب بالكتابة أي جعلها حرفة له يكتسب منها رزقه حيث جلس بعض الكتاب في الأسواق الموسمية العامة، ومعهم أدواتهم الكتابية لتسجيل ما يطلب منهم من كتابة رسائل أو تدوين سندات أو معاملات ثم يقبضون الأجر مقابل ذلك[٣٩]. وترى مثل هؤلاء الكتاب في وقتنا الحاضر، حيث يجلس الكاتب منهم قرب المصارف، أو المحاكم الشرعية، أوفي الأسواق العامة.

ونظرا لاشتغال أهل مكة بالتجارة. فقد ألموا بالحساب والمكاييل والمقاييس فاستعملوا الصاع، والمد، والمكوك في كيلهم وكذلك الرطل والأوقية والنش. وعرفوا نظام الأمانات، والودائع . وسجلوا الصكوك لتجارتهم[٤٠].

---

٣٥ ــ المسعودي، التنبيه والأشراف ص ٢٨٢ ، ٢٨٤ .
٣٦ ــ المسعودي، التنبيه والأشراف ص ٢٨٢ ، ٢٨٤ .
٣٧ ــ مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢/١٨٦ .
٣٨ ــ الأسد، مصادر الشعر ص ٥٥ .
٣٩ ــ حمور، المرجع السابق ص ١١٣ .
٤٠ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٦٥ .

وكانت قريش تكتب باسمك اللهم في كل مدوناتها. وقيل أن أمية بن أبي الصلت علم أهل مكة كتابة ذلك في صدر الكتاب[٤١] وكتب محمد ﷺ مثلهم إلى أن نزلت (بسم الله)[٤٢] . ثـم بعـد ذلـك كتب (بإسم الله الرحمن الرحيم)[٤٣]، وهـو أول مـن أمـر بكتابتهـا . [٤٤]

وبالنظر فيما تقدم ذكره نستنتج انتشار الكتابة في مكة بين أهلها وحلفائهم ومواليهم. كذلك نميز الكتّاب إلى نمطين أولا كتّاب تميزوا بالايجاز والاهتمام بالحساب وأصوله فاختصوا بتسجيل العقود والأموال ويتضح ذلك جليا في تخصص كتاب النبي ﷺ كل منهم في كتابة نوع معين من المعاملات.

وفي صدر الإسـلام أمـرهم النبي ﷺ بتعلم القـراءة والكتـابـة. وتعلم اللغات الأجنبية. حتى قيل من تعلم لغة قوم أمنهم أو أمن مكرهم.

ونفذ النبي ﷺ الأمر بنفسه حيث شرع في تكوين مدرسة صغيرة منذ السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر مباشرة. وذلك بعدما وافق على أن يفتدي الأسير القرشي نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ورجالهم القراءة والكتابة[٤٥].

ويذكر القرآن الكريم الكتابة، والكتب وسطورها وكتّابها، وأدوات الكتابة من قلم وصحف، والـرق الـذي يكتب عليه مرة واحـد[٤٦] وكـذلك استعملوا ألواح الطين المطبوخ[٤٧]. وعرفوا الحروف الأبجدية كاملة تقريبا كما هي اليوم أبجد، هوز، إلى آخـره..وذكروا بأنها كانت أسماء ملوك وبعض الحروف والتي هي مثل ثخذ وضظغ ليست من أسمائهم فقالوا هي الروادف[٤٨].

ونظرا لأن أهل مكة تعلموا كتابتهم من الحيرة فأنهم طوروا خطوطهم بهذا الاقتباس من أهل الشمال كالأنبار، والأنباط أيضا. ونتيجة هذا المزج فقد حسنت قريش لغتها

---

٤١ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٣/٣٥٩، الأسد، مصادر الشعر ص٧٣.
٤٢ ــ سورة هود آية ٤١.
٤٣ ــ سورة النمل آية ٣٠.
٤٤ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٨٠.
٤٥ ــ مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢/١٨٦، الحوفي، المرجع السابق ص ٤١٤.
٤٦ ــ يحي، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة ١٣٧٥، ١٩٥٦.
٤٧ ــ إبن النديم، المرجع السابق ص ٧.
٤٨ ــ العصامي، المرجع السابق ص ١٧٣، العسكري، المرجع السابق ص ٦٧.

واعتمدها القرآن الكريم كأوضح اللهجات العربية وأنقاها[٤٩]. وهكذا غدت لهجة قريش هي اللهجة الأولى والنموذج الذي يحتذى. وبالاضافة إلى الحركة الأدبية التي كانت تقوم في أسواق العرب قبل الإسلام. فحوالي القرن الخامس الميلادي كانت لغة قريش هي اللغة الأم، واللغة النموذجية بين العرب والمثال الذي يحتذى[٥٠].

أما أهم المواضيع التي خصوها بالكتابة والتدوين فنلخصها فيما يلي:

١ ــ الكتب الدينية.
٢ ــ العهود والمواثيق والأحلاف.
٣ ــ أمور عامة وهامة.
٤ ــ الصكوك، ومنها أنواع مثل الوصر وهو صك الأرض، ويسمى القطوط.
٥ ــ الرسائل.
٦ ــ مكاتبة الرقيق.
٧ ــ النقش على الخاتم ومنه أيضا النقش على الآنية وخاتم الطعام[٥١].
٨ ــ نوع قديم جدا. واختص به أهل مكة فقط فهل لنا أن نتجاهله، وأن يعتبر من أنواع العهود والمواثيق ولكنه يختلف عن ذلك لكونه عقد تجاري سياسي. وهو ذلك الايلاف الذي عقده بنو عبد مناف مع حكام الدول المجاورة. وقد مربنا ذكره فرأينا إضافته واقراره مع مواضيعهم التي كتبوها.

وان كان التعليم محدودا كما تقرر، فقد كانت هنالك ثقافة عامة حتى بين الأميين منهم. فألم الكثير من القرشيين ببعض المعارف العامة عن طريق الرواية والحفظ يدلنا على وعيهم وسعة مداركهم. حيث تسابق القوم إلى مسائلة محمد ﷺ عن أحداث قديمة مثل قصة أهل الكهف وعددهم، وعن ذي القرنين الرحالة الرائد الذي طاف أرجاء الأرض شرقا وغربا. وسألوه عن ماهية الروح وكنهها وطبيعتها[٥٢]. وإذا تأملنا هذه الأسئلة نقرر أنها تنم عن اطلاع والمام بالأحداث وفلسفة علمية عنيت بالنفس أو هي علم النفس الحديث حيث أنهم بحثوا في النفس طبيعيا وروحيا. وأعتقدوا أن

---

٤٩ ــ حتي، تاريخ ص ٨٤، ١٠٠.

٥٠ ــ السالم، المرجع السابق ص ٢٩٦، ٢٩٧.

٥١ ــ الأسد، مصادر الشعر ص ٦١، ص ٦٥، ص ٦٧ ـ ٦٨، ص٧٠، ص٧١، ص٧٣، ص ٧٥ ـ ٧٦.

٥٢ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٢/٣٩، الروض ص ٥٩، مدني، التاريخ العربي ومصادره جـ٢/٤٥، ٤٦.

الروح هو الهواء الذي في باطن الجسد أو في باطن الذات[٥٣].

وبدأ القوم بمضايقة محمد ﷺ في مستهل أمر دعوته فهذا النضر بن الحارث من بني عبد الدار يؤذي الرسول بأحاديثه عن أخبار الملوك[٥٤] حيث يجلس إلى قريش ويحدثهم عن تاريخ ملوك فارس والروم ويقول هذا خير من حديث محمد. وكذلك عمرو بن هشام (أبو جهل) يستهزيء بالنبي ﷺ عندما سمع أحاديثه عن شجرة الزقوم ونظرا لعدم خبرتهم بالنباتات والأشجار أو لأن الاسم غريب عليهم فقد ذهب يستقي المعلومات عن هذه الشجرة ليتمكن من الرد عن معرفة وعلم.[٥٥]

وكان من المستهزئين الوليد بن هشام الخزومي[٥٦] أخو أبي جهل والحارث بن عدي وهو ابن الغيطلة، والشاعر عبد الله بن الزبعري من بني سهم كانا من المؤذين المستهزئين[٥٧] وكان أبو الأشد الجحمي معهم كذلك[٥٨].

ولكل هؤلاء المستهزئين، خلفية ثقافية اعتمد عليها في ردوده على النبي محمد ﷺ وفي مهاجمته، وفي تحريض القوم ضده.

ومن علوم المجتمع القرشي علم الأنساب وقد عرفته قريش واشتهر منهم أبو بكر الصديق[٥٩]. وعلم الأنواء والكواكب، وعلم التاريخ، وتعليل الرؤيا، والقيافة وهي نوعان قيافة الأثر أي قص أثر الماشي[٦٠]. وقد قافت قريش أثر النبي ﷺ حين خرج مع أبي بكر يوم هجرتهما[٦١]. والذي اقتفاهم كرز بن علقمة بن هلال بن جريبة الخزاعي.[٦٢] والعيافة[٦٣] وهي النوع الثاني من القيافة وتختص بقيافة البشر وتسمى أيضا الفراسة وبرع فيها عمر بن الخطاب[٦٤]. وهي تشبيه الولد لأبيه ونسبته إلى

---

٥٣ ـ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٣٢.
٥٤ ـ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٤٩.
٥٥ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/١١٨.
٥٦ ـ السدوسي، المرجع السابق ص٦٦.
٥٧ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص١٦٥
٥٨ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/٦٥.
٥٩ ـ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/٣٥٦.
٦٠ ـ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٥٣.
٦١ ـ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٤٩.
٦٢ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٢٣٦.
٦٣ ـ ابن حزم، نفس المرجع ص ١٨٧.
٦٤ ـ ابن هشام، السيرة جـ١٨٣١، عوض الله، المرجع السابق ١٨٥.

قومـه[٦٥].

والعرافة أقل من الكهانة، وهما في العرب أيضا ومن كهانهم سطيح وشق، ولم تكونا في قريش[٦٦]. وقد وثق العرب وقريش في كلام سطيح وشق واعتمدوا عليهما، وعلى غيرهما من الكهان[٦٧]. وقد يكون حديثهما خرافة.

والريافة والاستدلال على مواطن الماء برائحة التربة أو نباتاتها[٦٨] وهو فرع من علم الجيولوجيا الحديث.

والطبابة لمعالجة الأمراض بالاعتماد على التجربة والخبرة. كما استفادوا من خصائص بعض الأعشـاب في التـداوي، واستعملوا أيضـا في تطبيبهم الحجـامـة والفصـد والكي[٦٩]. واستعملوا العسـل غذاء ودواء[٧٠] لهم حيث جعلوا منه علاجا للفم في بعض الحالات فعند مولد الطفل يدلكون حنك الطفل بنقطة عسل على طرف الابهام. ثم يقومون يوميا بوضع نقطة عسل في فمه ولعدة مرات للتغذية وتطهير الفم وهذا ما يحدث إلى وقتنا الحاضر.

وقد ثبت علميا أن العسل يعقم الفم، وله تأثير طيب على الأسنان فيما بعد والطب الشعبي ينصح باستسعمال محلول العسل للغرغرة حيث أنه يعتبر مضادا حيويا قويا جدا، والعسل قلوي التكوين[٧١]. ولكثافة المادة السكرية في العسل يتم القضاء على الجراثيم. وأثر عن النبي ﷺ أنه حنك عبد الله بن الزبير أول مولود في الإسلام بعد الهجـرة إلى المدينة بتمرة لاكها في فيه ثم أخذها سائغة وحنك بها المولود كعادتهم في مكـة[٧٢]، ولكنـه ﷺ استعاض بالتمر في المدينة عن العسل الذي كانوا يجلبونه من مناحل الطائف. ولا فرق بين التمر والعسل نظرا لتوحد خواصهما السكرية

---

٦٥ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/ ١٥٤، ١٤٤.

٦٦ ــ المسعودي ، مروج الذهب جـ٢/ ١٥٤، ١٦٠.

٦٧ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/ ٢٤٥ حاشية ٢، الألوري، المرجع السابق ص ٨٧.

٦٨ ــ عوض الله ،المرجع السابق ص ١٨٤.

٦٩ ــ شاكر، شبه جزيرة العرب ص ١٠١.

٧٠ ــ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنهي أمتي عن الكي، أنظر البخاري، المرجع السابق جـ٧/ ١٥٩.

٧١ ــ ن، يوريش، العـلاج بعسل النحل، ترجمة محمد الملوجي، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م القاهرة ص١٤٢.

٧٢ ــ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٣/ ١٦١.

وهـذا من عاداتهم في التطبب. وقد مارست قريش بعض الطرق الوقائية خشية العدوى بالأمراض فمارست العزل الطبي لمرضاها حيث أخرجت الشاعر أبو عزة من مكـة لبرص أصابه، وحكمت عليه أن يبقى خارج حدود الوادي. فظل يعيش بين أكناف الجبال وظلال الأشجار وقد أصابه سقاء البطن. فأخذ شفرة فوجأ بها بطنه، لاخراج الماء الذي سال على مواضع البرص في جسدة فشفي وبرأ ثم عاد إلى مكة[٧٣]. ثم يذكرون أن هاشما وعبد شمس وهما توأمان كان أصبع أحدهما ملتصقا بجبهة الآخر عند الولادة ففصلوا الأصبع عن الجبهة وسال الدم[٧٤].

فهل يدلنا ذلك على المامهم بنوع من أنواع الجراحة البسيطة، وقد كانت مثل هذه الجـراحات منتشرة أيضا بين العرب من غير قريش حيث نجد أن أم سنان أبو هرم تشارف على الموت في أواخر حملها بابنها فتوصي أن يبقر بطنها لاستخراج الطفل منه. وقد أنفذوا لها ما أرادت[٧٥]. وحادثة أخرى تماثلها من قبل أم خارجة بن سنان. وتم بقر بطنها واستخراج طفلها خارجة أيضا ويسمون الطفـل الـذي يبقـر عنـه بطـن أمـه خشعــة[٧٦].

وكان عامة العرب يخافون المرض، ويحرصون على الوقاية وعدم العدوى فاحتاطوا لذلك باتخاذ بعض طرق الوقاية لمنع انتقال عدوى الجرب مثلا من انسان إلى آخر أو من حيوان الى غيره[٧٧]. وكذلك كانوا يخافون العدسة (الجدري) والعدوى بها، كما يخافون الطاعون.[٧٨] وأول ما عرفو ا الحصبة والجدري في مكة وفي الجزيرة عامة عام الفيل الموافق ٥٧١[٧٩].

وقد ألموا بشيء من الطب البيطري نظرا لاعتمادهم على الحيوان في حياتهم اليومية، فمهروا به حتى صار الطب البيطري من أوسع معارفهم انتشارا وأهمية[٨٠]. وتوصلوا إلى ذلك عن طريق التجارب واقتباس الخلف من السلف. وكذلك الأمر بالنسبة للطب

٧٣ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٣٠١، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦٦١.
٧٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٠.
٧٥ ــ زيدان، ابراهيم، نوادر الكرام في الجاهلية والإسلام، ١٨٩٩م القاهرة، ص٩١.
٧٦ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٢٥.
٧٧ ــ الألوري، المرجع السابق ص ١٠٣.
٧٨ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٨٨.
٧٩ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٤٨.
٨٠ ــ عوض الله، المرجع السابق، ص ١٨٠.

البشري. ومعالجة الناس فقد اعتمدوا على التجارب والوصفات المتوارثة، عن ذوي الأسنان منهم. وقام علاجهم على الكي بالنار لعامة الأمراض المستعصية في نظرهم ولكنهم قالوا (آخر الدواء الكي) أي آخر ما يلجأون اليه[٨١]. واستعملوا النار أيضا في التطبب بالجراحة، حيث كانوا يحمون الشفرة قبل استعمالها للوجأ في الحجامة مثلا، أولبتر الأعضاء عند عقوبة، أومرض. وهي طريقة جيدة للتعقيم وحديثة حيث لا زالت تستعمل. واتخذوا من بعض النباتات والأعشاب أدوية بشربها أو وضعها على موضع الألم. حيث يقومون باستخلاص عصارة النبات الأخضر أو منقوع الأعشاب الجافة.

وعالجوا اصابات العين الحولاء بالنظر الدائم إلى حجر الرحي في دورانه[٨٢]، وكذلك عالجوا ضعف البصر بأكل سنام وكبد الجمل بعد قليه. وعالجوا بعض الأمراض الجلدية مثل القوبا وعالجوها بالريقة (اللعاب) تمسح به[٨٣].

ومارسوا العلاج بالرقي والتمائم وتعليق الخرزات ونحو ذلك. ومنعوا الملدوغ من النوم لمنع سريان السم في سائر البدن[٨٤].

واعتقدوا في الجن والأرواح الشريرة بأنها تسبب الأمراض التي لا تشفى إلا بالتمائم والسحر. وأضافوا الاعتقاد ببعض الظواهر التي اعتبروها إنذارا بالمرض أو غيرها من الظواهر واعتقدوا أنها تكون شافية. وحاولوا معالجة بعض الأمراض النفسية حيث عالجوا بعض الفساق والمجانين بوسائل مختلفة[٨٥].

ومن أشهر أطباء العرب الحارث بن كلدة من الطائف، والذي درس الطب وتعلمه في مدرسة جند يسابور. وقد درس عن الأمراض والأدوية، أي بما يشبه الطبيب الصيدلي. وعالج الكثير من الناس. وقد أوصى النبي ﷺ بالتداوي عنده. وفي ذلك دليل على اتصال أهل مكة به ومعرفته واتصاله الدائم بهم. ومن مأثور أقوال هذا الطبيب العربي عن الداء. (إدخال الطعام على الطعام).[٨٦] ومن حكمتهم الطبية

---

٨١ ــ إبن قيم الجوزية، الطب النبوي ص ١٠.

٨٢ ــ عوض الله، المرجع السابق ص ١٧٩.

٨٣ ــ إبن قيم الجوزية، الطب النبوي ص ١٢.

٨٤ ــ عوض الله، المرجع السابق ص ١٧٩.

٨٥ ــ ابن قيم الجوزية، الطب النبوي ص ١١، فروخ، عمر، تاريخ الفكر العربي، سنة ١٩٦٦م، بيروت ص ١٦٥، ١٦٧.

٨٦ ــ ابن قيم الجوزية، نفس المرجع ص ١٢، براون ـ ادوارد ج.، الطب العربي، ترجمة أحمد شوقي حسن ومحمد عبد الحليم العقبي سنة ١٩٦٦م، ص ٢٧، ٢٨.

(المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء)[٨٧].

وأشهر ما نعرفه من الطب العربي إلى جانب التداوي بالكي، نعرف تجبير كسور العظام. واصلاحها، وردها إلى موضعها. باستعمال الأربطة واللفائف عند تجبير العظام المكسورة. ويصنعون الجبيرة من أربطة من القماش، وطيبان وهي القضبان الصغيرة من أعواد الخشب.

وقد برع العرب عامة في علم الأنواء والكواكب أو ما يسمى النجامة والتنجيم. وعرفوا ريح الصبا، والهبوب. واهتدى العربي في البر والبحر وعلى الأغلب في قلب الصحاري والقفار بواسطة النجوم وحركاتها[٨٨] وقد ذكر الله تعالى معرفتهم هذه قائلا: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾[٨٩]. فقد جابوا الجزيرة طولا وعرضا بلا معالم أو حدود، أو طرق واضحة، وليس لهم آلة أو بوصلة توجههم الا تلك المراصد البشرية (عيونهم) التي نصبوها على النجم به يستدلون، ويسيرون. وهذا ما ثبت جغرافيا، حيث تعرف الاتجاهات ليلا بمواقع النجوم مثل النجم القطبي، والدب الأكبر

وأما علم التاريخ، فقد عرفوه وتدارسوه عن طريق الرواية والحفظ. وقد كان التاريخ بالنسبة لهم شبيه بالقصص أو كما وصفوه أساطير الأولين، ولكن الأحداث الهامة والعظيمة في حياتهم كانت تشكل نقاطا هامة تحفظ وتسجل فيؤرخون بها وقد أرخت قريش بعام الغدر[٩٠]. ثم أرخت بعام الفيل الذي (وافق عام ٥٧٠م). ثم أرخت بيوم الفجار، والذي يوافق (حوالي ٥٨٥م). ثم أرخت ببناء الكعبة، الذي تم (حوالي سنة ٥٩٥م). وداموا على ذلك إلى البعثة النبوية (حوالي ٦١٠م) وأول من أرخ بالهجرة في الإسلام وعمم استعماله عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٩١].

وقد أرخوا بموت كعب بن لؤى[٩٢]، ثم أرخوا بموت هشام بن المغيرة المخزوم مع

---

٨٧ ــ عوض الله ،المرجع السابق ص ١٧٩.

٨٨ ــ عوض الله، نفس المرجع ص ١٧٦، ١٧٧.

٨٩ ــ سورة النحل، آية ١٦

٩٠ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٧.

٩١ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٥٢، العسكري، المرجع السابق ص ١٢٢، مع ملاحظة أنه تم ادخال التاريخ بالسنة الميلادية بالاعتماد على التاريخ الميلادي لعام الفيل المتفق عليه وأنه موافق لمولد النبي صلى الله عليه وسلم أنظر GRUNEBANM, OP CIT P.28. AHMED, OP. CIT, P. 6.

٩٢ ــ العسكري، نفس المرجع ص ١٢٢.

التأريخ بيوم الفيل إلى أن بعث النبي ﷺ . ثم أرخوا أيضا بحلف الفضول[٩٣] .

وذلـك كعادتهم في التأريخ بموت عظيم فيهم . حيث اعتبروا ذلك من أحداث المجتمع الهامة ولكن المعتقد أن التأريخ بموت الأشخاص يكون خاصاً أي أنه يكون تأريخا في محيط أسرة الشخص أو عشيرته ولا يعم جميع الأحداث حيث لم يرد في التراث مثلا نسبة الحدث العام إلى موت العظماء والعكس صحيح .

والتأريخ بالأحداث الخطيرة ، والأيام الهامة عادة في عامة العرب حيث أرخوا بيوم الكلاب الأول والثاني ويوم جبلة[٩٤] . وأرخ الأوس والخزرج بعام الأطام[٩٥] .

وقـد أغـرم العـرب عامة بالقصص التاريخي منه ، وقصص الحروب ، والقصص الغرامي والاجتماعي[٩٦] .

ومن مؤرخي قريش النضر بن الحارث الذي كان يحدث القوم عن أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . وأخبار الملوك ، ويقول لهم هذه أساطير الأولين ، وكان في ذلك يقلد محمدا ﷺ حيث يتبعه ويجلس بعده ليقص لهم القصص التاريخي حتى يشغلهم عنه . وكان للنضر مدونات يسجل فيها تاريخه الذي يحكيه لقومه وكذلك الأمر بالنسبة لعقبة بن أبي معيط وقد عمت أحاديثهما أندية مكة[٩٧] .

وعرف العرب ، والعبرانيون أن السنة القمرية مقدارها ٣٥٤ يوما وجزء من يوم ، وأنها ١٢ شهرا قمريا ستة أشهر منها ثلاثون يوما ، والستة الأشهر الأخرى ٢٩ يوما . فيكون الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية ١١ يوما . وفي كل ثلاثين سنة يجبرون الكسر في السنـة الأخـيرة بحيث يصبح سبعة أشهر منها كاملة (٣٠ يوما) والخمسة الأخيرة ناقصة (٢٩ يوما) . وحينا تكون الشهور الكاملة متوالية أو العكس ، وحينا آخر تكون متفرقة . وما عداهما من الأمم استعملوا السنة الشمسية[٩٨] .

---

٩٣ ــ المسعودي ، التنبيه والأشراف ص ٢٠٩ ، ٢١١ .

٩٤ ــ الطبري ، تاريخ جـ٢/٢٥٤ ، الأزرقي ، المرجع السابق جـ١/١٥٤ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ١/٥٢ .

٩٥ ــ المسعودي ، التنبيه والأشراف ص ٢٠٦ .

٩٦ ــ عوص الله ، المرجع السابق ص ١٨٢ .

٩٧ ــ السهيلي ، المرجع السابق جـ٢/١١٥ ، مدني ، التاريخ العربي ومصـادره جـ٢/٤٥ ، ٤٦ ، ٦٧ ، الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٢ .

٩٨ ــ المسعودي ، التنبيه والأشراف ص ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .

وجعلوا للشهور أسماء مناسبة لما يحدث فيها. فالمحرم لتحريم القتال فيه، وصفر لصفير الرياح في الخيام لخلوها من سكانها، والربيعين لاخصابها، والجمادين لجمود الأرض وعدم خصبها، ورجب لرجاء الخير فيه واحترامه. وشعبان لتشعبهم فيه ورمضان لشدة رمضائه وحرارته، وشوال لشولان الابل، والقعدة لقعودهم عن القتال، والحجة حيث يحجون فيه[٩٩].

والأيام كانت لها أسماء أخرى. فالجمعة عروبة، والسبت شيارا، والأحد الأول، والأثنين أهون، والثلاثاء جبارا، والأربعاء دبارا، والخميس مؤنس[١٠١]. وغيرت قريش أسماء هذه الأيام بالاقتباس من الأمم المجاورة[١٠٢].

ومن معارفهم تعليل الرؤيا، ولم يكتفوا بتعليلها وتفسيرها كأحلام وبحثوا في سببها وكيفية وقوعها، وماهية تلك الأحلام. وعرفوا أنها أفعال وأماني العقل الباطن، أي الرغبات المكبوتة. وفرقوا بين أحلام النوم الخفيف ورؤاه وبين النوم العميق وأحلامه[١٠٣]. وهذه الأراء والبحوث كلها من أصل أبحاث علم النفس الحديث.

ولقد شغل العرب فكرهم وملأوا وقتهم بالفكر الحر والأدب الانساني الرائع، فرغم قلة علومهم، وعدم توفر امكانية الدرس والبحث الا أنهم اهتموا بالأدب والشعر. والفكر الواعي الناضج لا بد له من ثقافة تغذيه وأفكار جديدة تمده بالجديد لتنمية فكره. وقد كان لهم في أسواقهم الموسمية مجالا رحبا، ومنهلا كبيرا للاطلاع، والمعرفة ومخالطة الأقوام المختلفة والاقتباس منهم، واعطائهم. حيث كانت تلك الأسواق الموسمية تجارية، أدبية اجتماعية وسوق عكاظ تعتبر نموذجا كاملا لها جميعا.

ولتلك الأسواق آثار متعددة في شتى النواحي الساسية والاجتماعية والأدبية والقومية حيث يتم توحيد المشاعر، ووجهات النظر والعادات والتقاليد، وتبادل الآراء والثقافات، ومزج اللهجات لتوحيدها في لغة واحدة، قوية متقنة تكون هي وسيلتهم الأدبية لشعرهم، ونثرهم في خطبهم علاوة على النواحي الاقتصادية من بيع وشراء ومواد وأرباح[١٠٤].

---

٩٩ ــ الألوري، المرجع السابق ص ١٠٥، ١٠٦.
١٠٠ ــ الألوري، المرجع السابق ص ١٠٥، ١٠٦.
١٠١ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٣٤، ٣٥، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٦.
١٠٢ ــ السهيلي، المرجع السابق ج٢ـ٢/١٩٨.
١٠٣ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٥٥.
١٠٤ ــ الدوري، المرجع السابق ص ٣٥، ضيف، العصر الجاهلي ص ١٣٣.

وقد سحر العرب بيانهم، فسيطرت لغتهم العربية القوية على عقولهم، وأثرت في نفوسهم. ففتنوا بها وتحمسوا لها وبها ولألفاظها[١٠٥]. ولموسيقاها الرنانة وبلغت بهم الفصاحة، والبلاغة أمدا رفيعا. فكانت قريش أبلغ العرب وأفصحهم وقد أجمع على ذلك القدماء والمحدثون[١٠٦]. ومن مظاهر هذه البلاغة العربية :ـ

أولا : النثر بصفة عامة، والأدبي منه على وجه الخصوص. فهو الكلام السلس الذي ليس له قيود الشعر من قافية وأوزان[١٠٧]. ولكنه ينساب معبرا عن الموقف، والمعنى فلكل مقام مقال تجري السنتهم به للتعبير عن فكرهم ورأيهم السديد. وقد يكون نثرهم مسجوعا.

ثانيا : الشعر وهو خلاصة رأيهم وفكرهم. ولكنه خاضع لقوافيه وأوزانه وإيقاعه الموسيقي الموشى بالعاطفة والخيال الواسع[١٠٨]. وسادت هذه اللغة الغنائية الجميلة في الجزيرة العربية وكل بلاد العرب بل صار الشعر أم العربية الفصحى ثم نزل القرآن المقدس بها فصيرها لغة عالمية[١٠٩].

واحتوى النثر على الحكم والأمثال والألغاز[١١٠]، وازدهرت الخطابة بين العرب وفي مكة خصوصا حيث كانت قريش أهل الجزالة في الرأي والفصاحة وأبرز الشخصيات القرشية في ذلك أمية بن خلف ونبيه بن الحجاج، وأبو سفيان والعباس بن عبد المطلب[١١١]، وتميز العباس من بينهم بجهارة الصوت وهي الصفة الأكثر أهمية للخطباء[١١٢].

وكما مدحوا جهارة الصوت، فقد مدحوا التشادق بالكلام، واتساع الأشداق عند إخراج الحروف والكلمات، لشدة تأثير ذلك في السامع. وسعة الفم تساعد على التشادق فمدحوا اتساع الأفواه أيضا[١١٣].

١٠٥ ـ حتي، تاريخ العرب ص ١٠٧.

١٠٦ ـ فروخ تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م، بيروت جـ١ /٨٨.

١٠٧ ـ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/ ٩٤٩، ضيف، العصر الجاهلي ص ١٣٢.

١٠٨ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٢٤٢.

١٠٩ ـ بروكلمان، المرجع السابق ص٣٠، ضيف، العصر الجاهلي ص ١٣٢، فروخ، تاريخ الأدب جـ١ /٣٧.

١١٠ ـ فروخ، تاريخ الأدب جـ١ / ٨٩، عوض الله، المرجع السابق ص ١٨٩.

١١١ ـ الجاحظ، المرجع السابق جـ٢ / ٢٦٣.

١١٢ ـ الجاحظ، نفس المرجع جـ١ /١٢٣.

١١٣ ـ الجاحظ، نفس المرجع جـ١ / ١٢٠، ١٢٢.

ومن أوائل خطباء قريش قصي بن كلاب وهو من المعروفين بالقدر والرئاسة(١١٤). وكذلك كعب بن لؤى وهاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب، وأبو طالب بن عبد المطلب(١١٥) ومن المتأخرين خالد بن سلمة المخزومي(١١٦)، وعلي بن أبي طالب أبرز خطباء قريش له حكم ومواعظ، وأديب وشاعر. بل ان من يدرس كلامه في خطبه يلمس تفكيره العلمي المعتمد على المنطق السليم(١١٧).

ولشدة تأثير الخطباء وجمال كلامهم وسحر بيانهم فقد قالوا أن النفر من قريش لم يمكنهم رجل قط من أذنيه إلا غلبوه على رأيه(١١٨)، وذلك لقوة إقناعهم وحجتهم الفصيحة.

وأشهر خطباء العرب عامة قس بن ساعدة الأيادي وكان موحدا عمل مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل على إظهار التوحيد في مكة، واستن عادات في الخطابة فهو أول من قال (أما بعد) وصدر كتبه بكتابة (من قس بن ساعدة الى فلان بن فلان) وروي النبي ﷺ عنه ذلك.(١١٩).

ومن عاداتهم في الخطابة أن يقوم الخطيب واقفا من مكان مشرف على الناس كأن يقف على راحلته أو على مكان مرتفع من الأرض. واستعملوا المنابر أيضا. ويمسك الخطيب المخصرة أو القوس بيده ويركزه في الأرض، أو يشير بالعصا والقناة للتعبير عن الإنفعال بالحركة(١٢٠).

أما الشعر فهو للعربي كل حياته، فهو أغنيته، وأنشودته التي يترنم بها، وهو علمه وخلاصة فكره وتجاربه(١٢١). يعبر به عن رأيه الصريح، وعاطفته الجياشة، ويصف به ويمدح ويهجو، ويتعبد به أيضا فهو وسيلته في كل مناسبة ولكل موقف. كيف لا وهو أجمل الفنون العربية، فاحتفى العرب بالشعر والشاعر ومجدوه. ومنحوه مكانة بارزة

---

١١٤ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/٣٦٥.

١١٥ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٣٠٤، ٣٠٧.

١١٦ ــ الجاحظ، نفس المرجع جـ١/٣١٤.

١١٧ ــ العظم، رفيق، أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، الطبعة الثانية ١٩٧٦م ص ٣٠، ٣١.

١١٨ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣٣١، ٣٣٦.

١١٩ ــ العسكري، المرجع السابق جـ١/٣٣١، ٣٣٦.

١٢٠ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/٣٧٠، العظم، المرجع السابق ص ١١٤.

١٢١ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٦٢.

محترمة لدى القوم. فإذا نبغ شاعر من قبيلة ما، كان ذلك حدثا عظيما يستحق التهنئة من القبائل الأخرى. وتكرمه قبيلته بوسائل مختلفة حيث تقيم الحفلات التي تذبح فيها الذبائح لقرى الضيوف المهنيئن، وتشارك نساء القبيلة بالتعبير عن فرحتهم بالدق على الدفوف، والغناء والرقص. وذلك لأن الشاعر هو لسان قبيلته الناطق بالدفاع عنها أو بمدحها، وتسجيل أمجادها ووقائعها. ويتولى الرد على هجاء الشعراء الآخرين أو على مديحهم. وللشعر أثر كبير على العرب حيث بامكان الشاعر أن يرفع ذكر الخامل بمدحه أويحط من قدر الشريف بهجائـه[١٢٢]. وكان الشاعر مؤرخا، لأحداث قبيلته حيث يسجل وقائعها وأيامها في شعره[١٢٣]، وقد يكون جغرافيا عندما يصف الأرض والمناطق وأقسامها مثل ذكرهم أقسام جزيرة العرب في أشعارهم[١٢٤]. وقد بلغ اعزازهم للشعر أنهم قدسوه فعلقوا القصائد السبع المختارة على جدار الكعبة حتى عرفت باسم (المعلقات السبع) فهل يوحي عملهم هذا لنا بارتباط بين الشعر والدين. ؟

لا شك في ذلك حيث أنهم اعتادوا على الدعاء في طوافهم حول الكعبة بأبيات خفيفة تعبر عن دعائهم وإبتهالهم. وكانت تلبية قريش لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك تملكه وما ملك[١٢٥]. وأما اختيار المعلقة فيتم كالتالي، فقد اتفق العرب على عرض أشعارهم على قريش فهم حكام الشعر ، فان أجازوا القصيدة، فازت بالموسم وعلقوها على جدار الكعبة. ويدل ذلك على تعظيم الشاعر وقصيدته. ثم تتوالي المواسم حتى اجتمعت تلك السبع قصائد (المعلقات) فكانت النخب الشعري الممتاز وكانت النموذج والمثال الذي يحتذى[١٢٦]. والمعتقد أنها أكثر من سبع قصائد ولكن ما جمع منها ووصل الينا ذلك العدد فقط. ولا زالت تلك المعلقات تتصدر الشعر العربي إلى يومنا هذا، وأنها فازت بالجائزة السنوية في سوق عكاظ، وأنها كتبت بحروف ذهبية في صحفها عندما علقت على الكعبة، ولذا تسمى المذهبات أيضا. وهي قصائد متعددة بقي منها سبعة فقط[١٢٧]. وأول تلك السبع معلقات هي قصيدة أمريء القيس الذي توفي في سنة ٥٤٠م[١٢٨].

---

١٢٢ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٨٢، فروخ، تاريخ الأدب جـ١/٧٥، ٧٦.
١٢٣ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٤.
١٢٤ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/١٦.
١٢٥ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٥.
١٢٦ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢١٩.
١٢٧ ــ فروخ، تاريخ الأدب جـ١/٧٥، ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/٨٥.
١٢٨ ــ حتي، تاريخ العرب ص ١١١، ١١٢.

ومن ذلك تقرر أن سوق عكاظ كانت معهدا للأدب والشعر كأرقى المعاهد الأكاديمية في وقتنا الحاضر ، وأن النهضة الأدبية والشعرية خاصة مدينة لسوق عكاظ خاصة اضافة إلى الأسواق الموسمية عامة(١٢٩).

وكان أحد فحول الشعر هو حكم الحكام في هذه المباراة الشعرية(١٣٠). وكان في قريش العديد من الشعراء بل ان كل فرد منها قال شعرا في مناسبة من المناسبات فقد جرى الشعر على ألسنتهم مجرى الأمثال الدارجة بما فيه من حكمة موروثة ، أو مقتبسة من تجربة.

وأما من احترف الشعر من قريش فقليل ، وأقصد الشعراء منهم الذين عرفوا بالشعر في جاهليتهم فذلك ما كان من أمر الشعر فلما رأوا ذلك انتبهوا له ، واستكثروا منه في الإسلام(١٣١). وقد كان لقريش العذر في قلة شعرهم. وذلك أن عماد حياة الشاعر المرأة والخمر والغناء(١٣٢) والخيال الجانح. وكانت هذه الدعامات غير أساسية في مجتمع مكة العملي حيث انشغل جل السادة والرجال بالتجارة وأعمالها ، وبأمور الدين والعبادة ووظائفها. فلم يكن هنالك متسع من الوقت لظهور شعراء فطاحل احترفوا الشعر وبرزوا فيه. أضف إلى أن العرب أنفت من التكسب بالشعر وأنف شعراء الجاهلية أنفسهم من ذلك التكسب(١٣٣).

ثم أنه لم يكن بين قريش (ثائرة) أي لم يكن بينهم حقد ولا ضغائن وليس لهم حروب طويلة مع غيرهم(١٣٤). ومع ذلك فلا بد أن يكون هنالك تراث شعري لقريش ضاع وأهمل في زحمة أحداث صدر الإسلام فقد ضاع أكثر أشعار أبي سفيان بن الحارث(١٣٥).

ومن أبرع شعراء قريش

١ ــ أبوسفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ وكان شديد العداوة له. ثم أسلم عام

١٢٩ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٢٠٨.

١٣٠ ــ فروخ، تاريخ الأدب جـ١/٧٥.

١٣١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ١/٥٠٤.

١٣٢ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٦٥.

١٣٣ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ١٣٥.

١٣٤ ــ ابن سلام، محمد، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، سنة ١٩٧٤م، القاهرة، جـ١/٢٥٩.

١٣٥ ــ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٤٧.

الفتح[١٣٦].

٢ ـ أبو طالب بن عبد المطلب كان شاعرا جيد الكلام[١٣٧].

٣ ـ أبو عزة الجمحي واسمه عمرو بن عبد الله[١٣٨]. بن عمير بن وهيب بن حذافة كان شاعرا. فهجا الرسول ولما أسر يوم بدر اشترط عليه محمد ﷺ ألا يعود إلى هجائه ثم أطلقه فعاود. وأسر في أحد فقتله النبي ﷺ[١٣٩]. وكان أبو عزة مملقا كثير العيال[١٤٠].

٤ ـ الزبير بن عبد المطلب.

٥ ـ ضرار بن الخطاب الفهري[١٤١]، وهو من قريش الظواهر[١٠] ولكنه شاعر وفارس قريش كلها[١٤٣].

٦ ـ عبد الله بن السهمي. سمي المبرق لبيت قاله[١٤٤]

٧ ـ عبد الله بن الزبعري السهمي.

٨ ـ مسافر بن أبي عمرو بن أمية[١٤٥]. وكان سيدا جواد وهو أحد أزواد الركب[١٤٦].

٩ ـ هبيرة بن أبي وهب بن عامر المخزومي[١٤٧].

١٠ ـ أبو جهل بن هشام[١٤٨].

١١ ـ الحارث بن هشام[١٤٩].

١٢ ـ زيد بن عمرو بن نفيل[١٥٠].

---

١٣٦ ـ ابن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٣٣ ص ٢٤٧ حاشية ٢.

١٣٧ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٣٣ وص ٢٤٤.

١٣٨ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٣٤.

١٣٩ ـ ابن حبيب، المحبر ص ٣٠٠.

١٤٠ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٥٣.

١٤١ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٣٣.

١٤٢ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٥٠.

١٤٣ ـ ابن دريد، المرجع السابق جـ١/١٠٣.

١٤٤ ـ ابن سلام، نفس المرجع جـ١/٢٣٤.

١٤٥ ـ ابن سلام، نفس المرجع والجزء ص ٢٣٣.

١٤٦ ـ الأصفهاني، الأغاني جـ٨/٩٥.

١٤٧ ـ ابن سلام، نفس المرجع والجزء ص ٢٣٥.

١٤٨ ـ ضيف، شوقي، الشعر والغناء في المدينية ومكة، الطبعة الرابعة، القاهرة ص ٢٠٩.

١٤٩ ـ الزبيري، المرجع السابق ص ٣٠٢، ضيف، نفس المرجع أعلاه والصفحة.

١٥٠ ـ الزبيري، نفس المرجع ص ٣٦٤.

١٣ ــ عدي بن نوفل[١٥١].
١٤ ــ عمارة بن الوليد بن المغيرة كان من أفضل فتيان قريش جمالا وشعرا.
١٥ ــ عمرو بن العاص[١٥٢]. وكان هو وعمارة بن الوليد شاعرين فاتكين[١٥٣].
١٦ ــ نبيه بن الحجاج[١٥٥].

ومن نساء قريش الشاعرات :

١٨ ــ أميمة بنت عبد شمس بن عبد مناف[١٥٦].
١٩ ــ درة بنت أبي لهب والتي افتخرت بقومها قائلة :

وقوم لو أن الصخر صالدهم   صلبوا ولان عرامس الصخر[١٥٧]

٢٠ ــ صفية بنت مسافر[١٥٨].
٢١ ــ قتيلة بنت الحارث، قتل أخوها النضر بن الحارث يوم بدر فرثته[١٥٩].
٢٢ ــ هند بنت عتبة[١٦٠].

هؤلاء سبعة عشر شاعرا، وخمس شاعرات من النساء كلهم من قريش اضافة إلى ذلك عرفنا أن لقصي شعرا منه السياسي كقوله :

أنا ابن العاصمين بني لؤي   بمكة منزلي وبها ربيت
فلست لغالب ان لم تأتل   بها أولاد قيدر والنبيت[١٦١]

وكذلك قال عبد المطلب شعرا سياسيا ودينيا يوم حادثة الفيل[١٦٢]. وله تعاويذ شعرية قالها لحفيده محمد عندما أدخله إلى الكعبة هي :

---

١٥١ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٦٩٠.
١٥٢ ــ الزبيري، المرجع السابق ص ٣٢٢، ضيف، الشعر والغناء ص ٢٠٩.
١٥٣ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٨/١٠٦.
١٥٤ ــ الزبيري، المرجع السابق ص ٤٠٤، ضيف، نفس المرجع والصفحة.
١٥٥ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٥٤، ٥٥، الزبيري، نفس المرجع ص ٢٠٨، ٢١٠.
١٥٦ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٦٩٠، الأصفهاني، الأغاني جـ١٩/١٥١.
١٥٧ ــ ابن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٨٧ حاشية ١.
١٥٨ ــ ضيف، الشعر والغناء ص ٢١١.
١٥٩ ــ ابن سلام، نفس المرجع والجزء ص ٢٥٥ حاشية، ٤، عبد الجبار، المرجع السابق ص ٦٩٠.
١٦٠ ــ ضيف، نفس المرجع أعلاه والصفحة.
١٦١ ــ عبد الجبار، نفس المرجع ص ٤٣٨.
١٦٢ ــ فروخ، تاريخ الأدب جـ١/١٥٠، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٠٠.

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان[١٦٣]

ولعبد المطلب شعر في رثاء ابنه الحارثة

سقى الاله صدى واريته بيدي ببطن مكة تعفوه الأعاصير
ياحارث الخير قد أورثتني شجنا فما لقلبي عن ذكراك تغيير[١٦٤]
فلست أنساك ما هبت شآمية وما بدا علم في الآل معمور[١٦٤]

وطلب عبد المطلب من بناته عندما حضرته الوفاة أن يرثينه فقالت كل واحدة منهن شعرا في رثائه وكن ست نسوة هن صفية، وبرة، وعاتكة، أم حكيم وأميمة وأروى

وقال عبد الله بن جدعان شعرا يعيب الخمر[١٦٦]. وافتخر حرب بن أمية بسلم مكة وأمانها لتحريمهم الأشهر الحرم[١٦٧].

وقال الزبير بن عبد المطلب يوم حلف الفضول:

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وان كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا أباة الضيم نهجر كل عار[١٦٨]

وقد أجمعوا على شاعرية الزبير الجيدة ولكن شعره قليل[١٦٩]، وله بيت مشهور جرى كالحكمة:

اذا كنت في حاجة مرسلا فارسل حكيما ولا توصه[١٧٠]

وفي يوم عكاظ (من أيام الفجار) كان ضرار بن الخطاب على بني محارب[١٧١] فقال:

---

١٦٣ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٨٤.
١٦٤ ــ إبن قيم الجوزية، أخبار النساء ص١٧٢.
١٦٥ ــ السهيلي، نفس المرجع والجزء ص ١٩٥ وما بعدها.
١٦٦ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/١٢٣، عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤٨٥.
١٦٧ ــ عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٠١، ضيف، العصر الجاهلي ص ٤٩.
١٦٨ ــ عبد الجبار، نفس المرجع ص ٤٣٨.
١٦٩ ــ ابن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٤٥.
١٧٠ ــ ابن سلام، نفس المرجع والجزء ص ٢٤٦.
١٧١ ــ ابن سلام، نفس المرجع والجزء ص ٢٤٧.

ألم تسـأل النـاس عن شأننـا ولم يثـبـت الأمـر كالخـابـر
غداة عكـاظ إذا استـكـملت هوازن من كفـهـا الحـاضر

ومن الشعر السياسي أيضا، والذي كان كالمنشورات السرية التي تهاجم السلطة الحاكمة، وتندد بها ما وجد مكتوبا على باب دار الندوة من شاعر مجهول:

ألهى قصيا عن المجد الأساطير ورشـوه مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقـولهـا رحلت عير أتت عير

وتفكر القوم فأجمعوا أن قائلها هو بن الزبعري. فطلبوه من قومه بني سهم لمعاقبته بقطع لسانه، لأنهم متفقون على ألا يتهاجوا أبدا. وسلمت بنو سهم الأمر لهم، ولكن اشترطوا المعاملة بالمثل فيما لو هجا بني سهم هاجٍ. فخافت قريش الفتنة بينها، وخافت على الزبير بن عبد المطلب وتركت الأمر تجنبا للشر وعفت عن ابن الزبعري[١٧٣]، الذي كان أشعر قريش. آذى الرسول والمسلمين وهجاهم[١٧٤]. كما كان يمدح أيضا وله حكمة تظهر في شعره[١٧٥].

ولهم شعر في أغراض اجتماعية قاله عبد المطلب فخرا بخوءلته واستنجادا بهم.[١٧٦] وقالته هند بنت عتبة لتشجيع المحاربين[١٧٧]. ورثت قتيلة بن الحارث أخاها النضر[١٧٨]. ولأبي طالب أشعار في رثاء أبي أمية بن المغيرة أحد أزواد الركب قائلا:

ضرب بنصل السيف سوق سمانها اذا عدمـوا زادا فانـك عاقـر
والا يكـن لحم غريض فانـه تكب على أفـواههن الغرائر[١٧٩]

ولأبي طالب غير هذا كثير فقال في الهجاء[١٨٠]، وله في الوصف عندما هرب بابن

---

١٧٢ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٣٤٩، جاد المولى، محمد أحمد، أيام العرب في الجاهلية، ١٩٤٢م طبع بمطبعة عيسى لبابي الحلبي، القاهرة ص ٣٣٥.
١٧٣ ــ ابن سلام، المرجع السابق والجزء ص ٢٣٥، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٤٤٦.
١٧٤ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/١٠٨.
١٧٥ ــ فروخ، تاريخ الأدب جـ١/٢٦٨.
١٧٦ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤٦٧.
١٧٧ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٣/١٦١.
١٧٨ ــ ابن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٥٥ حاشية ٤، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٤٦٩.
١٧٩ ــ عبد الجبار، نفنس المرجع ص ٤٧٩.
١٨٠ ــ السهيلي، نفس المرجع (متن السيرة) جـ٢/١٣.

أخيه من بحيرى الراهب[١٨١]. وله في مدح[١٨٢] النبي ﷺ قائلا:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عظمة للأرامل[١٨٣]

ولقريش شعر ديني[١٨٤]، ولهم شعر في الهجاء لابن الزبعري[١٨٥]، وفي الغزل لمسافر بن عمرو، حيث قضي أبو سفيان على حبه وأمله في هند بنت عتبة التي عشقها مسافر فلما سمع خبر زواجها بأبي سفيان قال فيها:

ألا هنداً أصبحتْ منك مُحْرَمًا وأصبحتَ من أدنى حُمُوَّتها حَمَا

وأصبحتَ كالمقمورِ جَفْنَ سلاحِه يقلِّب بالكفينِ قوساً وأسهُما[١٨٦]

وبكت أميمة بنت عبد شمس قومها يوم الحريرة بقصيدة فيها:

أبى ليلك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب

ونجم دونه الأهوال بين الدلو والعقرب[١٨٧]

ولورقة بن نوفل أشعار دينية في التوحيد منها:

لقد نصحت الأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد

لاتعبدن الها غير خالقكم فان دعوكم فقولوا بيننا جدد

سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له وقبلنا سبح الجودى والجمد[١٨٨].

وكان زيد بن عمرو بن نفيل معتزلا عبادة الأوثان أيضا، والذي مات قبل البعثة بخمس سنوات[١٨٩]. قال في فراق الوثنية:

أربا واحدا أم ألف رب أدين اذا تقسّمت الأمور

عزلت اللات والعزي جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور[١٩٠]

---

١٨١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ٢/١٢٤.

١٨٢ ــ السهيلي، نفس المرجع جـ/١٤٢.

١٨٣ ــ ابن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٤٤، ضيف، الشعر والغناء ص ٢٠٨.

١٨٤ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤٩٣.

١٨٥ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ١/١٠٨، جـ٣/١٤٨، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٤٥

١٨٦ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ٨/٩٦، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٢٤.

١٨٧ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ١٩/١٦٥، عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤٤٠.

١٨٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢١٧.

١٨٩ ــ إبن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٦٣ حاشية ٢.

١٩٠ ــ السهيلي، نفس المرجع (متن السيرة) جـ١/٢٥٦، ٢٥٧.

وهناك شعراء من أبناء القرشيات (أمهاتهم من قريش) وعاشوا في مكة مع مجتمعها وفي محيطها مثل أمية بن أبي الصلت أبوه من هوزان وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، وكان أمية من أشعر ثقيف بل والعرب قاطبة. قرأ الكتب، وحرم الخمر، وشك في الأوثان. وعرف أن نبيا سيبعث فأمل أن يكون هو نفسه ذلك النبي المنتظر[١٩١] وقد مدح أمية بن أبي الصلت، عبد الله بن جدعان التميمي وناح على قتلى بدر[١٩٢].

وكذلك الأمر للشاعر غيلان بن سلمة من ثقيف، وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف أخت أمية بن عبد شمس[١٩٣].

وكان في قريش أربعة رجال اشتهروا برواية الشعر وحفظه، ومن علماء الأنساب والأخبار أيضا وهم: مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف، وأبو الجهم ابن حذيفة وهو من المخضرمين حيث حضر بناء الكعبة مرتين أولا في عهد قريش ثم في عهد ابن الزبير. ثم حويطب بن عبد العزى، وأخيرا عقيل بن أبي طالب. وكان أربعتهم من المعمرين وماتوا في خلافة معاوية بن أبي سفيان[١٩٤].

وروت أسماء بنت أبي بكر من الشعر قصيدتين الأولى لزيد بن عمرو بن نفيل والأخرى لورقة بن نوفل وروى الشعر عنها أيضا[١٩٥]. وروته عائشة أم المؤمنين أيضا كما ذكرناه.

ومن شعراء القبائل المحالفة لقريش قيس بن الحدادية وكان فاتكا شجاعا ولكنه خليع صعلوك. خلعته خزاعة في سوق عكاظ وغيره كثيرون[١٩٦].

الغناء والتسلية واللهو :

يعتمد الغناء على الشعر بفنونه وموسيقاه، فالشعر هو مادة الغناء وأداؤه محكوم به. وتقام حفلات الغناء في أوقات السمر، وفي الاحتفالات الخاصة التي تقام في المناسبات مثل عقد قران، أو ولادة أو ختان فكانت الولائم تقام لذلك وتقدم فيها الأطعمة

١٩١ ــ فروخ، تاريخ الأدب جـ١/٢١٦، ارسلان، المرجع السابق ص ١٦٦، ١٦٧.
١٩٢ ــ إبن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٦٣، ٢٦٤، الجاحظ، المرجع السابق جـ١/١٧، ٢٩١.
١٩٣ ــ الأصفهاني، الأغاني جـ١٢/٨٧، أرسلان، نفس المرجع ص ١٧٠.
١٩٤ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ٢/٣٢٣، ٣٢٤.
١٩٥ ــ الأسد، مصادر الشعر الجاهلي ص ٢١٠.
١٩٦ ــ إبن سلام، المرجع السابق جـ١/٢٤٥.

المختلفة من ذبائح أو حلوى ونحو ذلك. ثم يلقى الشعر، ويؤدى الغناء بمصاحبة الدق على الدفوف والعزف بالمزامير[١٩٧]، وبالناي. وفي ولائم النصر العامة يمارسون نفس العادات من عزف وغناء. ولكن انفرد العرب بأنهم ان أقبلوا على خطب جلل وأمر خطير، استعدوا له بمثل ذلك. فقد خرج أهل مكة سنة ٦٢٤م يوم بدر لقتال النبي ﷺ ومعهم قيانهم المغنيات لتسليتهم وتشجيعهم[١٩٨]. ولأن الابل تطرب لصوت الغنـاء والمـوسيقي، وقد عرف العرب طبائع الحيوان فحرصوا على تطريبه بالموسيقى والغناء لجلب المرح على روحه كالانسان الذي لا يستغني عنهما[١٩٩].

وأول من حدى الابل مضر بن نزار عندما انكسرت يده فناح عليها يايداه فطرب الابل على أنينه ونشيجه هذا[٢٠٠].

وشعر الغزل ذو المقاطع القصيرة أنسب أنواع الشعر للغناء. ولكن أول ما عرفت قريش من ألوان الغناء الحداء والنصب[٢٠١]. لونان متشابهان ولكن النصب اختص بناحية دينية فهو أناشيد دينية في أغلبها[٢٠٢]. وبذا نعرف أن أول وأقدم أنواع الغناء هي التراتيل الدينية، وحتى تلبيتهم كانت مقاطع قصيرة مرنمة[٢٠٣] ثم تطور إلى الغناء الفني بما له من ألحان وأنغام وتطريب، وتنغيم[٢٠٤]، كما هو مألوف لدينا.

وهنـالك أنواع أخرى من الغناء مثل غناء الحرب، والسناد والهزج والنواح[٢٠٥]، وغناء الولائم الخاصة[٢٠٦].

وأقـدم من تغنى بمكة جرادتا عاد، وهما يعاد، ويماد قينتا معاوية بن بكر رئيس العمالقة في مكة يومذاك[٢٠٧].

---

١٩٧ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٤٢١، الأسد، القيان والغناء ص ١٥٥، ١٥٦.
١٩٨ ــ ول ديوارانت، المرجع السابق جـ٣/١٧، الأسد، القيان والغناء ص ١١٢.
١٩٩ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٧١.
٢٠٠ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣٠.
٢٠١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/١١٤.
٢٠٢ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٥٦٧.
٢٠٣ ــ الأسد، القيان والغناء ص ١٤٤.
٢٠٤ ــ الأسد، القيان والغناء ص ١٥٨.
٢٠٥ ــ عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٦٨، الحوفي، المرجع السابق ص ٥٦٠.
٢٠٦ ــ أخبار مكة المشرفة، المنتقى جـ٢/٧،٨ الأسد، القيان والغناء ص ١٤٨.
٢٠٧ ــ الأسد، القيان والغناء ص ٥٠، ٢٦٩، عبد الجبار، نفس المرجع ص ٥٦٥.

وكان لقريش قيان يغنين بمكة وقد مر بنا ذكر بعضهن مثل قينتا عبد الله ابن جدعان ظبية والرباب[٢٠٨]. وقد تعلق أمية بن أبي الصلت بواحدة منها فوهبها له عبدالله ثم وهبه الأخرى[٢٠٩]. وقينتا عبد الله بن خطل هما قريبة وفرتنى[٢١٠]. واشتهرت النابغة بنت عبد الله وهي أم عمرو بن العاص بالغناء وأخذ الأجر عليه[٢١١]. وقيان مقيس بن عبد قيس وهنالك سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب، وعزة مولاة الأسود بن المطلب وكان بعض القيان خاصا بالسيد يغنيه ويسليه. [٢١٢]. فمثلا كان لحمزة بن عبد المطلب قينة تغنية، وقيل بل هما إثنتان. وكانتا لعبد الله بن السائب المخزومي[٢١٢].

وأسماء، وعثمة، وقتل، وبوهة هن قيان عبد الله بن مقيس بن عدي[٢١٣] والقيان هن الاماء، والمغنيات منهن على وجه الخصوص[٢١٤]. ونستطيع أن نميزهن إلى طبقتين :

١ ــ فئة خاصة حيث يكون غناءهن خاصاً بالسيد المالك لهن كقيان حمزة بن عبد المطلب.
٢ ــ فئة عامة وهن قيان الحانات وبيوت اللهو أي أنهن محترفات كقيان ابن جدعان ومقيس وغيرهن. وقد كان في بيت مقيس حانة عامة يرتادها فتيان قريش للشرب واللهو والسمر[٢١٥].

وقد تأثر الغناء العربي بألوان الغناء في البلاد الأخرى مثل الغناء الفارسي، والرومي والحبشي. حيث كان عبد الله بن جدعان يذهب إلى بلاد كسرى الفرس ويستمع إلى غنائهم معجبا. واشترى النضر بن الحارث القيان والمغنيات من البلاد التي زارها مثل فارس، والتي تاجر معها واشترى الكتب منها. والتي كان يحدث قريش بما فيها من أخبار[٢١٦]. ثم أن النضر نفسه قد تعلم العزف على العود في العراق وأدخله إلى

٢٠٨ ــ الأصفهاني، المرجع السابق جـ٨/٤، الأسد، القيان والغناء ص ٢٧١.
٢٠٩ ــ ابن دريد، المرجع السابق ص ١٤٣.
٢١٠ ــ الأسد، القيان والغناء ص ٨٦.
٢١١ ــ الأسد، نفس المرجع أعلاه ص ٩١.
٢١٢ ــ الأسد، نفس المرجع أعلاه ص ٥١، ٥٢.
٢١٣ ــ الأسد، نفس المرجع أعلاه ص ٢٧١، وحاشية ٣.
٢١٤ ــ ابن منظور، المرجع السابق جـ٣/٢٠٤.
٢١٥ ــ الأسد، نفس المرجع أعلاه ص ٦٢، ٧٩.
٢١٦ ــ الأسد، نفس المرجع أعلاه ص ١٣١ وما بعدها.

مكة[٢١٧]. ويعتمد الغناء على المغني وعلى الآلات الموسيقية المحدودة التي استعملت آنذاك مثل الطبل والدف، والقضيب. وعرفوا التلحين والموسيقي وتأليف النغمات على تلك الآلات[٢١٨]. وأدخلوا استعمال الطنبور (القنين) من الحبشة[٢١٩]. ثـم أدخولـوا العـود كمـا مـر بنـا.

وانتشر بين قريش لون محبب من الغناء كان للأطفال. فكان القرشيون يزفنون[٢٢٠] به أولادهم. فمن ذلك تزفين سلمى بنت عمرو لابنها عبد المطلب بقولها (الرجز):

ان بني ليس فيه لعـثـمـة ولم يلده مدع ولا أمـة
يعـرف فيه الخـير من توسمـه أروع ضحـاك يعـيد همه
ان أخـر الله عن بني الحـمـة يزحـم من زاحمـه فيزحمـه
أقول حقا لا كقول الآثمة[٢٢١]

ولم يكن التزفين مقصورا على النساء بل مارسه الرجال حيث زفن عبد المطلب ابنه العباس بقوله الرجز:

ظنـي بعـبـاس بنـي إن كبـر أن يسقى الحاج اذا الحاج كثر[٢٢٢]

ولعبد المطلب تزفين آخر لابنه الحارث أو الزبير.

يا بأبي يا بأبـى يا بأبـى كأنه في العز قيس بن عدى[٢٢٣]

وزفن الزبير بن عبد المطلب ابن أخيه محمد بن عبد الله وهو طفل قائلا:

محمـد بـن عبـدم عشت بعـيـش أنـعـم
في دولـة ومـغـنـم دام سجـيس الأزلم[٢٢٤]

وكذلك زفنت لبابة بنت الحارث ابنها عبد الله بن العباس بقولها الرجز:

---

٢١٧ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٤/١٣٤، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/١١٤.
٢١٨ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٥٧١.
٢١٩ ــ إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/١٧٦ مادة قنن.
٢٢٠ ــ التزفين وهو الترقيص أنظر ابن حبيب المنمق ص ٤٣١ حاشية ٨، ابن منظور، نفس المرجع جـ٢/٣٢ مادة زفن
٢٢١ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٤٣١.
٢٢٢ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٤٣٢.
٢٢٣ ــ إبن دريد، المرجع السابق ص ١١٨.
٢٢٤ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٣٢، ويذكر أن معنى سجيس الأزلم: أبد الدهر حاشية ١.

ثكلت نفسي فثكلت بكري ان لم يسد فهرا وغير فهر،
بالحسب العدل وبذل الوفر حتى يوارى في ضريح القبر

وزفنت هند بنت أبي سفيان بن الحارث (الشاعر) ابنها عبد الله بن الحارث بن نوفل قائلة:

والله ورب الكعبة لأنحكن ببة جارية في نقبة
مكرمة محبه تحب من أحبه[٢٢٥]

وزفنت أم حكيم بنت عبد المطلب حفيدها عثمان بن عفان بقولها:

ظني به صدق وبر يأمر ويأتمر من فتية بيض صبر
ويحملون عورات الدبر ويضر الكبش النعر يضربه حتى يخر
من سرر ومن أخر[٢٢٦]

ولعزة عثمان ودله بين قومه فمنذ طفولته وهو يزفن إلى أن كبر زفنوا أطفالهم باسمه قائلين:

أحبك والرحمن حب قريش لعثمان اذا دعا بالميزان[٢٢٧]

وإذا تأملنا أراجيز الأطفال هذه نجدها رائعة بسيطة ينشؤها ويؤلفها المرتجز معبرا بها عن آمال وطموحات الأهل في الأبناء. وكان منتشرا شائعا، يجري على لسان كل الأمهات. فلكل أم خلوة بطفلها تداعبه، وتدلله وتغنيه أو تقص عليه حكاياتها. ولكنهم تميزوا بعطاء الآباء لابنائهم. فقد اعطوهم أكثر أوقاتهم واهتمامهم ولم تشغلهم حياتهمَ العملية عن ذلك.

فالعمل لم يشغل المجتمع المكي عن الترفيه والتسلية. فقد مارسوه بوسائلهم وامكانياتهم المحدودة وكان لهم لهو بريء، وغير بريء. ومنه ألعاب رياضية مارسوها للتسلية المفيدة مثل المصارعة فقد كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب شابا فتيا قوي البنية (أشد قريش بطشا)[٢٢٨] فكان يمارس ألعاب القوى هذه وقد صارع النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صرعه وتغلب عليه رغم أنه لم يغلب قط. ولذلك أسلم وآمن بعدها وخاصة بعد أن حقق له أيضا معجزات أخرى[٢٢٩].

---

٢٢٥ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٤٣٢.
٢٢٦ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/ ٤٩٥، ٤٩٦.
٢٢٧ ــ البلاذري، نفس المرجع جـ١/ ٤٩٥، ٤٩٦.
٢٢٨ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٢٥.
٢٢٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٧٤، ١٧٥.

ومارسوا القنص والصيد، واشتهر بذلك حمزة بن عبد المطلب الذي (كان أعز قريش وأشدها شكيمة) وقد اعتاد فور عودته من رحلة الصيد والقنص أن يطوف بالكعبة ثم يمر على نوادي قريش للتسليم عليهم[٢٣٠].

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله (علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ورووهم ما يجمل من الشعر وفي حديث آخر اضافة على ذلك وخير الخلق للمرأة الغزل)[٢٣١] واذا تمعنا في قول عمر وهذا الأسلوب التربوي السليم. عرفنا أنهم اعتادوا الرماية ودربوا بها في سلمهم وحربهم. وكذلك ركوب الخيل فهو رياضة وتسلية، ووسيلة نقل حينا. ومن أهم مستلزمات الصيد والقنص الرماية وركوب الخيل.

وزاولـوا السبـاحة في البرك المتناثرة حول مكة. وفي الطائف كرياضة بدنية ممتازة وللتسلية. بدليل قول عمر المذكور أعلاه.

وكـانت لهم ألعاب أخرى بقصد التسلية والترفيه فقد لعبوا الكرك[٢٣٢]. ومارسه المكيون في الجـاهلية والإسـلام. واعتـادوا الخروج إلى نواحي مكة للتسلية واللعب فيذهبون إلى بير الزنج[٢٣٣] مثلا لممارسة ألعابهم.

واعتـادوا أيضـا الخروج إلى المنتزهات لقتل الوقت والترفية ومن منتزهاتهم حديقة الأقحـوان الصغيرة وتسمى الليط وتقع قرب بركة ماجن أسفل مكة أي بعد منطقة جرول، وخرجوا إلى البساتين المتعددة في شعب خم مما يلي المسفلة وحائط قرب المعلاة. وهي منـطقـة نخـل وزرع إلى حي المعابدة ثم إلى المحصب على منى، ولهم مجلس (دكـة)، في المحصب يجتمعـون فيها للسمر والتسلية. ويلبسون لهذه المناسبة ثياب ملونة، ومطيبة ويستمتعون بأصوات القيان الحسان والايقاعات على الدفوف والطبول تملأ جنبات البساتين في هذه المجالس.

وهنالك بساتين أخرى مثل بساتين وادي فخ (الشهداء حاليا)، وفي وادي طوى بين

---

٢٣٠ ــ إبن الأثير، الكامل جـ ٢/٥٦، إبن حبيب، المنمق ص ٤٢٢، ٤٢٣.

٢٣١ ــ المبرد، المرجع السابق جـ١/١٥٥.

٢٣٢ ــ أخبـار مكـة المشرفة، المنتقى جـ٢/٩، إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/٢٤٧، ومعنى الكرك ، كدمل لعبة لهم وهو الكرج الذي يلعب به، معرب كرة وهو دخيل لا أصل له في العربية أنظر الزبيدي، المرجع السابق جـ٢/٩، وجـ٧/١٧١.

٢٣٣ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٢/٧٣.

الحجون وريع الكحل[٢٣٤].

اضافة إلى أماكن النزهات الطبيعية. فتوجد الحانات التي في البيوت. مثل بيت ابن جدعان وبيت مقيس التي مر بنا ذكرها. وكذلك حانة المولى الرومي نسطاس[٢٣٥]، وغيره ممن أقام في مكة من هؤلاء الموالي الذين فتحوا الحانات لشرب الخمر وجلب الاماء للغناء وللترفيه عن شباب مكة ولغير ذلك أيضا. ربما للتجسس والمراقبة. وكان لهم أعياد خاصة يحتفلون بها مثل عيد الحج، والأشهر الحرم. وأحتفلوا بأعياد أهل الكتاب أيضا، فقد كانت قريش تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية[٢٣٦].

عـادات وتقاليـد :

مارست المجتمعات أنماطا سلوكية ترسخت فيها بينهم حتى صارت عرفا وعادة متأصلة، وتقليد دارج وشائع بينهم. وشكل مجموع تلك العادات جزء من تراث الأمة. وتكون بعض العادات أنماطا سلبية سيئة، ولكنها متفشية رغم سوئها والبعض الآخر عادات حميدة وجيدة لها مزايا وفوائد.

وكان لمجتمع قريش عاداته الاجتماعية مثل بقية المجتمعات بسلبياتها أو ايجابياتها وانفردت قريش بعادات خاصة بها كتلك العادات المرتبطة بأمور البيت والحج.

وقد استباح القرشيون ممارسة لعب الميسر وشرب الخمر[٢٣٧]. فقد لعبوا القمار وداموا على المفاخرة ردحا من الزمن. ثم انتبهو إلى أضراره فحرمه بعضهم وامتنع عنه وأول من حرمه أقرع بن حابس الذي تألفه الرسول ﷺ. وتألف أبا سفيان بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزي. وعيينه بن حصن، ومالك بن عوف. فأعطاهم مائة من الابل لكل واحد منهم وميز عنهم صفوان بن أمية فأعطاه شعبا بما فيه من أنعام[٢٣٨].

وكبقية العرب شرب المكيون الخمر وكان شائعا ومنتشرا بينهم مما أدى إلى انتشار الزنا والبغاء أيضا[٢٣٩]. وأدى شرب الخمر إلى قيام المنادمات بين سادات قريش ورجالاتها.

---

٢٣٤ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص٥٧٥، ٥٧٦.

٢٣٥ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ٤١٣، ٤١٨، ٤٦٣.

٢٣٦ ـ البخاري، المرجع السابق جـ٥/٥٢، الألوري، المرجع السابق ص ١٤٥.

٢٣٧ ـ قرضاوي، المرجع السابق ص ١٩، الأصمعي، المرجع السابق جـ١/٢٣٥.

٢٣٨ ـ العسكري، المرجع السابق ص ٦٩.

٢٣٩ ـ SIDDIQUI, OP. CIT P. 19

حيث كان لكل منهم نديم يختصه بالمجالسة والشرب معه[٢٤٠]. فيشربان ما لذ لهما من أنواع النبيذ والخمور ويأكلان. ثم بعد أن تلعب الخمر بالرؤوس يفضي الواحد منهما بمكنوناته إلى الآخر. ويتسامران بالغناء فيقضيان وقتا ممتعا حيث يتصرف كل منهما كيف شاء. وتبعا لذلك فقد نادم عبد المطلب حربا بن أمية[٢٤١]. وبقيا على ذلك إلى أن وقـع بينهما خلاف بسيط بسبب اليهودي التاجر الذي جاور عبد المطلب. ولكن حرب اغتاظ من ممارسة اليهودي للبيع والشراء في مكة دونا عن أبنائها[٢٤٢]. مما أدى إلى قيام المنـافـرة بين النـديمين عبد المطلب وحرب. حيث يتفاخر أحدهما على الآخر، ويحكمان الحكام بينهما[٢٤٣]. وقد تنافرا إلى نفيل بن عبد العزى. فحكم نفيل بأفضلية عبد المطلب على حرب مما نتج عنه افتراقهما واختار حرب بن أمية نديما آخر فنادم عبد الله بن جدعان.

وكان أبو أحيحة سعيد بن العاص نديما للوليد بن المغيرة[٢٤٥] ونادم عتبة بن ربيعة، المطعم بن عدى، ونادم أبوسفيان بن حرب العباس بن عبد المطلب. ونادم شيبة بن ربيعة عثمان بن الحويرث بن أسد. ونادم العاص بن سعيد بن العاص بن أمية العاص بن هشـام بن المغيرة المخزومي. وقد اشتهرا بالحمق فهما (أحمقا قريش)[٢٤٦]. وكان عمرو بن هشام (أبو جهل) والطريد وهو الحكم بن أبي العاص بن أمية نديمين وكذلك نادم حكيم بن حزام الحارث بن هشام. ونادم العاص بن وائل السهمي هشام بن المغيرة[٢٤٧].

ونـادم أبو طالب، مسافر بن أبي عمرو ابن أمية الشاعر فلما مات مسافر رثاه أبو طالب وحزن عليه. ثم نادم عمرو بن عبد ونادم بن نصر من بني لؤي الذي عمر إلى أن بلغ ١٤٠ سنة، عندما قتله علي بن أبي طالب في معركة الخندق مبارزة[٢٤٨].

---

٢٤٠ ــ إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/٦٠٩.
٢٤١ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣، ابن حبيب، المحبر ص ١٧٣، ١٧٤.
٢٤٢ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٩٤، ٩٥.
٢٤٣ ــ إبن منظور، المرجع نفسه والجزء ص ٦٨٧.
٢٤٤ ــ إبن حبيب، المحبر ص ١٧٣، ١٧٤.
٢٤٥ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٤٥٥.
٢٤٦ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٤٥٦، المحبر ص ١٧٥.
٢٤٧ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٤٥٧.
٢٤٨ ــ إبن حبيب، المنمق ص ١٧٤، ١٧٥.

ونادم الزبير بن عبد المطلب، مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار. ونادم حمزة بن عبد المطلب عبد الله بن السائب، ونادم الأرقم بن نضلة سويد بن هرمي[٢٤٩].

قامت تلك المنادمات على ركائز أخرى غير شرب الخمر. فلو تمعنا فيها نستخلص أنه لضمان حدوث الألفة فقد اعتبروا السن من دعائمها فمما سبق نرى أن النديمين متقاربين سنا، ومكانة أيضا. ومن ذلك نستنبط الالتقاء الفكري بين الشخصيتين المتنادمتين أو الأحرى أنهما المتصادقتين فهي صداقة حميمة. خاصة وأنه عندما تلعب الخمر بلب شاربها يهذر بكثير من أسراره ومكنونات نفسه. فعندئذ يحتاج إلى صديق أمين يسمع منه ويحفظه. وإذا أتى تصرفا خارجا عن عادته يحتمله أيضا. وبما أنهما في الحال سيان فان كلا منهما يحفظ نديمه في أسراره وأفعاله. وخاصة أن ذوي الأسنان والأقدار الذين ترفعوا عن ارتياد الحانات، وان شربوا الخمر ففي مكان خاص أمين.

وقد حرم الخمر نفر من المجتمع القرشي، أو عافها لما رأى مفاسدها وشرورها، وآخرون عصموا أنفسهم عنها فلم يتذوقوها أبدا. وممن امتنع عنها عبد الله بن جدعان لأنه سكر مرة وساور القمر. وعبد المطلب بن هاشم، وشيبة بن ربيعة، ومقيس بن قيس بن عدى السهمي، وأبو أمية بن المغيرة، والحارث بن عبيد من بني مخزوم، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، عامر بن حذيم الجمحي، وعثمان بن عفان، وأبوبكر الصديق، وعبد الرحمن بن عوف، والوليد بن المغيرة الذي ضرب ابنه هشام على شرب الخمر[٢٥٠]. وحرمها قيس بن عاصم المنقري الذي بلغ به السكر أن يأتي ابنته عن نفسها ـ وكانوا يحرمون الأمهات والبنات والأخوات، ويجتنبون الوقوع في ذلك فلما أفاق ندم وحرم الخمر[٢٥١].

وحرمها أبو طالب بن عبد المطلب وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية وأبو أحيحة سعيد بن العاص. وأمية بن خلف وصفوان بن أمية[٢٥٢].

وحرم شربها من عامة العرب عباس بن مرداس السلمي من قريش الظواهر والذي قال (لا أصبح سيد قوم وأمسي سفيههم). وكذلك أبو مرداس الذي شارك حرب بن أمية وصافاه.

---

٢٤٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٧، ٣٨.

٢٥٠ ـ إبن حبيب، المحبر ص ٢٣٧، المنمق ص ٥٣١، ٥٣٢.

٢٥١ ـ العسكري، المرجع السابق ص ١٩، النويري، المرجع السابق جـ٤/٨٨.

٢٥٢ ـ إبن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٥٥، ٤٥٦.

وحـرمها عامر بن الظرب العدواني، وعفيف بن معدى كرب العبدي، وقيل ان أحـدهمـا أول من استن تحريم الخمـر على نفسـه[٢٥٣]. وحـرمهـا قس بـن ساعـدة الأيـادي[٢٥٤] وغيرهم.

ومما تقـدم نرى أن هذه النخبـة من المجتمع القرشي ومن العرب عامة قد قاموا باصلاح اجتماعي بادئين بأنفسهم. ناشرين حكمتهم فلعل غيرهم يهتدي بهم.

ومن ذلك تبيّنا أنه كان في المجتمع المكي ظواهر اجتماعية متعددة. فقامت المنادمات والمنافرات. حيث مارسوا فيها ظاهرة التفاخر بالآباء والأجداد. وبالخصال الخلقية. رغم كون الأخـيرة مظاهر خارجة عن طاقات البشر وقدراتهم، وتفاخروا بالأحساب والأنسـاب، والشرف والسيادة، والكثـرة العـددية وبـالثـروة والأموال. بل تفاخروا بالأموات في مقابرهم[٢٥٥]. قال تعالى: ﴿الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾[٢٥٦] ومن هنـا نرى المعنى الظاهري للآية حيث أنهم يذهبون إلى قبر فلان، ويتفاخرون على الآخرين متسائلين هل فيكم مثل فلان أو مثل فلان. أو أنهم انشغلوا بهذا التكاثر في المال والبنين وما إلى ذلك من مفاخراتهم وعملوا من أجله طوال حياتهم حتى وافاهم الأجل، وانتهوا إلى المقابر[٢٥٧].

ولذلك اهتموا بالمظهر والجوهر فحرصوا على العناية بكل مظاهر حياتهم ولكل ماله صلة بالانسـان من مظاهـر متعلقة بمأكله وملبسه ومعيشته وما إلى ذلك. ثم اعتنوا بجوهر الشخصية وكل ما يتعلق بمقوماتها السلوكية.

ومن المنافرات التي قامت. منافرة بين بني مخزوم، وبني أمية حيث اجتمع نفر من الحيين عند الحجر الأسود، وحمي الوطيس بينهم في التفاخر بما لكل بطن من مكارم، ومآثر حتى غضب الوليد بن المغيرة المخزومي، وأسيد بن أبي العيص الأموي، وتفاخرا واقتصر الأمر بينهما فقط. فاحتكما إلى الكاهن سطيح كعادتهم، وجعلا بينهما خمسين من الأبـل. فلما حكم سطيح بأفضلية الوليد. منحه نصيبه من الابل. ونحر الوليد البقية وأطعم الناس عامة[٢٥٨].

---

٢٥٣ ــ إبن الأثير، أسد الغابة جـ٣/١١٢، ١١٣.

٢٥٤ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٢٣٨.

٢٥٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٨٩.

٢٥٦ ــ سورة التكاثر آية ١ ـ ٢.

٢٥٧ ــ السيوطي، المرجع السابق ص ٨٠٩.

٢٥٨ ــ إبن حبيب، المنمق ص ١١٢، ١١٤.

ويقابل التفاخر التعيير (المعايرة)، فقد عيرت العرب وكرهت ذوي النقائص أو ما اعتبرته في عرفها نقيصة. فعيرت ذوي الحرف الممتهنة أو الحرف الوضيعة. وعيروا من انتسب إلى غير قومه. فلما انتسب بنو عوف بن عوف إلى قريش عيروهم بذلك[٢٥٩]. وعيروا كل ذي عيب ونقيصة، أيا كان نوع ذلك العيب ان كان جسديا أو سلوكيا أو غير ذلك وقد عيروا عمرو بن العاص بأمه النابغة[٢٦٠].

وعير حمزة بن عبد المطلب سباع بن عبد العزي الغبشاني في معركة أحد بمهنة أمه التي كانت تعمل قابلة لتوليد النساء ومختنة في مكة فلما بارزه في المعركة ناداه حمزة بإسم (إبن الخاتنة)[٢٦١] وتنابذوا بالألقاب وأستمر ذلك في الإسلام أيضا رغم نهي الإسلام عنه. ولم تخف وطأة التفاخر والتعيير والتنابذ الا بعد نزول الأمر بتحريم الخمر[٢٦٢].

ومارس بعض العرب أسوأ ظاهرة اجتماعية وهي عادة الوأد. وحقيقة نقرر أن فكرة الوأد غريبة جدا ونعتبرها شذوذا اجتماعيا منحرفا، متوحشا. مارسها بعض العزب بلا رأفة أو رحمة، وبلا أسباب أو مبررات. فإذا حاولنا باحثين عن الدافع إلى ذلك فلن نجد وان اعتبروا الفقر سببا، أو الخوف من السبي والأسر سببا آخر[٢٦٣]. فهذه كبيرة بنت أبيّ سفيان وأدت أربع بنين في الجاهلية[٢٦٤]. وهي بنت أبي سفيان فمن المحتم أنها لم تشتك فقرا. ولم يكن دافعها الفقر، ولكن ما سبب وأدها لبنيها الأربع ثم كيف قامت بهذا الوأد ؟ وهي الأم... ولا نعلل ذلك الا بأن بنيها كانوا ذوي عاهات كتشويه خلقي بنقص في التركيب عند الولادة. أو في النمو. فالأم لا تجود بالضنى للثرى باختيار ورغبة الا لسبب قاهر وقد ترغب الحياة لأبنائها مع العاهة. وقد اعتادوا وأد الرزقاء والشيماء، والسوداء والبرشاء والكسحاء[٢٦٥].

وأما موقف الأم عامة تجاه الوأد فلم نعثر على نصوص تثبت مشاركتها للأب في عملية الوأد، أو مقاومتها لذلك، الا ما ورد عن زوجة قيس بن عاصم التي أخفت

---

٢٥٩ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٩٦.
٢٦٠ ــ الأسد، القيان والغناء ص ٩١.
٢٦١ ــ HITTI, THE ORIGIN OF THE ISLAMIC STATE, P. 80 السهيلي، المرجع السابق جـ٣/١٥٢، ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٧٩١، مادة ختن.
٢٦٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٦٠٤.
٢٦٣ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٨٨.
٢٦٤ ــ الحوفي، المرجع السابق ص٣٠٠.
٢٦٥ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٤٥، الألوسي، المرجع السابق ص ١٢٥.

ابنتها عن أبيها لما شعرت بعزمه على وأدها ثم بكت وناحت وولولت كعادة النساء[266].

ولم يثبت أن كبيرة بنت أبي سفيان قامت بعملية الوأد بنفسها وأنها الفاعلة لها ونعتقد أن تلكما حالتين فرديتين أحدهما تظهر المشاركة والأخرى المقاومة.

وما يتحتم اقراره أن الوأد لم يكن عاما مطلقا على جميع الإناث وإلا لتزعم الرجل إبادة النساء جميعا ولما عاشت أم أو أخت أو زوجة. وكان الوأد محصورا في بعض القبائل مثل تميم وقيس وأسد، وهذيل وبكر بن وائل[267]. وامتنع عن ممارسة الوأد قبائل أخرى وهم الطلس من جميع أهل اليمن وحضرموت وعلك وعجيب واياد بن نزار[268]. وكان قليلا في قريش ويئدون عند جبل أبي دلامة الذي هو من الحجون بمكة[269].

ونقرر أن الوأد لم يكن قاصرا على البنات فقط[270]. قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[271]. وقال: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم﴾[272]. وقال ﴿وقد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم﴾[273]وقال ﴿ولا تقتلوا أولادكم من املاق﴾[274] وقال ﴿ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾[275]وفي جميع هذه الآيات قال تعالى أولادكم، وأولادهم ولم يخصص البنات الا قليلا قال تعالى ﴿وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت﴾.[276] إضافة إلى أن كثيرا من الاباء أحببن بناتهن ودللنهن وكان لعبد المطلب بن هاشم ست بنات لم يئد منهن واحدة، وغيره الكثيرون من العرب أكرموا البنت وأحبوها بل واستشارها بعض الآباء في أمور مختلفة وذاك الزبير بن عبد المطلب يهش لإبنته عند دخولها عليه قائلا:

يا حبذا أم الحكم   كأنها ريم أجم   يابعلها ماذا يشم   ساهم فيها فسهم[277]

---

٢٦٦ ـ الأصفهاني، الأغاني جـ١٢/٣١٧، ٣١٨.
٢٦٧ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٣٠٠.
٢٦٨ ـ إبن حبيب، المحبر ص ١٧٩، ١٨١.
٢٦٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٩٤،٩٥ إبن منظور، المرجع السابق جـ١/ ١٠٠٧ مادة دلم.
٢٧٠ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٢٩٨.
٢٧١ ـ سورة الأسراء آية ٣١، السيوطي، المرجع السابق ص ٢٧٥.
٢٧٢ ـ سورة الأنعام آية ١٣٧، السيوطي، المرجع السابق ص ١٩٢.
٢٧٣ ـ سورة الأنعام آية ١٤٠، السيوطي، نفس المرجع السابق ص ١٩٣.
٢٧٤ ـ سورة الأنعام آية ١٥١، السيوطي، نفس المرجع السابق ص ١٩٦.
٢٧٥ ـ سورة الممتحنة آية ١٢، السيوطي، نفس المرجع ص ٧٣٢.
٢٧٦ ـ سورة التكوير آية ٨، ٩ السيوطي، نفس المرجع ص ٧٨٦.
٢٧٧ ـ القالي، الأمالي جـ٢/١١٦.

وقد مر بنا ذكر مؤودة بني زهرة التي نجت من الوأد وصارت كاهنة[٢٧٨] لهم. والمعتقد أن أمها أنقذتها من الوأد حيث بعثت من يهتف خفية على الرجل الوائد ويأمره بعدم دفنها وتركها تعيش حياتها.

وقد مارس الإسبرطيون ما يشبه الوأد بقتل الأولاد مشوهي الخلقة، والضعاف والمرضى منهم[٢٧٩]. وقد يرجع الوأد إلى باعث ديني حيث يكون شعيرة من بقايا الطقوس والشعائر الدينية التي تقتضي ذبح القرابين البشرية وتقديمها للآلهة ولكن الوأد المعروف يتم بدفن الأحياء مباشرة دون قتل أو ذبح أو اسالة دماء. كما أن العديد من ذوي القلوب الرحيمة والضمائر اليقظة الذين خافوا الله حتى مع الشرك وعبادة الأوثان، قدروا الانسانية بفطرتهم واستعظموا جريمة الوأد وأنقذوا عددا من الموؤدات بسبب الأملاق والفقر. فكان عمرو بن نفيل يحي الموؤدة حيث يتكفل بالانفاق على الطفلة إلى أن تكبر ولأبيها الخيار في استرجاعها أو عدمه[٢٨٠]. وكذلك اقتدى به ابنه زيد بن نفيل في سنة احياء الموؤدات[٢٨١] حتى بلغ عدد من أحياهن ٩٦ بنتا[٢٨٢].

وكان صعصعة بن ناجية من تميم يشتري الموؤدة بثمن يدفعه إلى أبيها قيمته ناقتين عشراوين وجمل. وصارت له عادة حتى أحيا ٢٨٠ مؤودة [٢٨٣]. وجاء الإسلام ولدى صعصعة ثلاثون موؤدة[٢٨٤].

ومن عادة العرب الأنفة والترفع عن الصغائر وعن الضعة واهانة النفس ولذا فقد أنف العرب من الركوع ويسمونه (التحنية). فقد سأل علي بن أبي طالب باندهاش عن الركوع في الصلاة مع النبي ﷺ [٢٨٥].

ولتعاظمهم بآبائهم فقد حلفوا بهم وحلفت قريش بآبائها حتى نهوا عن ذلك في الإسلام[٢٨٦]. وكانوا يقسمون بالله أيضا. وقد أنثوا اليمين نسبة إلى اليد اليمنى لأنهم

---

٢٧٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٤٥.
٢٧٩ ــ الحوفي، المرجع السابق ص ٣٠٣.
٢٨٠ ــ جواد علي، المرجع السابق ص ٣٠٣.
٢٨١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٥٧
٢٨٢ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٧٠.
٢٨٣ ــ المبرد، المرجع السابق جـ١/٢٨٩، النويري، المرجع السابق جـ٣/١٢٦
٢٨٤ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٩٦.
٢٨٥ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٨٣.
٢٨٦ ــ البخاري، المرجع السابق جـ٥/٥٣.

إذا تحالفوا تصافقوا. وشبكوا الأيدي اليمنى. وكانوا يوقدون نارا عند التحالف ويقتربون منها حتى يشعروا بحرها. ثم يعدون منافعها. وأن يحرم ناكث العهد منها ويقولون الدم الدم ـ والهدم ـ الهدم. ومن أقوالهم عند المعاهدة والمحالفة «عهدا لا يزيده طلوع الشمس إلا شدا وطول الليل الا مدا ـ وما بل بحر صوفه ـ وما أقام رضوى»(٢٨٧).

ونار الحلف هذه احدى نيران العرب المعروفة والتي يبلغ عددها ثلاثة عشرة نارا(٢٨٨) ويسمون الرجل المسؤول عن هذه النار المهول لأنه يرهب بالنار من يستخف بها(٢٨٩).

وقد اختصت قريش من دون العرب بنار المزدلفة التي استنها قصي بن كلاب فهو أول من أوقدها ليظهر وهجها في ظلمة الليل هديا للحجاج عند دفعهم من عرفة إلى المزدلفة(٢٩٠).

والنيران الأخرى هي نار الاستمطار أو الاستسقاء لاستجلاب المطر إذا شح وكانوا يجمعون مواد قابلة للاشتعال ويعلقونها في أذناب البقر ثم يصعدون بها الجبال ويشعلون فيها النار. واعتقدوا أن ذلك يجلب المطر.

ونار الطرد يوقدونها لحرق آثار ضيف لا يرغبون عودته. ونار الحرب يشعلونها اعلاما لذويهم بالأهبة للحرب. ونار الحرتين كانت خاصة لبني عبس.

ونار السعالي أشعلوها في القفار والصحاري لهداية من يجوبها ليلا (٢٩١). ونار الصيد وتشعل للظباء خاصة حيث يغشى نظرها، فلا ترى وتعجز عن الهرب، ونار الأسد لتنفيره اذا خافوا اقترابه لأنه يرهب النار ويخشاها. ونار السليم وتوقد للملدوغ والمجروح، والمجلود، ولمن عضه الكلب لتلهيته وتصبيره. وللاحتياط والحذر من وقوع ذلك بغيره.

ونار القرى لارشاد الضيوف إلى بيوت الكرام المفتوحة لاستقبالهم واطعامهم ثم نار

---

٢٨٧ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٢، النجيرمي، المرجع السابق ص ٣٤، ٣٥.
٢٨٨ ــ القلقشندي، نفس المرجع والصفحة.
٢٨٩ ــ النويري، المرجع السابق جـ١/١١.
٢٩٠ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٢٨، النويري، نفس المرجع جـ١/١٠٩، إبن حبيب، المحبر ص ٣١٩.
٢٩١ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٢، النويري، نفس المرجع جـ١/١٠٩، ابن حبيب، المحبر ص ٣١٩.

فداء النساء حيث يخرج سادة القبيلة لافتداء النساء اللائي وقعن في سباء الملوك. وتوقد هذه النار لعرض النساء تحت جنح الليل المظلم وستره.

وأخيرا نار الوسم. ويوقدها الرجل ليسم بها ابله حيث من عادتهم أن يكون لكل مالك وسمة معلومة (شعار ـ أو علامة) يتخذها على ممتلكاته من قطيع المواشي[٢٩٢]. وتوجد نيران أخرى منها نار الغدر التي توقد على الأخشبين بمكة أيام الحج ويذكرون اسم الغـادر بقربها. فيسمونها غدرة فلان بن فلان ليحذر منه الآخرون وكذلك نار السلامة، وتوقد لمن يسافر طيلة مدة غيابه حتى يعود من سفره سالما[٢٩٣].

ونـار الحبـاحب وهي نار مؤقتة تظهر مع كل ما يومض وينقدح شررا من حوافر الدواب أو أي احتكاك بين مادتين صلبتين ببعضهما مما يولد الشرر. ويسمون البرق نارا. ونار اليراعة وهي طائر يلمع كالشهاب اذا طار[٢٩٤]. ويتضح لنا أن بعض النيران معروفة بين جميع العرب. والبعض الآخر خاص بقبائل دون أخرى مثل نار المزدلفة فهي لقريش خاصة. ونار الحرتين لبني عبس. ونيران أخرى تحدث بفعل عوامل طبيعية لا تأثير للانسان فيها مثل نار الحباحب واليراعة والبرق.

كما يتعـاهـدون على الملح. والمقصـود هو ملح الطعام المعروف واللبن ـ والمهالحة عندهم الاجتماع على طعام مملح أو على شرب اللبن. وقالوا بيننا ملح[٢٩٥]. ونقول نحن بالعـامية (بيننا عيش وملح) كناية عن المعاشرة والتآلف. ويقدر المجتمع العربي من يصون العيش والملح أي يصون العشرة الطيبة. ويذمون من يخونها.

وكان لقريش مآثر كريمة جرت مجرى العادة بينهم ولكن أكبر وأعظم مآثرهم هي السقـاية والـرفادة. اللتين سنفصل عنهما في موضعه. ولكنهم اعتادوا خدمة الحجاج وحرصوا على توفير الطعام والماء، وأقاموا أيضا السقايات على الطرق في المواسم لسقاية الحنجاج والناس عامة[٢٩٦].

وتستحكم العادة بالمجتمع فترسخ بين أفراده. ويخضعون لها ولا يجرؤ فرد منهم على مخالفتها. حتى جرت بينهم كالقانون الصارم والأحكام التشريعية النافذة هدفوا بها إلى

---

٢٩٢ ـ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٣، النويري، المرجع السابق الجزء ص ١٢،٠١.

٢٩٣ ـ النويري، نفس المرجع والجزء ص ١١١، الألوسي، المرجع السابق ص ١٠١.

٢٩٤ ـ العسكري، المرجع السابق ص ٣١، النويري، المرجع السابق جـ١/١١٥.

٢٩٥ ـ النجيرمي، المرجع السابق ص ٣٦، ٣٧.

٢٩٦ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٧٥.

تنظيم المجتمع وقيادته. من ذلك تعارفوا على قطع يد السارق فقطعت قريش يمنى وابصة بن خالد المخزومي، وعوف بن عبيد المخزومي الذي قطع مرارا ثم سرق فرجم حتى الموت. وقـطع ابنه مدرك أيضا. وقطعوا يد الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف. وعبد الله بن عثمان بن عمرو من تيم لأنه سرق ابلا. وقطعوا يمنى مليح بن شريح من أسد. ومقيس بن قيس السهمي اللذين اشتركا في سرقة أموال الكعبة[٢٩٧].

ثم تعارفوا على أن الدية عشرا من الابل. وبعد فداء عبد الله بن عبد المطلب صارت دية القتيل مائة من الأبل تسلم لوليه[٢٩٨].

ورغم عدم وجود سلطة تشريعية لسن القوانين والأحكام. وكذلك الأمر بالنسبة للسلطة التنفيذية. فليس هنالك شرطة ولا رجال سلطة تنفيذية كالمتعارف عليه بيننا الا أنهم نجحوا في تنظيم المجتمع واصبح العرف والتقليد والعادة هي القانون المفروض والناموس المتبع بين الناس.

وكان لشيخ القبيلة الحكم بين أفرادها وفق أعرافهم وتقاليدهم السائدة والتي هي خلاصة تجاربهم وآرائهم مع الاقتباس ممن خالطهم من الأمم المجاورة. ولشيخ القبيلة انفاذ الحكم واقامة الحد اما بنفسه أو باختيار من ينوب عنه.

وكذلك الأمر في مكة فيتولى سادة قريش تنفيذ الأحكام وقد تولى بنو سهم حكومة قريش بل هي حكومة مكة بمن يجاورها ومن يفد اليها من غير قريش اي أن بني سهم تولوا منصب قضاة مكة وحكامها. حيث يحتكم اليهم القرشيون وغيرهم ممن يأم مكة. فيعرضون عليهم كل خلافاتهم وخصوماتهم.

ومارست قريش نوعا آخر من الاحتكام أيضا كغيرها من العرب. وهو الاحتكام إلى الكهان والعرافين كما ذكرناه سابقا[٢٩٩].

واستنت قريش نظاما جديدا يهتم بالنظر في المظالم، ويشبه (ديوان المظالم) الذي عرف في الإسلام. وقد انبثق نظامهم هذا نتيجة للخلاف الذي وقع بين العاص بن وائل، والرجل الزبيدي. فتداعوا إلى حلف الفضول. الذي يعتبر أعظم مآثر قريش أيضا. ولأنهم اعتادوا احقاق الحق، ونصرة المظلوم[٣٠٠].

٢٩٧ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٣٢٧، ٣٢٨.
٢٩٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١ / ١٧٦.
٢٩٩ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٢١٩، ٢٢٠.
٣٠٠ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١ / ١٥٦.

والمجتمع في حياته اليومية مترابط متآلف يلقي الفرد منهم تحيته على غيره كل وقت مصحوبة بما يناسبها من الأماني الطيبة فمن عبارات السلام المتداولة بينهم عم صباحا عند اللقاء، وعم مساء للتوديع، وعم ظلاما في الليل، والمقصود بعم أنعم، ولهم عبارات خاصة تليق بذوي المقامات الرفيعة والمناصب كالملوك ووجهاء القوم وسادتهم فيخاطبونهم قائلين أبيت اللعن[٣٠١].

ومن مظاهر الثراء والترف الاهتمام بالمظهر الخارجي وحسن الهندام. وقد اهتم القرشيون بمظهرهم وحسن هندامهم. فاقتنوا الملابس الجميلة بل اتخذوا كل ما يزين في الملبس خاصة. فاتخذوا العمائم للرأس، لبسها بنو عبد المطلب. فزادتهم هيبة مظهر، فوق جسامتهم وهيبة شخصياتهم وجمالهم[٣٠٢]. وكان لبعضهم عادة في احترام وتمييز ذوي الأقدار منهم حيث كانوا إذا لبس أبو أحيحة سعيد بن العاص العمامة، لم يعتم معه أحد من بني عبد شمس وهو ذو العمامة ـ وذو العصابة. وقد يكنى بذلك عن الزعامة[٣٠٣]. ومن عادة العرب إذا اعتمت أن تنتضي السيوف وتتقلدها[٣٠٤].

والمعتقد أن استعمال العمائم غير منتشر بين العرب عامة وليس من عادتهم وانما اعتم بعض العرب من غير قريش أثناء وجودهم في مكة لجمالهم ولخوفهم على أنفسهم من النساء[٣٠٥] وتقليدا لسادة قريش.

ولبسوا الأتحمي، والقطر[٣٠٦]. فقد لبسه بنو المغيرة عندما جاءوا للتعرف على أوس بن حجر ضيف أبي جهل فعظمهم أوس. ولكنه لما رأى بني عبد المطلب أجلهم أكثر لهيبتهم، وجمالهم وطول قاماتهم[٣٠٧].

ولبس أهل الجزيرة عامة الثياب الطوال ، واستعملوا غطاء الرأس وأحيانا يستفاد منه لتغطية جزء من الوجه عند التلثم (اللثام). وفي لباسهم هذا تناسب لبيئتهم ففي

---

٣٠١ ـ ابن منظور، المرجع السابق جـ١/١١ مادة أبي جـ٣/٦٧٤ مادة نعم، الألوري، المرجع السابق ص ١٤١، ١٤٢.

٣٠٢ ـ إبن حبيب، المحبر ص ٢١، ٢٢

٣٠٣ ـ الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/٩٧، ابن حبيب، المحبر ص ٦٥.

٣٠٤ ـ المبرد، المرجع السابق جـ١/١٠٤.

٣٠٥ ـ إبن حبيب، المحبر ص ٣٣٢، ٢٣٣.

٣٠٦ ـ نوعان من البرود، والقطر يلبسه الرجال والنساء راجع ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٣١٣، جـ٣/١١٤، مادتي برد، قطر.

٣٠٧ ـ إبن حبيب، المنمق ص ٤٤٣، ٤٤٤.

ذلك حماية للجسد والوجه من لفح حرارة الشمس. واتقاء لذرات الرمال المتطايرة مع هبوب الرياح[٣٠٨]. ومن عادتهم استعمال المشوس (المنديل) لمسح الوجه. وألف العرب التطيب في حياتهم اليومية كذلك في حالتي الحرب والصيد[٣٠٩].

وقد استعملت قريش النعال، ولبسته. منذ الجاهلية. وقدروا الكعبة، وصانوها عن الأقذار وحافظوا على نظافة أرضها فخلعوا نعالهم عند دخولها وأول من فعل ذلك منهم الوليد بن المغيرة[٣١٠].

وقد اهتموا بنظافتهم الشخصية اليومية من غسل أعضائهم بما يشبه الوضوء من مضمضة واستنشاق وسواك. وحز الشارب[٣١١]. وأول من قصه إبراهيم الخليل عليه السلام[٣١٢]. وأمر النبي ﷺ بالسواك وحببه وكاد أن يفرضه مع الوضوء[٣١٣].

ثم اهتمـوا بالنـظافة البدنية الدورية بحلق شعر العانة، ونتف الإبطين، وتقليم الأظافر والإستنجاء[٣١٤]. وأول من قلم أظافره قصي بن كلاب[٣١٥].

وهـذه أدلـة على عنـاية القرشيين بالنظافة اليومية. واعتنائهم بأنفسهم وقد عرف العرب الصابون للنظافة اليومية، والذي عمله سليمان عليه السلام[٣١٦].

واعطوا الشعر العناية اللازمة له. ثم اعتادوا فرقه الى قسمين وأول من عرف الشيب ورآه ابراهيم عليه السلام[٣١٧]. وعرفوا التخضيب بالحناء (لصبغ الشعر) واقتداء بسنة عبدالمطلب بن هاشم وهو أول من خضب بالسواد من أهل مكة[٣١٨].

وأول من ختن من العرب ابراهيم عليه السلام[٣١٩] وانتشرت هذه العادة الصحية

---

٣٠٨ ــ ول ديوارانت، المرجع السابق جـ٣/٧ ـ ٨.
٣٠٩ ــ المبرد، المرجع السابق جـ١/٣٢٨.
٣١٠ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٣٨.
٣١١ ــ إبن حبيب، المحبر ص ٣٢٩.
٣١٢ ــ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٦٤.
٣١٣ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ١/٢١٢، ٢١٣.
٣١٤ ــ ابن حبيب، المحبر نفس الصفحة.
٣١٥ ــ ابن الجوزي، نفس المرجع والصفحة.
٣١٦ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٣٣٥.
٣١٧ ــ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٢/٣٢٧، ابن الجوزي، نفس المرجع والصفحة.
٣١٨ ــ العسكري، نفس المرجع ص ٢٥.
٣١٩ ــ ابن الجوزي، نفس المرجع والصفحة، الألوري، المرجع السابق ص ١٥٠.

بين معظم قبائل جزيرة العرب. والتي لم يقتبسها العرب من اليهود بل علموها لهم ولغيرهم حتى أنها عرفت بين بعض القبائل الافريقية[٣٢٠]. ولم يقتصر أهل مكة على تختين الذكور فقط بل ختنوا الاناث. وعيروا الأغرل الذي لم يختتن. وكانوا يغتسلون من الجنابة. وان قريشا غسلوا موتاهم. بل انهم وضعوا لهم الحنوط في الكفن[٣٢١]. والحنوط في كفن الموتى يطيب الجثة. ويحافظ عليها لمدة من الزمن وقد ذكرنا عطر منشم وأنهم اشتروا منها الحنوط الذي يتركب من مواد مثل الكافور، والصندل المدقوق أو المسك والعنبر. وقد وضعوا المسك لعبد المطلب عند موته[٣٢٢].

وغسلت قريش عبد المطلب بالماء والسدر وهي أول من استعمل السدر في غسل الأموات، واستعملوا الخطمى والأشنان كمواد مزيلة لأوساخ الجسد وتطهيره ووضعوا له المسك على جسده وكفنوه في حلة يمانية ثمنها ألف مثقال ذهب[٣٢٣].

وغسل أبناء أبي لهب أباهم بالماء قذفا (من بعد) حيث كانوا ينثرون الماء نثرا عليه دون مسه. وتدليك جسده لخوفهم من العدوى بمرضه الذي فتك به.[٣٢٤]

وقد صلوا على موتاهم أيضا، وكيفية صلاتهم تضمنت حمل الميت على سرير أو محفة، أو نعش. ثم يقوم وليه بذكر محاسنه والثناء عليه، وطلب الرحمة بقوله: (عليك رحمة الله)[٣٢٥]. ثم يحمله قرابته وذووه وأصدقائه على الأكتاف ويدفن في قبره[٣٢٦].

ومن عادة نسائهم البكاء والنواح على الأموات فلما مات حرب بن أمية بكته نساء قريش في كل مأتم نائحات واحرباه. . . واحرباه[٣٢٧].

واعتادت قريش اعلان الحداد العام لفترة معينة ويقتضي ذلك غلق أسواقهم وحوانيتهم عند موت سيد من علية القوم وأكابرهم اعظاما وتقديرا. فلما مات عبد المطلب بن هاشم ناحت عليه نسوة آل عبد مناف، وجززن شعورهن، وشق صغار

---

٣٢٠ ــ ولفنسون، المرجع السابق ص ٧٨.
٣٢١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٢٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٣٤٣، ٣٤٤.
٣٢٢ ــ جواد علي المرجع السابق جـ٥/١٦٢، ١٦٣.
٣٢٣ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ٢/١٣، جواد علي نفس المرجع والجزء ص ١٥٦، ١٥٧.
٣٢٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٨٨.
٣٢٥ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٦/٣٣٨.
٣٢٦ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/١٥٧.
٣٢٧ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣.

الأولاد قمصانهم. وغلقت الأسواق في مكة أياما كثيرة حزنا على وفاته وحدادا[٣٢٨]. واعتادوا أن يصنعوا طعاما لأهل الميت ويسمونه الوضيمة[٣٢٩].

واستقبلوا المولود بالبشر واقامة الولائم فكانوا يصنعون طعام الخرس للنفساء للتعبير عن الفرحة بسلامة الأم من أخطار المخاض وهي من ولائمهم التي بلغت ستة عشر وليمة[٣٣٠]. منها طعام العقيقة وهي الوليمة التي تقام يوم السابع من مولد الطفل[٣٣١] كما هو جاري في عرفنا الحاضر. ويجعلون لعقيقة الولد ذبح خروفين، وللبنت خزوف واحد. وطعام الأعذار يصنعونه عند تختين المولود بعد مولده بفترة.

ثم طعام الملاك والنقيعة ويقيمونه ليلة عقد قران الرجل على زوجته. وطعام وليمة العرس ليلة الدخول على الزوجة. ويقيمون للعائد من السفر وليمة. والوكيدة وليمة أيضـا عنـد السكن في منزل جديد. والعقيرة طعام يصنع عند دخول شهر رجب. وكذلك التحفة طعام يولم به للزائر. والقرى للضيف. والمادبة طعام يولم به بلا مناسبة أحيانا. وهنالك الدعوة الخاصة ويسمى طعامهـا النفـرى، والدعـوة العـامة يسمى طعامهـا الجفلـي[٣٣٢].

وفي جميع هذه الـولائم يولمـون بذبح الشياه والجمال[٣٣٣] مما يوضح اعتمادهم على اللحوم في غذائهم وأطعمتهم كمادة أساسية من مواد الطعام، وذلك يعزى إلى طبيعة وادي مكة وقلة مزورعاتهم

ولم يحرموا شيئا من لحوم الحيوانات الا ماترك بقصد التقرب إلى الآلهة والتوهم بالتعبد بواسطة ذلك. وقد حرموا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام واستباحوا الميتة والدم المسفوح حيث كانوا اذا جاع أحدهم ولم يجد ما يأكله فصد دم بعيره وشربه[٣٣٤].

ولما نزل الأمر بتحريم أكل الميتة والدم في الإسلام[٣٣٥] اندهش القرشيون لذلك لما

---

٣٢٨ ــ مات عبد المطلب حوالي سنة ٥٧٨م أنظر جواد علي، المرجع السابق جـ٢ / ٨١.
٣٢٩ ــ الأصمعي، المرجع السابق جـ١ / ٢٧٦.
٣٣٠ ــ الأصمعي، المرجع السابق جـ١ / ٢٧٥.
٣٣١ ــ الأصمعي، نفس المرجع والجوء والصفحة، الألوري، المرجع السابق ص ١٥٠، الأسد، القيان والغناء ص ٤٥٦.
٣٣٢ ــ الأصمعي، نفس المرجع والجزء ص ٢٧٥، ٢٧٦.
٣٣٣ ــ الأسد، القيان ولغناء ص ١٥٥.
٣٣٤ ــ قرضاوي، المرجع السابق ص ٤٤، ٤٧.
٣٣٥ ــ سورة المائدة آية ٣.

اعتـادوه من أكلهم الميتة والمنخنقة والنطيحة وما افترسه السبع . ولذلك قـام التحاجج . واللجاج بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم يتساءلون كيف يحرم ما قتله الله ويحلل ما يقتله هو بيده[٣٣٦] متناسين الفرق بين ما يذبح لحينه فيطبخ طازجا نظيفا أو يحفظ بعيدا عن الأقذار والهوام والعفنات، وبين ما يموت ويتعفن أو يكون موته بسبب مرض ونحوه.

وقد جلبوا الطحين، والبر واستعملوه في طعامهم فصنعوا منه الخبز[٣٣٧]. وأدخلت قريش البر في اعداد أكلتها المشهورة (السخينة). [٣٣٨] والتي عيرت بها قريش حتى أن العرب لقبوا قريشا باسم طعامها (السخينة)[٣٣٩].

واعتمدوا في غذائهم على اللبن مادة غذائية طبيعية كألبان النوق وألبان الأغنام. وكان سويد بن هرمي الجمحي سيد شريف ذو قدر ومكانة[٣٤٠]. أول من سقى اللبن والعسل بمكة أي جعل له سقاية من اللبن[٣٤١]. مثل سقاية بني عبد مناف فهل قصد بذلك منافستهم والتفوق عليهم أم أنه الكرم وقرى الأضياف.

---

٣٣٦ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٢٢٣، ٢٢٤.

٣٣٧ ـ المبرد، المرجع السابق جـ١/ ٢٤٩.

٣٣٨ ـ السخينة طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وأغلظ من الحساء تؤكل أيام الفقر وشدة العوز، راجع ابن منظور، المرجع السابق جـ٢/ ١١٦. ولعلها أقرب إلى الحريرة في قوامها (طعام معروف حاليا).

٣٣٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٣٠، جـ٥/ ٦٦.

٣٤٠ ـ الزبيري، المرجع السابق ص ٣٤٢

٢٤١ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/ ٣٨.

الباب الثاني

دور قريش السياسي والاقتصادي والديني

- الفصل الأول : دور قريش السياسـي
- الفصل الثاني : دور قريش الاقتصادي
- الفصل الثالث : دور قريش الدينـي

الفصل الأول
دور قريش السياسي

من المصطلحات التي ترد في تعريف جزيرة العرب وتحديدها أنها المنطقة التي لم يبلغها ملك فارس، ويبلغ اتساعها طولا من جدة إلى العراق ومن عدن أبين إلى أطراف الشام. وعرضها من رملة يبرين إلى أرض السماوة ومن العراق إلى اليمن[1].

ومن ذلك يتضح لنا أنها بلاد العرب المستقلة والتي تقع بين مراكز الحضارات مثل الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية[2]. وبلاد الرافدين، وأرض النيل.

وقد كان الحجاز على الساحل الغربي لجزيرة العرب من حواضر الجزيرة منذ القدم حافظ على استقلاله أيضا[3]. وعرفنا مكة ويثرب والطائف من أهم مدن الحجاز، ويليها مدن أخرى مثل خيبر وفدك وتيماء. وقامت مكة ويثرب بقيادة النهوض والتحضر قبل ظهور الاسلام[4]. ورغم عدم ورود إسم مكة في المدونات الجاهلية القديمة والمحدودة، ومع أن ملك بابل (نبونيد) قد ذكر أن جيوشه وصلت إلى يثرب، ولم يذكر شيئا عن مكة[5] إلا أننا نعرف أن مكة ظهرت تاريخيا منذ هجرة إسماعيل إليها[6].

وإذا تقرر أن أبعاد وادي مكة من باب المعلاة إلى باب ماجن تبلغ ٤٤٧٢ ذراعا (بذراع اليد). وحوالي ٤٦٩٢ ذراعا من باب المعلاة إلى باب الشبيكة[7]. فهذا لا يعني أن هذه هي حدود مكة فقط بل نقول أن مكة في عصر قريش كانت تشمل كل ما حولها من مناطق وأحواز منها وادي مر الظهران والتنعيم والجعرانة وسرف وفخ والعصم

---

١ ــ البكري، المرجع السابق جـ١/٦.
٢ ــ يحي، المرجع السابق ص ٣٣.
٣ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٦١.
٤ ــ الشريف، دور الحجاز ص ١٣.
٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٩
٦ ــ SIDDIQUI. OP. CIT. p. 3.
٧ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٣.
٨ ــ الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٢٥٩.

وعسفان والجحفة وخم. وكان قديد خاص بخزاعة[٨]. وكذلك بعض مناطق أخرى مثل الزيمة (على طريق الطائف). والمغمس ونخلة والموقفان[٩]. وبعض المناطق البعيدة عن مكة ولكنها ضمن مخاليفها أيضا مثل الغمر على طريق العراق قرب ذات عرق، وضنكان في تهامة على طريق اليمن، وكذلك علك من أرض اليمن قرب عدن[١٠]. والمعتقد أن هذه المخاليف كانت تابعة لمكة، تبعية متعارف عليها أو لاعتماد أهلها على قريش في أمورهم.

وقد ظهر وعي سياسي مبكر بين سكان جزيرة العرب أدى إلى الاجتماع والتكتل داخل القبيلة الواحدة أو البلدة الواحدة. ففي مكة اتحدت بطون وعشائر قبيلة قريش لتستقر فيها وتكون نظاما سياسيا خاصا بها ومستقلا عن غيره. ويذكر ابن حبيب أن مضر كلها كانت لقاحا[١١]. ومنطقة مكة بالذات فقد أعلن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي قائلا (ألا ان مكة حي لقاح لا تدين لملك)[١٢]. فهي لم تخضع لأي نفوذ ولم يتعرض أهلها لسبي أو أسر[١٣].

إذا فقد كانت مكة في مقدمة المدن العربية المستقلة وغير الخاضعة لأي حكومة خارجية أو قوة أجنبية. فالحقيقة التي يحسن أخذها في الاعتبار أن مكة عاشت مستقلة لم يطلها نفوذ من خارجها بل مارست حكم نفسها، وادارة سياستها بطريقة فريدة متميزة (فلم تكن قيصرية ولا كسروية، ولا نجاشية وانما كانت مكة عربية لجميع العرب)[١٤]. ولقريش أهل مكة. وغيرهم ممن أمّها من بعض البلاد المجاورة لجزيرة العرب كبلاد فارس والروم والحبشة.

فمنذ استقرار جرهم في مكة، والبلدة مفتوحة لكل من يدخلها. ولكن يتضح لنا أنها كانت مقسمة سياسيا إلى حزبين. حيث كان مضاض بن عمرو في شمال مكة، ويتولى تعشير كل من دخلها من منطقة نفوذه. وكذلك كان السميدع في الجنوب ويجبي نفس الضريبة. وكانا على عداء وشقاق الى أن اقتتلوا وتفرقوا[١٥].

---

٩ ـ الهمداني، المرجع السابق ص ٣٨٣.

١٠ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٤.

١١ ـ ابن حبيب، المحبر ص ٢٥٣ ولقاح أي لا تدين للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم في الجاهلية سباء. ابن منظور، المرجع السابق جـ٣/٣٨٥ مادة لقح.

١٢ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٥٥.

١٣ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٠٣.

١٤ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٦، الشريف، دور الحجاز ص ٢٦.

١٥ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٢٢.

ثم قامت بأمر مكة من بعدهم قبيلة خزاعة. وقد مارست سياسة تعشير من يدخل مكة بل أنهم اشتدوا. ثم قامت قريش بالأمر وغدا أمر مكة بيدها[١٦].

ولنا أن نتساءل ما هي طبيعة الحكم في مكة ؟

حكومة مكة :

استقرت في مكة جماعات وقبائل أسست أنماطا مختلفة من الحكم وانتهجت سياسات ليست لدينا معلومات كافية عنها. ولكن بعد تجمع قريش في مكة، أتضحت الصورة عن ذي قبل فقد أجتمعت بطونها وعشائرها ونزل كل حي منهم في جهة من جهات الوادي حول الكعبة المعظمة. ودعمت قريش في عهدها مركز مكة الديني وجعلتها البلد المقدس الأول في شبه الجزيرة العربية رغم وجود العديد من البيوت الدينية المقدسة. بل وجعلتها مركزا تجاريا كبيرا[١٧].

وقد أقامت قريش في مكة حكما متميزا عن غيره، بعيدا عن مشيخة القبيلة وزعامتها. فان عوامل الاستقرار والتحضر، والتجارة غيرت المجتمع القرشي من حياة القبيلة وأعرافها البدوية إلى حياة التحضر، وأهل المدن بكل مقومات حياتهم السياسية والاجتماعية آنذاك فكونت قريش خكومة مجلس المدينة[١٩]. الذي هو قريب الشبه بحكم المدن اليونانية. ولكنهم اختلفوا عنهم في مميزات أعضاء مجلس الحكم حيث وضعت قريش مواصفات ومقاييس معينة تميز أعضاء مجلس حكومتها. أهمها السن فقدمت ذوي الأسنان والحكمة، والرأي السديد الصائب، ثم أصحاب المال والجاه، والشرف والنفوذ في قومهم، وذويهم وليس هنالك حاكم منفرد أو سلطان أو رئيس أو ملك.[٢٠] فحكم قريش هو حكم لا مركزي. قامت به الطبقة المتميزة المتولية له. دستورها العرف وسلطتها العادة.[٢١] فلنا أن نسميه حكومة الملأ من قريش[٢٢]. ويمكننا أن نعتبر مكة دولة مدينة حيث توفرت لها أسس ودعائم الدولة أيا كان حجمها.

---

١٦ ــ SIDDIQUI, OP. CIT. P.3 . حسن، المرجع السابق جـ١/٤٦ .

١٧ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٦ .

١٨ ــ NARAYAN, OP. CIT, P. 4, K. SALIBI, OP CIT, P. 69 .

١٩ ــ ENCY. BRITANICA, VOL. 11 - OP. 753 الدوري ، عبد العزيز ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام بيروت ، ١٩٦٠م . ص ٣٦ ، الرفاعي ، أنور ، تاريخ العرب والإسلام ١٩٧١م ص ٥٥ .

٢٠ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٣٩ .

٢١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٤٨، ٤٩، عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٤٨ .

٢٢ ــ الشريف، دور الحجاز ص ١٧ .

ومن تلك الدعائم والعوامل الأساسية أرض معلومة، وحكومة مستقلة وشعب والشعب هو القبيلة لدى الجاهليين. وهذا هو مبدأ الدولة وأصلها[٢٣] فالحكم قائم على دعائم وأسس واضحة تمثله النخبة من أعضاء مجلس الملأ الذين هم زعماء القوم وسادتهم. ولهم دور كبير في حياة قبيلتهم أو مدينتهم فهم رجال الحكم ، وهم الساسة. ولكن شعورهم القبلي لم يتغير فهم يشعرون أنهم من أصل واحد، وأرومة واحدة متمثلة في الجد الأعلى. وعلى ذلك فغالبية سكان مكة يعود نسبهم إلى قريش[٢٤]. وقد عمدوا إلى تعزيز مكانتهم، وتقوية مجتمعهم بالتكتل والائتلاف بتكوين الأحلاف. وذلك لضرورة الدفاع عن الحياض عند الحاجة[٢٥].

من كل ذلك نجد أن مكة كانت وحدة لها كيانها السياسي القائم بذاته والذي ندعوه باسم حكومة الملأ القرشي أو (جمهورية الملأ القرشي). مما يبعدها عن مصطلح الجمهورية المطلق، ويضويها ضمن اطار القبيلة. لارتباط الحكم باسم قبيلة قريش.

وأسس قصي بن كلاب هذا النظام القرشي (جمهورية الملأ القرشي) فهو مجمع قريش وزعيمها الأول[٢٦]. وجدهم الأعلى هو صاحبهم وجامع أمرهم وكلمتهم حتى سمي المجمع واسمه زيد، وكني بقصي نظرا لأنه نشأ بعيدا عن مكة بين أخواله في بادية بني عذرة[٢٧]. وبعد أن شب قصي وكبر عاد إلى مكة حيث جمع قومه من قريش وكنانة وقضاعة ودخل بهم مكة حوالى سنة ٤٤٠م[٢٨].

ونظر في أحوال مكة وأمرها، فارتأى أنه أولى بها من خزاعة لأن قريشا من صريح نسل إسماعيل. فقاتلهم في موسم الحج وغلبهم. وكانت الحجابة بيد خزاعة، واجازة الناس في الحج بيد صوفة وهو الغوث بن مر من تميم وكان نسيء الشهور إلى كنانة. وبعد أن انتصر قصي عليهم. أخذ الاجازة من صوفة لنفسه. فخافت خزاعة ومعها بنو

---

٢٣ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/١٧٨.
٢٤ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/١٧٩. ١٨٠.
٢٥ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٣٧.
٢٦ ـ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٠٥، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٦٩، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٥، ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٥.
٢٧ ـ القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، سنة ١٩٧٨م بيروت، جـ١/١٤، ١٥، ابن دريد، المرجع السابق جـ١/ ١٩، ٢٠، المقدسي، مطهر بن طاهر، كتاب البدء والتأريخ ، سنة ١٩٠٧م جـ٤/١٠٩، الطبري، تاريخ جـ٢/١٨١، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١١.
٢٨ ـ سيديو، المرجع السابق ص ٤٤، حمور، المرجع السابق ص ٣١.

بكر ونصروا قصيا ولكنهم احتكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب من بني بكر. فقضي بالأمر لقصي. وشدخ الدماء التي أصابها قصي وحكم على خزاعة أن تدفع دية قدرها ٢٥ بدنة و٣٠ حرجا. وبذلك سمى يعمر بالشداخ[٢٩]. وقيل بل ارتجعها من خزاعة بمساعدة قيصر الروم[٣٠].

وكان قصي رجلا شجاعا جلدا، قويا ذكيا. أدهى من رئى من العرب له أقوال مأثورة وحكم. عندما وصل إلى مكة خطب حبى إبنة حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي[٣١]. وكان أمر مكة بيد حليل، من حكم وحجابة البيت[٣٢]. ولما مات حليل ورثه ابنه المحترش وهو أبو غبشان. وكانت العرب تدفع إلى حليل جعلا عند دخولهم مكة في كل موسم ولكنهم امتنعوا عن دفع الضريبة لأبي غبشان فغضب لذلك قصي واحتال على أبي غبشان، واشترى ولاية البيت بزق خمر وقعود وجرى المثل بهذه الصفقة الخاسرة، فقالوا: (أخسر من صفقة أبي غبشان) وبذلك حاز قصي ولاية البيت ومفتاح الكعبة[٣٣]. ونعتقد أن قصيا أظهر لأبي غبشان الغضب لامتناع الناس عن دفع الضريبة وأقنعه أن في امتناعهم هذا تمرد على أبي غبشان واهانة له. وأن قصيا سيعيد الأمر إلى نصابه.

وهكذا تولى قصي أمر مكة وولاية البيت، والحكم، وأقر النسأة على ما هم عليه في نسأ الشهور، وأقر آل صفوان، وال عدوان على ماهم. وجمع قريشا وأدخلهم إلى بطحاء مكة. وقد كانت خالية واختط مكة رباعا بين قومه وبنى داره بالأبطح، وهي دارالندوة. دخلت قريش كلها إلى الأبطح وسكنت به، ما عدا بني محارب، وبني الحارث ابني فهر، وتيم بن غالب وهو الأدرم، وبني عامر بن لؤي فقد نزلوا خارج الأبطح وهم قريش الظواهر. ودخل رهط أبي عبيدة عامر بن الجراح مع قريش فسكنوا الأبطح.

---

٢٩ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٣٣، ١٣٤، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٨، العطار، المرجع السابق ص١٤٤، ١٤٥، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٤٢، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٢، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٦٥/٦٧.

٣٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٣٨٩.

٣١ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٢٨، ١٢٩ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٦٧، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٩، العصامي، المرجع السابق ص ٧٢،

٣٢ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١/١٢٨.

٣٣ ــ ابن سعد، نفس المرجع جـ١/٦٧،٦٨، اليعقوبي، نفس المرجع جـ١/٢٣٩، العسكري، المرجع السابق ص ١٧، ابن حزم، المرجع السابق ص ٢٣٦ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٤٨، ١٤٩، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٧٠١، القلقشندي، المرجع السابق ص ٣٩٩، ٤٠٠.

وبذلك جمع قصي قريشا وشاد لها مجدها، وأعلى من شأنها، وقسم الوظائف بين ساداتها، وجدد بناء الكعبة، حيث كان طول جدرانها تسعة أذرع فزادها وجعلها ثمانية عشر ذراعا. واتخذ لها سقفا من خشب الدوم وفروع الشجر. وأعاد الحجر الأسود إلى الحرم لأن خزاعة خبأته وأخفته عند خروجها من مكة. وهو أول من حفر بئرا بمكة بعد اسماعيل عليه السلام وأسماها بئر العجول، وهي التي في دار أم هاني بنت أبي طالب. وأصبح قصي زعيم مكة، أمره مطاع ومتبع، ودار الندوة منزله وهي مقر الحكم الذي تبرم فيه جميع أمور المدينة من مشورة وعقد لواء الحرب، وعقود النكاح وتدريع الجارية، وعذر الغلمان كذلك خروج عير قريش وقدومها اليها. وكانت إلى قصي الحجابة، والسقاية، والرفادة. وقد أعاد فرض رسم دخول مكة فكان يعشر كل من يدخلها من غير أهلها[٣٤].

وقد أحدث قصي أمورا عدة منها ايقاد النار بالمزدلفة حين الوقوف بها، ليراها كل من دفع من عرفة عند (النفرة) ودام اشعال هذه النار في الجاهلية، وفي صدر الإسلام في عهد النبي والخلفاء الراشدين[٣٥]. ومما استحدثة قصي أيضا الرفادة[٣٦].

وكان لقصي من البنين عبد العزى، وعبد مناف، وعبد الدار، وعبد قصي[٣٧]. ويذكرون أن أصل مال قصي قد جاءه عن طريق الحيلة أيضا حيث زار مكة تاجر من عظماء الحبشة باع تجارته، وأخذ أمواله منصرفا إلى بلده، فتبعه قصي وقتله في الطريق ثم أخذ ماله[٣٨]. وأصاب ابنه عبد مناف شرفا ومجدا في حياة أبيه، ولذا عندما أسن قصي، ودنا أجله أوصى لابنه عبد الدار بالحجابة لأنه أكبر بنيه وليزيده شرفا، وجعل لعبد مناف السقاية والرفادة، ولعبد العزى دار الندوة، ولعبد قصي اللواء[٣٩].

---

٣٤ ــ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٠، اليعقوبي، نفس المرجع جـ١/٢٤٠، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٣٤، ١٣٥، العطار، المرجع السابق ص١٤٩، ١٥٠، الألوسي، المرجع السابق جـ٢/٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٤، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٠٩، العسكري، المرجع السابق ص ١٨.

٣٥ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٢٨، ابن سعد، المرجع، السابق جـ١/٧٢.

٣٦ ــ الرفادة هي اطعام الحاج في موسم الحج عن طريق جمع المال من جميع قريش، أنظر ابن سعد، نفس المرجع جـ١/٧٣، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١١٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٥.

٣٧ ــ ابن هشام، المرجع نفسه جـ١/١١٧، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٢٧، العصامي، المرجع السابق ص ١٥٩، ابن حبيب، المنمق ص ١٨، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١١.

٣٨ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٨، القلقشندي، المرجع السابق ص ٣٩٩.

٣٩ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٩١.

وفي رواية أخرى أن قصيا خص عبد الدار بكل ما كان بيده من حجابة وسقاية ورفادة، والندوة، ولواء الحرب[٤٠]. ولكن أبناء قصي ثاروا لذلك وكادت أن تقوم الحرب بينهم. ثم اتفقوا على اقتسام ارث أبيهم فتوزع على كل بطن منهم[٤١]. وتولى قصي بنفسه جميع أمور مكة بمساعدة أعوانه من سادة قريش. بما يشابه النظام الجمهوري الحديث[٤٢]. فكان قصي زعيم جمهورية الملأ القرشي في مكة.

وتحتاج الرفادة مالا كافيا، لتأمين المواد الغذائية لضيافة الحجاج. فلذلك فرض قصي دفع ضريبة (غير محددة ـ بل مفتوحة) على جميع البطون القرشية لتأمين الطعام الكافي في موسم الحج[٤٣].

وقد أذهل هذا المثال البطولي المدهش ـ المتمثل في أعمال قصي وشخصيته ـ بعض المستشرقين وشككهم في تلك البطولة واعتبروها شخصية خيالية من نسج الخيال العربي السادر في أمثال هذه البطولات الخرافية[٤٤].

وكان قصي أول زعيم قرشي مطاع لم ينافسه أحد من قريش على ما حاز من سلطة وشرف وزعامة. ودانت قريش له في هدوء وطاعة تامة. فلما أسن قصي وناء بحمل مسؤوليات حكومة مكة، فوض ابنه الأكبر عبد الدار بالقيام بوظائف الحكومة القرشية والتزاماتها[٤٥]. وقد أتضح أن قصيا هدف بعمله ذلك إلى اعلاء شأن عبد الدار، بأن يعادل بينه وبين أخيه عبد مناف. ودام أمرهم على ماتركهم قصي إلى أن قام بنو عبد مناف بثورة صغيرة كادت أن تؤدي إلى حرب بين بني قصي جميعهم، ولكنهم عقدوا حلف المطيبين واتفقوا على توزيع المناصب، والوظائف بينهم. فتركوا لعبد الدار وبنيه الندوة، والحجابة واللواء. وحاز عبد مناف وبنوه السقاية والرفادة. ثم ظهر من بني عبد مناف أبناه هاشم، وعبد شمس اللذان حازا رئاسة بني عبد مناف[٤٦].

---

٤٠ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٣٩، ١٤٠، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١١٠.
٤١ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٣٠.
٤٢ ـ عبد الجبار، نفس المرجع ص ١٥١.
٤٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٢/١٨٤، ١٨٥، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٥، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٣، ١٤، NARAYAN, OP. CIT. P. 16-17.
٤٤ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٠٣، ٤٠٣، وجودى، المرجع السابق جـ٩/٣٢٦.
٤٥ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٤، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٣٩، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٠٩، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣٣٦.
٤٦ ـ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٧، العصامي، المرجع السابق ص ١٨٨. ١٨٩، ابن هشام، نفس المرجع جـ١/١٤٠، ١٤٢.

وكان زعيم بني عبد مناف ابنه عبد شمس لأنه أسنهم وأمرهم اليه. وكان عامر بن هاشم زعيم بني عبد الدار وأمرهم اليه[٤٧].

وأما أعضاء الحزبين القرشيين في مكة بعد حلف المطيبين فهم:

أولا : أعضاء حزب بن عبد مناف بن قصي وهم: بنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر.

ثانيا : أعضاء حزب بني عبد الدار بن قصي هم: بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب.

وبقي بنو عامر بن لؤى وبنو محارب بن فهر على الحياد. حيث لم ينضما إلى أي من الحزبين. وقام الحزبان بممارسة بعض الطقوس التي يمارسها العرب عادة عند التحالف[٤٨].

وبعد موت عبد مناف بن قصي وقع انقسام جديد داخل هذا البطن من بني عبد مناف. وتزعم هذا الأنقسام عبد شمس وهاشم. فتكتل كل منهم إلى حزبه عبد شمس وبنوه معهم نوفل أحلاف لهم. وهاشم وبنوه ومعه بنو المطلب بن عبد مبناف أحلاف لهم[٤٩]. بزعامة هاتين الشخصيتين الطموحتين إلى الزعامة قام الحزب الهاشمي، وحزب عبد شمس وهو الحزب الأموي فيما بعد. ورغم هذا الانقسام الداخلي في البطن الواحد الا أنهما حافظا على الانضواء تحت حلف المطيبين. وقد وقع هذا الانقسام حوالي مطلع القرن السادس الميلادي[٥٠].

وأما كيف تسنى لهاشم بن عبد مناف الفوز على أخيه عبد شمس والتفرد بأمر مكة رغم اصرار عبد شمس على منافسة هاشم ومزاحمته فذلك لأن التجارة شغلت عبد شمس. وغلبت عليه فأخذت كل وقته الذي أمضاه في السفر إلى خارج مكة، اضافة إلى أن عبد شمس أقل ثراء من هاشم، ولكنه أكثر حنكة وذكاء. مما حقق له الثراء والجاه في منصبه ونفوذه. خاصة وأنه قام بعمل فاضل جليل أثر المجاعة التي ألمت بمكة في عهده، حيث ارتحل إلى فلسطين واشترى دقيقا ولما عاد إلى مكة نحر الجزر وأمر بصنع

---

٤٧ ــ ابن هشام، المرجع السابق والجزء ص ١٤١.

٤٨ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥٥، ٥٦، ابن هشام، نفس المرجع والجزء ص ١٤١، بن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٧، العصامي، المرجع السابق ص ١٦٣، ابن حبيب، المحبر ص ١٦٦، ١٦٧، المنمق ص ٤٢، وما بعدها ص ٢٢٠، ٢٢١.

٤٩ ــ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٧، نافع، المرجع السابق ص ١٤٩.

٥٠ ــ ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٩.

الدقيق خبزا ثم هشمه وثرده لقومه مع اللحم، فلذلك سمي بهاشم[٥١].

ونظر في أمر التجارة فنظمها في رحلات جماعية تخرج فيها قريش في أوقات دورية معلومة. وبذلك نظم اقتصاد مكة المتمثل في تجارتها. فرفع مستوى قريش المادي. وباشر هاشم انفاذ الخطة بنفسه فاستن الرحلتين - رحلة الشتاء والصيف وخرج إلى الشام وعقد الايلاف التجاري مع قيصر الروم وعندما حصل على كتاب الأمان من هذا القيصر رجع يأخذ الأمان من جميع أحياء العرب[٥٢]. وبعث - اخوته إلى جهات مختلفة - عبد شمس الى الحبشة، ونوفلا الى بلاد فارس والعراق، والمطلب الى اليمن. فأخذوا العصم وهو (الايلاف) من ملوك هذه البلاد[٥٣]. وبذلك أمن هاشم لقريش تجارتها التي درت عليها الأرباح والأموال الطائلة. فنعموا بالثراء والرفاهية.

واقتسم بنو عبد شمس زعامة المنافيين مع بني هاشم. ولكن ظل التنافس كامنا الى أن قامت المنافرة بين أمية بن عبد شمس وعمه هاشم بن عبد مناف. وذلك عندما حاول أمية تقليد صنائع هاشم، ولكنه فشل وعجز عن ذلك. فنافر هاشم وتفاخر عليه. وقد عالج هاشم الأمر بحكمته وسنه وجلال قدره وعطفه على ابن أخيه فأنهى المنافرة الكاهن الخزاعي بأن جعلوا بينهما خمسين ناقة. ولما فاز هاشم نحر النوق. وقضي على أمية بالنفي لمدة عشرة أعوام أمضاها في بلاد الشام[٥٤].

وأدى هذا الأنقسام والتنافس بين البيتين إلى احترابهما في الفجار يوم شمطة[٥٥] وقد توقع الناس جريان الدماء بينهما منذ مولد الأخوين التوأم هاشم وعبد شمس حيث ولد عبد شمس وأصبع هاشم ملتصق بجبينه. ولما أزيل سال الدم[٥٦].

وبعد موت هاشم تولى السقاية والرفادة أخوه المطلب بن عبد مناف[٥٧]. وكان

---

٥١ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٠، البلاذري المرجع السابق جـ١/٥٩، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٠.

٥٢ ــ كحالة، معجم العرب جـ٣/١٢٠٧.

٥٣ ــ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٧.

٥٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٠، ١٨١، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٦٠، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٦، ابن الأثير، الكامل جـ٢/١٠.

٥٥ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٢/٧٢٤.

٥٦ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٠.

٥٧ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٤٦، الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٢.

المطلب يسمى الفيض لسماحته وكرمه[٥٨]. ثم مالبث المطلب أن مات بردمان[٥٩]. فتولى مكانه عبد المطلب بن هاشم وهو شيبة الحمد[٦٠]، الذي ولد حوالي سنة ٤٩٧م تقريبا وتولى أمور مكة لمدة نصف قرن تقريبا من ٥٢٠-٥٧٩[٦١]. فتولى جميع أمور مكة والرفادة والسقاية معها[٦٢] وصار من أشراف مكة وشيوخها العميان[٦٣].

وقد أنجب هاشم ابنه عبد المطلب في المدينة من سلمى بنت عمرو من بني النجار واحتضنت سلمى ابنها حتى كبر ثم ذهب اليها عمه المطلب وعاد به إلى مكة، فدخلها المطلب وشيبة مترادفين على بعير. فقال القوم هذا عبد المطلب يقصدون شيبة. وهكذا اشتهر بهذا الاسم[٦٤].

ثم سلم المطلب أرض من أملاك هاشم إلى ابنه شيبة (عبد المطب) فوقع خلاف بين عبد المطلب وعمه نوفل على الأرض. واستنصر عبد المطلب بأخواله من بني النجار على عمه نوفل. فهبوا لنصرته. ولكن نوفلا أعاد الأرض إلى عبد المطلب، فعرفت الحادثة بقصة الأركاح[٦٥]. وما وقع بسببها بين العم وابن أخيه وكانت أيضا سببا لبداية حلف سياسي كبير، شق قريش الى كتلتين أو حزبين[٦٦]. اضافة الى ذلك كان لعبد المطلب ماء بالطائف يسمى (ذو الهرم) وقد استرجعه من ثقيف[٦٧].

ولعبد المطلب من الصفات الشخصية، والمآثر العلمية ما جعله أهلا للزعامة والسيادة وقد وصف بجمال الصورة وقوة الشخصية فكان له جمال الطلعة وهيبتها[٦٨].

---

٥٨ ـ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ١/١٥٨، نافع، المرجع السابق ص ١٤٣.
٥٩ ـ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٨٣.
٦٠ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٦، السدوسي، المرجع السابق ص ٤.
٦١ ـ سيديو، المرجع السابق ص ٥١.
٦٢ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٥١، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٧٩.
٦٣ ـ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٤٦، ابن حبيب، المنمق ص ٥٠٩.
٦٤ ـ ابن هشام، المرجع السابق، جـ١/١٤٦، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٨، ٧٩، الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٦، ١٧٧، القرطبي، المرجع السابق جـ٢/١٥، المقدسي، المرجع السابق جـ٤/١١٢، ابن حزم، المرجع السابق ص ١٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٧، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٦.
٦٥ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٨٤، ومابعدها والركح الفناء أنظر ابن الأثير، الكامل جـ٢/٦.
٦٦ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٧، ١٧٨، ابن حبيب، المنمق، ص٨٤.
٦٧ ـ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٨٧، ٨٨، ابن حبيب، المنمق ص ٩٨.
٦٨ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣١٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٦٩.

وكان كريما جوادا حتى سمي الفياض (ومطعم طير السماء) أو (مطعم الطير) حيث يجعل جزء من طعام مائدته في أعالي الجبال للطيور والوحوش[٦٩]. وما ذلك الا لسمو في سلوكه وفكره، فقد عاش في مجتمع راق غني، مرفه، بعيد عن أدران الفقر والحاجة. وله أحاسيس مرهفة بنفس واعية باحتياجات كل من حولها.

واعتاد عبد المطلب على الجلوس في ظل الكعبة على مفرش خاص به لا يجلس معه غيره ومن حوله الندى من قريش وبنيه، وعبيده. فلم يطأ ذلك البساط الذي يفترشه عبد المطلب الا حفيده محمد بن عبدالله[٧٠]. وهذه عادة أهل مكة منذ القدم الى يومنا الحاضر حيث يجلسون في الحرم المكي حول الكعبة يتدارسون القرآن والحديث، وكذلك يبرمون عقود الأنكحة وغيرها للتبرك. ومن أهم مآثر عبد المطلب التي طابقت القرآن والسنة النهي عن الظلم، والبغي، والحث على مكارم الأخلاق، وتحريم الخمر. وقد حرمها على نفسه، واقامة الحد على السارق بقطع يده، واجتناب الزنا والنهي عن قتل المؤودة، والامتناع عن نكاح المحارم والوفاء بالنذر، ثم أجل أعماله أنه منع التعري في الطواف[٧١]. وكلها أعمال جليلة تدل على رقي المجتمع وتقدمه في هذه الفترة.

وكان عبد المطلب من المتحنثين الحنفاء حتى قيل (أنه كان مؤمنا موحدا)[٧٢].

وهو أول من خضب بالسواد من قريش فقد صبغ شعره بالحناء السوداء اليمنية[٧٣]. وبذلك استن أهل مكة عادة الخضاب بعد عبد المطلب[٧٤].

وله من الولد عشرة رجال وقيل اثني عشر، وست نسوة (بنات) ولكن ربما ذكروا أحدا من الأحفاد ضمن الأولاد.. وهم الحارث والزبير وكان شاعرا وشريفا، وأبو طالب واسمه عبد مناف، وعبد الكعبة، والعباس، وحمزة، والمقوم، وحجلا، واسمه المغيرة ويكنى بالغيداق أيضا. وضرار، وقثم، وأبو لهب واسمه عبد العزى وعبد الله. والبنات

---

٦٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٧٤، جـ٥/٦٤٩.

٧٠ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣١٥، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/١١٨، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٧٤.

٧١ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٤٩.

٧٢ ـ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٠٨، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٨١ طه حسين، المرجع السابق ص ١٧٨.

٧٣ ـ العسكري، المرجع السابق ص ٢٥.

٧٤ ـ ابن سعد، نفس المرجع جـ١/٨٦، ابن حبيب المنمق ص ١٢٣.

هن أم حكيم وهي البيضاء، وعاتكة، وبرة وأميمة، وأروى وصفية[٧٥].

وأعظم أعمال عبد المطلب الخالدة اعادة مياه زمزم إلى جريانها باحتفار البئر المباركة التي طمرتها جرهم كما عرفناه. وهنالك العديد من الروايات التي أفاض في ذكرها الكتاب المسلمون. واعتبروا الأمر بحفرها من باب النبوءة، وأن عبد المطلب قد أمر بحفرها واعادة مياهها في منامه بوحي الهي، وقد حدد له موقعها الذي هو (بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل)[٧٦]. والمرجح أن عبد المطلب جمع المعلومات عن زمزم وموقعها من كبار القوم ذوي الأسنان والمعرفة. واهتدى إلى موقعها الصحيح فشرع في عملية الحفر إلى أن أتمها واستخرج ماء زمزم[٧٧] وأقام السقاية في حياض الأدم حول بئر زمزم المبارك.

وقد ذكر أنه لم يكن لعبد المطلب حيئذ سوى ابنه البكر (الحارث) والذي شارك أباه وساعده في حفر البئر. وقد لقيا المكاره والصعاب في الحفر. ولم يستعن عبد المطلب بأحد من قريش غير ابنه الحارث[٧٨]. وهذا غير مقبول منطقيا فعبد المطلب لم يكن فردا عاديا من سواء الناس، بل كان زعيم قريش وسيدها المبجل[٧٩]، وسادن الكعبة فهل من الممكن أن يحدث ذلك، وتمتنع قريش عن مساعدته، وتعارضه على حفر البئر ولكن الأحرى أنهم عارضوه مبدئيا ثم قام بمعاونته في الحفر بنو جلدته أي بعض آل عبد المطلب على الأقل. والى أن تم له ما أراد وظهر ماء زمزم. واستخرج الثروات المطمورة من كنوز الكعبة وذخائرها، والمقبول عقليا أن بعض قريش أو الحزب الثاني منها هو الذي امتنع عن مساعدة عبد المطلب وأيضا قاموا بمطالبة النصف في هذه البئر[٨٠].
وذلك لأن قريشا كانت تنقسم داخليا إلى حزبين كبيرين ودليلنا على ذلك ما قاله مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وهو من أفراد الحزب الثاني ويرد بقوله هذا على افتخار بني عبد مناف، ويذكرهم أنهم في الشرف متساوون وفضل الواحد منهم يعد فضلا للآخرين:

---

٧٥ ــ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٩٢، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٧٩، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١١٩، القلقشندي، المرجع السابق ص ٣٤١، السدوسي، المرجع السابق ص ٤، ٥، ابن حزم، المرجع السابق ص ١٤.

٧٦ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٥١، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٧، ٨.

٧٧ ــ حوالي سنة ٥٤٠م أنظر سيديو، المرجع السابق ص ٤٤.

٧٨ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٥١، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٧، ٨

٧٩ ــ SIDDIQUI, OP. CIT., P.4

٨٠ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١/١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢٨.

ورثـنـا المـجـد من آبـائـنـا فـنـمـى بـنـا صعـدا
ألم نسـقـي الحـجـيج ونـنحـر الـدلافـنـة الـرفـدا[٨١]

ومن أجل ما لقي عبد المطلب في حفر بئر زمزم من اعتراض وصعاب وعنت شديد في الحفر بالمعاول اليدوية مما استنزف منه جهدا كبيرا، وبالبصيرة النافذة الثاقبة قدر خيرات هذه البئر وما ستجلبه من فائدة عميمة لأهل مكة وزوار البيت العتيق فقد نذر ذلك النذر المعروف وهو أن يقرب أحد أبنائه إذا اكتمل عقدهم العشرة أولاد. وتوالد له البنون حتى عدوا عشرة شباب، فقرر الوفاء بنذره والتضحية بأصغر أبنائه حينئذ عبد الله بن عبد المطلب قربانا للآلهة ووفاء بالنذر[٨٢]. ولكن قريش عارضته ومنعته من قطف زهـرة من زهـرات قريش وشبابها، وتشاوروا في أمرهم فقرروا استشارة احدى كاهنـات العرب. وعمل عبد المطلب برأيهم، وجعل يضرب بالقداح حتى رضيت الآلهة بمائة من الابل دية مذبوحة فداء لعبد الله[٨٣]. وهكذا يكون عبد المطلب أول من حدد الدية بمائة من الابل[٨٤].

ونجا عبد الله من الموت بذبح تلك الابل وهبتها للفقراء والضعفاء المحتاجين لا يمنع منها انسان ولا حيوان ولا طير السماء[٨٥].

وبعـد أن استخـرج عبـد المـطلب كنوز الكعبة المطمورة، فاستخرج الماء وأموال الكعبة. ثم ضرب من السيوف القلعية بابا للكعبة المعظمة جعل له صفائح ذهبية من أحد الغزالين وحفظ الغزال الآخر في الكعبة[٨٦].

وقام عبد المطلب بزيارة رسمية ومعه وفد قريش إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن بعودة الملك اليه. فاستقبله سيف قائلا مرحبا وأهلا وهـو أول مـن قالهـا للترحيب بعبد المطلب[٨٧].

---

٨١ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١/١٥٧.
٨٢ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٢، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٧٦.
٨٣ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٢، ١٧٩، المقدسي، المرجع السابق جـ٤/١١٣، ١١٤، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٨٣، ٨٤، ٨٨، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٧٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٧٥، ٧٨، NARAYAN, OP. CIT., P. 17
٨٤ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٢٣.
٨٥ ــ مهـران، دراسـات في تاريخ العرب القديم ص ٤١٣، طه حسين، المرجع السابق ص ١٨٣، ص ١٩٦، ١٩٧.
٨٦ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٠٣، ١٠٤، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٨.
٨٧ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٦٨، ابن سعد، نفس المرجع جـ١/٨٦.

وأهم حدث في عهد عبد المطلب لقاءه السياسي مع أبرهة الحبشي عندما قدم إلى مكة قاصدا غزوها وتخريب الكعبة وهدمها، فأتى بحملته هذه مصحوبا بالفيل عام ٥٧٠[٨٨] كما سنفصله في موضعه.

ولما أسن عبد المطلب أوصى بارثه والسدانة إلى ابنه الزبير، ولكن الزبير دفعها إلى أخيه أبي طالب، وهو عبد مناف. وبعد ذلك أوصى بها أبو طالب إلى العباس بن عبد المطلب[٨٩]. ومات عبد المطلب وله من العمر اثنان وثمانين عام[٩٠] بين ٥٧٨ - ٥٨٠م بحساب مولد النبي ﷺ.

وقد برز لعبد المطلب بن هاشم منافس جديد من بني عبد شمس، وهو حرب بن أميه حتى صارا زعيمي مكة. وغيرهما كثير من الرؤساء في قريش من ذوي الشرف والمكانة والقدر العالي والحكمة ولكنهم قدموا عبد المطلب في جميع أمورهم وهو المتولي زعامة حكومة الملأ من قريش وأهم المناصب من سدانة البيت وسقاية ورفادة. وفي ذلك الحين كانت أمور مكة مستتبة. وأحوالها الاقتصادية مبتعشة. ولزهد في طبيعته لم يهتم كثيرا بالأموال وأمور التجارة. فهو رجل عملي. ولذا فقد أتى عملا جليلا لمكة بأسرها. ولأهلها وغيرهم من آمي البلد للحج. فاستقوا من بئر زمزم واستغنوا عن جلب الماء من الآبار الأخرى في حياض الأدم[٩١]. وبذلك تحسنت موارد الوادي المائية وخف عناء ومشقة السقاية التي كلفتهم الجهد الكبير والوقت الطويل.

ورغم أن حرب بن أمية نافس عبد المطلب ولكنه لم يعمل على انتزاع الزعامة منه وخاصة الزعامة الروحية (الدينية) والزعامة النسياسية كذلك. بل مارسهما معا ومما يؤكد زعامته السياسية مقابلته لأبرهة عام الفيل بالنيابة عن سادة مكة وزعمائها الآخرين أمثال حرب وغيره من السادات الأثرياء. وكان لعبد المطلب الجاه والنفوذ على قريش[٩٢].

ثم بعد موت عبد المطلب قام حرب بن أمية ببعض أمور مكة إلى أن مات حرب. فتفرقت مناصب حكومة مكة في بني عبد مناف وغيرهم من قريش وقد ظهر منهم العديد من ذوي الرياسة والمكارم[٩٣].

---

٨٨ ـ الألوسي، المرجع السابق ص ٥١.
٨٩ ـ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٨٦.
٩٠ ـ RODINSON, OP. CIT., P. 46
٩١ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٣.
٩٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٧٨.
٩٣ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٤١١، ٤١٢.

وقد تبوأ أبو طالب بن عبد المطلب مكانة أبيه . فقام بأمر السدانة والسقاية والرفادة . ثم الوصاية على محمد بن عبد الله . وزعامة آل عبد المطلب . وكان سيدا مطاعا فيهم وشاعر[٩٤] . ومن نسله بنو طالب (الطالبيون) وهم طالب وعقيل وجعفر وعلي . وكان الفرق بين كل منهم عشر سنوات فالأكبر منهم أسن من تاليه بعشر سنوات .[٩٥]

وكان أبو طالب فقير الحال، قليل المال وقد زاول التجارة[٩٦] . ولكنه لم يتمرس بها ولم يعطها كل الاهتمام لتعود عليه بالأرباح الطائلة كغيره من تجار مكة الأغنياء أو كأخيه عبد العزى بن عبد المطلب وهو (أبو لهب) الذي ذكر الله تعالى أمواله وثرواته قائلا : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾[٩٧] . ولم يربح أبو طالب من تجارته قط بل كان مملقا . وقد ذكر علي بن أبي طالب املاق أبيه مفتخرا بعظمة الأب الذي ساد قومه رغم الفقر . وكان لايجد المؤونة الكافية لعياله . ورغم ذلك اعتلى زعامة قريش الروحية بأخلاقه القويمة وسيرته الحسنة التي أكسبته المكانة العالية، والسمعة العطرة .

فذلك الفقر المادي لم يؤخره عن مكانته، ولم يؤثر عليه لدى قومه . والراجح أن ذلك الفقر ناجم عن زهد في الأموال والثروات، والانشغال بأمور السدانة وخدمة الحجيج . وأن التقدير المعنوي قد أغنى نفسه القانعة فرضي بالكفاف، والتقشف في العيش[٩٨] . وفي نظرنا أنه قنع بالسيادة المعنوية في عفة وقناعة .

ولذلك استدان أبو طالب مبلغا من المال من أخيه العباس بن عبد المطلب[٩٩] وقدره عشرة آلاف درهم ليتمكن من تغطية مصاريف السقاية والرفادة وأنفق المبلغ كاملا خلال الموسم الواحد . ولما حل الموسم الجديد في العام التالي . لجأ إلى أخيه العباس مرة أخرى لطلب المال الذي يحتاجه وقدره أربعة عشر ألفا وقيل بل خمسة عشر ألف درهم . فذكره العباس بالدين الأول والذي لم يسدده بعد، وأشترط عليه سداد المبلغين معا أو التنازل عن السقاية والرفادة .

وبحلول الموسم الثالث ازداد حال أبي طالب سوءًا . فأذعن للأمر وتنازل للعباس عن

---

٩٤ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ١٥ .

٩٥ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١ / ٨٠، القلقشندي، المرجع السابق ص ١٤٢ .

٩٦ ــ RODINSON, OP.CIT., P.46.

٩٧ ــ سورة المسد آية ١ ـ ٢ .

٩٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤ /٨٢، ١١٢ .

٩٩ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢ /١٤ .

السقاية والرفادة. وبذلك آلتا إلى العباس فتولاهما وقنع أبو طالب بالسدانة. ثم بقيت السقية لبني العباس بن عبد المطلب في الإسلام أيضا[١٠٠].

وكان للعباس كرم بالطائف، استفاد من زبيبه في السقاية التي كانوا ينبذون الزبيب في الماء ثم يسقى للحجاج. وكان يداين أهل الطائف على زبيبهم لنفس الغرض مما ييسر له الحصول على أكبر كمية من الزبيب[١٠١]. وقبل ذلك كان العباس رئيسا من رؤساء قريش. ومتوليا عمارة المسجد وهي المحافظة على آداب الجلوس فيه. والالتزام بالآداب العامة واحترام حرمة حرمهم المقدس[١٠٢]. ولذلك فقد نصب له مقطرة لتأديب المخطيء والجاهل منهم.

اضافة إلى ذلك فقد نال العباس حظا وافرا من الثراء حتى خصص جزءً من ماله لكسوة العاري من بني هاشم. وجفنة لاطعام جائعهم. وكان يحمي جاره. ويهب الهبات لهم من ماله عطاء كبير[١٠٣].

وقد آلت الرفادة إلى الحرث بن عامر من بني نوفل. وبقي لبني عبد الدار الحجابة والندوة. وتوالي عليها العديد منهم حتى كان آخرهم عثمان بن طلحة[١٠٤].

وبالنظر لتطورالمجتمع وتغيراته فقد فصلوا السدانة عن الحجابة. فصارت السدانة تعني القيام بجميع أمور البيت (الاشراف العام). واقتصرت الحجابة على القيام بفتح باب الكعبة والذي لا يفتح الا بأمر السادن[١٠٥].

وقد توارث بنو عبد الدار اللواء فلا يعقده في الحرب الا أحدهم وحفظوه لديهم. وحرصوا على الدفاع عنه في المعارك حتى الاستماتة منعا لسقوطه لأن نزول الراية يعني

---

١٠٠ ــ وكان آخر من تولاها منهم عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس حيث انتزع الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي السقاية لنفسه من عيسى بن علي وأقام مولاه زريق على أمر السقاية والرفادة ومما شجع المنصور على فعلته تلك أن بني العباس هؤلاء لم يتولوا أمر السقاية بأنفسهم بل تركوها لمواليهم. فارتأى المنصور أنه أولى بها منهم لأنه خليفة المسلمين، وامامهم وله أن يولي أمرها من شاء. أنظر البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥٧.

١٠١ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١١٤، SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 1

١٠٢ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/١٠٩، ١٠٠.

١٠٣ ــ والمقطرة خشبة ذات فتحات تشد فيها أرجل المسجونين (قيد) أنظر ابن حبيب، المنمق ص ٢٦، ٢٧.

١٠٤ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٢٦٥، ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٦.

١٠٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٢٤٨.

كارثة ونكسة للجميع[١٠٦] . وقد تولى أبو سفيان بن حرب بن أمية راية قريش (العقاب) بعد أن آل أمره إليه[١٠٧] . وقد اشتهر من بني أمية الأكبر ستة رجال لقبوا (بالأعياص) وستة لقبوا بالعنابس[١٠٨] .

وقد ظلت مآثر قريش ومكارمهم هذه مناطة قائمة على بني عبد مناف[١٠٩] ثم اقتضت الحاجة إلى توزيعها واستحداث مناصب ووظائف جديدة وزعها سادة قريش على البطون الأخرى لارضاء تطلعهم الى المشاركة في ادارة شؤون مكة الداخلية[١١٠] .

فتبوأ بنو تيم الأشناق وهي المغارم والديات . وآخر من تولاها منهم أبو بكر الصديق . ويقوم صاحب الأشناق بجمع المال من أهل مكة ليدفعوه في مغرم ، ودية من لا يتمكن ويعجز عن الدفع[١١١] .

وأعطيت القبة والأعنة لبني مخزوم . فالقبة مستودع السلاح والأعنة هي خيل قريش (أي أنهما مستودع الذخيرة وسلاح الفرسان والمشاة) . وتنصبان في الحرب فقط وآخر من تولاهما خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي[١١٢] . وهو البطل الذي لم يهزم قط وقد حارب في صفوف قريش يوم بدر وأحد ضد المسلمين . ثم أسلم واشتهر في معارك ما بعد الفتح . وقد دعاه النبي ﷺ بسيف الله المسلول . وذلك لأنه ملم بالحروب وأصولها . وكان في طباعه خشونة وشدة ، وعنفوان وشجاعة حتى وصف عمر بن الخطاب شدته قائلا : (أن سيف خالد فيه رهق)[١١٣] . وقد ألان الإسلام خشونة خالد . ولعل بطولته وشجاعته الحية في ضمير وتراث المسلمين أن ترفع اللوم عن بني قومه وتسد ثغرة ضعف رجال بني مخزوم . وقد توالد لخالد أربعون ولدا أقاموا بالشام وماتوا فيها[١١٤] . وأما مستودع ذخيرة قريش الدائم فهو في منزل عبد الله بن جدعان

---

١٠٦ ـ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤ / ٥٩ .

١٠٧ ـ ابن عبد ربه ، المرجع السابق جـ٣ / ٢٣٦ ، FAZL, AHMED, FIVE HEROSE OF ISLAM - KUTUB KHANA, INDIA P. 1

١٠٨ ـ ابن حزم ، المرجع السابق ص٧٨ ، ٧٩ ، ابن حبيب ، المنمق ص ١٦١ .

١٠٩ ـ ابن حبيب ، المحبر ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

١١٠ ـ الشريف ، دور الحجاز ص ١٦ ، عوض الله ، المرجع السابق ص ٥٩ .

١١١ ـ جواد علي ، نفس المرجع جـ٦٠٠ .

١١٢ ـ ابن عبد ربه ، المرجع السابق جـ٣ / ٢٣٦ ، الزبيري ، المرجع السابق ص ٢٣٠ .

١١٣ ـ العظم ، رفيق ، أشهر مشاهير الأسلام في الحروب السياسية ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م ص ١٤٧ ، فرج ، محمد ، شخصيات عسكرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٦م ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

١١٤ ـ ابن الأثير ، أسد الغابة جـ١ / ٢٣٨ ، جـ٣ / ١٥٥ ، الزبيري ، المرجع السابق ص ٣٠٠ .

التيمي[١١٥].

أما السفارة فكانت لبني عدي، بطن قرشي (وهي وزارة الخارجية حديثا)[١١٦]. وآخر من تولاها منهم عمر بن الخطاب الذي ولد بعد عام الفيل بثلاثة عشر سنة[١١٧]. أي حوالي سنة ٥٨٤م. وهو ثاني الخلفاء الراشدين اشتغل عمر أولا برعي غنم أبيه ثم عمل بالتجارة ولكنه لم يثر مثل غيره من أثرياء مكة. وقد اعتاض عن الغنى المادي بالمنزلة الرفيعة فهو الشديد القوي، العزيز الجانب دائما[١١٨]. وكان ذو عبقرية وفراسة ومهابة ومنصف عادل[١١٩]. وكان يذهب سفيرا بين قريش وغيرها. ومهمته أن يتفاوض مع الآخرين في حالة الحرب لتجنب وقوعها مثلا. كذلك يحكم في المنافرات والمفاخرات التي تقوم بين قريش وغيرها ويرتضي الجميع بحكمه.

وقد كانت الأيسار وهي الأزلام الى بني جمح وتولاها صفوان بن أمية[١٢٠] ويسمى سداد البطحاء. وكان من أفصح قريش وأحد المطعمين[١٢١].

وكانت الحكومة إلى بني سهم بطن قرشي[١٢٢]. وقد تكاثروا بمكة حتى كادوا أن يعدلوا بني عبد مناف ثم مات الكثير منهم[١٢٣]. ونزحت أحياء أخرى استقرت في مصر في مطلع العهد الإسلامي[١٢٤]. وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان وكانت الحكومة لهم[١٢٥] وآخر من تولاها الحرث بن قيس[١٢٦].

أما الندوة والحجابة فكانتا في يد عثمان بن طلحة من بني عبد الدار[١٢٧]. وقد ترأس

---

١١٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/ ٢٥٠.

١١٦ ــ AHMED, OP. CIT. P.1

١١٧ ــ ابن الأثير، اسد الغابة جـ٤/٥٢، ٥٣.

١١٨ ــ العظم، المرجع السابق ص ١٨٣، العقاد، عباس محمود، عبقرية عمر الطبعة السادسة، ١٩٦٠م القاهرة، ص ١٥، ١٧.

١١٩ ــ العقاد، عبقرية عمر ص ٢٥، ٢٧، ٣٦.

١٢٠ ــ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٧، الشريف، مكة والمدينة ص ١٢١.

١٢١ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٩٠.

١٢٢ ــ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٧.

١٢٣ ــ الزبيري، المرجع السابق ص ٤٠٠، ٤٠١.

١٢٤ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٢/ ٥٦٠.

١٢٥ ــ محمد فرج، المرجع السابق ص ٢١٧.

١٢٦ ــ ابن عبد ربه، نفس المرجع جـ٣/٢٤٧.

١٢٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٢٦٥.

المشورة في دار الندوة يزيد بن زمعة بن الأسود من بني أسد حيث كانوا لا يصدرون قرارا الا بعد موافقته[١٢٨]. فقد بلغ أرقي مراتب السيادة بحكمته وسداد رأيه، وعقله الرشيد فهو مستشار قريش. وله الحق في نقض رأيهم، والاعتراض على كل ما يخالف وجهة نظره. ثم أسلم واستشهد يوم الطائف[١٢٩].

وممن احتكمت قريش إليهم هاشم بن عبد مناف، وغيلان بن سلمة الثقفي وهو من حكام قيس، وله نظام معين. وأكثم بن صيفي من حكام العرب أيضا[١٣٠]. ونفيل بن عبد العزى كذلك من حكام قريش. وأسبقهم قصي بن كلاب الذي كانت أحكامه كالدين المتبع بينهم. وقد أقر الإسلام بعض أحكامهم تلك[١٣١]. وكان عبد المطلب بن هاشم من الحكام أيضا، وحرب بن أمية، والزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومي[١٣٢]. وهو العدل. وأبو سفيان بن حرب، والعلاء بن جارية الثقفي حليف بني زهرة، وقيس بن عدي[١٣٣]، الذي ضرب المثل بعزه وجاهه فقيل (كأنه في العز قيس بن عدي)[١٣٤] ومخرمة بن نوفل بن أهيب له علم واسع بأيام العرب ومن أعلم الناس بقريش خاصة والأنساب عامة واشتهر برواية الشعر[١٣٥] عمّر طويلا[١٣٦]. وحكم في منافرات قريش ومفاخراتها وشاركه هذه المهمة عقيل بن أبي طالب، وحويطب بن عبد العزى من بني عامر بن لؤى[١٣٧]. وكان لعقيل بن أبي طالب منهج مخالف عن زملائه حكام المنافرات حيث كان عقيل يعدد مساوىء الرجلين المنافرين، وأيهما قلت مساوئه قدمه على الثاني وقد كره الناس الاحتكام اليه لما في طريقته من اظهار للمساويء. وقد كان الحكام الآخرون يعددون المحاسن فيقدمون الأكثر مزايا[١٣٨]. وفي العرب عامة حكام كثيرون.

وكان معترف بقرارات أولئك الحكام في جميع الحالات لأن أحكامهم قانونية فهي

١٢٨ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ١٢١، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٢٤٨.
١٢٩ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٢٧١، ٤٧٢.
١٣٠ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ٦٨، ٧٠.
١٣١ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٢١٩.
١٣٢ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٨.
١٣٣ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٣٢، ١٣٣، المنمق ص ٤٥٩، ٤٦٠.
١٣٤ ــ محمد فرج، المرجع السابق ص ٢١٧.
١٣٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٦٥١.
١٣٦ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٤/٣٣٧.
١٣٧ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٨/٣٣١.
١٣٨ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٤٨٣، ٤٨٤، جواد علي، نفس المرجع جـ٨/٣٣٢.

مستنبطة من منطق العدالة والحق. فهي بمثابة قانون مدني سائد بينهم[١٣٩].

وقد ابتدعت قريش حلوان النفر ويعني الاقتراع بين رؤساء القوم عند الـ فتسلم القيادة لمن فاز بها بموجب تلك القرعة. وقد خرجت على العباس بر المطلب من بين بني هاشم يوم الفجار. ورغم صغر سنه فقد نصبوه قائدا عليهم[١٤٠]

وكان هذا ديدنهم منذ أيام قصي. الذي كان يعقد اللواء لمن سيتولى القيادة في الحرب[١٤١]. ولكن ما هو هدفهم من ذلك وهل قصدوا مفاجأة العدو بقائد ليس له خبرة به أم اخفاء للزعماء الكبار وابعادهم عن استهداف العدو وشره لعـ هو المقصود، وربما فعلوا ذلك لتداول الرئاسة فيما بينهم فلا تكون وقفا على واحـ الآخرين. وانما يشترك الجميع في القيادة والرئاسة ويستمتع كل منهم بدوره بممارسـ

وكان آخر من انتهت اليهم الزعامة عند ظهور الإسلام، وابان قيام الدعوة وأ- في مكة أي في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين أربعة نفر من مكة في تلك الفترة وهم عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، والأسود بن المطا أسد بن عبد العزى بن قصي، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم. وقيـ عدي السهمي[١٤٢]. فهؤلاء الأربعة هم سادة مكة وزعماؤها المقدمون دون غيره الذين قاموا بامساك أطراف الرداء الذي وضع محمد ﷺ في وسطه الحجر الأسود فـ إلى مكانه في الكعبة يوم أن جددت قريش بناء الكعبة. بعد أن اختلفوا على حمل الأسود لاعادته إلى موضعه في الكعبة. وقد أراد كل منهم أن يستأثر بهذا الشرف وكادوا أن يتحاربوا إلى أن احتكموا إلى المجهول ؛ أول داخل من باب الحرم وقـد بينهم محمد كما ذكرناه. وقد وقع ذلك قبل البعثة[١٤٣]. أي حوالي عام ٦٠٥م التأريخ من عام الفيل وبحساب عمر النبي ﷺ.

وانتهت قيادة الجيش إلى أبي سفيان بن حرب وهو صاحب عير قريش يوم معر وكان أبو سفيان سيدا ثريا من أكبر سادات مكة صاحب مال وجاه وحسب ونسـ الجميع طاعته تبعا لسنن الآباء والأجداد[١٤٤].

---

١٣٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٢٣٧.
١٤٠ ـ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٧.
١٤١ ـ عوض الله، المرجع السابق ص ٥٩.
١٤٢ ـ العصامي، المرجع السابق ص ١٦٧.
١٤٣ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠١.
١٤٤ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٤٩، ١١١.

ويوم مفاوضة الرسول خرج اليه أغلب زعماء مكة في ذلك العهد وهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة، وأبوسفيان بن حرب والنضر بن الحارث من بني عبد الدار وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبد الله بن أمية، والعاص بن وائل. ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان وأمية بن خلف[١٤٥].

فهولاء هم نخبة المجتمع وسادة مكة ابان العصر النبوي، وأعضاء مجلس الملأ. خرج هذا الوفد السياسي ليتفاوض مع محمد باسم أهل مكة من قريش. وكان أولئك كلهم سادة نبلاء، وأشراف قريش. ولكنها سيادة منضوية تحت لواء السيادة لقريش عامة ولمجلس الملأ خاصة. وللزعيم الأول المقدم فيهم. ولم يتطلع أحد هؤلاء إلى ملك أو رئاسة أو تفرد بشؤون الحكم الا ماكان من أمر عثمان بن الحويرث بن أسد الذي كان طموحا، وله تطلعات سياسية تهدف الى تكوين مملكة قرشية لنفسه فيكون هو ملكها المتوج وكان عثمان بن الحويرث من أظرف قريش وأعقلها، ولقبوه باسم البطريق[١٤٦] كما كان عالما بأحوال قريش ورجالها، وله فصاحة فهو من الهجائين أيضا. وكان من رؤساء قريش يوم حرب الفجار[١٤٧].

وقد ذهب عثمان بن الحويرث الى ابن جفنة عمرو بن أبي شمر ملك الشام[١٤٨] وعرض عليه أن تدين قريش له بالطاعة إذا ساعد عثمان ونصبه ملكا على قريش. وبهذا الاغراء نفذ ابن جفنة لعثمان رغبته. وذهب عثمان إلى مكة، وأخبر قريشا بالأمر. فثارت ثائرتهم على ابن جفنة وعثمان معا وانكروا عمله هذا. وذهب وفد منهم إلى بلاد الشام لمراجعة ابن جفنة في الأمر. وأوضحوا له أن عثمان بن الحويرث رجل سفية. وأعربوا له عن استنكارهم لفعل ابن جفنة وعن عدم اعتراف قريش بأي حق له بين العرب. وحددوا له موقفهم بأنهم أهل مكة، وأهل الكعبة. فقام ابن جفنة بطرد عثمان بن الحويرث اكراما لقريش[١٤٩].

ورغم فشل محاولة عثمان الا أنه لم ييأس. فقد كان واثقا في نفسه معتدا بها. فمن وجهة نظره أنه أحق بملك قرش من غيره من الزعماء المقدمين فيهم. فعاود الكرة عن

١٤٥ ــ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٢/٣٦.
١٤٦ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٢٥، الزبيري، المرجع السابق ص ٢٠٩، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/١٠٨.
١٤٧ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٩، ٩٤.
١٤٨ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٨٢.
١٤٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٧٨.

طريق قوة أكبر ودعم أشد فذهب إلى قيصر الروم وقدم له اغراءات كبيرة مقابل أن يساعده وينصبه ملكا على قريش، إذ أدرك ابن الحويرث حاجة الروم إليه وإلى متجرهم في مكة وفي جزيرة العرب عامة[١٥٠]. كما أعلن عثمان رفضه لعبادة الأوثان وأعتنق النصرانية.[١٥١] وقدم للقيصر طاعة قريش بل تبعية مكة كلها لبلاد الروم كما تبعت صنعاء لملك كسرى. وقد عمد بذلك الى زيادة حماس القيصر. ورغم تحذير ابن جفنة للقيصر من عثمان بن الحويرث الا ان عثمان نجح في خطته حيث خدع المترجم وتوصل إلى القيصر[١٥٢].

وتم كل شيء بل كتب له القيصر كتابا مختوما بالذهب في أسفله[١٥٣]. وحمله على بغلة سرجها موشى بالذهب أيضا وملكه وأرسله[١٥٤]. ورحل ابن الحويرث، فوفد على ابن جفنة. وألفى رجلين من قريش عنده هما أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، وأبو ذؤيب هشام بن شعبة أحد بني عامر بن لؤى. وكانا لدى ابن جفنة لغرض التجارة فأمر ابن الحويرث بسجنهما. وقد مات أبو ذؤيب، وافتدى سعيد بن العاص فخرج من السجن وقيل أن الذي افتداه عتبة بن ربيعة وقيل بل أبو أمية بن المغيرة وهشام بن المغيرة[١٥٥].

ثم واصل ابن الحويرث قاصدا مكة حتى أتاها، فدخل على القوم. ومهد لهم بذكر قيصر الروم، وما لهم في بلاده من أمان وتجارة دائمة. وأبلغ قريشا أن القيصر قد ملكه عليهم وأوضح لهم مكانته منهم، فهم بنو عمومته، وهو أحد قريش وليس غريبا عليهم. ولن يتكلفوا لذلك إلا ضريبة بسيطة تؤخذ من مؤنهم (الجراب من القرظ، والعكة من السمن والاهاب) ثم تجمع وتقدم إلى القيصر.

ولكنه احتاط لنفسه فاتخذ رداءا يقيه الفشل السابق فلجأ إلى التهديد والوعيد على لسان القيصر ليرهب قريش فتذعن له طائعة، والا فان القيصر سيمنع تجارتهم في بلاد الشام ويقطع صلاته بهم[١٥٦].

وكادت قريش أن تسلم لابن الحويرث، ويتم تتويجه ملكا، وتقدم له البيعة عشية

١٥٠ ـ ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٢٥، ابن حبيب، المنمق ص ١٧٩، ١٨٠.
١٥١ ـ البلاذري، المرجع السابق جـ١/ ٤٣٠.
١٥٢ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٤٢٥، ابن حبيب، المنمق ص ١٧٩.
١٥٣ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٤٣٠.
١٥٤ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٤٢٦.
١٥٥ ـ البلاذري، نفس المرجع جـ١/ ٤٣٠، ابن حبيب، المنمق ص ١٨٠، ١٨١.
١٥٦ ـ البلاذري، المرجع السابق جـ١/ ٤٣٠، ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٢٥، ٤٢٦.

يومهم ذاك، فاجتمعوا، وطافوا بالبيت ثم تأهبوا للمبايعة واعلانها، لولا أن شق الصفوف صوت قوي مدو، وعقل حكيم حاضر البديهة. فكر في الأمر ومحصه مستعرضا تاريخ مكة وتاريخ قريش فتوصل إلى قرار واضح وخطير أنقذ مكة وسيادة قريش. وأعلنه بين الجموع منهم. فذلك هو أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد الذي هو ابن عم عثمان بن الحويرث وصنوه. صاح الأسود معلنا (أن قريشا لقاحا لا تملك ولا تملك) فأقر القرشيون رأي أبي زمعة وصادقه الجميع على الفور وخرج عثمان من مكة عائدا إلى القيصر مرة أخرى[١٥٧].

ولعل من أسباب عدم البيعة لعثمان هو خوف قريش على علاقتهم التجارية مع الفرس أيضا. إذ أن تبعيتهم للروم تعني خروجهم عن الحياد بين الدولتين العظميين (الروم والفرس) وفي ذلك خسارة كبيرة لتجارة قريش لا تعوض[١٥٨].

وقد ذهب تجار من قريش إلى ابن جفنة مرة أخرى طالبين منه أن يفسد ما بين القيصر وعثمان بن الحويرث. ونفذ ابن جفنة لهم مطلبهم فعلا وأوصى المترجم أن يذكر للقيصر أن عثمان بن الحويرث يشتم القيصر. وفعلا غضب القيصر على عثمان وأمر بطرده. ولكن عثمان أدرك أنها مكيدة مدبرة له فاحتال في ذلك الى أن تأكد. وشرح للقيصر ما حل به فاسترضاه. وكتب القيصر له كتاب الى ابن جفنة يأمر بسجن تجار قريش ومن أراد عثمان سجنه. فأنفذ ابن جفنة أمر القيصر. ولكنه دس السم لعثمان بن الحويرث، فمات بالشام. وتخلص منه الجميع[١٥٩] ولكن ثار بنو أسد واتهموا ابن جفنة بقتل عثمان. ورثا ورقة بن نوفل ابن عمه عثمان بأبيات شعرية[١٦٠]. ولعل ورقة كان مؤيدا لعمل ابن الحويرث.

ثم قامت الدعوة الإسلامية. فانشغلت قريش بأحداثها، ومحاربة النبي والإسلام[١٦١]. وبذلك يتضح أن حركة عثمان بن الحويرث السياسية الدينية قد قامت حوالي نهاية القرن السادس الميلادي قبيل ظهور الإسلام.

السيادة :

اعتمد المجتمع القرشي في مكة في نظامه على الوحدة القبلية. وهذا النظام القبلي

١٥٧ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٣٠، الزبيري، المرجع السابق ص ٢١٠.
١٥٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٤٠
١٥٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٨١، ١٨٢، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/ ١٠٩.
١٦٠ ــ الزبيري، المرجع السابق ص ٢١٠.
١٦١ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٣٠.

من سمات المجتمع العربي وخصائصه، الذي تميز به على مدى القرون التاريخية الطويلة في الجاهلية وصدر الإسلام[١٦٢]. فالقبيلة الكبيرة قوية وإذا ظهر منها سادة وشيوخ أقوياء لهم مآثرهم ومكانتهم ومقدرتهم، نالوا النفوذ وهابتهم القبائل الأخرى ودانت لهم وارتفع شأنها. واكتسبت النفوذ والسيادة.

ويطلق علماء النسب اسم قبيلة على جماعة كبيرة جدا من بطون، وأفخاذ وحينا آخر على عشائر وأرهاط.

وتكتسب القبيلة قوتها بتوفر عدة عوامل فالكثرة العددية، والموارد المادية والشيوخ الأكفاء[١٦٣]، والأرومة الأصيلة النسب من أهم تلك العوامل. وهكذا كانت قريش قبيلة كبيرة أي أنها كانت مجتمعا قبليا. يتكون من بطون وعشائر، وأرهاط لكل بطن منهم سيد وزعيم يقوم منهم مقام الرئيس والسيد المطاع.

والسيادة منزلة اجتماعية رفيعة قامت على اعتبارات وامتيازات شخصية أو مادية واجتماعية. فالسيادة لها مقومات وأسس تستند عليها حتى تمنح لصاحبها بتضافر تلك الأسس مجتمعة أو بالاعتماد على أحدها. وتتلخص تلك الأسس في مقومات وصفات شخصية تثبت مقدرة السيد وكفاءته وقابليته[١٦٤] لتحمل المهام العظام. فالسيد يتميز عن غيره بالعقل والحكمة أو هو الحكيم الذي لا يهتاج غضبا، أو هو الثري ذو الجاه والمال ويكون في ماله منفعة لغيره.

وينبثق ذلك من صفاته الخلقية ودماثتها وأهم الصفات سداد الرأي والشهامة والمروءة، وحسن التعامل، ومواقفه البطولية حينا، والأدبية أحيانا أخرى والتي يقوم بها تجاه مجتمعه سواء في نطاق أسرته أو خارجها مما يشكل عطاء واضحا فيكسبه الشهرة والتفوق، والمكانة الاجتماعية البارزة. والتقدير بين أفراد مجتمعه كشخصية لها ما يوجب الفخر، ويستدعي المدح حينا آخر.

وتقوم السيادة المادية على مركز السيد المالي ونفوذه التجاري وحجم ثروته الذي يقدر بالكم من الأموال والعبيد. وكان المجتمع المكي تجاريا ماديا برمته. وعليه اشتهر العديد من هؤلاء الأثرياء ل وكان منهم عدد كبير من ذوي الثراء الفاحش، وقد ذاع صيتهم بفضل مكرماتهم وكثرة جودهم المستمد من ثرواتهم الطائلة التي تحت أيديهم بدافع من

١٦٢ ــ الدوري، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ صدر الأسلام، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠م ص ٧٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٢٨١.

١٦٣ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/ ٣٣١، ٣٣٢.

١٦٤ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/ ٤٨.

الخلق العربي المشهور والمتحقق في الكرم والجود[١٦٥].

والسيادة الاجتماعية تعتمد على مكانة الأسرة في المجتمع، فالأسرة العريقة المشهورة أفرادها مبجلون مقدرون لمكانة الأسرة. فقد يعلي أحد الأفراد شأن أسرته كلها اذانال مالا وجاها مثلا أو حاز شرفا وسيادة بين ذويه. وقد يحدث العكس فيأتي أحد أفراد الأسرة بعمل مشين أو يرتكب جريرة تلحق به وبأسرته كلها العار والخزي ولكن النبل وكرم الأخلاق الحميدة والصفات السامية الحسنة، والسيرة القويمة والسمعة الطيبة ترقي أصحابها وتمنحهم السيادة[١٦٦].

وتوضح العديد من الألفاظ والكلمات العربية الواردة في كتب التراث تلك السيادة. ونجد منها (أشراف القوم)، أشراف قريش[١٦٧]، وهم السادة وكبار الناس ذوي البيوت والزعامة بين قومهم وهنالك أيضا (رحى القوم) وهو الرئيس المطاع والذي يمتثلون بأوامره[١٦٨]. ويقولون (جاء سيدنا - وأنت سيدنا، وهذا سيدنا) وفي الإسلام كره الرسول أن يقال له أنت سيد قريش[١٦٩] وقالوا: (وجهاء القوم) ووجوه قريش. ثم قالوا أيضا سراة القوم وعليتهم[١٧٠].

وعرف أبو سفيان سادة قريش ووجهائها (بخضراء قريش) في معرض حديثه مع النبي ﷺ عام الفتح[١٧١].

وهنالك ألقاب فردية مثل رب قريش وهو هشام بن المغيرة[١٧٢]، وسيد قريش وهو فيهم كثير. وهنالك العنابس من بني أمية وهم حرب، وأبو حرب وسفيان واسمه عنبسة، والأعياص وهم من بني أمية أيضا[١٧٣].

وأوساط الناس سموهم اللهازم. أما عامة قريش وأحلافهم فقد عرفوا باسم أوباش

---

١٦٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٩.

١٦٦ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ١٤، عوض الله، المرجع السابق ص ١٤٥.

١٦٧ ـ ابن بكار، المرجع السابق، ص ٤٧١، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٥٨.

١٦٨ ـ ابن منظور، المرجع السابق جـ٣/١١٤٥ مادة رحا.

١٦٩ ـ ابن منظور، نفس المرجع جـ٢/٢٣٥، مادة سود، جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٢٠٢ - ٢٠٣.

١٧٠ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٦٠.

١٧١ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٥٦٢.

١٧٢ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/١٨٨.

١٧٣ ـ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٢، ٣ والعنبس هو الأسد، نفس المرجع.

قريش[١٧٤]، وأذناب الناس[١٧٥].

أما شباب الأسر الثرية فقد عرفوا باسم الفتيان وهم (فتيان قريش)[١٧٧] ويراد بهم الشباب أو أهل الكرم والسخاء منهم[١٧٦].

وجاء الإسلام، والشرف في قريش متمثل في عشرة أبطن وهم: بنو هاشم وبنو أمية، وبنو نوفل، وبنو أسد، وبنو عبد الدار، وبنو تيم وبنو مخزوم، وبنو عدى، وبنو سهم وبنو جمح[١٧٨].

وأعطى هؤلاء السادة لمجتمعهم مقابل ذلك الكثير، والكثير من العطاء الثر في المجالات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. فقد خدموا المجتمع كله، وشاركوا في إيجاد الحلول لكل مشكلة من فض خصومات الأسر ومنازعاتهم إلى ما عظم وجسم من المشاكل على الصعيدين الداخلي والخارجي فغدوا وجوه الشعب وسادة الأسر[١٧٩].

واتصفت قريش عامة بخصائص وصفات ميزتها عن غيرها من عرب الجزيرة فقد تحدثوا عن حلم قريش ولين طباعهم، وكذلك عن مهارتهم في التجارة وعن الذوق الرفيع[١٨٠]

واشتهرت قريش بالكرم والجود، فهم أكرم العرب قاطبة، وهم أفصح عرب الجزيرة لسانا. وقد صفت لهجتهم عن غيرها من اللهجات العربية[١٨١]. وخير دليل على ذلك نزول القرآن بلغة أهل مكة. وكذلك كان الشعراء العرب يعرضون أشعارهم على قريش قبل قولها وإذاعتها في المواسم والاحتفالات[١٨٢].

وقد امتازوا بالعدل وانصاف المظلومين، واكرام الضيف، ومساعدة الغريب والمحتاج وخدموا الحجاج بعد أن كان سابقوهم يؤجرون الظلال ويبيعون الماء[١٨٣].

---

١٧٤ ــ إبن منظور، المرجع السابق جـ٣/٤٠٣، مادة لهزم نفس الجزء ص٨٦٩، مادة وبش.
١٧٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٦٠، ٥٦٣.
١٧٦ ــ إبن قيم الجوزية، شمس الدين عبد الله بن بكر، أخبار النساء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ص ١٢٢.
١٧٧ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٦٦٣.
١٧٨ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٧١.
١٧٩ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٤٨.
١٨٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٩٩.
١٨١ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٢٣، ٢٩، العطار، المرجع السابق ص ١٠٧.
١٨٢ ــ جواد علي، المرجع نفسه جـ٤/٢٠.
١٨٣ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٣.

وحتى صفاتهم الجسدية فقد تميز القرشيون ببعض الصفات وقد ضرب المثل (بجمال قريش) واشتهر العديد منهم بالجمال وحسن الوجه وبهاء الطلعة والهيئة.[١٨٤]

وعاشت قريش في بلدها مكة متعاونة متكاتفة في جميع أحوالهم الاجتماعية، والتجارية جابوا أنحاء الجزيرة للتجارة. فاستفادوا وأفادوا وقد اكتسبوا من رحلاتهم التجارية وأسفارهم كثيرا جدا، حيث اطعلوا على منابع الحضارة والثقافة في البلاد المختلفة ونهلوا منها، واختلطوا بغيرهم من الأمم. وتعلموا منهم، وأعطوهم مما عندهم وقد تعلموا الكتابة وأصولها من عرب الحيرة[١٨٥].

ومع كل هذه المميزات والصفات الفائقة فقد كان لقريش نقائصها ومن أقبح صفاتهم التي وصموا بها (عبية الجاهلية) فهي مذمتهم وخصصت لهم أيضا حتى قالوا (عبية قريش) وذلك لشدة كبرهم، وفخرهم بأنفسهم، وتفاخرهم بآبائهم وأحسابهم وأحوالهم[١٨٦].

ولكن رغم ذلك كانت قريش القبيلة المتميزة في جميع أحوالها، حتى اعتبرهم العرب سادة مضر وقادتها[١٨٧]. وكانت مهابة الجانب لها وزنها وكلمتها مسموعة بين العرب.

دار النـــــدوة :

قامت حكومة قريش في مكة على أيدي الملأ من قريش الذين انضووا تحت لواء دار الندوة منذ عهد مؤسسها قصي. الذي جعلها سكنا له ومقرا لإجتماعاتهم فهي دار مشورة لقريش[١٨٨]. تضم النخبة الواعية من حكماء القوم وعليتهم من ذوي السن والشرف والقدر فهي مجلس المدينة، ومجلس الملأ من قريش[١٨٩]. وهي بمثابة مجلس الشيوخ في أثينا (الأكليزيا EKKLESIA)[١٩٠] ودار الندوة هي برلمان قريش

---

١٨٤ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٢.
١٨٥ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٢٩، ابن دريد، المرجع السابق ص ٣٧٢، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٢٠، ٢٦.
١٨٦ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٢٩٢.
١٨٧ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٢٧.
١٨٨ ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٣٤٠.
١٨٩ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٤، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٠٩.
١٩٠ ــ الشريف، دور الحجاز، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٤٧، وجـ٥/٢٣٤.

حينذاك[١٩١]. وكانت هي الجمعية الوطنية لمكة كذلك[١٩٢]. وامتازت دار الندوة بأن أعضاءها كانوا أكثر عقلانية وأبعد عن التأثر بالانفعالات العاطفية حيث اشترط القرشيون السن الذي لا يقل عن الأربعين لجميع الأعضاء[١٩٣].

وقد انتشر ما يشبه هذا التنظيم السياسي في نجران والطائف وفي يثرب، وفي وادي القرى[١٩٤]. ففي يثرب وجدنا سقيفة بني ساعدة والتي كان لها نفس مهمة دار الندوة في مكة[١٩٥].

وكان المزود في ممالك جنوب الجزيرة العربية، فقد جعلوا لكل مدينة مزودا أو مسودا بحسب حاجات المدينة إلى ذلك وكان في صرواح عاصمة المكرب (عهرو) وهو شبيه بالمزود. واللذان يشبهان دار الندوة أيضا[١٩٦].

ولكن قصيا وبنيه جعلوا شروطا معينة لدخول دار الندوة منها أن الندوة مفتوحة لكل بني قصي. وأما من عداهم من عامة قريش فلا يدخلها الا من بلغ سن الأربعين عاما من عمره[١٩٧] واستثنوا من ذلك حكيم بن حزام الذي دخلها وهو ابن خمسة عشر عاما[١٩٨]. تيمنا به واعترافا ببركته لأن أمه قد ولدته في جوف الكعبة[١٩٩].

واستثنوا كل من ظهرت إرهاصات حكمته، وسداد رأيه ونبوغه العبقري قبل بلوغ السن المطلوبة ولذلك دخلها عمرو بن هشام (يكنى بأبي الحكم وكناه المسلمون بأبي جهل) وهو في ميعة الشباب حتى أن لحيته لم يكتمل نموها. وذلك لحكمته، وسداد رأيه فقد احتكم اليه العرب كثيرا في أمور مختلفة وقد قيل فيه: (عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن) أي أبو جهل.[٢٠٠]

---

١٩١ ـ NARAYAN, OP. CIT., P. 16

.HITTI, THE ORIGIN OF ISLAMIC STATE, P.80

١٩٢ ـ نافع، المرجع السابق ص ١٤٥.

١٩٣ ـ الشريف، دور الحجاز ص ١٩، عوض الله، المرجع السابق ص ٥٥.

١٩٤ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/١٣٦.

١٩٥ ـ الطبري، تاريخ جـ٣/٢٠٠، الشريف، مكة والمدينة ص ٣١٣.

١٩٦ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٢/١٠٩، ٣٩٠.

١٩٧ ـ العصامي، المرجع السابق ص ١٦٢.

١٩٨ ـ ابن بكار، المرجع السابق ص ٣٥٤.

١٩٩ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٥٣.

٢٠٠ ـ العطار، المرجع السابق ص ٣٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٢٣٥.

ودار الندوة غرفة التجارة التي تعقد فيها الصفقات التجارية الكبيرة. ومنها تبدأ مسيرة القوافل، وإليها تعود لتنيخ عند بابها بأحمالها وبضائعها[٢٠١].

وهي مقر الحكم فيعقد لواء الحرب فيها[٢٠٢]. وهي مركز الشؤون الدينية والمدنية أيضا. حيث تتم فيها عقود الأنكحة، وختان الذكور، وتدريع الفتيات عند البلوغ[٢٠٣]. وفي ذلك إعلام عن نضوج الفتاة وتأهلها للزواج.

وقد حددوا موعدا رسميا، يجتمعون فيه أسبوعيا كل يوم سبت للنظر في أمورهم العامة ولذلك قيل أن يوم السبت يوم الخديعة والمكر[٢٠٤]. وفي الحالات الطارئة يعقدون الاجتماع الفوري العاجل لأخذ رأي أصحاب المشورة. واصدار القرار اللازم لما استجد عليهم من أمر.

وقرارات الندوة نافذة بالاجماع. ويتعلق تنفيذ القرار على شخصية وكفاءة أعضاء مجلس الملأ وعلى ما يفرضونه بحق من يخالف قرارهم ولا يلتزم به من عقوبة مثل المقاطعة أو الاقناع والمساومة حتى يتم تنفيذ القرار.

وقد طبقت قريش عقوبة المقاطعة بعد اجتماعهم للتشاور في أمر محمد ﷺ. فعندما رفض عمه أبو طالب التخلي عنه قررت قريش مقاطعة أبي طالب وكل من معه من بني هاشم وبني المطلب وحاصرتهم في الشعب وقطعت الاتصال بهم والتعامل معهم[٢٠٥].

ويحق لأحد السادة الاعتراض على أي قرار، ولا يلتزم به، ولكن مجلس الملأ حرص على ألا يصدر قراراته إلا بعد الدراسة والتمحيص. والمشاورة والمفاوضة الكاملة حتى يتوصلوا إلى الاتفاق الكامل على وجه العموم. واضعين في اعتبارهم الأول مراعاة مبادئهم ومثلهم من مروءة وحكمة ومرونة حتى يحافظوا على وحدة قريش وأمن مكة دائما[٢٠٦].

ويمكننا أن نستنتج بعضا من بنود مشاورات دار الندوة من مجمل الحالة السياسية في مكة وأهمها :

---

٢٠١ ــ عوض الله، المرجع السابق ص ٥٥.

٢٠٢ ــ ENCY. OF ISLAM, VOL, 2, P. 128. عوض الله، نفس المرجع ص ٥٥.

٢٠٣ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٤، ابن حبيب، المنمق ص ١٨، الرفاعي، المرجع السابق ص ٥٧.

٢٠٤ ــ العطار، المرجع السابق ص ٣٥.

٢٠٥ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٥٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٢٤٧.

٢٠٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٤٧.

١ ـ تقديم المصلحة العامة على الخاصة دون إستثناء.
٢ ـ عدم نقض القرارات أو مخالفتها بعد ابرامها واعلانها.
٣ ـ السرية التامة حول كل ما يدور داخل جلساتهم من مناقشات ومفاوضات.
٤ ـ عدم الخوض في وجهات النظر المختلفة خارج دار الندوة ليسود الهدوء والاطمئنان بين الناس.

ولم يثبت لنا أي انشقاق عن مجلس الملأ في دار الندوة أو خروج عن قراراته فيما عدا ما حدث ابان فترة الدعوة الإسلامية حيث رفض أبو طالب التخلي عن محمد فاعتزل قريش ومعه بنو هاشم وبنو عبد المطلب يوم مقاطعة النبي ﷺ وقد أعلنت قريش قرارها في صحيفة علقت على جدار الكعبة. وخرج أبو لهب عن الهواشم وانحاز إلى قريش لما عرف عن عداء أبي لهب لمحمد[٢٠٧]. وقد فعل أبو لهب ذلك لأنه خاف على مصالحه التجارية[٢٠٨].

وتكرر ذلك الانشقاق من بني زهرة وبني عدي عندما خالفوا قرار مجلس الملأ القرشي، ورفضوا الأشتراك في معركة بدر. فانسحبوا واعتزلوا عن عامة قريش[٢٠٩]. وقد وقعت هذه الأنشقاقات في فترة البعثة النبوية. عندما كانت قريش تقاسي أعنف اضطراب سياسي وديني وأجتماعي ظهر في مكة. فزعزع أمن قريش حتى صارت تتخبط في تصرفاتها خبطا عشوائيا.

ورغم عنفوان أحداث البعثة الا أننا لم نجد بين أيدينا مايشير إلى سفك الدماء والقتال في حرب مثلا خلال تلك الفترة التي دامت على مدى ثلاثة عشر عاما تقريبا منذ المبعث الى الهجرة والتي اهتاج أمر قريش فيها واضطرب بشدة[٢١٠]. حيث قام رجال من قريش بالمحافظة على وحدة القبيلة[٢١١]. في ظل حكومة الملأ القرشي. فالأمن من أهم ضرورات حياة مكة التجارية، وأهم منجزات السياسة القرشية.

وليس لقريش في مكة ناديا سياسيا آخر غير دار الندوة. أما ما ورد عن أندية قريش كما يقال عن قريش عندما جلسوا في أنديتهم.[٢١٢] فالمقصود بذلك تجمعاتهم ومجالسهم

٢٠٧ ـ إبن الأثير، الكامل جـ٢/٥٩، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٢.
٢٠٨ ـ عوض الله، المرجع السابق ص ٥٣.
٢٠٩ ـ الشريف، مكة والمدينة ص ١١١.
٢١٠ ـ حسن، المرجع السابق جـ١/٩٦.
٢١١ ـ الشريف، مكة والمدينة ص ١٣٩، ١٤٠.
٢١٢ ـ السهيلي، المرجع السابق (متن السيرة) جـ٢/٣٨.

العامة أما حول الكعبة حيث يختلفون فيها للمحادثات العامة والعابرة فيها . ومن أمثلة ذلك مجلس عبد المطلب بجوار الكعبة ، أو جلوسهم في منزل أحد رجال قريش فليس لهذه الأندية صفة رسمية ولا يتم فيها إتخاذ قرارات . فهي أندية مجالسة ومسامرة فقط .

وكان للعشائر والبطون مجالس للنظر في أمورهم الخاصة المتعلقة بخلافات العشيرة الداخلية أو بالمشاكل الأسرية كذلك[٢١٣] .

وقد احتفظت دار الندوة بمكانتها في الإسلام رغم توقفها عن أداء مهمتها ، ذلك أن معاوية بن أبي سفيان قد ابتاعها بمائة ألف درهم[٢١٤] . وجعلها دارا للامارة ينزل فيها إذا قدم إلى مكة في موسم الحج . وبالتالي فقد نزلها معظم خلفاء بني أمية ، وبعض أوائل الخلفاء العباسيين . إلى أن اتخذ هارون الرشيد دار العمارة مقرا لنزوله ، وهجر دار الندوة التي حل عليها الخراب واضمحل شأنها ثم تهدمت وزالت حوالي نهاية القرن الثالث الهجري الموافق التاسع الميلادي وعندما أمر الخليفة العباسي المعتضد بادخلها في توسعة الحرم المكي سنة ٢٨١هـ[٢١٥] .

سياسة قريش الداخلية :

اشترعت قريش سياسة داخلية لادارة شؤون مكة وتنظيم أمورها . وتمكنت بمهارة فائقة من تطوير بعض الأنظمة القبلية لجعلها ملائمة وموافقة لأوضاع مكة وأوجدت نوعا من التنظيم الاداري والسياسي والاجتماعي والعسكري ، والمالي[٢١٦] .

وعينوا الوظائف ونسقوها فمنها الذي يختص بالشؤون الدينية وأعمالها وهي وظائف متعلقة بالكعبة والحرم كالسقاية والرفادة والسدانة وغيرها واقتصرت على بني قصي .

والوظائف العامة والتي تهتم بالشؤون الادارية في مكة[٢١٧] من النواحي الاجتماعية والقضائية ، والسياسية كالأشناق في بني تيم ، والسفارة في بني عدي والأيسار في بني جمح[٢١٨] . وغيرها من الوظائف والتي وزعت على البطون القرشية عامة . وعاش المكيون

٢١٣ ــ الشريف ، مكة والمدينة ص ١١٣ .
٢١٤ ــ ابن حزم ، المرجع السابق ص ١٢١ ، ابن بكار، المرجع السابق ص ٦٢٦ ، الأزرقي ، المرجع السابق جـ١ / ٢٦٩ .
٢١٥ ــ ENCY. OF ISLAM, VOL, 2, P. 128. الأزرقي ، المرجع السابق جـ٢ / ١٠٩ ، ٢٥٣ ، البتنوني ، المرجع السابق ص ٩٥ .
٢١٦ ــ الرفاعي ، المرجع السابق ص ٥٧ .
٢١٧ ــ الشريف ، دور الحجاز ص ١٦ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٥ / ٢٤٧ .
٢١٨ ــ الرفاعي ، نفس المرجع ص ١٤٢ .

ينعمون في أمن وهدوء بكل مزايا سياسة قريش الرصينة . وما ذلك الا بفضل قوة الزعماء الذين نجحوا في حل مشاكلهم ، ومنافساتهم ان ظهرت بينهم . وذللوا كل عقبة في سبيل الاحتفاظ بوحدتهم مما أدى إلى نجاحهم في تكوين رأي عام قوي[٢١٩] . يعبر عن التأييد لسياسة قريش دائما والاجتماع صفا واحدا .

ومما يبرز الزعامة القرشية في مكة ويؤكدها ، الاستقرار والتنظيم الذي ساد فيها ثم الاستقلال عن النفوذ الأجنبي . وقد واكب عهد قريش النهضة العربية بين قبائل الشمال وفي جنوب الجزيرة في اليمن كذلك[٢٢٠] .

ومن الأساليب الادارية التي اتخذتها قريش أنها فرضت ما يشبه الضريبة أو (الاتاوة) على كل من دخل مكة ونزل عليهم كأن تأخذ بعض ثيابه ، أو تأخذ من ابله أو نحو ذلك ويسمون هذه الضريبة (الحريم) ولكن قد يمتنع الوافد عن دفع الحريم . كما رفض ظويلم دفعه عندما نزل على المغيرة بن عبد الله ، فسمى ظويلم (مانع الحريم)[٢٢١] .

وقد نصبوا بعض السادة حكاما بينهم لفض المنازعات والمشكلات بين الأفراد . وكان لهم الحق في فرض العقوبات على الأفراد فمثلا كانوا يحدون السارق بقطع يده . وإقامة حد كهذا ونحو ذلك يتم بواسطة سلطة تشريعية تصدر العقوبات وتقوم بانفاذها . وقد عرفنا سابقا أن العرف والعادة بمثابة القانون المكتوب . وقد تعارفوا على قطع يد السارق . ولابد إذا من سلطة تنفيذية لاقامة الحد . فقد أقام عبد الله بن جدعان الحد بقطع يد «دييك» بنفسه .

وقطعت يد وابصة بن خالد ويد مدرك بن عوف المخزومي بعد أن سرق مرارا . ثم سرق بعد قطع يده فرجموه حتى مات . ثم قطع مليح بن شريح بن الحارث من بني عبد الدار ومقيس بن مقيس بن عدي . وعبيد الله بن عثمان من بني تيم وقد سرق إبلا[٢٢٢] .

وقد فرضوا الدية على القاتل . والتي كانت موجودة ومتعارفا على أدائها بين العرب

---

٢١٩ ــ الشريف ، المرجع السابق ص ١٨ ، ومكة والمدينة ص ١٣٤ ، عوض الله ، المرجع السابق ص ٥٤ .

٢٢٠ ــ الشريف ، دور الحجاز ص ٤٦ .

٢٢١ ــ إبن حبيب ، المنمق ص ٩٤ ، ٩٥ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/ ٢١ .

٢٢٢ ــ ابن حبيب ، المنمق ص ٥٣٠ ، جواد علي ، المرجع السابق جـ٥/٦٠٥ ، ٦٠٦ ، وقيل أن أول من استن قطع اليد في السرقة هو الوليد بن المغيرة ، أنظر العسكري ، المرجع السابق ص ٤٢ .

عامة[٢٢٣]. ولكن الإختلاف وقع بينهم في الكم حيث اختلفوا في تحديد عددها، واختلفوا على قبولها والرضي بها أيضا. وكان يتم تحديد عدد الابل في الدية المؤادة الى ولي القتيل حسب اتفاق الطرفين بشهود الحكام. ولكن قريشا طبقت الدية وحددت نصابها بمائة من الابل منذ أن قدم عبد المطلب هذا العدد يوم فداء ابنه عبد الله ايفاء للنذر[٢٢٤].

ثم أنهم وضعوا في إعتبارهم عند تسليم الدية ودفعها أولا مكانة الرجل القتيل واتفقوا على أن دية الشريف منهم غير دية المولى. فدية الحليف نصف دية الصريح الشريف. وقد يغالي قوم منهم في طلب دية سيدهم فتصل الى الخمسمائة والى الألف من الابل.

وكما وضعوا في إعتبارهم مكانة ولي دم القتيل وهل يقبل بالدية أم يطالب بالثأر لأن بعض القبائل اعتبرت الرضى بالدية مذلة وضعفا. فالقبيلة القوية لا ترضى بالضعف. ولذلك يحاولون إسترضاء القبيلة ليقنع ولي القتيل بالدية المدفوعة له. فيقبلها الولي عند شعوره بالضعف أو عند ايثاره السلم على الحرب والغارة. وقد فعلت قريش ذلك يوم حرب الفجار فقد رغب الجميع في الصلح الذي قام على أساس حساب قتلى الفريقين واعتبار تسليم الدية مقابل العدد الزائد من قتلى الفريق الآخر. وكذلك تدفع الدية عند التفاني بين القبيلتين وإخماد الشر[٢٢٥].

وقد حسنت قريش أمور الدية ودفعها. فنظمت العملية بأن جعلتها في بني تيم وأسمتها الأشناق كما ذكرنا. ويتولي القائم منهم بالأمر جمع الديات، وتسليمها إلى ولي القتيل، كما يقوم المسؤول أحيانا بجمع المال لتسديد الدية عمن يعجز عن أدائها لقلة ماله أو نحو ذلك[٢٢٦].

وهنالك نوع آخر من الدية أسموه (دية الخفارة) وتدفع لولي القتيل الذي يكون في جوار شخص آخر. فعندئذ يتحتم على المجير جمع هذه الدية التي قيمتها سبعون ناقة عشراء ويدفعها لولي الجار الذي قتل بينما كان في جواره وحمايته[٢٢٧].

وابتدعت قريش القسامة، في حالة الاتهام الباطل فإذا كان المتهم بريئا واعتقد جميع

---

٢٢٣ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٥٩٣.

٢٢٤ ــ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٦٦.

٢٢٥ـ الشريف، مكة والمدينة ص ٣٦.

٢٢٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٦٠٠.

٢٢٧ ــ الشريف، نفس المرجع أعلاه والصفحة.

ذويه ببراءته من دم القتيل فعندئذ يتقدم خمسون رجلا من أقرباء المتهم ويحلف كل منهم يمينا بأنهم لم يقتلوا ذلك الشخص فتبرأ ساحتهم. وكانت أول قسامة حكم فيها الوليد بن المغيرة عندما كان حكما لقريش[٢٢٨].

وتؤدي القسامة من قبل أولياء القتيل أيضا لاثبات استحقاقهم دم صاحبهم وأما أولياء المتهم بالقتل فيؤدون اليمين لنفي التهمة عن صاحبهم. أي أن القسامة تؤدى من قبل الطرفين، أهل القتيل وأهل المتهم بالقتل. ويشترط أن يؤدي اليمين الرجل البالغ العاقل فلا يشترك فيها لا المرأة ولا الصبي، ولا العبد، ولا المجنون[٢٢٩] وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم القسامة كما هي[٢٣٠].

كما عاقبوا المشاغب، والذي يسعى في اثارة الفتن والخلافات بالنفي إلى خارج مكة ومن ذلك حكمهم على حرب بن أمية بالابعاد إلى بلاد االشام لمدة عشرة سنوات[٢٣١].

وظلت البطون القرشية متحدة، متماسكة فيما بينها ولم يقعوا في الخلافات المؤدية إلى التحارب فيما بينهم. ما عدا خلاف بني هاشم وحربهم مع بني عبد شمس يوم شمطة وهو من أيام الفجار[٢٣٢].

---

٢٢٨ ــ قصتها أن عمرو بن علقمة بن المطلب بن عبد مناف قتل واتهموا خداش بن عبد الله بن قيس العامري به، ونفى خداش هذه التهمة. فاحتكم خداش ورهطه، وأولياء دم القتيل الى الوليد بن المغيرة الذي حكم عليهم بالقسامة، فأداها الجميع ما عدا حويطب بن عبد العزى الذي افتدت أمه يمينه بأربعين أوقية ورقا، فهلك جميع من أدى اليمين وورثهم حويطب وذلك يدل على اعتقادهم بأن اليمين الكاذبة تلحق العقوبة بصاحبها عاجلا، أنظر العسكري، المرجع السابق ص ٣٦، ٣٧. ابن حزم، المرجع السابق ص ١٦٨ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/١٠٨.

٢٢٩ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٦٠١، ٦٠٢.

٢٣٠ ــ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٦٦.

٢٣١ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٣٠٣.

٢٣٢ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/١٢٠٧، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/١٠٤، وتفصيل ذلك أن حرب بن أمية كان زعيم بني أمية وكنانة كلها، وعبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة على المجنبتين يوم شمطة الواقعة ناحية عكاظ أنظر جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٣١ وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم ومعه ابن أخية محمد بن عبدالله وإخوة الزبير وهم أبو طالب، وحمزة، والعباس وكانت قريش وكنانة والأحابيش مجتمعين ضد قيش وثقيف أنظر ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٥٨، ثم وقع خلاف بين القرشيين فاقتتلوا يوم شمطة ثم اتفقوا ضد عدوهم قيس وثقيف.

وتطبيقا لسياسة استرضاء جميع العرب عقدت قريش الأحلاف وحبال المودة مع شيوخ القبائل وسادتها حتى تضمن مرور تجارتها بأمن وسلام(٢٣٣).

وعقدت قريش حلفها مع قريش الظواهر. وعقد عبد مناف حلفا مع الأحابيش(٢٣٤). والذي ينص على أن يقوم هؤلاء بالدفاع عن مكة من مواقعهم المحيطة بها. والمحاربة في صفوف قريش دائما ضد كل أعدائها. ثم جدده عبد المطلب فيما بعد(٢٣٥). وكذلك عقد عبد المطلب حلفا مع خزاعة أيضا وحسب رغبة خزاعة(٢٣٦).

وكانت خزاعة تقيم في وادي مر الظهران من نواحي مكة. ولكنهم في عام الحديبية دخلوا في عهد رسول الله وحالفوه ضد قريش فلما وقعت الحرب بين بكر وخزاعة، ناصرت قريش بكرا، وناصر الرسول صلى الله عليه وسلم خزاعة مما كان سببا لفتح مكة(٢٣٧).

وكان الأمن من أهم ما حققته قريش في سياستها الداخلية في مكة وفيما حولها دائما(٢٣٨). واتخذت لذلك خطوات هامة جدا منها:

أولا : أكدت قريش حرمة الحرم والمنطقة المحيطة به إلى خارج حدود مكة وجعلت له حدودا رسمية معلنة. ومعترفا بها من قبل جميع العرب وأبعاد تلك المسافة هي من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران حوالي خمسة إلى ستة أميال.

= ثم وقعت عداوة أخرى بين بني عبد شمس وبني عدى بسبب أن عامر بن عبد الله من بني عدى قد سرق بختية لعبد شمس بن عبد مناف ثم أنكر ولما اعترف بفعلته استرضى بنو عدى عبد شمس عن بختيته باخراج عامر من مكة بدلا من قطع يده وتغريمه ماله فقبل عبد شمس ذلك ولكنه طلب خروج بني عدى كلهم من مكة. ثم أجارهم بنو سهم وحالفوهم فدخلوا مكة مرة أخرى أنظر ابن حبيب، المنمق ص ٨٠، ٨٢.

٢٣٣ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٦.

٢٣٤ ـ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٤١.

٢٣٥ ـ إبن سعد، المرجع السابق جـ١/٨٥، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٧٦.

٢٣٦ ـ وقد اجتمعوا في دار الندوة حيث مثل خزاعة سبعة أعضاء هم بديل أبو زرقاء الخزاعي، وسفيان بن عمرو، وهاجر بن عمير، وهاجر بن ضاطر، وعبد العزى المصطلقي، وخلف بن أسعد، وعمرو بن مالك الجثري. ومثل قريش عبد المطلب ومعه الأرقم بن نضلة بن هاشم، وكتبوا كتابا بحلفهم وعلقوه في الكعبة. وقد حالفت خزاعة قريشا لتحقيق مصلحتها الذاتية. أنظر ابن حبيب، المنمق ص ٨٨، ٨٩.

٢٣٧ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٤٤١، ٥٣٠.

٢٣٨ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٩.

ومن طريق جدة عشرة أميال . ومن طريق اليمن ستة أميال . وأما محيط هذه المساحة فحوالي ٧٣٠ ميلا[٢٣٩] . فهذه المساحة كلها أرض حرم لا يجوز القتال فيها قطعيا .

ثانيا : فرضت قريش على جميع القبائل العربية نزع السلاح عند دخول مكة في المواسم والتي تشمل مواعيد الأسواق التجارية وهي سوق عكاظ والمجنة وذي المجاز التي تقام حول مكة . وفي موسم الحج أيضا . حيث يلقون أسلحتهم فتودع وتحفظ عند عبد الله بن جدعان[٢٤٠] .

ثالثا : إستفادت قريش من الأشهر الحرم أيضا فأضافت إلى حرمة الحرم، مراعاة تلك الأشهر التي أقر العرب عدم القتال فيها .

وقد عظم العرب حرمة الحرم ورعوها أكثر من حرمة الشهر الحرام . وذلك أن كثيرا من العرب انتهكوا حرمة الشهر، ولم ينتهكوا حرمة الحرم . وحروب الفجار خير مثل على ذلك اذ كانت قريش طرفا في تلك الحروب التي دارت خارج حدود الحرم ولكنها في الشهر الحرام .

كما يعتبر النسيء تلاعبا بحرمة الشهر. ولم يؤثر عنهم تلاعب مماثل بحرمة الحرم[٢٤١] . فعلى ذلك أقر كل العرب حرمة الحرم وحدوده المعروفة والتي أكدتها قريش .

ونستنتج أن التنظيم الاداري الذي ساد في مكة قضي على معظم الخلافات وأبعد المشاغبين عنها . وبذلك حققت قريش هدفها الأسمى . وهو الأمن في مكة، ساعد على كل ذلك قوة زعماء قريش وصفة مكة الدينية فنالت قريش حماية التجارة وجميع مصالحها حيثما اتجه القرشيون شمالا أو جنوبا .

ومن أعمال قريش ضمن سياستها الداخلية تمييز نفسها، فمن ذلك أنهم دعوا أنفسهم بأسماء منها أهل الحرم، وأهل الله . وجعلوا لهم شعارا، وسيماء، يتخذونها لأنفسهم إذا خرجوا من أرضهم (حدود الحرم) (فكانت سيماء أهل الحرم العلائق، وإذا أوذم أحدهم الحج تزيا بزي الحاج)[٢٤٢] .

اضافة إلى ذلك فقد عرف العرب قريشا بأسمائها المعروفة الدالة عليها، فلما عظم

---

٢٣٩ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٢٩ حاشية ٣ .

٢٤٠ ــ جاد المولى، المرجع السابق ص ٢٣٩، جواد علي،المرجع السابق جـ٥/ ٢٥٠ .

٢٤١ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٨٣، ٨٥.

٢٤٢ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/٩٥، ٩٦ .

أمرهم في مكة وهابتهم الناس نعتهم العرب بآل الله وقرابينه[٢٤٣]. وجيران الله، وسكان بيت الله[٢٤٤]. وتسمت قريش في الجاهلية باسم العالمية لفضلهم وعلمهم. وقد تفاخر الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب قائلا :

ألسنا أهل مكة عالميا وأدركنا السلام بها رطابا[٢٤٥]

وفي مواسم الحج، وداخل مكة ميزت قريش نفسها أيضا عن غيرها من العرب بما ابتدعت من التحمس[٢٤٦]. الذي سنذكره في موضعه. ولكن نظام الحمس الذي اصطبغ بمظهر ديني له أهداف سياسية واضحة تتسم بتعميم التبعية القرشية دائما خاصة في المواسم في داخل مكة وخارجها مما يؤكد نمو شعورهم القومي واعتزازهم الدائم بقوميتهم القرشية بين العرب والعجم.

وقد اشترعت قريش التحمس بعد عام الفيل مع مجموعة من الشعائر والطقوس على كل أحمسي من قريش أو ممن ينتسب إليها فيجب الالتزام[٢٤٧] بها ليستقر في نفس الحجاج معرفة القرشي والمكي لمجرد رؤية علامات تحمسه. مطالب اتجه بها إلى الأحمسي ابن مكة فور أن يراه أمامه حتى لو لم يسبق له معرفته.

ومع ذلك فقد عاشت قريش في ديموقراطية، أتاحت لهم حرية الرأي والمناقشة. وحرية المطالب بالحقوق حتى من زعمائهم يدلنا على ذلك قصة قريش مع عبد المطلب عندما حفر بئر زمزم، واستصلحها فعاد الماء إلى جريانه، واستفادوا منه. ثم حظي بالعثور على كنوز الكعبة الدفينة فقامت قريش اليه، مطالبة بنصيبها من هذا الكنز. بمشاركة عبد المطلب في بئر زمزم وثروتها. وحجتها في ذلك أن عبد المطلب لم يجد الكنز في أرض من أملاكه. بل وجده في أرض الحرم والتي يعتبرونها حقا عاما لهم جميعا ورفضوا الاقتناع بأن عبد المطلب أحق بذلك من غيره خاصة وأن قريشا لم تعنه على الحفر والعمل. وأصروا على مطلبهم حتى خرجوا لاستشارة كاهنة بني سعد بن هذيم في نواحي الشام. وفي الطريق أقنعهم عبد المطلب، وسلموا له أمر البئر والكنز بعد

---

٢٤٣ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٢٥.
٢٤٤ ــ ابن عبد ربه ، المرجع السابق جـ٣/٢٣٥.
٢٤٥ ــ السلام يعني الحجارة، أنظر الألوري، المرجع السابق ص ٧.
٢٤٦ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٦.
٢٤٧ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٢٦٦.

المعجزة التي فجرت الماء تحت قدمية وتحت جوافر دابته كما وردت قصتها في المصادر[٢٤٨].

ومن وجهة نظرنا أن لذكاء عبد المطلب الدور الأكبر في إقناعهم بالتسليم له. فهو خبير بطريق الشام وبموارد الماء فيه. ولذلك أخذهم إلى مورد الماء لينقذهم، وينقذ نفسه من الهلاك، ولأنه على حق فقد تيسر له الأمر.

سياسة قريش الخارجية :

حرصت حكومة الملأ القرشي - التجارية على نشر السلام واستتباب الأمن في مكة وماحولها عبر خطوط قوافلها، فأقلعت عن الحرب والغزو ما عدا حروب أيام الفجار التي اضطرت إلى خوضها. ونتيجة لذلك فقد انتهجت قريش سياسة المفاوضات والحلول السلمية في جميع مشاكلها الساسية، والاقتصادية، فعقدت المحالفات مع القبائل المجاورة لها والبعيدة عنها. وقد عاد هذا المنهج السياسي على قريش بفائدة عظيمة. حيث بوأ لها زعامة روحية بين جميع العرب سياسيا، ودينيا، واقتصاديا. ومما دعم زعامة قريش تدهور الدولة الحميرية في جنوب الجزيرة. ثم المستوى الاقتصادي والثقافي الممتازين، جعلا مكة عاصمة جزيرة العرب في ذلك الحين[٢٤٩]. أفادت قريش ماديا من تجارتها. فكثر المال لديهم وشاع بينهم فاشتهر منهم أغنياء مثل أبي سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما فعظمه العرب. وجنت حصادا أدبيا كبيرا من خلال هذه التجارة أيضا. فقد جاب القرشيون أنحاء البلاد العربية وغيرها، واطلعوا على أحوالها السياسية والاجتماعية. مما طور فكرهم ووسع أفاقهم. وألموا بحضارات البلاد المجاورة لجزيرتهم شمالا وجنوبا. بالاضافة إلى أن وجود الجاليات الأجنبية في الجزيرة جعلهم على اتصال دائم بالحضارات المعاصرة لهم[٢٥٠].

وأهم خطة سياسية عملية اعتمدت قريش عليها في سياستها الخارجية، ومارستها مع الجميع سياسة المسالمة واللين مع عرب الجزيرة، ومع غيرهم من فرس وروم فالحلف مع القبائل (يجمع بينها ولو تباعدت أنسابها)[٢٥١]. وبذلك يكونون يدا واحدة في السراء والضراء. وهي طريقة للاحتماء بالغير لحماية المصالح العامة والخاصة. وتدعيم الموقف

---

٢٤٨ - الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٤٤-٤٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣١٥.
٢٤٩ - جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٧.
٢٥٠ - شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٦.
٢٥١ - عهد الجبار، المرجع السابق ص ١٦٦.
٢٥٢ - جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٧٢.

وهي الفكرة السياسية الحديثة التي تحض الدول حاليا على التحزب والتكتل وعقد المحالفات العسكرية والسياسية أي جميع المحالفات الدولية الحديثة. ونفذت قريش هذه السياسة لنفس الأهداف. وقد تكون أهداف الحلف هجومية. ولكن أكثر أحلاف قريش كانت لأغراض اقتصادية. ولتحقيق مصلحة عامة مثل اقرار قوانين ونظم أو استرجاع حقوق، وانصاف المتظلمين وردع الظالم عن طغيانه(٢٥٢).

وأهم أحلاف العرب مع الفرس والروم عقدتها قبيلة كندة التي قادت جميع مضر وربيعة في وسط الجزيرة منذ منتصف القرن الخامس الميلادي. ومع أن كندة لم تكن أقوى قبيلة ولكنها تبوأت تلك الزعامة بفضل عقد الأحلاف مع قبائل الجزيرة العربية ومع الدول الكبرى يومذاك(٢٥٣).

وقد نحت قريش هذا المنحى ومن أحلافها الأولى مع العرب حلف ابني علاج وهما شريق، وعمرو من ثقيف حالفتها وأقاما في مكة بعد عقد الحلف عاما. ثم عاد عمرو إلى الطائف(٢٥٤).

وكان لقريش صلة بأهل الطائف. ونازعت قريش ثقيفا على وادي وج ورغبت في النزول به لما زاد عدد قريش وضاق بهم وادي مكة ولجمال طبيعة وج وطيب هوائه أيضا. ولكن ثقيفا رفضت نزول قريش الدائم في وادي وج لأنها تعتبره من ارث أبيهم، وهو أرضهم أساسا. فغضبت قريش من هذا الرفض. ومنعت ثقيفا من دخول الحرم، فخافت ثقيف من قريش وخزاعة وأحلافهم ثم عقدا حلفا وتراضيا. وطلبت قريش من دوس نفس المطلب، ولكن ثقيفا أشارت على قريش بعقد الحلف مع دوس أيضا وفعلا تمت المحالفة(٢٥٥).

وكان ارتباط قريش بثقيف وثيقا جدا حيث كان ارتباطا سياسيا واقتصاديا، واجتماعيا. فمن الناحية الاقتصادية امتلك أثرياء مكة أملاكا كثيرة في الطائف تشمل مزارع وبساتين وغيرها. فقد كان للعباس بن عبد المطلب مزرعة كروم يجلب الزبيب منها. وكان يداين أهل الطائف ويشتري انتاجهم من الزبيب الذي ينبذه في الماء لسقاية الحجاج التي يتولاها إلى عهد الإسلام حيث أقرها له النبي صلى الله عليه وسلم.(٢٥٦)

كما امتلك العاص بن وائل السهمي (والد عمرو بن العاص) مزارع بوادي وهط

---

٢٥٣ ــ SPENCER TRIMINGHAM, OP. CIT. P., 58.

٢٥٤ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٢٨٣، ٢٨٤.

٢٥٥ ــ ابن حبيب، المرجع السابق ص ٢٨٠، ٢٨١.

٢٥٦ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١ / ١١٤.

وقد مات العاص في أحد شعاب الطائف وله أموال أخرى فيها. وامتلك عمر بن الخطاب أملاكا في وادي ركبة من أرض الطائف. وكذلك كان لغالبية قريش أموال وتجارة هناك. ومن الناحية الاجتماعية فقد صهرت قري إلى ثقيف والعكس صحيح أيضا فقد قيل قرشي وختناه ثقفيان أو ثقفي وختناه قرشيان[٢٥٧] وذلك مما أدخل بعض الثقفيين في التحمس لاشتراط قريش ذلك على أصهارها.

وتردد أهل مكة على الطائف كثيرا للأهتمام بأعمالهم وأموالهم. واشترى معاوية بعض الأموال ومواد التجارة من الجماعات اليهودية التي سكنت الطائف ومارست التجارة. وسكنها جماعة من الروم منهم الأزرق أبو نافع والذي احترف الحدادة. وعداس النصراني الذي أتي من نينوى فأقام في الطائف[٢٥٨].

وحالفت قريش العديد من القبائل الحجازية الأخرى منهم، بنو سليم التي سكنت في حرار الحجاز الغنية بالمياه والمعادن في حرة ليلى، وحرة بني سليم التي عرفت باسم معدن سليم. وقد جاور بني سليم قبائل عديدة مثل هوازن وهلال، وغطفان. ولوفرة المياه والمعادن فقد اشتغل بنو سليم بالتعدين والزراعة واستفادت قريش اقتصاديا من ذلك حيث اشتغلت مع بني سليم في استغلال ثروة أرضهم المعدنية[٢٥٩].

أقام بعض أفراد بني سليم في مكة وليس ذلك فقط بل استخدمتهم قريش حيث عينت حكيم بن أمية بن حارثة السلمي محتسبا يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، مما أثار سخط بعض القرشيين. لتولي هذا الغريب تلك المهمة فقال أحدهم:

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشردني حكيم[٢٦٠]

وقد حالف بنو طالب القرشيون بني شيبان الذين كانوا يتولون سدانة العزى. التي عبدتها كنانة وقريش[٢٦١].

وعقدت قريش صلات وثيقة بقبيلة عذرة منذ أيام قصي الذي استنجد برزاح بن ربيعة أخيه لأمه ضد خزاعة: عندما نازعت قصيا عند توليه أمور مكة[٢٦٢].

---

٢٥٧ ـ السالم، المرجع السابق ص ٣٨٠.
٢٥٨ ـ السالم، نفس المرجع ص ٣٨٠، ٣٨١.
٢٥٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٥٧، ص ٥١٨، ٥١٩.
٢٦٠ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٢٦٣.
٢٦١ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٦.
٢٦٢ ـ جواد علي المرجع السابق جـ٤/٤٣١.

وأقـامت قريش العلاقات الطيبة مع اليهود وارتبطت بيهود تيماء، وخيبر، ووادي القرى، ويثرب بمعاملات تجارية. واحترم اليهود قريشا بل أعتقدوا بسيادتها على جميع العرب وأن قريش الملوك فيهم. كذلك احترمت قريش اليهود عامة لأنهم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم والمعرفة[٢٦٣]

ولكن تواجد اليهود في مكة يكاد يكون نادرا. ونعزو ذلك الى عاملين هما:

١ ــ عزلة اليهود واجتنابهم مخالطة الناس لما عرف عنهم من حب العزلة لترفعهم عن الناس.

٢ ــ أن الرواة أهملوا ذكر أخبارهم لأنه لم يكن لهم دور بارز في حياة المجتمع المكي أو أي مجتمـع آخر فيها عدا مجتمعاتهم اليهودية. وقد استنتجنا ذلك من عدم مشاركتهم لعرب الجزيرة في الأسواق الموسمية العامة مثلا والتي كانت تقام حول مكة خاصة وفي أنحاء الجزيرة الأخرى، الا في القليل النادر.

ومن أدلة حسن الصلات بين قريش واليهود مناصرة اليهود لوثنية قريش ابان الدعوة الاسلامية. مخالفين بذلك أصل العقيدة الواحدة لجميع الأديان السماوية وما صدر ذلك من اليهود إلا للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية مع قريش[٢٦٤].

وارتبطت قريش ببني النجار من يثرب بالمصاهرة حيث تزوج هاشم منهم وعاش ابنه عبد المطلب بين أخواله بني النجار في يثرب. ثم قامت علاقة صداقة بين الزعماء في كل من مكة ويثرب. حيث صادق أمية بن خلف سعدا بن معاذ الأشهلي زعيم الأوس. وكان العاص بن وائل السهمي وعتبة بن ربيعـة على اتصـال وثيـق بأهـل يثـرب كذلك[٢٦٥].

وأول ذكر لاتصال تميم بقريش في مكة مرتبط بحادث عام الغدر الذي ذكره ابن حبيب وذلك أن أوسا وحصية ابني أزنم بن عبيد بن ثعلبة من بني يربوع قصدا مكة للحـج فالتقيا بأحـد الملوك عنـد أنصاب الحرم ومعه كسوة الكعبة. فقتلاه، وأخذا الكسوة منه، ودخلا مكة فقدما الهدية. ولكن افتضح أمرهما في أيام منى، وعلم الناس بالخبر. فغدر العرب ببني تميم وانتهب بعضهم بعضا ودعوا ذلك العام بعام الغدر. واتخذته قريش تأريخا تؤرخ به الأحداث إلى عام الفيل. ثم يذكر ابن حبيب أن مبعث

---

٢٦٣ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ١٤٩، دور الحجاز ص ٢٤، ٢٥.

٢٦٤ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ١٤٩، دور الحجاز ص ٧٢.

٢٦٥ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ١٤٨.

النبي صلى الله عليه وسلم وقع بعد قرن ونصف (١٥٠سنة) من عام الغدر[٢٦٦]. مما يجعلنا نقدر أن عام الغدر وقع حوالي مطلع النصف الثاني من قرن الخامس الميلادي أي حوالي سنة ٤٦٠م[٢٦٧].

وحاولت قريش اصطناع تميم، وعقدت أواصر الرحم والمصاهرة بينها وبين تميم. فتزوج بعض القرشيين من نساء تميم. كما تزوج بعض التميميين من بنات قريش ونتيجة لعلاقة المصاهرة هذه فقد دخل بعض تميم في نظام الحمس ذلك النظام الديني الصبغة، ذي الأهداف السياسية الواضحة، والذي ابتدعته قريش بعد عام الفيل مباشرة[٢٦٨].

ثم عقد بنو أسيد من تميم علاقات صداقة مع بعض الأسر القرشية التي تستمتع بنفوذ كبيرة في مكة وجمعوا الأموال. وتزوجوا من قرشيات شريفات. ثم فاز بنو أسيد من بني النباش بحق المواطنة المكية. وتبوأوا مكانة محترمة فيها حتى أن بيوتهم كانت بجوار الكعبة. وقد رثى الأعشى بن زرارة بن النباش نبيها، ومنبها ابني الحجاج بن عامر بعد مقتلهما يوم بدر. وتزوج عامر بن هاشم بن عبد مناف الداري من ابنة النباش بن زلرة التميمي وأنجب منها ابنيه بغيض[٢٦٩]. وعكرمة. وقد كان النباش حليفا لبني عبد الدار[٢٧٠] وفي هذه المصاهرة خروج لقريش عما عرف عنها، لقلة التزاوج من غير القرشيات اللائي هن من بنات القبائل العربية الأخرى[٢٧١]. مع كثرة الزواج من الأجنبيات من الاماء ونحوهن.

وهذا يعني أن النباش وأحفاده تحمسوا مع قريش حيث أن الحليف يتبع حليفه ثم الأحفاد يتبعون دين قريش تبعا لأبيهم. وباشتراط قريش تبعا لأمهم. وتزوج هشام بن المغيرة من أسماء بنت مخربة من بني دارم وهي أم أبي جهل وكذلك أم عبد الله وعياش إبني ربيعة. وقد تزوج هذا من تميميتان. وتزوج نوفل بن عبد مناف من عبلة بنت عبيد من بني زيد مناة فهي أم أبنائه أمية الأصغر، وعبد أمية، ونوفل وأمامة وسمى أحفادهم العبلات. وكذلك تزوج نوفل فكيهة بنت جندل من بني دارم وتزوج المطلب بن عبد مناف بنت الحارث بن سليط بن يربوع وهي أم الحارث. وتزوج أمية بن خلف سلمى

---

٢٦٦ ـ ابن حبيب، المحبر ص ٧، ٨.
٢٦٧ ـ حسب التاريخ على النحو التالي كانت البعثة النبوية سنة ٦١٠ ـ ١٥٠ = ٤٦٠ سنة.
٢٦٨ ـ ابن الأثير، الكامل جـ١/٢٦٦.
٢٦٩ ـ كستر، المرجع السابق ص ٢٧، ٢٨.
٢٧٠ ـ الزبيري، المرجع السابق ص ٢٥٤.
٢٧١ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٠٩، كستر، نفس المرجع ص ٣٧.

بنت عوف . وتزوج حرب بن أمية من امرأة تميمية .

وتزوج عزيز بن قيس، فاختة بنت عامر بن نوفل بن عبد مناف وتزوج أبو اهاب بن عزيز درة بنت أبي لهب، وتزوجت درة بنت عتبة بن أبي هالة هند بن هند . وكان أبو هالة الذي تزوج خديجة بنت خويلد تميميا أيضا وتزوج حنظلة بن الربيع إبنة نوفل بن الحارث بن عبد المطلب(٢٧٢) .

وقد كان أحد التميميين حرميا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم(٢٧٣) . وذلك أن يطوف التميمي في ثياب محمد عند قدومه إلى مكة .

ولتوثيق علاقة قريش بتميم فقد تعدوا هذه المصاهرة مع أحد البطون التيميمة إلى أن عقدت قريش حلفا مع تميم، وكلب . وعلى الصعيد الأخر عقدت قريش حلفها مع أسد وطيء .

وكانت طيء وكلب أشد قبائل الجزيرة خطرا على تجارة مكة بل على مكة نفسها، وبعقد هذين الحلفين أمنت قريش نفسها معهما ومع أحلافهما في كل مكان(٢٧٤) .

ولتوضيح انضواء كلب في هذا الحلف نعرف أن لتميم حلفا مع كلب وعلى ذلك احترمت كلب هذا الحلف، الذي قام بين قريش وتميم(٢٧٥) . فأصبح بوسع التاجر القرشي أن يسير في أمان عبر الطرق بين كلب، وتميم، وأسد كذلك الأمر لطيء، وجميع مضر(٢٧٦) . ومن ذلك نقرر حقيقة واضحة وهي أن الحليف يراعي ويلتزم بحلف حليفه مع الأخرين . بل يعتبر حليف الحليف، حليفا أيضا .

أما كيف شاركت تميم في ادارة حكومة سوق عكاظ التجارية الموسمية وكيف تولت أمر الاجازة بالحج من عرفة(٢٧٧)

---

٢٧٢ ــ كستر، المرجع السابق ص ٣٧، ٣٩ .
٢٧٣ ــ كستر، نفس المرجع ص ١٧ .
٢٧٤ ــ كستر، المرجع السابق ص ١٦ .
٢٧٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٠٧ .
٢٧٦ ــ المرزوقي، الشيخ أبو علي، كتاب الأزمنة والأمكنة، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ، جـ٢/١٦٢، كستر، المرجع السابق ص ١٥ .
٢٧٧ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩ . فأما بالنسبة لسوق عكاظ فنوجز بعض المعلومات عن الأسواق الموسمية هذه التي تميزت الى ثلاث مجموعات :ـ
١ ــ أسواق خاضعة للنفوذ الفارسي مثل أسواق الحيرة وهجر البحرين وعمان، وأخرى تتبع النفوذ الروماني مثل بصري وأذرعات وغزة وأيلة . ويتولى تعشير كل منها عامل عربي . =

فتفسير ذلك أن تميما قبيلة قوية يتولى أحد رؤسائها تعشير حجر، وبنو يربوع عشيرة مبجلة ذات نفوذ في بلاط الحيرة[٢٧٨]، لتوليهم الردافة فيها. ولكن نفوذ الحيرة ضعف وضاعت هيبتهم فكثرت غارات الأعراب على أراضي بلاد فارس[٢٧٩]. لذلك بحث الفرس عن عميل قوي يتولى المهمة ويسد ثغرة ضعف الحيرة. وقد توفق الفرس في الايحاء الى تميمي تلك القبيلة الثائرة. فسخروا هذه القوة لحماية أرض فارس. وصد هجمات الأعراب عبر أراضي تميم وأحيائها.

فاغتنم بنو مجاشع بن دارم هذه الفرصة العظيمة ليعوضوا أنفسهم عن تلك الردافة التي بيد بني عمومتهم. وكسبوا سنوح الفرصة. وفرضوا أنفسهم حكاما لقضاء عكاظ بدلا من تعشير سوق عكاظ التي لا عشور لها، وليس بها جباة أو ولاة. ولنفوذ بني مجاشع بن دارم في بلاط الحيرة لم يجابهوا بصعوبات أو مقاومة من قريش وبالنظر إلى مكانتهم في مكة، وارتباطهم بأهلها عن طريق المصاهرات التي ذكرناها، وقبولهم التحمس. وارتباطهم بالايلاف كما كان لهم امتيازات في أسواق أخرى[٢٨٠]. وقد كان لمضر ثلاث وظائف تولتها منذ عهد خزاعة فأبقاها قصي لهم بعد ما تولى أمر مكة وهي :

١ ــ الاجازة بالحج عند خروج الناس من عرفة والتي يتولاها صوفة وهو الغوث بن مر.
٢ ــ الافاضة بالناس من جمع (مزدلفة) وكانت بيد زيد بن عدوان.
٣ ــ نسيء الأشهر الحرم والذي تولاه بنو فغيم بن عدي. فهم النسأة[٢٨١].

ومن ذلك يتعين أن تميما تولت وظيفتين الأولى قضائية والأخرى دينية وهما حكومة عكاظ والاجازة في الحج وقدمت خدماتها الجيدة على الصعيدين الديني والدنيوي[٢٨٢]. وقد استفادت قريش عمليا من تميم. كما أن تميما حققت ذاتها في مكة بتلك المهمتين اللتين تولتهما. واعتاضت بهما عن الردافة. ومن وجهة نظرنا أن تميما خدمت الفرس ووافتهم بالأخبار عن عكاظ وكل ما يجري فيها. وضمنت لهم سلامة اللطائم وحماية

= ٢ ــ أسواق مختلطة وهي التي تطل على السواحل مثل عدن وصحار ودبي. ويؤمها تجار الحبشة والهند والصين.

٣ ــ أسواق عربية خالصة ليس للنفوذ الأجنبي أي تأثير عليها مثل عكاظ والمجنة وذي المجاز. ولا ضرائب فيها، أنظر الأفغاني، أسواق العرب ص ٢١٢، ٢١٣.

٢٧٨ ــ كستر، المرجع السابق ص ٣٧.
٢٧٩ ــ كستر، نفس المرجع ص ٣.
٢٨٠ ــ كستر، نفس المرجع ص ١٩، ٣٧.
٢٨١ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٩٩.
٢٨٢ ــ كستر، نفس المرجع ص ٣٥، ٣٦.

أرباحها في عكاظ أيضا. ومما يؤكد كل ذلك هو أن تميما دانت لحكم الحارث بن عمرو الذي عينه قباذ على الحيرة فبعد أن استعاد قباذ ملكه سنة٥٠٢ أو ٥٠٤م. طلب من المنذر بن ماء السماء أن يعتنق دين مزدك وزندقته. فرفض المنذر ذلك. مما حدى بقباذ إلى طرد المنذر وتعيين الحارث بن عمرو السابق الذكر. ومن واقع صلات تميم السابقة يتضح الدليل على خضوعهم لهذا الحاكم(٢٨٣).

وهكذا تتضح لنا مشاركة تميم في ادارة بعض الشؤون الداخلية في مكة وعكاظ(٢٨٤) وبذلك عدوها من أعضاء حكومة الملأ القرشي لأن هذه الوظائف التي تولتها تميم من ضمن أعمال الحكومة المكية(٢٨٥).

وعندما تولت تميم الموسم والقضاء في عكاظ فقد أدت مهمتها بنجاح تام وحيطة ودراية وقد اختص أحد بطون تميم بالموسم، وبطن آخر بالقضاء، وقد تجتمع الوظيفتان في أحد البطون. بل ويتولاهما معا شخص واحد. وممن اجتمع له الموسم والقضاء صلصل بن أوس بن مخاشن(٢٨٦). وابتدع هذا التميمي نظام الذادة ـ المحرمين. ويقتضي ذلك أن تحمل بعض القبائل سلاحها لحماية أهل الموسم، والذود عنهم بقوة السلاح لو لزم الأمر، لمقاتلة المحلين الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات من قتل وسرقة في الموسم وفي الأشهر الحرم. وأما غيرهم من القبائل الأخرى فقد ألقوا أسلحتهم وتجردوا منها في أرض الحرم كما هو متعارف عليه بين العرب أثناء الأشهر الحرم(٢٨٧).

والمحلون هم أسد، وطيء، وبنو بكر بن سعد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة.

وأما الذادة المحرمون فهم من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة. وقوم من هذيل، وبعض شيبان، وجماعة من كلب بن وبرة.(٢٨٨) فهؤلاء هم قوة الحماية التي تتولى الدفاع عن مكة وأسواقها في المواسم. أو هو الجيش المرابط لتقديم النجدة والمعونة اللازمة في حينها.

---

٢٨٣ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٣٣٤.
٢٨٤ ـ ابن حبيب، المحبر ص ١٨١، ١٨٢.
٢٨٥ ـ كستر، المرجع السابق ص ١٧.
٢٨٦ ـ ابن حبيب، نفس المرجع أعلاه ص ١٨٢.
٢٨٧ ـ المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٦، كستر، نفس المرجع ص ٢٦، ٢٧.
٢٨٨ ـ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٧١.

ويضاف إلى هاتين المجموعتين مجموعة المحرمين من الحمس[٢٨٩]. ومن بين الشخصيات البارزة من بني تميم حاجب بن زرارة بن عدس وابنه عطارد بن حاجب. والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم[٢٩٠].

وقد اشتهر البراجم من تميم وهم خمسة أبطن من حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة[٢٩١].

وهكذا نرى أن علاقة قريش بتميم علاقة وطيدة جدا بل هي إرتباط متعدد النواحي بالمصاهرة. وللمصالح السياسية والاقتصادية. وقد أفاد الطرفان من بعضهما البعض بل ويتضح أن أقوى علاقة لقريش كانت مع تميم بناء على ماعرضناه عنهما.

ولكن قد يبالغ البعض في اعطاء هذه العلاقة أشكالا أخرى أكبر، وأعمق مما هي عليه فيرون أن قوة تميم ترجع إلى أنها كانت تستوطن مكة سابقا[٢٩٢].

وللرد على ذلك نقول أولا: حتى لو افترضنا أن تميما سكنت مكة قديما فهذا لا يعطيها تلك الحقوق لأن وضعها سيكون كغيرها من جرهم وخزاعة اللتين سكنتا مكة. وغلبت خزاعة جرهما ثم تغلبت قريش على خزاعة وتولت أمر مكة. ولم تقر خزاعة لجرهم بشيء في ادارة شؤون مكة وما فعلته قريش كان كذلك.

وثانيا: أن مشاركة تميم في إدارة شؤون مكة السياسية كانت وقتية ومتعلقة بالموسم فقط حيث كانت تتولى تميم الحكومة في سوق عكاظ وهو الموسم السنوي. وبالنسبة للاجازة في الحج فالأمر كذلك فهي مهمة موسمية تقوم في الحج فقط. أي أن تميما تتولى مؤقتا هذه الأعمال في مكة فتأتي لتحكم أولا في عكاظ ثم تتولى الاجازة وترحل باستثناء أولئك الحلفاء المقيمين في مكة دائما. وإذا افترضنا أن من يتولى قضاء عكاظ، وإجازة الحج من ضمن أولئك التميميين المستقرين في مكة فهذا يعني أنه يظل طوال العام مقيما كحليف فقط ولا يمارس أية أعمال الا عندما يحين الموسم وتعقد عكاظ ثم يبدأ الحج فيجيز الناس.

وثالثا: تولت تميم حكومة القضاء في سوق عكاظ فقط لا غير ولم تحكم في سوق

---

٢٨٩ ــ كستر، المرجع السابق ص ٢٥.

٢٩٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٠٥.

٢٩١ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٨٥ حاشية ٣، جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٢٥١. وجـ٤/٣٣٣.

٢٩٢ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٦٥٤.

المجنة ولا سوق ذي المجاز وهما أقرب إلى مكة من عكاظ مما يجعلنا نستنتج أن هدف تميم سياسي فهي تتولى قضاء عكاظ فقط لأنها قريبة من حدود أراضيها في نجد.

ورابعا : لم تقبل قريش ولا حتى مشورة تميم خارج نطاق تلك الوظيفتين بدليل رفض قريش لمشورة الشيخ النجدي يوم اختلافهم على وضع الحجر الأسود في مكانه يوم تجديد بناء الكعبة(٢٩٣). لأنه غريب أي أنها لم تسمح لأحد من غير قريش أن يتدخل في أمور مكة والتي تختص قريش بها.

ولم تحصل تميم على عشور أو مكافأة مالية من حكومتها لعكاظ ولكنها حصلت على مكانة بارزة وتقدير معنوي كبير مقابل مجهوداتها وتميزت بذلك بين العرب جميعاً واكتسبت احترامهم حتى أنها تفاخرت بمكانتها كثيرا جدا(٢٩٤). ونعتقد أنها حصلت على مكافأتها من الفرس.

وارتبطت قريش منذ القدم بعلاقات وثيقة بالنبط بل أن ابن عباس انتسب إليهم فقال: (نحن معاشر قريش من النبط. ومن أهل كوثى ربا) وقيل أن إبراهيم ولد بها وكان النبط سكانها(٢٩٥). والأنباط عرب برجوع أصلهم إلى عرب الجنوب ثم لعروبة الكثير من أسمائهم ولغتهم. بل أن الخط العربي الذي استعمل في كتابة الوحي مقتبس من الخط النبطي. وهو دليل على العلاقة القوية التي ربطت بين قريش والأنباط وتمثلت بوضوح أكبر في الناحية الدينية حيث عبدت قريش بعض آلهة الأنباط ووضعت أصنامها في جوف الكعبة مثل اللات والعزى ومناة(٢٩٦).

وقامت دولة الأنباط على أطراف منطقة فلسطين حوالي القرن الخامس قبل الميلاد وتميزت بحضارة عربية الأصل واللغة. ولكن كتابتها آرامية وذات مظهر هيليني في فنونها وهندستها المعمارية وديانتها سامية، وعاصمتها البتراء (بطرا) والحجر ولذلك سماها اليونانيون بلاد العرب الصخرية. وهي الرقيم عند العرب(٢٩٧).

ومما عمق الصلة بين قريش والأنباط، أن تزوجت أم قصي رجلا من بني عذرة ثم أن رزاح بن ربيعة بن حرام أخو قصي لأمه قد أعان قصيا وقريشا على اخراج خزاعة

---

٢٩٣ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٢٨.

٢٩٤ ــ كستر، المرجع السابق ص ٣٤، ٣٥.

٢٩٥ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٩٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٣/١٣، ١٤.

٢٩٦ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٤٢، زيدان، المرجع السابق ص ١٠٤، ١٠٦.

٢٩٧ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٩٤.

من مكة والدفاع عن الكعبة. وقبيلة عذرة من بقايا النبط وسكنت في أراضيهم ومنازلهم[٢٩٨].

وأما النهي الذي ورد في حديث عمر بن الخطاب بقوله تمعددوا ولا (تستنبطوا) فيحض على عدم السكنى في المدن مثل النبط[٢٩٩].

ومن أجل التجارة سعت قريش على توسيع علاقاتها وصلاتها، ومن أقدم تلك الصلات إرتباطها بالدول الكبرى في ذلك العصر ، بعهود الايلاف مع الفرس والروم والحبشة، واليمن. ومع ملوك الحيرة والغساسنة وسادات جميع القبائل العربية رغم تنافر تلك الدول فيما بينها واختلاف أهدافها السياسية إلا أن قريشا حافظت على العلاقة الطيبة مع الجميع[٣٠٠]:

وصلة العرب بالفرس أقدم من تاريخ عهود الايلاف القرشية حيث أدى العرب الجزية للملك قورش منذ سنة ٥٥٠ق. م. ثم ساعد الفرس العرب على تأسيس مملكة الحيرة الت عاشت قرابة أربعة قرون. وقد عاش بهرام جور بن يزدجرد الأول لدى النعمان بن أمريء القيس (الأعور) لينشأه نشأة عربية. فأجاد بهرام اللغة العربية إلى جانب لغات أخرى. وقد نظم بهرام شعرا فارسيا على نمط الشعر العربي فهو أول من فعل ذلك[٣٠١]. ولذا فقد التزم أهل الحيرة بحماية قوافل الفرس التجارية مقابل ما يدفعه من المال كجعل كبير أثناء مرورها في أراضي الجزيرة العربية.[٣٠٢] ومن هذه الصلة تحكم الفرس في أمور الحيرة. وكان بين العرب والفرس تبادل ثقافي وديني مما ترك أثره الواضح على الطرفين. وشمل كذلك الفنون الحربية ونظام الجيش ومشورة حفر الخندق التي قدمها سلمان الفارسي ونفذها النبي صلى الله عليه وسلم[٣٠٣].

وحكم الفرس هجر والبحرين واستعملوا بعض العرب في دواوينهم مثل لقيط الأيادي الذي كتب وترجم لكسرى. وكذلك قرأ زيد (أبو عدى) العربية والفارسية، أما ابنه عدى بن زيد فكان ترجمانا لكسرى أبرويز (٥٩٠-٦٢٨) وقد ورث الابن زيد بن عدى بن زيد منصب أبيه . وتعلم الحارث بن كلدة الثقفي الطب، وعزف العود في

---

٢٩٨ - زيدان، المرجع السابق ص ٩١، ٩٣.
٢٩٩ - جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٣٧.
٣٠٠ - جواد علي، نفس المرجع جـ٤/١٩.
٣٠١ - الحوفي، المرجع السابق ص ٤٣.
٣٠٢ - حمور، المرجع السابق ص ٢٠، ٢١.
٣٠٣ - حتي، المرجع السابق ص ١٢٨.

جنديسابور في فارس. وزار ابنه النضر بن الحارث الحيرة وفارس كذلك لشراء كتب الفرس ليأخذ منها أحاديثا تجذب الناس إليه لمقاومة الدعوة الاسلامية(٣٠٤). واتصلت قريش بالفرس، ثم وفدت على كسرى لأخذ الايلاف، ثم ذهبت وفود أبي سفيان إلى كسرى الفرس أيضا(٣٠٥). واتصلت قريش بالمناذرة كما ذكرنا وأنها تعلمت الكتابة من الحيرة. ثم زاد نشاط قريش التجاري معها(٣٠٦). وقد وفد عمر بن الخطاب مع شباب من قريش على النعمان، الذي أكرمهم وميزهم عن غيرهم ممن كان بحضرته(٣٠٧). واتخذ ملك الحيرة الصنائع من العرب أيضا يصطنعهم ليغزو بهم أي أنهم الجنود المرتزقة. واتخذ الوضائع من العرب أيضا وهم النخبة من شيوخ القبائل وساداتها. واستعملهم فعلا في حروبه في يوم السلان مثلا بقيادة أخيه لأمه وبرة بن رومانس والجيش العظيم معه. ولكن بني عامر بن صعصعة من الحمس وهم الذين تعرضوا للطيمة النعمان التي اعتاد إرسالها إلى عكاظ. وقد عزم النعمان على قتال بني عامر وأمر جيشه بذلك بعد انتهاء الأشهر الحرم.

ولما شعرت قريش بذلك أوعزت إلى بني عامر وحذرتهم. فاستعد بنو عامر واقتتل الفريقان في منطقة السلان وانهزم جيش النعمان وسلم ألف بعير دية لفداء أخيه وبرة وبعض الرؤساء(٣٠٨).

وأما العلاقات التجارية بين الفرس وأهل الحجاز عامة فقد كانت قوية جدا حيث جاب تجار فارس أسواق الحجاز جميعها. وقد أدى ذلك إلى بث بعض النظم السياسية في مكة، ويثرب خاصة(٣٠٩).

وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقة العرب باليونان والرومان، فقد عرف اليونانيون والرومانيون الجزء الجنوبي من جزيرة العرب الذي ذكره هيردوتس. ثم عرفوا الساحل العربي وأتوا اليه لأنه أرض الطيوب واللبان ويجلب أهله البهار من الهند والصومال(٣١٠).

٣٠٤ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٤٦.
٣٠٥ ـ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٧٣.
٣٠٦ ـ الشريف، مكة والمدينة ص ١٦٤.
٣٠٧ ـ الهمداني، أبو محمد الحسن، الاكليل، حرره وعلق على حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة بيروت، دار الكلمة صنعاء جـ٨/٢٨.
٣٠٨ ـ ابن الأثير، الكامل جـ١/ ٣٩١، ٣٩٢، جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٢٧٥ وجـ٥/٣٥١.
٣٠٩ ـ الزفاعي، المرجع السابق ص ١٣٩.
٣١٠ ـ حتي، تاريخ ص ٦.

فانعقدت الروابط الاقتصادية وكذلك السياسية عندما حاول الاسكندر المقدوني فتح بلاد العرب ثم توفي سنة ٣٢٣ق.م. [٣١١] وتبعه الامبراطور أغسطس حوالي سنة ٢٤ق.م بمحاولة أخرى فاشلة قادها إليوس جاليوس AEILUS GALLUS وانتهجوا الحروب وسيلة لتوطيد تجارتهم ونفوذهم. واتجهت الحملة إلى مأرب في الجنوب ولم تقصد مكة أو يثرب أو الطائف، لأنها كانت محطات صغيرة. وقد تلقن الروم درسا لا ينسى من فشلهم، واجتنبوا محاربة العرب . ولذلك رفضوا مساعدة نصارى نجران فيما بعد بأنفسهم.

وبعد قيام مملكة الغساسنة الذين اصطنعهم الرومان على تخوم البادية لصد هجمات البدو على مناطقهم، وعلى منطقة شرق الأردن وأجزاء من بلاد الشام، التي حكمها الرومان أيضا[٣١٢] تعمقت الصلات أكثر من ذي قبل وكانت التجارة هي المستمرة بين العرب وبلاد الشام والرومان. واستقر بمكة قناصل للروم مهمتهم رعاية مصالح تجارة الروم. كذلك تزوج بعض القرشيين بنساء روميات، واستعملوا الدنانير الهرقلية ضمن العملات النقدية في مكة. [٣١٣].

ويذكر الرواة أن القيصر ساعد قضيا على خزاعة عن طريق الغساسنة وقبيلة عذرة المتنصرة، والضاربة منازلها على مشارف بلاد الشام الخاضعة للنفوذ الروماني. [٣١٤]

واتصل الحجازيون باليمن أيضا منذ عهد الدول المعينية والسبأية والحميرية الذين كان لهم مناطق نفوذ في معان والعلا وغيرها من مدن الشمال منذ القرن الخامس الميلادي أو قبل ذلك إلى ٥٢٥م قبل نهضة مكة على يد قريش ولكن نفوذهم هذا لم يشمل مكة، بل قدسها أهل اليمن عامة وتبابعتهم خاصة عظموا الكعبة حتى أن أول من كساها التبع تبان أسعد أبو كرب وأمر الجميع بتعظيمها. ثم أن من أوائل سكان مكة قبائل جنوبية منها جرهم وخزاعة التي خدمت الحرم.

ثم أخذ المطلب بن عبد مناف الايلاف من أقيال اليمن لضمان رواج التجارة بين مكة واليمن منذ القرن السادس. واحتكرت قوافل قريش نقل مواد التجارة. مما جعل تجار اليمن يعتمدون كليا على تجار قريش. وبذلك حظيت قريش بالمكانة اللائقة بين عرب الجنوب المماثلة لمكانتها بين عرب الشمال[٣١٥].

---

٣١١ ـ لوبون، المرجع السابق ص ٩١.

٣١٢ ـ الشريف، دور الحجاز ص ٣٥، ٣٦، ومكة والمدينة ص ١٥٣.

٣١٣ ـ كحالة، مباحث أجتماعية ص ٩، ٣٦.

٣١٤ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٠٢.

٣١٥ ـ الشريف، مكة والمدينة ص ١٥٥، ١٥٦.

وزار عبد المطلب اليمن عدة مرات، ونزل على أحد عظمائها. وقد قام بتجديد الايلاف مع ملوك اليمن، لأن اليمن هي الوجهة الدائمة لرحلة الشتاء السنوية التي تقوم بها قريش من أجل التجارة[٣١٦].

وعبر اليمن تم اتصال قريش بالحبشة، لجلب العبيد منها والاتجار بهم ثم وفد إلى مكة نفر من صناع الحبشة. وأصدق دليل على حسن الصلات الوثيقة بين مكة والحبشة اختيارها كمهجر للمسلمين الأوائل الذين رحمهم النبي ﷺ وأختار لهم الهجرة الى الحبشة[٣١٧]. فارسلت قريش في أثرهم عمارة بن الوليد أحد فتاك قريش وعزيزها. رافقه عمرو بن العاص لمفاوضة نجاشي الحبشة في أمر أولئك المهاجرين[٣١٨].

ولكن من خلال هذه الصلات تذرع الرومان وبطريقة غير مباشرة للسيطرة على بلاد العرب. وقد اختاروا مكة في هذه المرة حيث أنهم كانوا أحد الدوافع القوية بل كانوا أهم دافع وراء حملة أبرهة على مكة يوم الفيل[٣١٩].

اضافة إلى مطامع الحبشة نفسها حيث راقب حكام الحبشة أحوال الجزيرة منذ القدم لمحاولة ايجاد الفرصة للسيطرة على بلاد العرب.

وقد قامت أقدم محاولة جنوبية للسيطرة على مكة منذ عهد خزاعة عندما رغب أحد التبابعة في هدم البيت وتخريبه. ولكن خزاعة صدته وحمت البيت ودافعت عنه دفاعا مجيدا[٣٢١] وقد ساعدتهم قريش وكنانة في عهد فهر بن مالك[٣٢٢].

ثم تلا ذلك محاولتان أخريان حيث عزم تبع آخر على هدم الكعبة وتخريب البيت ولما دخل مكة عظمها وأجل البيت والحرم. وأما الثالث فهو الذي حرضته هذيل وفي عهد قريش، فسار الى مكة وفي الطريق استشار بعض الأحبار من أهل الكتاب فاقترحوا عليه أن يكسي البيت وينحر عنده ويعظمه، وأنفذ رأيهم. وأمر أن تضرب أعناق الهذليين وأن يصلبوا جزاء لما كادوه لقريش من الحسد لمكانتهم من البيت وولايتهم له[٣٢٣].

---

٣١٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٧٧.
٣١٧ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٥٨.
٣١٨ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٧٠.
٣١٩ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤٢٣.
٣٢٠ ــ ولفنسون، المرجع السابق ص ٩٩.
٣٢١ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٠٣، ١٣٢.
٣٢٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٢/٥٨٤ وجـ٤/١٦.
٣٢٣ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٣٢، ١٣٣.

ومحاولة أخرى قصتها أن أهل اليمن صابئة من عبدة النجوم والكواكب كالشمس والقمر ثم دخلت المسيحية اليهم حوالي سنة ٣٥٦م ، وبلغت نجران حوالى سنة ٥٠٠م ثم دخلت اليهودية إلى اليمن أيضا حوالي مطلع القرن الخامس الميلادي. عندما اعتنقها أبو كرب أسعد[٣٢٤] وعندما شن ذو نواس مذبحة نصارى نجران التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. هب الرومان موفدين الأحباش لحماية المسيحية. وتم النصر للأحباش بقيادة أرياط وقائد جيشه أبرهة، وكان لهذه الحملة أهداف سياسية واضحة[٣٢٥]. وبعد أن استولى أبرهة ابن الصباح (الأشرم) على اليمن قتل أرياط[٣٢٦] عام ٥٢٤ تحت نفوذ ملك الحبشة أصحمة النجاشي ولكن في عام ٥٥٣م استقل أبرهة باليمن وأعلن نفسه ملكا وعقد الصلات مع الفرس والروم، وبالتالي مع اللخميين[٣٢٧].

ودام حكم الأحباش على اليمن من ٥٢٥-٥٧٥م وبنى أبرهة القليس وهي الكلمة اليونانية EKKLESIA وتعني كنيسة وهدف من ذلك منافسة كعبة مكة لجني الفوائد الاقتصادية. والمكانة الدينية بدلا عن مكة. ولما تسامع العرب بذلك عمد شخصان من بني فقيم الى تدنيس القليس بالقاذورات وتلطيخ حيطان البناء[٣٢٨] وقد بنى أبرهة هذه الكنيسة في صنعاء قرب قصر غمدان العظيم[٣٢٩]. وكتب إلى النجاشي يخبره ببناء الكنيسة الجديدة.[٣٣٠] وقد تكدر أبرهة جدا لما صدر من العربيين فغضب كثيرا لما حل على بنائه الجميل والذي أبدع في تزيينه ونصب عليه صلبانا ذهبية وفضية ومنابر من العاج، ومن خشب الأبنوس. وبالغ كثيرا في ذلك[٣٣١]. وسخر أغلبية أهل اليمن في البناء وجشمهم أنواع التعب والعناء. ونقل اليها الرخام والأحجار من قصر بلقيس وافتخر بها كثيرا[٣٣٢]. ولذلك حلف على هدم الكعبة التي في مكة واستعد لحملته

---

٣٢٤ ـ حتي، تاريخ العرب ص ٧٣، ٧٤.

٣٢٥ ـ حوالي سنة ٥٢٣م أنظر حتي، نفس المرجع أعلاه ص ٧٥.

٣٢٦ ـ الألوسي، المرجع السابق ص ٥١.

٣٢٧ ـ SALIBI, OP. CIT., P. 71.

٣٢٨ ـ الحموي، المرجع السابق جـ٤/٤٩٤، ٤٩٥.

٣٢٩ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٣٧.

٣٣٠ ـ الحموي، المرجع السابق جـ٤/٤٩٥، مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٣٨٠.

٣٣١ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٦٣.

٣٣٢ ـ إبن الكلبي، الأصنام ص ٤٦، إبن سعد، المرجع السابق جـ١/٩١، إبن الأثير، الكامل جـ٢/١٧٠.

المشهورة[٣٣٣]. بسبب تلويث العربيين للقليس وقيل أن فتية من قريش أشعلوا نارا لطهي طعامهم فأججتها الريح مما أدى إلى احتراق القليس وتهدمها[٣٣٤]. ويرجع البعض سبب الحملة إلى مقتل محمد بن الخزاعي[٣٣٥].

وكانت هزيمة أبرهة مريرة جدا. ولكنها أكبر مكرمة أنعم الله بها على قريش تكريما للبيت المعظم (الكعبة)[٣٣٦]. وكان لهذه المكرمة وذلك الاندحار على تلك الصورة المؤلمة أثر بالغ على جميع العرب في جزيرتهم طولا وعرضا، على الأحباش، وأهل اليمن خاصة وبعد موت أبرهة بفترة وجيزة زادت هيبة قريش والبيت وكل ما يتصل بمكة بأسرها.

واصطبغت هذه الحملة بصبغة دينية رغم أن جوهرها وأهدافها سياسية بحتة[٣٣٧]. حيث قامت تلك الحملة على خطة سياسية ترمي إلى اخضاع مكة بدافع من البيزنطيين[٣٣٨]، الذين هدفوا إلى ربط اليمن ومكة ببلاد الشام لضم جنوب وغرب الجزيرة تحت السيطرة النصرانية والسياسة البيزنطية. فيجني الجميع تلك الفوائد الجمة على الصعيدين السياسي والاقتصادي. وتتمكن سفن الروم أن تسير في أمان وسلام عبر البحار العربية إلى الهند وسيلان وجميع بلاد الشرق.

ثم يتخلص الروم من الأسعار الباهظة التي يفرضها العرب على تلك السلع التجارية النادرة والتي تجلب من الشرق عبر بلاد العرب[٣٣٩].

ثم بعد موت أبرهة انتصر القائد سيف بن ذي يزن على الأحباش حوالي سنة ٥٧٥م واستقل باليمن. فأتته وفود العرب إلى صنعاء لتهنئه بهذا الفوز والنصر المبين ومعهم وفد قريش يتقدمه عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وأسد بن عبد العزيز، وعبد الله بن جدعان. وقد استقبلهم في قصر غمدان. ولما تحدث إلى عبد المطلب وتعرف اليه قربه منه وقال عنه (إبن أختنا . .) وكافأهم بالعطايا والأموال[٣٤٠]. وكان في

---

٣٣٣ ــ حوالي سنة ٥٧٠م أنظر
SALIBI, OP. CIT. P. 711, GRUNEBAUM, OP. CIT. P. 28.

٣٣٤ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٨٩، ١٩٠، جواد علي المرجع السابق جـ٣/٥١٠، ٥١٢.

٣٣٥ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٣/٥١٨.

٣٣٦ ــ إبن هشام، المرجع السابق جـ١/٦٠.

٣٣٧ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٣/٥١٧، وجـ٤/١١٤.

٣٣٨ ــ GRUNEBAUM, OP. CIT. P. 28.

٣٣٩ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٣/٥١٧، ٥١٨.

٣٤٠ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٧٨، ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ١/٢٤١، المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٥٨، ٥٩.

وفد قريش خويلد بن أسد أيضا وجماعة من وجوه قريش[٣٤١]. منهم وهب بن عبد مناف كذلك[٣٤٢].

ونستخلص من ذلك أن علاقة مكة باليمن وأهل الجنوب حسنة، وقد دامت على ماكانت عليه، ولم يعترها وهن او أنفصام حتى بعد حادثة الفيل حيث حرصت قريش على أن تكون مع المهنئين بل وفي مقدمتهم لتوطيد العلاقات واستمراريتها سياسيا وتجاريا.

الأحـــــلاف :

قامت قريش بحـركـة اجتـماعية اصـلاحية لتحقيق العـدالـة الاجتماعية الشاملة ولاشاعتها بين الجميع فعقدت حلف الفضول[٣٤٣]. حيث انتهى الفجار الأخير في شهر شعبان، وبعد ذلك بحولي أربعة أشهر اجتمع سادة قريش ووجهاء القوم في منزل عبد الله بن جدعان[٣٤٤]، وقد اختاروها لمكانته وشرفة ولثرائه[٣٤٥]. فأقرت قريش رفع الـظلم عن كل مظلوم في مكة من أهلها ومن غيرهم. وأقرت رد الظالم عن ظلمه، واحقاق حق المظلوم الضعيف. حتى يحصل على حقوقه كاملة من القوى الغاشم[٣٤٦].

---

٣٤١ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٤٩.

٣٤٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٩٩.

٣٤٣ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٩.

٣٤٤ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٥٦.

٣٤٥ ـ وتقع دار بن جدعان في ربع بني تيم وهي دار كبيرة فخمة. وتطل على الوادي كله وقد بقيت معروفة في مكة حتى بعد وفاة صاحبها. أنظر جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٠٠.

٣٤٦ ـ وتم عقد حلف الفضول بسبب رجل من زبيد قدم مكة للتجارة فباع بضاعته الى العاص بن وائل الذي امتنع عن دفع ثمنها. لجأ الزبيدي إلى الأحلاف ولكنهم رفضوا مساعـدته ثم صعـد على جبـل أبي قبيس عنـد شـروق الشمس ونـادى فـي قريش وهـم فـي أنديتهم وأعلـن مظلمته قائـــلا :

يا آل فهـر لمظلوم بضـاعـتـه ... ببـطن مكـة نائـي الـدار والـنـفـر

ومحـرم أشعث لم يقض عمـرتـه ... يالـلرجـال وبـين الحـجـر والحـجـر

إن الحـرام لمن تمت كرامـتـه ... ولا حرام لثـوب الـفـاجـر الـغـدر

أنظر ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٩١، العسكري، المرجع السابق ص ٤٦.

وسمع الزبير بن عبد المطلب منه، واجتمع بنو هاشم وزهرة، وأسد، وتيم وبنو المطلب، أنظر ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٤٣، ابن حبيب، المحبر ص ١٦٧، ثم صنع ابن جدعـان طعـامـا لهم وتحـالفـوا على نصرة المظلوم مابل بحرصوفه، ومارسى ثبير وحراء. وتسامعت بقية قريش بالحلف فقالوا ان القوم دخلوا في فضل من الأمر. واعادوا للزبيدي حقه وقال الزبير بن عبد المطلب:

=

وقد شهد هذا الحلف محمد بن عبد الله ﷺ مع أعمامه . وقد ذكره في الإسلام وأشاد بفضله ، وأهميته في المجتمع وتمنى لو يدعى لمثله في الإسلام فيجيب[٣٤٧] .

وتم عقد حلف الفضول في شهر ذي القعدة قبل البعثة بعشرين عاما[٣٤٨] . أي حوالي سنة ٥٩١م[٣٤٩] . وأما ما ذكر بأنه تم حوالي سنة ٥٩٥[٣٥٠] فهو غير صحيح وذلك بحساب التأريخ من عام الفيل الذي ولد فيه الرسول ﷺ سنة ٥٧٠م وقد وقع الفجار وعمر الرسول خمسة عشر عاما ، ودام الفجار خمس سنوات ثم بعد ذلك تم الحلف وعمر الرسو ل عشرين عاما وقبل مبعثه بعشرين عاما أيضا . وقد دعوه باسم حلف الفضول لأسباب عدة[٣٥١] . وأيا كان سبب تعليل تسمية هذا الحلف ، فانه كان حلفا ساميا عظيما . ونعتقد أن اسمه يدل على مضمونه ، فالفضل والخير في نتائجه[٣٥٢] .

=

حلفت لنعقدن حلفا عليهم — وان كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا — يعز به الغريب لدى الجوار

وقال أيضا :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا — ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا — فالجار المعتر فيهم سالم

أنظر ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٩٢ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢١٠ .

٣٤٧ ــ ابن كثير، نفس المرجع جـ٢/٢٩٢ .

٣٤٨ ــ السهيلي ، المرجع لسابق جـ١/١٥٥ .

٣٤٩ ــ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤/٨٦ .

٣٥٠ ــ سيديو، المرجع السابق ص ٥٩ .

٣٥١ ــ فهو الفضول لمشابهته بحلف عقده الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة وهم من جرهم . أنظر ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢٦ .
وقيل بل أنه فضول على الأحلاف ، أو لجمع الفضول من أقوالهم لحل المشاكل . أنظر جواد علي ، نفس المرجع جـ٤/٨٦ ، ونادى إلى الحلف الزبير بن عبد المطلب بل هو الذي كتبه بين القوم . أنظر، ابن حبيب ص ٢٢١ .

٣٥٢ ــ ومن نتائجه التي حققها ، اعادة القتول الخثعمية إلى أبيها بعد أن اختطفها من نبيه بن الحجاج لأنها كانت امرأة جميلة فاتنة . أنظر ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٩٢ ، السهيلي ، المرجع السابق جـ١/١٥٧ . بل لقد أخاف ذكر عصبة الحلف كل الناس وردهم عن بغيهم كما حدث مع أبي بن خلف بن وهب الجمحي عندما استباح حقوق رجل من ثمالة . فاشتكاه الرجل إلى جماعة حلف الفضول ، ولما علم أبي بن خلف بذلك أعاد إلى الرجل كل حقوقه تقديرا لهيبة الحلف . حيث توقى ابن خلف ما لاتحمد عقباه منهم . أنظر ابن حبيب ، المنمق ص ٤٥ وما بعدها .

ومن ذلك نستنتج أن عمل حلف الفضول يشبه عمل المحاكم التجارية ومحكمة مدنية لها سلطة تنفيذية قوية على أهل مكة. وقد ضمن حقوق المظلومين والضعفاء، فأصبح الحلف الجهة الرسمية (القانونية) والمسؤولة عن تأدية الحقوق، وايجاد الحلول للمشاكل المالية والاجتماعية[٣٥٣].

ولأهمية الحلف، وعظمة شأنه بين القوم، فقد أرخوا بحلف الفضول كعادتهم في التأريخ بالأحداث الهامة[٣٥٤].

ومما عقدته قريش من أحلاف داخلية فيما بينها حلفا هاما هو حلف المطيبين والذي عقد عقب النزاع بين بني عبد الدار وبين بني عبد مناف[٣٥٥]. حيث أوشكوا على الاقتتال لولا أنهم تدبروا الأمر واتفقوا. ولكنهم رغم ذلك فقد تمسكوا بموقفهم، وبقوا على تحزبهم منذ موت قصي[٣٥٦]. حوالي نهاية القرن الخامس الميلادي. وظلوا منقسمين إلى حزب المطيبين وحزب الأحلاف (لعقة الدم). وحتى في مقابرهم حيث جعلوا مقبرة خاصة للمطيبين تقع في شمال مكة (المعلاة). ومقبرة الأحلاف في جنوبها ويعتقد أنها مقبرة الشبيكة التي لا توجد مقبرة غيرها في جنوب مكة (المسفلة)[٣٥٧]. وآخر ما عقدته قريش من أحلافها حلف صغير طاريء فرضته الأحداث يوم تجديد بناء الكعبة بعد الفجار بخمسة عشر عاما[٣٥٨]. فبعد انتهاء البناء. وعندما وصلوا إلى وضع الحجر الأسود في مكانه، دب الخلاف بينهم على الشخص الذي سيكون له الشرف وسيتولى وضع هذا الحجر المبارك في مكانه، فينال بذلك الشرف الأسمى، والقدر الأعظم، وحسما لهذا الخلاف قام بنو عبد مناف بعقد حلف ومعهم بنو عدي فقربوا جفنة الدم وتعاقدوا على الموت. وغمسوا أيديهم في الدم ثم لعقوه فسموا لعقة الدم، وتأهبوا للقتال في سبيل ذلك وظلوا متربصين أربع ليال إلى أن أشار أبو أمية بن المغيرة وكان أسن قريش، بأن يجعلوا بينهم حكما، ولتلافي الاختلافات على الحكم جعلوا المجهول خير حكم لهم حيث اتفقوا على تحكيم أول من يدخل من باب المسجد. فدخل عليهم محمد بن عبد الله ، وسروا بذلك لمكانته منهم فهو الأمين الذي عرف بينهم بذلك قبل أن يبعث. واحتكموا إليه. فواتاهم محمد بالحل الفوري الذي أرضى جميع المتنازعين بأن

---

٣٥٣ ــ حمور، المرجع السابق ص ١١١.

٣٥٤ ــ المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٢٠٩.

٣٥٥ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٢٦٧.

٣٥٦ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٤٢ وص ٢٢٠، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٧٦.

٣٥٧ ــ الفاسي، نفس المرجع جـ١/٢٨٧.

٣٥٨ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠١.

طلب ثوبا بسطه على الأرض فوضع الحجر في وسطه. ثم دعا رؤساء البطون القرشية لحمل الثوب وفي وسطه الحجر إلى أن وصلوا به الكعبة وعندئذ تناوله محمد بيده الكريمة ووضعه في مكانه وأتموا البناء[٣٥٩]. وقد جددوا بناء الكعبة حوالي سنة ٦٠٥م[٣٦٠].

وفي نظرنا أن هذا الحلف ما هو الا تجديد لحلف بني عبد الدار السابق من حيث طريقة التحالف ومن حيث أعضاء الحلف المشتركين ولكن الذي أبرمه وجدده بنو عبد الدار وبنو عدى فقط.

ويتضح من ذلك حرية أعضاء الحلف في تجديده لأغراض أخرى غير السابقة أو رفض الغرض الجديد والانسحاب بعدم المشاركة مع البقاء على الحلف القديم. ومع ما اتخذوه من طقوس وشعائر عند عقد الأحلاف فقد اعتمدوا على اجتماع جميع الأطراف المتحالفة واجماعهم على الاتفاق واعتمدوا تدوين أحلافهم وذلك بكتابتها وتسجيلها في صحف. ثم تحفظ لدى المتعاقدين أو في الكعبة وقد أهتموا بالتعريف بالشؤون السياسية العامة، باعلام جميع الناس بها ونشرها بينهم. فكانوا يعلقون الصحيفة على جدار الكعبة ليراها الملأ من قريش والناس عامة، ثم تحفظ في جوفها. ومن أمثلة ذلك صحيفة المقاطعة التي مارستها قريش ضد بني هاشم[٣٦١].

وكتبوا حلف الفضول ومثله ما حدث عند هجرة الرسول ﷺ وسلم إلى المدينة في الإسلام حيث كتب بين المهاجرين والأنصار عقدا ينص على أن يحتفظ كل من الأنصار والمهاجرين بما اعتادوا عليه (يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى) في أخذ الديات ونحو ذلك[٣٦٢].

النواحي العسكرية :

قلدت بعض القبائل والعشائر العربية التي خالطت الفرس والروم نظام الجيش لدى تلك الدول. فقد قسم النعمان بن المنذر (ملك الحيرة) جيشه إلى خمسة كتائب وجعل لكل منها اسما خاصا وهي : الكتيبة الأولى الدوسر، والثانية الرهائن وتتألف من ٥٠٠ رجل كلهم رهائن من قبائل العرب يتجددون سنويا. حيث تستبدل الخمسمائة رجل بغيرهم عندما يفد أصحاب الرهائن على الملك سنويا في فصل الربيع لاستبدال رهائنهم. ويقيمون شهرا في ضيافة الملك الذي له الحق في أن يستعمل هؤلاء الرهائن

٣٥٩ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢٨، ٢٩، الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠١.
٣٦٠ ــ سيديو، المرجع السابق ص ٥٩.
٣٦١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٨٢، جـ٥/٦١٣.
٣٦٢ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٥/٥٩٥.

في حروبه وغزواته. والكتيبة الثالثة خواص الملك، والرابعة الوضائع وتتألف من ألف رجل يرسلهم كسرى الفرس إلى عامله على الحيرة للعمل معه عند الضرورة ويتبدلون سنويا كالرهائن. والكتيبة الخامسة الأشاهب وهم أقرباء الملك.

فيتضح مما تقدم بأن بعض العرب قبل الإسلام قلد واقتبس، وبعضهم لم يعرف الجيوش النظامية[٣٦٣]. وساد نظام مشابه لذلك في المشيخات والامارات في جنوب الجزيرة[٣٦٤].

وكانت مكة كسائر المدن العربية ليس لها جيش نظامي ثابت وانما اعتمدت على رجال قريش، ومن ينضم اليها من حلفائهم في تشكيلاتها الحربية[٣٦٥]. وفي مقدمة حلفائها جماعة الأحابيش ولهم كيان مستقل وسيد يقوم بأمرهم[٣٦٦]. وقد رأى بعض المستشرقين أن هؤلاء الأحابيش هم مجموعة من العبدان، والعرب المرتزقه[٣٦٧]. ولكن اتضح انهم عرب من كنانة، وقد رجعت تسميتهم نسبة الى المكان. وكذلك لخضوعهم لحكم الحبشة قبل الإسلام بزمن طويل[٣٦٨].

وإلى جانب فرقة الأحابيش فهنالك الموالي المقيمون في مكة، وعبيد قريش الذين تميزوا بقوتهم العضلية وشجاعتهم التي تقهر الخطر، والطاعة العمياء دائما. فافادت قريش من كل أولئك[٣٦٩].

واعتمدوا قوام الحياة العسكرية في مكة على الجنود والمأجورين من بدو تهامة سواء من كنانة أو خزاعة. كما اختارت الرجال الأشداء للشرطة وضباط الجيش الكبار من غفار حيث كان الغفاريون هم رجال الشرطة[٣٧٠].

وتولى القرشيون أنفسهم قيادة الجيوش في الحروب القليلة التي خاضوها. فالجرارون من قريش هم قادة الجيوش. ويمنح هذا اللقب للقائد الذي يتولى قيادة ألف مقاتل (جندي). والجرارون من قريش أثنان هما:

---

٣٦٣ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٢٦١.
٣٦٤ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٣٧.
٣٦٥ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٢١.
٣٦٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٤.
٣٦٧ ــ GRUNEBAUM. OP. CIT. 20 جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٣٢.
٣٦٨ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٣٢.
٣٦٩ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٥٦.
٣٧٠ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٢٦٢.

١ ــ المطلب بن عبد مناف حيث قاد قريشا وأحلافها (الأحابيش) من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وعضل والديش من بني الهون بن خزيمة، والمصطلق والحيا من خزاعة وكان ذلك يوم ذات نكيف لمحاربة بني بكر بن عبد مناة بن كنانة.

٢ ــ أبوسفيان صخر بن حرب الذي قاد قريشا وكنانة مرتين أولاها يوم أحد والأخرى يوم الخندق لمحاربة النبي ﷺ[٣٧١].

وتولى حرب بن أمية قيادة قريش يوم الفجار. وكانت القيادة إلى بني أمية دائما وكان أبو سفيان صخر بن حرب صاحب عير قريش يوم بدر أيضا. وعليه كان اعتماد مكة يوم فتحها. وقد أيد النبي ﷺ مكانة أبي سفيان وعززها بأن أعلن أن كل من دخل دار أبي سفيان فهو آمن[٣٧٢].

وبذا يتعين أن آل أمية كانوا أصحاب جيش قريش وقادتها في الحرب وأصحاب قيادة قوافلها التجارية كذلك[٣٧٣].

وقد ذكرنا سابقا أن أهم الوظائف السياسية في مكة هي اللواء. وقد تولاها قصي منذ تولي أمر حكومة مكة وهذا اللواء هو راية قريش التي ينضوون تحتها في حروبهم ويحافظون عليها دائما ويسمونها العقاب[٣٧٤]. وهي من القماش الأبيض يخرجها صاحبها ويعقد اللواء على أطراف الحراب ويقدمها للقائد الذي سيتولى قيادة المعركة. ودام هذاالتقليد (عقد اللواء) إلى صدر الإسلام. وقد توارثه أبناء قصي من بعده فتولاها عبد الدار[٣٧٥]، ثم بنو أمية.

ولقد تقلد العرب بعض الوظائف العسكرية والمدنية مثل الردافة لدى ملوك الحيرة وهي تشبه الوزارة. والعريف والرائد، والنقيب[٣٧٦].

ولكن قريشا لم تستعمل هذه الألقاب واستبدلتها بما يناسب وضعها الديني والتجاري والسياسي حيث كان السادة يتبادلون مهمات الحرب وتمثيل قريش لدى الملوك

---

٣٧١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٤٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٤٠٧.
٣٧٢ ــ المبرد، المرجع السابق جـ١/١٨٧.
٣٧٣ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٥٢٠، ٥٢١.
٣٧٤ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٤٣٥.
٣٧٥ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٥٧.
٣٧٦ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٣٧، ٣٨.

أو شيوخ القبائل إذا وجب الأمر. وأسندوا السفارة إلى بني عدى، والقيادة إلى بني حرب بن أمية.

وتحدد مواهب السادة مكانة كل منهم فظهر في قريش فرسان أبطال تقدموا الصفوف وقت الحرب منهم هبيرة بن أبي وهب المخزومي، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل بن هشام. وحمزة بن عبد المطلب[٣٧٧]. الذي اتخذ الفروسية هواية ومهنة حيث مارس الصيد والقنص.

واستعمل العرب آلات حربية بسيطة وهي تلك الأسلحة المعروفة لديهم من سيوف ودروع، ورماح وحراب وأقواس وسهام. واعتنوا باقتناء الأسلحة خاصة أسلحة الرماية لبراعتهم فيها وحاجتهم إليها في الصيد والقنص[٣٧٨].

ومن أنواع السيوف المشهورة المشرفية، والسيوف السريجية. وهنالك الرماح اليزنية، والخطية، الردينية. ومن أجود أنواع القسى الماسخية، وهنالك الدروع الحطمية، والسلوقية. ويتخذ المجن من جلد ليرد ضربات السيوف عن أجسادهم والمنجنيق آلة لرمي الحجارة[٣٧٩].

واشهر السيوف القرشية ذو الغفار وهو سيف العاص بن ضبه بن الحجاج السهمي، الذي قتله علي بن أبي طالب ثم أخذ سيفه ذا الغفار وأهداه إلى النبي ﷺ والعطشان سيف عبد المطلب بن هاشم، والليلاح سيف حمزة بن عبد المطلب[٣٨٠].

ولم تكن لهم ميزانية خاصة لشراء الأسلحة وتأمينها فقد كان الفرد منهم يقتني السلاح ويمتلكه بصفة شخصية بدليل أن لكل فارس منهم سيفه الخاص حتى أنه يعطيه اسما[٣٨١]. وإذا حز بهم أمر، وأرادت قريش الاشتراك في حرب، يترافد القوم منهم بالسلاح فابن جدعان قد سلح مائة رجل سلاحا كاملا وكذلك فعل الآخرون، وفرقت قريش السلاح يوم الفجار[٣٨٢].

ذكرنا سابقا أن دار ابن جدعان هي مقر مستودع الذخيرة وقد نصبت قريش القبة وقت الحرب لتجمع فيها سلاح الجيش وكل تجهيزاته وكانت القبة موكلة إلى بني مخزوم

٣٧٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٥٢٨.
٣٧٨ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ٢٦٢.
٣٧٩ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ٨٩، ٩٠.
٣٨٠ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٥١٨.
٣٨١ ــ ابن حبيب، نفس المرجع أعلاه ص ٥١٢، ٥١٣.
٣٨٢ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٦١.

وآخر من تولاها منهم خالد بن الوليد. وكانت لهم الأعنة أيضا وهي شؤون خيل قريش وقت الحرب[٣٨٣].

ومارست قريش سياسة المقاطعة لاخضاع الخصم بحصاره وقطع الميرة والمؤن لتجبره على الاستسلام وهي خطة تنتهجها الحكومات للضغط وأجبار العدو على التسليم في الحرب. ودليل ذلك حصار النبي ﷺ وجميع بني هاشم معه حتى تجبرهم على التخلي عن محمد وترك حمايته[٣٨٤].

ولم يكن لأهل مكة وكذلك أهل المدينة معرفة بحفر الخنادق والاستفادة منها وقت الحرب. وقد استعملها النبي ﷺ بناء على اقتراح سلمان الفارسي يوم غزوة الخندق. وقيل أن كلمة خندق معربة عن الفارسية. وقد نجحت الخطة في انقاذ المدينة يومذاك. وكانت الخنادق منتشرة في اليمن حيث أحاطوا بها المدن وفي فلسطين والعراق كذلك. وكان عرب الحجاز على صلة بتلك المناطق الا أنهم لم يقتبسوها منهم[٣٨٥].

ولم يكن أهل مكة بحاجة إلى الخنادق لحصانة الوادي الطبيعية، وقداسته الدينية فهو أرض حرم لا يحل القتال فيه.

ومن عادات العرب وقريش أنهم اذا هبوا للحرب دقوا بينهم عطر منشم[٣٨٦]. ويقصدون ذلك أنهم نذروا أنفسهم للمخاطر وأنهم سيحاربون حتى الموت.

وكانت وسيلة نقلهم وركوبهم في الحرب الخيول ولذا حرصوا على العناية بها وعلى تربيتها وجعلوا لها أسماء حتى عدوا منها ١٥٧ فرسا سوابق معروفة ومشهورة في الجاهلية وصدر الإسلام وتضاف اليها خيل الرسول محمد ﷺ[٣٨٧]. وكانت خمسة خيول هي لزاز، ولحيف أو لحاف، والمرتجز، والسكب، واليعسوب[٣٨٨]. وهنالك فرس المقداد بن الأسود (ذو العنق) والتي تعتبر من أشهر خيل قريش[٣٨٩]. والورد وهو فرس حمزة بن عبد المطلب. وسبخة وهي فرس جعفر بن أبي طالب الشقراء التي استشهد عليها يوم

٣٨٣ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/ ٤٣٩.
٣٨٤ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٤٥٩.
٣٨٥ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٤٥٣.
٣٨٦ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٢، ١٦٣.
٣٨٧ ــ ابن الكلبي، هشام بن محمد ابن السائب بن بشر، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، سنة ١٩٦٥م، القاهرة ص ١٣٣.
٣٨٨ ــ ابن الكلبي، أنساب الخيل ص ١٩، ٢٠.
٣٨٩ ــ ابن الكلبي، أنساب الخيل ص ١٠٧.

مؤته[٣٩٠]. وأطلال من خيل قريش أيضا ملكها بكير بن عبد الله بن الشداخ. وقد شهد بها القادسية مع سعد بن أبي وقاص[٣٩١].

ونظرا لما انتشر بين العرب من تكالب على الغزو والحرب واعتماد على السلب والنهب وحيث أن قريشا اجتنبت هذا الغزو وتلك الحروب بل انها كانت داعية إلى السلام فقد عيرها العرب بأنها لا تجيد الكر والفر، ولا تعرف القتال، وأنها تخاف الغالب، وتراضيه وتجاريه. ليس ذلك وحسب بل انها لا تبرح مكة الا بخفارة وتتخذ الأحلاف، والحلفاء، في كل مكان، والايلاف وأهل الالف حماة لها ودروع تتقي بهم الهجمات. حتى أن صاحب الحيرة النعمان بن قبيصة الطائي لما عرف أن قائد الجيش الإسلامي يوم القادسية هو سعد بن أبي وقاص القرشي، استهان بأمره وعزم على قتاله وهزيمته[٣٩٢] ولكن النتيجة أن الله خيب ظنه وآتى سعد بنصره المبين.

أما أشهر حروب قريش قبل الإسلام فهي المناوشات التي خاضتها في أيام الفجار الأربعة. وكان أولها فجار الرجل وهو بدر بن معشر، والثاني فجار الرّبّاح (وهو القرد)، والثالث فجار المرأة القيسية، ثم الرابع فجار البراض وهو أعظمها[٣٩٣] وقد اعتمدت قريش في حروب الفجار على قريش الظواهر والأحابيش وقد هزمت في ثلاث معارك من معارك الفجار الأربع مما أثبت وصمها بالتخاذل عن القتال الذي لا تحسنه[٣٩٤]. ولكن ذلك مدحوض، مردود على ضوء ما نراه من وضعها واستعداها الحربي حيث أنها لم تجتنب القتال والحرب لعجز رجالها عن ذلك، ولا لطبيعة جبانة في خلقهم، أو خوف ورعدة أبنائها. بل توفرت مادة الحرب من الرجال والذخيرة والتنظيم العسكري، وإقامة الحاميات حول مكة ممثلة في قريش الظواهر والأحابيش ثم ما أبدته قريش في حروبها مع المسلمين الذين كان منهم قرشيون أيضا. فالرجال الفرسان مادة الحرب الأولى في ذلك الوقت كان لهم معرفة بفنون القتال والمبارزة عند مواجهة القتال والحرب[٣٩٥].

وتجنبت قريش الحروب لما أملته عليهم قدسية المكان وتحريم القتال في مكة، ثم

٣٩٠ ـ إبن حبيب، المنمق ص ٥١٢، ٥١٣.
٣٩١ ـ إبن الكلبي، أنساب الخيل ص ١١١.
٣٩٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٣٧، إبن الأثير، الكامل جـ٢/٣١٣.
٣٩٣ ـ المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٢٠٩.
٣٩٤ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٢١.
٣٩٥ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٥٦٧.

طبيعة التجارة التي هي مورد رزق أهل مكة وعماد حياتهم، والتي لا تعيش، وتروج إلا في أمن وسلام[٣٩٦].

فالأمان والمسالمة وفرا لقريش حياة الثراء والرفاه الذي تمتعت به أكثر وليس بغريب أن تعشق أمة من الأمم السلام والأمان وتسعى من أجله فتتخذ شتى الوسائل والسبل لتحقيقه ونشره في جنبات بلادها كما فعلت قريش تماما في كل طرفي سياستها الداخلية والخارجية.

حـروب قـريش :

وتعرضت قريش لمناوشات. ومن أولى مناوشاتها تلك، بغى كان بين بني السباق بن عبد الدار وبين بني سعد بن تميم. كذلك وقع بغي آخر سمي بغي الأقايش نسبة إلى بني أقيش وهم من بني سهم، فبغي بعضهم على بعض حتى أهلكهم الله وأحرق دارهم فلم يبق منهم أحد[٣٩٧].

ومن أولى المناوشات وأقدمها أيضا ذلك أن بني بكر كانت مضغنة لقريش وتبغضها. وفي عهد المطلب رغبت في اخراج قريش من مكة فلذلك عدت بنو بكر على أنعام لبني الهون[٣٩٨]، والتي تخص شريفا منهم هو عواف وقتلوا ابنه وكان عواف هذا حليفا لهشام بن المغيرة والعاص بن وائل فاشتكى إلى حليفيه، اللذين طلبا القود من قتادة بإبن القاري (إبن عواف) فرفض بلعاء أخو قتادة مطلبهم، فاجمعت قريش على قتالهم ومعها الأحابيش. فالتقت بهم في ذات نكيف من نواحي يلملم، يقود جيش قريش المطلب بن عبد مناف على رأس ألف مقاتل من بني عبد مناف وحلفاء قريش. ويقود الأحابيش حطمط بن سعد أحد بني الحارث وأبو حارثة والحبشي بن عمرو.

ومن بني بكر بلعاء بن قيس واخوته جثامة، وحميصة، وقتادة، كلهم من بني قيس ويفوق عددهم قريشا. فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا حتى غلبت قريش على بني بكر. والمطعم بن عدي في إثرهم يستأصل شأفتهم بسيفه. ويشجعهم حرب بن أمية ويحرضهم على المضي في القتال حتى التجأت قبيلة بكر الى الحرم تتعوذ به. ثم اجتمعت قريش والأحابيش، وقرروا اخراج بني ليث من تهامة[٣٩٩].

٣٩٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢١، الشريف، مكة والمدينة ص ١٤٢.

٣٩٧ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٣٥٨.

٣٩٨ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٥٨.

٣٩٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٢٤، وما بعدها، عن نكيف أنظر الحموي، المرجع السابق جـ٥/٣٠٣.

أما حروب قريش التي قام أولها بعد الفيل بخمسة عشر عاما[٤٠٠]. أي حوالي سنة ٥٨٥م[٤٠١]. فتلك أيام الفجار التي هي في مجملها فجاران، وقع الفجار الأول في سنة واحدة واشتمل على ثلاثة أيام، ثم وقع الفجار الآخر متفرقا على أربعة أعوام واشتمل على خمسة أيام[٤٠٢].

ولكن القتال دار خمس مرات فقط في خمسة أيام في يوم نخلة، ويوم شمطة ثم يوم عكاظ الأول أو يوم العبلاء، وعكاظ الثاني أو يوم شرب ثم يوم الحريرة وهو آخرها[٤٠٣].

وسميت بالفجار لأنها وقعت في الشهر الحرام[٤٠٤]. فقد اتفق العرب على تقديس منطقة مكة وتحريم القتال فيها. ليأمن فيها كل من دخلها اضافة الى ذلك فقد حرموا الأربعة أشهر المعروفة فجعلوها فترة سلام ومهادنة يمتنعون عن القتال فيها. وهذا تشريع قديم مصاحب لقيام الكعبة والحج اليها منذ العهود القديمة[٤٠٥]. وعلى أساس ذلك أقاموا أسواقهم الموسمية، وتمكنوا من الحج إلى الكعبة في فترة السلام والأمن.. ولما وقعت هذه الحروب في الأشهر الحرم فقد اعتبروا ذلك فجورا وخروجا عن تشريعهم.

وقع الفجار الأول سنة ٥٨٥ تقريبا على النحو التالي:

اليوم الأول : وهو فجار الرجل بين كنانة وقريش حيث جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلسه بسوق عكاظ وكان غازيا منيعا معتزا بنفسه. ثم مد رجله والعرب مجتمعين، وقال (أنا والله أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فقام إليه أحمر بن مازن بن قيس وضرب رجله بالسيف فجرحها أو قطعها. فتخاصم الناس في ذلك ولكنهم مالبثوا أن تصالحوا حيث أنها كانت خصومة أو مشادة مالبثت أن انتهت[٤٠٦].

اليوم الثاني : وهو فجار المرأة بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عندما تعرض فتية

٤٠٠ ـ إبن هشام، المرجع السابق جـ١/١٨٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٨٣.
٤٠١ ـ حسبنا التاريخ بالاعتماد على عام الفيل الموافق ٥٧٠ ـ ٥٧١م وهي سنة المولد النبوي.
٤٠٢ ـ جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٢٢ حاشية.
٤٠٣ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٠٩، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٩٥.
٤٠٤ ـ إبن هشام، المرجع السابق جـ١/١٨٨.
٤٠٥ ـ شلبي، المرجع السابق جـ١/٦٦ ـ ٦٧.
٤٠٦ ـ ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٥٩، جاد المولى، المرجع السابق ٣٢٢، ٣٢٣، عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤٠٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٨٠.

من قريش لامرأة جميلة من بني عامر في سوق عكاظ وطلبوا منها أن ترفع برقعها عن وجهها ، لينظروا اليها ويروا جمالها. فرفضت مطلبهم. ثم قام أحد الفتية بشد درعها من خلفها خلسة ثم لما قامت انكشف ظهرها. فضحك الفتية ساخرين فاستنجدت العامرية بذويها. ثم هب قومها ملبين النداء، فوقع خلاف بينهم، وقتال يسير، ولكن توسط حرب بن أمية وأرضى بني عامر وأصلح القوم[٤٠٧].

وآخر أيام الفجار الأول: وهو فجار الرباح وكان بين كنانة بسبب دين لرجل نصري من هوزان على رجل كناني. فمطل الكناني في سداد الدين، ولوى النصري حقه، مما أغاظ النصري فقدم إلى عكاظ مصطحبا معه قردا ينادي عليه قائلا (من يبيعني مثل هذا الرباح بمالي على فلان بن فلان الكناني) فاغتاظت كنانة واعتبرته تعبيرا واهانة لها. فقتل أحد بني كنانة ذلك القرد ضربا بالسيف، وتصارخ القوم وكادوا أن يقتتلوا ولكنهم كفوا عن ذلك لما توسط بينهم عبد الله بن جدعان، وعقد الصلح بينهم[٤٠٨].

ثم وقع الفجار الثاني في السنة التالية، بعد الفجار الأول مباشرة واشتمل على خمسة أيام تفرقت على أربع سنوات[٤٠٩]. حيث أن آخر أيامه كان بعد الفيل بعشرين عاما[٤١٠]. حوالي سنة ٥٩٠م. تقريبا وذلك بعد موت عبد المطلب بن هاشم باثنتي عشرة سنة، وقد كان يوما عظيما بل أعظم ما اشتهر بين العرب من أيامهم[٤١١].

اليوم الأول من الفجار الثاني : وهو فجار البراض وكان يوم نخلة قرب مكة لقيس عيلان على كنانة وقريش[٤١٢] بسبب البراض بن قيس بن رافع بن قيس[٤١٣] من كنانة[٤١٤] وكان البراض رجلا خليعا فاسقا تبرأ منه قومه فحالف بني سهم. ثم قتل رجلا من هذيل فطالب الهذليون بدمهم من بني سهم ولكن بني سهم تبرأوا منه ومن جريرته، فخلع العاص بن وائل البراض مما أسكت الهذليين ثم حالف البراض حربا بن أمية على أن يرتدع، وإلا سيعاقب بالخلع أيضا. وحدث ذلك فعلا حيث قتل البراض رجلا من خزاعة وفر هاربا إلى اليمن حيث أمضى سنة فيها ثم أراد العودة إلى

٤٠٧ ــ إبن الأثير، نفس المرجع أعلاه والجزء والصفحة، جاد المولى ص ٣٢٤ والحاشية.
٤٠٨ ــ إبن الأثير، الكامل جـ١ / ٣٥٩، جاد المولى، نفس المرجع ص ٣٢٥ والحاشية.
٤٠٩ ــ جاد المولى، نفس المرجع ص ٢٣٢، عبد الجبار، المرجع السابق ص ٤١٠.
٤١٠ ــ إبن هشام، المرجع السابق جـ١ / ١٨٩، ابن الأثير، نفس المرجع أعلاه والجزء والصفحة.
٤١١ ــ إبن الأثير، نفس المرجع أعلاه والجزء والصفحة، جواد علي، المرجع السابق جـ٥ / ٣٨٣.
٤١٢ ــ جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٢٦ والحاشية.
٤١٣ ــ إبن حزم، المرجع السابق ص ١٨٥.
٤١٤ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١ / ٣٥٩.

مكة . ولكن الهذليين والخزاعيين يبحثون عنه ليقتصوا منه فقدم الحيرة وأبدى البراض للنعمان بن المنذر استعداده لحماية اللطيمة السنوية التي يرسلها النعمان سنويا للتجارة لتباع في عكاظ وذي المجاز والمجنة[٤١٥] .

وكان حاضرا مجلسهم ذلك، عروة بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة المعروف بالرحال لكثرة أسفاره إلى الملوك، وكان من ردفاء الملوك[٤١٦] . فأعترض عروة على اجارة البراض وهو الخليع الفاسق للطيمة النعمان . ورغب في إجارتها بنفسه على جميع أهل تهامة ونجد وفوض النعمان إجارتها لعروة وأمره بالسفر، فاغتاظ البراض ولحق بعروة حتى أدركه بنواحي فدك فقتله بالسيف وساق العير، ثم تابع المسير ولحق به رجلان من قيس وهما أسد بن جوين الغنوي، ومساور بن مالك الغطفاني فقتلهما البراض الواحد تلو الآخر بحيلة ماكرة . وتابع رحلته إلى أن اقترب من مكة فلقي رجلا من بني أسد من خزيمة، وأعطاه عشرا من الابل على أن يذهب إلى حرب بن أمية وعبد الله بن جدعان، ويخبرهما أن البراض قتل عروة، وذلك ليدركوا الأمر قبل أن تعلم قيس، فتثور ثائرتها على قريش وكنانة .

وذهب الرجل فعلا إلى حرب بن أمية وهو في عكاظ وأخبره . فاجتمع حرب بن أمية، بعبد الله بن جدعان التيمي، وهشام بن المغيرة المخزومي وأشراف بطون قريش، وسيد الأحابيش الحليس بن يزيد الحرثي . وقرروا الذهاب إلى سيد قيس أبي البراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، فأخبروه أن حادثا وقع لقوم منهم بين نجد وتهامة وطلبوا منه أن يجيز الناس فأجازهم . واتفقت قريش على العودة إلى مكة، وبلغ عامر آخر النهار ماحدث فأدرك غدر قريش، وأن حرب بن أمية قد خدعه، فلحقت قيس بالقوم حتى أدركوهم في نخلة فتقابل الفريقان . وترأس حرب بن أمية قريشا كلها في القلب، وعبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة على الجناحين . وأوشكت قريش على الهزيمة فلاذت بالحرم لتأمن به . وتراجعت قيس عنهم، ولكنها هددت قريشا باللقاء في العام القادم في عكاظ لتأخذ بثأر عروة[٤١٧] .

اليوم الثاني : يوم شمطة قرب عكاظ لقيس على كنانة وقريش[٤١٨] ولما حال الحول في موعد عكاظ تجمعت قريش ومعها كنانة والأحابيش، وأسد بن خزيمة . وفرقت

٤١٥ ــ إبن حبيب، المنمق ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

٤١٦ ــ جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٢٦، ٣٢٧ وحاشية ٢ .

٤١٧ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٣٥٩، ٣٦١، جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٢٧، ٣٣٠، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٨١ ، ٣٨٤ .

٤١٨ ــ جاد المولى، نفس المرجع أعلاه والحاشية ص ٣٣١ .

قريش السلاح . فسلح عبد الله بن جدعان مائة مقاتل سلاحا كاملا . وسلح كل سيد المقاتلين من قومه . وخرج الجميع الى عكاظ، وعلى كل بطن رئيسه . [٤١٩] وكان حرب بن أمية القائد العام وعبد الله بن جدعان، وهشام بن المغيرة على المجنبتين .

وجمعت قيس جموعها من سليم وهوازن ومعهم ثقيف وكان رئيسهم مسعود بن معتب الثقفي . والتقت الجموع في شمطة من عكاظ . ودار القتال بين الطرفين، واشتد، وأحرزت قيس ظفرا في أول النهار . وتداعت هوازن في آخر النهار عندئذ أمر أبو مساحق بلعاء بن قيس قومه بالانهزام الى رخم قرب مكة[٤٢٠] .

اليوم الثالث : يوم العبلاء قرب عكاظ لقيس على كنانة وقريش التقت هوازن وكنانة على الحول في ثالث يوم من موسم عكاظ عند الصخرة البيضاء (العبلاء)، وتقاتلوا وانهزمت كنانة وقتل العوام بن خويلد (أبو الزبير) بيد متعب الثقفي وانتهى القتال . [٤٢١]

اليوم الرابع : يوم عكاظ لكنانة وقريش على هوازن لما حال الحول خرجت الجموع الى عكاظ[٤٢٢] . وعلى كل بطن سيد، فترأس الزبير بن عبد المطلب علي بني هاشم ومعه أخوته بنو عبد المطلب (أبو طالب، والعباس، وحمزة) ومعهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . وترأس حرب بن أمية علي بني أمية وأحلافهم . وعكرمة بن هاشم بن عبد مناف علي بني عبد الدار، وخويل بن أسد على قومه بني أسد ، وهشام بن الغيرة على بني مخزوم ، وعبد الله بن جدعان على بني تميم، ومعمر بن خبيب بن وهب بن جمح، والعاص بن وائل على بني سهم وزيد بن عمرو بن نفيل على بني عدي وعمرو بن عبد شمس على بني عامر بن لؤى وعبد الله بن الجراح (والد أبو عبيدة) على بني فهر .

وترأس الحليس بن يزيد وسفيان بن عويف على الأحابيش وعضل والقارة والديش، والمصطلق . وبلعاء بن قيس على بني بكر، وبشر بن أبي خازم على بني أسد خزيمة . وتولي حرب بن أمية الرئاسة العامة . أي أنه كان القائد الأعلي للجيش . وخرج مع حرب اخوته بنو أمية وهم سفيان، وأبو سفيان، والعاص وأبو العاص . فقيد حرب

---

٤١٩ ــ ابن الاثير ، الكامل جـ١ / ٣٦١ .

٤٢٠ ــ جاد المولى ، المرجع السابق ص ٣٣١، والحاشية وص ٣٣٢ والحاشية رقم ٢ ، جواد علي، المرجع السابق جـ٥ / ٣٨٢ .

٤٢١ ــ جاد المولى، نفس المرجع ص ٣٣٣ والحاشية رقم ١ .

٤٢٢ ــ جاد المولى، نفس المرجع ص ٣٣٤ والحاشية .

نفسه وكذلك فعل إخوته وعزموا على ألا يبرحوا مكانهم حتى الظفر، أو الموت فأسموهم يومئذ بالعنابس[٤٢٣]. وذلك لخوف قريش من تكرار هزيمة العبلاء. وحمل عبد الله بن جدعان ألف رجل من كنانة على ألف بعير في ذلك اليوم والتقى المقاتلون في شرب من عكاظ[٤٢٤].

واشتد القتال. فقتل معمر بن خبيب الجمحي، وانهزم بنو زهرة، وبنو عدي وبنو فراس وبعض كنانة. وثبت الآخرون واستمر القتل في قيس وقتل شريفهم عباس بن زعل السلمي. وقتل مائة رجل تحت راية كنانة. وأسرفت قريش في القتل حتى افتخر بن جدعان بذلك قائلا: (انا معشر سرف)[٤٢٥].

وضرب مسعود بن معتب الثقفي خباء على زوجته سبيعة بنت عبد شمس ليكون مأمنا لقريش فجعلت تفسح الخباء ليتسع لأكبر عدد منهم فلما انهزمت قيس لجأوا إلى خباء سبيعة واستجاروا بها. فأجاز حرب بن أمية لها جوارها. وأعطى الأمان لكل من دار حول الخباء. وبذلك نالت قيس الأمان. وسمى ذلك الموضع (مدار قيس) وصار مضربا للمثل. ولكن قيس تغضب كثيرا من ذلك وانتهى قتال هذا اليوم[٤٢٦].

اليوم الخامس : وهو يوم الحريرة[٤٢٧] التقت الجموع وكل رئيس يقود قومه كما كانوا في العام السابق وقد تولى جثامة بن قيس بدلا من أخيه بلعاء بن قيس الذي مات. واقتتل الناس بشدة وكان هذا اليوم لقيس على كنانة وقريش. فلما انهزمت كنانة، تداعى القوم إلى الصلح على أن يتعادوا القتلى. وتدفع الدية للفضلة فأفضلت قريش وبنو كنانة على قيس بعشرين رجلا عندئذ رهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان، وكذلك رهن الحارث بن كلدة العبدي إبنه النضر، ورهن سفيان بن عوف إبنه الحارث.

فلما أدركت قيس حسن النوايا فكرت في الرهائن القرشية من أبناء القادة وقررت أن تقابل الكرم والتسامح بمثليه فأطلقت أولئك الرهائن وعفت.

---

٤٢٣ ــ إبن الأثير، الكامل جـ١/٣٦١، ٣٦٢، ابن حبيب، المحبر ص ١٦٩، ١٧٠، والمنمق ص ٢٠٦، وما بعدها.

٤٢٤ ــ إبن حبيب، المنمق ص ٢١٣.

٤٢٥ ــ إبن الأثير، الكامل جـ١/٣٦٢، جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٣٥.

٤٢٦ ــ جاد المولى، نفس المرجع ص ٣٣٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٨٣.

٤٢٧ ــ الحريرة موضع يقع بين الأبواء ناحية نخلة أنظر جاد المولى، نفس المرجع ص ٣٣٧ والحاشية.

فوضعت الحـرب أوزارها وانصرف القوم إلى شؤونهم[٤٢٨]. ويرجعون الفضل في ذلك إلى عتبة بن ربيعة الذي صاح في الناس بوقف الحرب رغم حداثة سنه يومئذ حيث لم يبلغ الثلاثين عاما من العمر. وهـو الـذي اقتـرح علـى القـوم خطـة تعـداد القتلى ودفع دية الفضلة[٤٢٩].

رأينـا هنا أن سادة قريش قدموا الرهائن من أبنائهم لبني قيس كضمان حتى يتم تسليم ديات قتـلي قيس العشرين الـذين زاد عددهم (الفضلة) وهي سياسة يتبعها المنتصر في الحرب دائما.

حيث كان نظام الرهائن مستعملا سياسيا في الحروب وكذلك عملوا في أيام السلم لضـمان الـطاعـة، والايفـاء، بالالتزام (مهما كان نوعه). فيطلب الملوك الرهائن من سادات القبائل المتوقع خطرهم. أو لضمان الطاعة أو المصالح. فقدمت قريش الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي رهينة عند أبي يكسوم الحبشي ولذلك عرف الحارث باسم الرهين[٤٣٠].

ونرى أن الحارث بن علقمة كان رهينة مقابل ضمان مصالح إقتصادية على قريش للأحبـاش. كذلـك قد تكـون الـرهـائن من صغـار الأطفال. وتمسك ملوك الحيرة والغساسنة بهذا العرف القانوني لضمان طاعة سادات القبائل وعدم الاعتداء على حدود الممالك المجاورة[٤٣١].

وهكذا رأينا أن تصرف ذلك الرجل الخليع قد أدى إلى وقوع حروب وأيام وان كانت في مجملها مناوشات ومعارك خفيفة الا أنه قد وقع القتل في الأيام التي حرموا القتال بها حيث قامت كل أيام الفجـار في موعد موسم عكاظ من الأشهر الحرم. وهذا الذي أعـطاهـا الشهـرة والأهمية البـالغة. حيث اعتبروها خروجا وفجورا. وانهزمت كنانة وقـريش في أغلب تلك الأيام لأن قيس عاشت على الحرب والغزو والكر والفر على عكس المألوف بين قريش من حبها للسلم والاستقرار[٤٣٢].

مما تقدم عرضه نستنتج أن قريشا هدفت الى تحقيق نقاط رئيسـة :

---

٤٢٨ ـ ابن الأثير، الكامل جـ١/ص ٢٦٣، جاد المولى، المرجع السابق ص ٣٣٧ وما بعدها.
٤٢٩ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٢٠٨، ٢٠٩، السهيلي، المرجع السابق جـ١/ ٢١١.
٤٣٠ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/ ٤٦٧.
٤٣١ ـ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ٦٣٣.
٤٣٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٨٥.

١ ــ المحافظة على السلام ونشره.

٢ ــ التزام الحياد على الصعيد العربي داخل الجزيرة وعلى الصعيد الدولي مع الفرس والروم وغيرهم.

٣ ــ أنها تتورط في الحرب بسبب أحلافها ولكنها لم تعدم التجهيز الكامل وتلجأ إلى الصلح لفض المنازعات.

الفصل الثاني
دور قريش الاقتصادي

لقد أعطى الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية أهمية بارزة لوقوعها على طريق تجارة العالم القديم برا وبحرا. والتي تصل الشرق الأقصى والهند بالشرق الأوسط عبر الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين أو إلى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهي معبر بحري عن طريق الملايو إلى الهند ثم إلى الخليج العربي أو حول جنوب الجـزيرة إلى البحر العربي. ثم تنتقل البضائع إلى الشام ومصر. ولذلك قامت حياة الدول الواقعة في أطراف الجزيرة على التجارة مثل الدول المعينية، والسبئية، والحميرية في الجنوب ثم ظهر اللحيانيون والأنباط والتدمريون في الشمال. وهكذا[1].

بل ان تجارة الجزيرة ترجع إلى أبعد من زمن الدول السابقة الذكر. حيث أنها بدأت منذ عهد اسماعيل بن ابراهيم الخليل. وسارت قوافل الاسماعليين من الحجاز إلى مصر عبر أراضي فلسطين[2].

واشتهر عرب الجنوب منذ القدم بحضارتهم، وتجارتهم. وكانت قوافلهم البرية منذ مبدأ تجارتهم تمر بمكة، والبتراء. ثم في الشمال تفترق مشرقة إلى العراق، أو مغربة إلى مصر[3].

ثم أخذت حضارة الجنوب في الأفول منذ بدأت الانقسامات الدينية في اليمن حيث انتشرت اليهـودية وتلتها المسيحية. وبدأ التطاحن بين أتباع الدينين الجديدين. ثم دخلت السفن الرومانية إلى مياه البحر الأحمر. وأخيرا تصدع سد مأرب مما أدى إلى الكارثة العظمى والتشتت عبر البلاد[4].

---

١ ـ الدوري، المرجع السابق ص ٢٩، ٣٠.

٢ ـ SALIBI, OP. CIT. P. 21.

٣ ـ حتي، تاريخ ص ٦٠، أحمد أمين، المرجع السابق ص ١٣.

٤ ـ حتي، تاريخ ص ٧٧، ٧٨.

ثم سقطت اليمن تحت سيطرة الأحباش وما أن تخلصت منهم حتى وقعت تحت سيطرة الفرس. مما أدى إلى تدهورهم وإنحطاط الدور الذي قامت به قرونا طويلة في مجال التجارة. وقد أدى النزاع بين الفرس والروم إلى قفل الطريق التجاري عبر الطرق إلى الشام. وبعد ذلك التطاحن انسحب الروم من البحر الأحمر أيضا. وعجزت الحبشة عن الاضطلاع بهذا الدور. وقد ساعدت كل هذه العوامل متضافرة، على زيادة تجارة مكة بل لقد أهلتها لأن تقوم بدور الوسيط التجاري المحايد بين تلك الدول المتطاحنة[٥]. فمنذ القرن السادس الميلادي قبضت قريش على زمام تجارة الجزيرة واحتكرتها[٦].

وهكذا أصبحت مكة محطة مهمة على طريق القوافل في منتصف الطريق بين مأرب في الجنوب والبتراء في الشمال مما هيأ لها أسباب التقدم التجاري اضافة إلى المكانة الدينية البارزة. وقد نزل بها بعض القبائل اليمنية التي حكمتها زمنا[٧].

ومن تلك القبائل اليمنية قبيلة خزاعة التي حكمت محطة القوافل القديمة (مكة)[٨]. وقد جلب هؤلاء المهاجرون خبرتهم التجارية معهم مما شجع على نمو التجارة في مكة. وحاولت خزاعة تنمية الموارد الاقتصادية في مكة، حيث جلبت الأصنام لتشجيع العرب على ارتياد مكة وزيارتها وعملت على توفير الماء والغذاء. وكانت تستفيد من القرابين والهدايا التي توهب للآلهة، اضافة إلى الضرائب التي فرضتها على القوافل عند مرورها بمكة ولاشك أن البيع والشراء صاحب هذا التطور ولكن بصورة محدودة[٩].

ومنذ عهد قصي حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي أصبحت مكة مدينة مستقلة لها كيانها السياسي والمالي. ومركز العرب الديني في شبه الجزيرة وكانت الكعبة مجمعا لأصنام القبائل العربية. واهتمت قريش بموسم الحج وطرقه. فضمنت وسائل الأمن والسلامة.

وحرصت على توفير المؤن والميرة للحجاج اضافة إلى الحرص والإلتزام بالآداب العامة. وتولي تلك المهمات التجارية والدينية رجال أكفاء عشقوا السلام وآمنوا به

---

٥ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٣٦.

٦ ــ أحمد أمين، المرجع السابق ص ١٣.

٧ ــ ENCY. BRITANICA, MAC, VOL,. 11/753.

٨ ــ SALIBI, OP CIT., P. 52.

٩ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٢٠١، دور الحجاز ص ٣٩، ٤٠.

وعملوا على نشره[١٠]. وهكذا ازدهرت تجارة مكة حتى أطلقوا عليها اسم الجمهورية التجارية (MERCHANT REPUBLIC).[١١]

وغدت مكة في ذلك العصر كاحدى المدن الفينيقية، اضافة إلى قداسة الكعبة في نفوس العرب قاطبة.[١٢]

طرق التجارة ومراكزها وأهم الأسواق :

قام العرب بالتجارة منذ أقدم العصور. وقد احتكروا تجارة الاقليم الموسمي في الشرق منذ الألف الرابعة قبل الميلاد وإلى القرن الأول الميلادي عندما حول الرومان والأغريق تجارة الهند إلى البحر الأحمر[١٣]. ولكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا من البحر الأحمر وعاد العرب إلى القيام بدور الوسيط. وصارت تجارتهم كبيرة وشهيرة عبر جزيرتهم بحر الرمال الكبير وإلى خارجها. واعتمدت تلك التجارة على قوافل الابل التي ضربت في أنحاء الجزيرة طولا وعرضا. فكانت الطرق البرية شرايين التجارة التي تمر عبرها إلى الجهات المختلفة وإلى شمالها المؤدي إلى الأقاليم الواقعة خارج حدود شبه جزيرة العرب.

ومن البديهي جدا أن يرتاد العرب مسالك معينة واضحة عبر الخضم الرملي الكبير، ولذلك فقد عينوا لهم طريقين رئيسين تسير القوافل عبرهما، محملة ببضائعهم وتجارتهم، وتجارهم.

أولاهما وأهمها الطريق التي تبدأ من الجنوب إلى الشمال والأخرى تلك الطريق التي تسير بعرض الجزيرة حيث تبدأ من البحر الأحمر مخترقة الجزيرة إلى الخليج العربي مارة بمكة[١٤]. وسنزيد ذلك تفصيلا كما يلي:

١ ـ الطريق الأولى وهي الجنوبية المتجهة شمالا تبدأ من مأرب، التي تبعد حوالي ٨٠ ميلا شرقي صنعاء. وتسير الطريق من مأرب إلى معين ثم نجران متجهة شمالا إلى مكة ويثرب، ثم العلا (مدائن صالح) ثم إلى مدين وتيماء وأخيرا إلى تدمر[١٥].

١٠ ـ GRUNEBANM, OP. CIT. P. 19 ، الشريف، دور الحجاز ص ١٤.
١١ ـ SIDDIQUI, OP. CIT. P. 29.
١٢ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ١٤.
١٣ ـ أبو العلا، المرجع السابق جـ١/١٢٦.
١٤ ـ شلبي، المرجع السابق ص ٣١٤، ٣١٥، أبو العلا، نفس المرجع والجزء ص ١٢٧.
١٥ ـ يحي، المرجع السابق ص ٣١٤، ٣١٥، أبو العلا، نفس المرجع والجزء ص١٢٧.

وتخرج القوافل من مكة في طريقها إلى المدينة مارة بذي طوى وهو حي الزاهر حاليا ثم تمر بالأبواء قرب المدينة .[١٦]. وتمر القوافل بمعظم المحطات الحديثة في طريق المدينة والمعروفة لنا مثل ذهبان وتول، ورابع وينبع النخل، وبدر، والمسيجيد حيث أنها قرى قديمة حدا وكانت القوافل تمر بها آنذاك وعرفت المسيجيد الحالية باسم المنصرف منذ القدم[١٧].

ويسير هذا الخط في غربي الجزيرة موازيا للبحر الأحمر عبر منطقة الحجاز[١٨]. وفي شمال الحجاز يتفرع الخط إلى فرعين أحدهما باتجاه الشمال الشرقي إلى سوريا، والآخر باتجاه الشمال الغربي إلى فلسطين ومصر[١٩]. وتمر هذه الطريق في وادي القرى المهم الذي يقع بين خيبر وتيماء. وكان يسمى قديما وادي الديدان والذي كان عامرا بالمدن والقري[٢٠]. المذكورة آنفا، وتيماء من أمهات القرى، عامرة بالناس وبها مزروعات ومنها تخرج القافلة إلى حوران بالشام[٢١]. وتمر هذه الطريق ببلاد العرب الصخرية أو (البطرية) نسبة إلى عاصمتها بطرة وتقع في أقصى شمال الجزيرة على بعد ٤٠ ميلا من القدس[٢٢]. وينقل التجار عبر هذه الطريق البضائع التي تصل من الهند والحبشة عبر الموانيء اليمنية وعدن[٢٣]. وكذلك بضائع اليمن إلى الحجاز ، وبلاد الشام ثم يعود التجار محملين ببضائع الشام إلى اليمن ومن ثم تنقل هذه البضائع عبر البحر الأحمر إلى الحبشة والهند[٢٤].

حقيقة كانت هذه الطريق شريانا نابضا من طرق تجارة الجزيرة فهي طريق هامة جدا، وحيوية وعامرة بالمدن والقرى على طول الطريق

٢ ـــ الطريق الثانية وهي الطريق العرضية التي تخترق الجزيرة من البحر الأحمر غربا إلى الخليج العربي شرقا. وتمر بمكة أحيانا. ولكن الطريق عندما تصل قلب

---

١٦ ـــ جواد علي، المرجع السابق جـ٧/٣٥٧.
١٧ ـــ جواد علي، المرجع السابق جـ٧/٣٥٥.
١٨ ـــ حمور، المرجع السابق ص ١٩.
١٩ ـــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٣.
٢٠ ـــ الشريف، دور الحجاز ص ٧.
٢١ ـــ البكري، المرجع السابق جـ١/٣٢٩، ٣٣٠، يحي، المرجع السابق ص ٣٢٠، ٣٢١.
٢٢ ـــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١١/١١٧.
٢٣ ـــ أبو العلا، المرجع السابق جـ١/١٢٧.
٢٤ ـــ حمور ، المرجع السابق ص ١٩.

الجزيرة في نجد تتفرع إلى فرعين أيضا فيتجه أحدهما إلى الشمال الشرقي إلى حيث العراق وفارس، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقي بمحاذاة ساحل الخليج العربي مارة بمسقط، ودبي، وظفار[٢٥]. وهنالك طرق عرضية تسير من الغرب باتجاه الشرق، أقل أهمية وأقدمها طريق تبلغ طولها حوالي ٦٠٠ ميلا، ذكرها أراتسطين الجغرافي قائلا أنها تصل بين منطقة إنتاج اللبان، ومنطقة انتاج القرفة[٢٦].

وهنالك طريق أخرى تنطلق من جنوب غرب شبه الجزيرة إلى شمالها الشرقي حيث جرها GERRHA . والتي تقع قريبا من ميناء العقير الحالية شمال شرقي الهفوف في منتصف ا لساحل الشرقي المطل على الخليج العربي. وقد كانت هذه الطريق حيوية جدا ولأهمية جرها وقدمها وصفها الكتاب القدماء بالثراء والبذخ فتجارتها قديمة جدا وقد دلت آثار جزيرة تاروت، وأبقيق على ذلك[٢٧]. ثم آثار منطقة.قرية الفاو بوادي الدواسر جنوب نجد، وهي تعود إلى حوالي القرن الثالث ق. م. ويشير موقع الفاو إلى أنها كانت احدى المحطات على هذه الطريق التجارية، وبالفاو سوق تجارية كاملة لها دكاكين، ومخازن وفنادق (منازل) لاقامة التجار عند نزولهم بها[٢٨]. وينقل عبر هذه الطريق طيوب الجنوب العربي إلى وادي الرافدين وعند جرها اما أن تواصل القافلة سيرها شمالا باتجاه وادي الرافدين. واما أن تنقل بحرا عبر مياه الخليج العربي[٢٩].

وهنالك إتصال وثيق بين مكة وبلاد الرافدين عن طريق القوافل التجارية فهذه القوافل تعبر الطريق التي تقطع الجزيرة عرضا حيث تبدأ من مكة إلى بلاد الرافدين. وارتادها القرشيون عندما ذهبوا لابرام الايلاف مع كسرى الفرس لتأمين التجارة مع مناطق النفوذ الفارسي كلها . وتسير الطريق إلى منتصف المسافة وعند حائل تنشعب الى طريقين يمر أحدهما ببريدة ثم الى أن يصل الفرات.

ويتجه الآخر إلى بابل مارا بالأراضي الواقعة في سفح جبل أجا شمال شرقي حائل

٢٥ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١ / ٧٣.

٢٦ ــ يحي، المرجع السابق ص ٣١٦.

٢٧ ــ يحي، نفس المرجع ص ٣١٧، ٣١٨، وتاروت جزيرة في الخليج العربي، أنظر ص ٩٤ بنفس المرجع.

٢٨ ــ الأنصاري، عبد الرحمن، قرية الفاو صورة مشرقة للحضارة العربية قبل الاسلام، ١٣٧٧ ـ ١٤٠٢ الرياض ص ١٦، ١٨.

٢٩ ــ يحي، نفس المرجع ص ٣١٨.

وآثار المنطقة تدل على أنها ذات حضارة منذ القرن الخامس قبل الميلاد[٣٠].

ولتأمين القوافل والحفاظ على الأوراح والأموال لجأت قريش إلى تنظيم يقضي باشراك زعماء القبائل في قوافلهم فتحمل قريش لهم بضائعهم وتتاجر لهم بها وبأرباح كاملة بلا مقابل مادي رغبة في الحماية فقط[٣١].

وتحتاج هذه القوافل خلال رحلتها إلى أدلاء يرشدونها الى الطريق بين مجاهل الصحراء وقد انتشر أولئك الأدلاء في كل مكان بقصد مساعدة الناس والقوافل[٣٢]. ومن أشهر أولئك الأدلاء (دعيميص الرمل) العبدي وهو الذي بلغ منطقة وبار في قلب الصحراء بحثا عن ابله التي هربت بأولادها. وقد خشي أن يضل طريق عودته لذلك أخذ يملأ بيض النعام ويدفنه في الرمل، والمقصود أوعية لحفظ الماء. ثم عند عودته أخذ يحفر ويخرج الماء ليشربه ويهتدي الى الطريق بذلك أيضا[٣٣].

وعبد الله بن أريقط العدوي حليف العاص بن وائل السهمي[٣٤]. وهو الذي استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة إلى المدينة، ليرشده إلى طريق سرية[٣٥]. ورافع بن عميرة الطائي دليل خالد بن الوليد بن المغيرة من اليمامة الى الشام. وخالد بن دثار الفزاري دليل بني فزارة على كلب[٣٦].

وكما تحتاج القافلة الى الأدلاء فهي تحتاج أيضا إلى الحراس والحمالين وأحيانا يقوم الدليل بالحراسة أيضا[٣٧]. وتمنح بعض القبائل جعلا نظير حمايتها للقافلة من تعدي القبائل الأخرى واذا تعرضت القافلة للاعتداء فان ذلك الجعل يعاد إلى أصحابه وقد تخصص عرب الحيرة بحماية قوافل الفرس التجارية عند مرورها في بلاد العرب. وذلك نظير جعل كبير[٣٨].

ويتراوح عدد التجار الأدلاء والحراس في القافلة الواحدة من مائة إلى ثلاثمائة رجل

---

٣٠ ــ يحي، المرجع السابق ص ٣١٩، ٣٢٠.

٣١ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٢٢.

٣٢ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ٢/٥١.

٣٣ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٨٩.

٣٤ ــ ابن حبيب، نفس المرجع أعلاه ص ١٩٠.

٣٥ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٧٣.

٣٦ ــ ابن حبيب، نفس المرجع أعلاه ص ١٩٠، ١٩١.

٣٧ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٢١.

٣٨ ــ أحمد أمين، المرجع السابق ص ١٣، ١٤.

تقريبا بالاعتماد على أن القافلة تتكون من ١٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ بعير وقد بلغت قيمة بضائع قافلة أبي سفيان يوم موقعة بدر حوالي خمسين ألف دينار، وعندما تسير القافلة رحلتها تكون على اتصال بمكة وهم يستعملون الرسل لايصال أخبار القافلة إلى مكة[٣٩]. فيومذاك استأجر أبو سفيان رسولا هو ضمضم بن عمرو الغفاري[٤٠] بعشرين دينار ليذهب إلى مكة ويبلغهم بما يدبر لقافلة أبي سفيان في بدر[٤١] والخمسون ألف دينار تعادل حوالي ٢٠ ألف جنيه أسترليني[٤٢]. وهذا مبلغ ضخم جدا في تلك الأيام.

وتقطع القافلة رحلتها من جنوب شبه الجزيرة الى العقبة (ايلة) في الشمال في مدة ٧٠ يوما[٤٣]. ثم أنهم قسموا هذه الرحلة إلى ٦٥ شوطا وفي كل شوط محطة للراحة ومواقف للجمال. ويدفعون ثمن الماء والطعام في كل محطة أو مرحلة، ويشترون كذلك العلف والحشائش للابل. ثم يدفعون رسما آخر كأجرة للنزل الذي يقيمون فيه بالاضافة إلى الرسوم التي تدفع نظير الحماية وهنالك رسوما قد تدفع نظير السماح بالمرور عبر بعض الطرق الخاصة ببعض القبائل[٤٤].

وينقلون عبر هذه الطرق بضائع الهند والحبشة، واليمن إلى الشمال، ومن ثمة ينقلون بضائع الشمال إلى اليمن وهكذا يتبادلون السلع.

وإذا كانت تجارة عرب الشمال تسير في خطوط برية بواسطة القوافل. الا أن قريش في مكة كانت لها صلات وثيقة جدا بالحبشة عبر البحر الأحمر، بدليل كثرة العبيد من تلك البلاد. ثم هجرة المسلمين الأوائل كانت من مكة إلى الحبشة[٤٥]. وكانت في مكة جالية حبشية منها بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قبل ذلك حادثة الفيل والتي توافق زمن ازدهار التجارة[٤٦].

وقد ذكر القرآن الكريم ركوب البحر وخيراته وسفنه، ووصف عواصفه، وأهواله ثم اهتداءهم بالنجم في خضمه قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في

---

٣٩ ـ SHORTER ENCY, OF ISLAM, P.

٤٠ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/ ٢٧٠.

٤٢ ـ HITTI, HISTORY OF THE ARABS, P. 104. وتعادل بالريال السعودي حاليا حوالي مائة ألف ريال.

٤٣ ـ حتي، تاريخ العرب ص ٧٠، يحي، المرجع السابق ص ٢١٥.

٤٤ ـ يحي، المرجع السابق ص ٣١٥.

٤٥ ـ حوراني، المرجع السابق ص ١٠٥، عوض الله، المرجع السابق ص ١٣٣.

٤٦ ـ حتي، تاريخ العرب ص ١٢٧، ١٢٨.

ظلمات البر والبحر﴾[٤٧] وقال تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾[٤٨]

ولولا أنهم ألفوا الملاحة لما ذكرهم الله بما سخر لهم من نعم البحر وخيراته، وكذلك من أهوال البحر وويلاته.

وعلى ساحل أفريقيا وصل التجار العرب إلى رحبتا RAHAPTA بالقرب من زنجبار وحكم بعض الأمراء العرب في الصومال وكذلك في زنجبار[٤٩]. وذكروا بلاد بنت PUNT وهي ساحل الصومال الذي يواجه ساحل الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر[٥٠] وقد اتصلت قريش بالحبشة والصومال مباشرة عن طريق مينائها الخاص على البحر الأحمر وهو الشعيبة[٥١]، وإذا كانت قريش لا تملك اسطولا خاصا بها ولا حتى عددا من السفن فمن المرجح أنها كانت تستأجر سفنا لتعمل لحسابها[٥٢].

تلك هي خطوط سير التجارة وطرق القوافل البرية، والطرق البحرية التي سارت عبرها البضائع والمواد وانتقلوا بها من منطقة إلى أخرى.

ومن المراكز البعيدة التي وصلتها تجارة قريش هي: بلاد الفرس وبلاد الروم وبلاد الحبشة، ومصر أيضا وقد مر بنا ذكره، بدليل وفود عمرو بن العاص الى مصر بتجارة له[٥٣]. ثم تأمر عليها وحكمها في الإسلام[٥٤].

وإن كانت الرحلات إلى هذه المراكز الأخيرة غير منتظمة، ولكنها قديمة جدا. وتجارة العرب وقريش مع مصر قديمة أيضا حيث أنها قامت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وحول هذا التاريخ قامت التجارة مع الهند أيضا[٥٥].

الأســــواق :

أقام العرب لهذه التجارة الكبيرة أسواقا متعددة في جزيرة العرب كلها وفي مكة

٤٧ ــ سورة الأنعام آية ٩٧.
٤٨ ــ سورة الأنعام آية ٦٣.
٤٩ ــ حوراني، المرجع السابق ص ٨٤، ٨٥.
٥٠ ــ حوراني، نفس المرجع ص ٣٠.
٥١ ــ السالم المرجع السابق ص ٣٦٣.
٥٢ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٢١٠، السالم، نفس المرجع ص ٣٦٤.
٥٣ ــ الحوفي المرجع السابق ص ٧٠.
٥٤ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ٢٩٨.
٥٥ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١١.

لعرض السلع وجميع المواد التجارية لبيعها. فصار لهم أسواق في كل مدينة وقرية. بل انهم خصصوا بعض المناطق لاقامة الأسواق فقط. وكانت أسواق العرب على نوعين أسواق دائمة، قائمة في المدن والقرى وأسواق موسمية عامة في مواقع معلومة وأيام معلومة محددة.

١ ـ الأسواق الدائمة في المدن :

ومن أقدم أسواق العرب في مدنهم سوق عدن ومكة، والجند ونجران، وحجر اليمامة. وهو البحرين[٥٦]. وغيرها كثير مثل سوق الجريب[٥٧]. وهي لأهل تهامة، وأسواق حاشد ومنها سوق همل[٥٨]. وفي مكة أسواق كثيرة نعرف منها سوق الحزورة وهي سوق جاهلية ثم زالت حيث دخلت في الحرم بعد توسعته وعرف باب الحرم الذي قام فيها باسم باب الحزورة[٥٩]. وقد ذكره الأزرقي باسم باب حكيم بن حزام، وباب الزبير بن العوام، وباب الحزامية ويسمى باب الوداع أيضا[٦٠].

ثم نعرف زقاق العطارين (وهو سوق العطارين قديما)، وسوق الليل وسوق الحدادين[٦١]، وقد مر بنا ذكر سوق العبيد (الرقيق)[٦٢].

وفي يثرب أسواق كثيرة لبيع انتاج التمور، وسوق بني قينقاع اليهود الذين احترفوا صياغة الحلي[٦٣]. وبرعوا فيها فكبرت سوقهم وازدحمت بالناس حتى لقد نفرت ناقة النابغة الذبياني من ضجيج الناس في تلك السوق.

وبرع آل أبي الحقيق من اليهود أيضا في صناعة الحلي في خيبر. وكان في شمالي الحجاز أسواق كثيرة لليهود ويعرضون فيها حاصلاتهم وصناعاتهم[٦٤].

وتوجد في الطائف أسواق لبيع منتوجاتها الزراعية من كروم وفواكه وخمور وعسل[٦٥]

---

٥٦ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٣٣٢.
٥٧ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ١١٤.
٥٨ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٢٤٨.
٥٩ ـ باسلامه، المرجع السابق ص ١٢٥.
٦٠ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٩١ حاشية ٦.
٦١ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٥٦.
٦٢ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/٢٦٩ حاشية ٢.
٦٣ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٢٦٤.
٦٤ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٢٢.
٦٥ ـ حتي، تاريخ العرب ص ١٢٤.

والطائف بلد الدباغ حيث تبيع انتاجها من الجلود المدبوغة[٦٦]. وفي جنوب الجزيرة أسواق كثيرة منها موزا وهي مخا اليوم[٦٧]. ولا ننسى أسواق بلاد الشام الشمالية الكثيرة العدد كذلك

الأسواق الموسمية :

أنشأ العرب أسواقا موسمية أو (دورية) تلبية لحاجات ضرورية ألحت عليهم غير مقلدين في ذلك غيرهم[٦٨]. فعقدوا تلك الأسواق في مواقيت معلومة، وأماكن معلومة ليؤمها التجار والأدباء ، والشعراء ، والخطباء، وغيرهم[٦٩]. فغدت أسواقهم هذه مهرجانات موسمية .

وقد اختلف المؤرخون في عدد تلك الأسواق . حيث عد ابن حبيب منها ١٢ سوقا[٧٠] وعد اليعقوبي منها عشرا[٧١]. وذكر المرزوقي ١٧ سوقا[٧٢] ثم عد المؤلفون المتأخرون حوالي ٢١ سوقا[٧٣].

ولايهمنا عددها بقدر ما يهمنا اثباتها والتفصيل عن أكثرها شهرة وخاصة أسواق الحجاز والتي قامت حول مكة . فقد قامت تلك المواسم وأمها العرب عامة لأنها مارست كافة نشاطات الحياة الروحية والمادية . وخاصة لأنها كانت ذات خصائص وصفات عامة متميزة ومن أهم ميزاتها :

١ ــ الأمــــن .
٢ ــ انتظام الموعد حيث كانت أسواقا حولية .
٣ ــ اعتمدت أهمية الأسواق على موقعها وفعاليتها . فالواقعة قرب السواحل أو على الطرق التجارية أهم من غيرها.
٤ ــ كانت بعض الأسواق لجميع الناس عامة مثل سوق عكاظ . وكان البعض الآخر

---

٦٦ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٧٥، حمور، المرجع السابق ص ٣٦.
٦٧ ــ حتي، تاريخ العرب ص ٥٩.
٦٨ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ١٩٦، حمور، المرجع السابق ص ٣٧.
٦٩ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٤.
٧٠ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٦٣ وما بعدها.
٧١ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/ ٢٧٠.
٧٢ ــ المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/ ١٦١.
٧٣ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٢٣٢ وما بعدها ، حمور، المرجع السابق ص ٥٢، علي حافظ ، سوق عكاظ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ص ٤٩.

محدودا مثل هجر والشحر.

٥ ــ استمرارية تلك الأسواق حتى في الاسلام مثل سوق حباشة التي دامت الى عام ١٩٧م

٦ ــ تشابه عروض التجارة، ونوعية البيوع مثل بيع الملامسة ونحوه.

٧ ــ إنتشار العادات المتشابهة فيها، الجيد والرديء منها كتجارة البغاء[٧٤].

٨ ــ كانت بعض الأسواق كالمهرجانات الحديثة حيث شابهت التجمعات الأولمبية عند الاغريق قديما وحديثا من حيث أنها احتفالات عامة، عامرة بالفرحة والمسرات والحيوية والنشاط.[٧٥]

وانفردت بعض الأسواق بميزة أمنية خاصة بانعقادها خلال الأشهر الحرم مما يجل ارتيادها سهلا آمنا. أما الأسواق الأخرى والتي انعقدت في غير الأشهر الحرم، فلا يصلونها الا بخفارة، ويعودون منها بخفارة أيضا[٧٦]. ولذلك قامت أكبر أسواقهم وأهمها في فترة الأشهر الحرم. فكانت سوق حباشة، وسوق صحار في رجب. وقامت سوق حضرموت في ذي القعدة. وسوق عكاظ والمجنة وذي المجاز كلها في ذي القعدة وذي الحجة كذلك.

وأما نظام الأسواق عامة فنستطيع تصنيفها إلى ثلاثة أنواع من خلال الحكومات التي تحميها أو المناطق التي تقوم فيها:

١ ــ أسواق خاضعة للنفوذ الأجنبي مثل أسواق الحيرة، وهجر البحرين، وعمان حيث نرى السيطرة الفارسية على هذه الأسواق مما يؤدي إلى تضاؤول الصبغة العربية.

٢ ــ أسواق عربية خالصة تتمثل الصبغة العربية فيها من البيع والشراء إلى المعاملات. ولا يشرف عليها أجنبي، ولا يعشرها حاكم ولاغيره. فهي منطقة عربية حرة مثل سوق عكاظ، والمجنة، وذي المجاز فكل ما بها عربي وخاص بالعرب.

٣ ــ أسواق مختلطة وهي الأسواق الواقعة في المناطق الساحلية مثل عدن وصحار، ودبا. وذلك بالنظر إلى موقعها حيث يجتمع العرب فيها مع التجار الأجانب من

---

٧٤ ــ حمور، المرجع السابق ص ٥٦ وما بعدها، المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٢، وما بعدها وعن البغاء أنظر سورة النور آية ٣٣ ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾.

٧٥ ــ عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٧٤.

٧٦ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٧٣.

الحبشة، وفارس، والهند، والصين. ورغم ضآلة الطابع المحلي فيها الا أنها مراكز تجارية قوية جدا لأنها مداخل تجارة شرق آسيا[٧٧].

وتنقسم أسواق العرب الموسمية بحسب مواقعها كما يلي :

١ ــ أسواق العراق وهي سوق الحيرة ـ سوق المربد[٧٨].
٢ ــ أسواق بلاد الشام وهي دير أيوب ـ بصري ـ أذرعات[٧٩].
٣ ــ أسواق الخليج العربي وهي هجر البحرين ـ عمان ـ المشقر ـ صحار ـ دبا ـ حجر اليمامة[٨٠].
٤ ــ أسواق الجنوب العربي وهي شحر مهرة ـ عدن ـ صنعاء ـ رابية حضرموت[٨١].
٥ ــ أسواق الحجاز ونجد وتشمل سوق عكاظ، والمجنة ـ وذي المجاز ـ ودومة الجندل ـ وسوق حباشة في تهامة[٨٢] ـ ثم سوق نطاة خيبر[٨٣] ـ وسوق بدر[٨٤]. وسنقتصر حديثنا على أسواق عكاظ والمجنة والمجاز لعلاقتهم بمكة.

سـوق عكـاظ :

وعكاظ نخل في وادي. حددوا موقعها حديثا بأنها تمتد من جنوب عشيرة إلى السيل الصغير والحوية. وهي مناطق معروفة لأهل الطائف ومكة ولنا جميعا ولا زالت تحتفظ باسمائها[٨٥] وقيل بل تقع عكاظ في السيل الصغير نفسه في طريق مكة بين وادي نخلة والطائف.[٨٦]

---

٧٧ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٢١٢، ٢١٣.
٧٨ ــ حمور، المرجع السابق ص ٢٠١
٧٩ ــ حمور، نفس المرجع ص ١٩٣.
٨٠ ــ حمور، نفس المرجع ص ١٧٣.
٨١ ــ حمور، نفس المرجع ص ١٨٠، ١٨٣.
٨٢ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٥.
٨٣ ــ حمور، نفس المرجع ص ١٦٩.
٨٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٧٦، العطار، المرجع السابق ص ٧٤.
٨٥ ــ أ ــ عشيرة أول محطة من الطائف في الطريق الى الرياض. ب ــ والحوية منطقة مأهولة قرب مطار الطائف. جـ ــ السيل الصغير أول محطة في طريق مكة أنظر حافظ، المرجع السابق ص ٩. وكان المسافر من مكة الى الطائف يمر بعدة محطات أولها الشرائع وهي تقع في وادي مر الظهران ثم الزيمة وهي واحة لطيفة الهواء عذبة المياة مشهورة بمزروعاتها ومن أهمها الموز المتميز بصغر حجمه وحلاوة مذاقه، ثم السيل الكبير واليمانية والبهيتاء ثم السيل الصغير. عن الزيمة أنظر الحموي، نفس المرجع جـ٣/١٦٥.
٨٦ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٩٣ وص٢٨٤.

وتبعد عكاظ من الطائف حوالي ١٠ أميال مسيرة ليلة، وعن مكة حوالي ٣٠ ميلا مسيرة ثلاث ليال. وتقام السوق في الموضع المعروف باسم الأثيداء، وفي عكاظ صخور مقدسة يطوف العرب بها.

والمعنى اللغوي لعكاظ هو أن العرب يجتمعون في سوقها الكبيرة. فيتعاكظون أي يعكظ بعضهم بعضاً أي يتفاخرون ويتحاجزون للنظر في أمورهم. وتقام طوال شهر شوال وأيام من ذي القعدة بحيث ينتقلون فيه من عكاظ إلى مجنة.[٨٧]

وقيل بل انها تبدأ في منتصف ذي القعدة[٨٨] وحقيقة أن سوقا كبيرة مثل عكاظ تهتم بالأدب والشعر، والتجارة والمال لابد وأنها تحتاج لفترة طويلة فالأرجح أنها تدوم من شوال الى نهايته ولفترة من ذي القعدة[٨٩].

كان مولد هذه السوق وبدء قيامها بعد عام الفيل بخمسة عشرة سنة. وقد دام انعقادها الموسمي من كل عام الى سنة ١٢٩هـ[٩٠] ويعني هذا أن قيام عكاظ كان سنة ٥٨٥م وأنها دامت إلى سنة ٧٥١م. ويدل هذا على أن قيامها يوافق تماما مبدأ حروب الفجار وأنها دامت حوالي القرنين من الزمان.

ولكن نعتقد بعدم صحة ذلك تماما بل نرجح أنها كانت قائمة قبل ذلك الوقت بما يقارب النصف قرن على أقل تقدير. وذلك لأن أمرأ القيس المتوفي سنة ٥٤٠م. قد حضر عكاظ وشارك بمعلقته التي فازت وتخلد ذكرها الى يومنا هذا مع غيرها من المعلقات والتي تم جمعها في العصر الأموي[٩١]. وذلك مما يؤكد قيام سوق عكاظ، وانعقادها منذ مطلع القرن السادس للميلاد حوالي ٥٠٠م[٩٢] أو قبل ذلك بقليل.

وأهل هذه السوق ونزلاؤها من قبيلة هوزان. وقد سكنها بنو غطفان وأسلم والأحابيش (بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وعضل والديش، والحيا

---

٨٧ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٤/١٤٢، الألوسي، المرجع السابق ص ٥٦، ٥٧، حمور، المرجع السابق ص ٩٦، ٩٨.

٨٨ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٦٧.

٨٩ ــ حمور، المرجع السابق ص ١٠٧.

٩٠ ــ الهاشمي ، السيد أحمد ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، سنة ١٩٦٢ ، القاهرة جـ٢/١٤

٩١ ــ حتي، تاريخ العرب ص ١١٢.

٩٢ ــ حافظ، المرجع السابق ص ١٢.

والمصطلق)[٩٣]. ثم بنو عدوان قبيلة عامر بن الظرب، وذو الأصبع العدواني (الشاعر). والعصمة حلفاء بني جشم. وقد سكنتها ثقيف بجوار هوزان. ثم نزلها بنو هلال في القرنين الثالث والرابع الهجري[٩٤]. أي بعد أن خربت ولكن أصحاب السوق هم قبيلة هوازن من قيس عيلان[٩٥]. وقد تولى عامر بن الظرب العدواني (من بني قيس عيلان) حكومة عكاظ وقضاءها وموسمها. ثم اجتمع القضاء والموسم في يد رجل واحد بعد ذلك وهو سعد بن زيد مناة بن تميم. ثم دام الأمر بأن يتولاهما رجل واحد من تميم. وتولاهما ثمانية رجال من تميم على التوالي إلى قبيل مجيء الإسلام حيث مات سفيان بن مجاشع بن دارم من تميم فافترق الأمر[٩٧]. ولما جاء الاسلام كان الأقرع بن حابس متوليا القضاء. وآخر من أجاز الموسم كرب بن صفوان[٩٧].

وامتازت عكاظ بقيامها في الأشهر الحرم بل قرب موسم الحج مما جعلها عامة لكل الناس. وأنها قريبة من المناسك المشرفة في مكة أيضا. وهي المركز التجاري الكبير في بلاد العرب[٩٨]. وبذلك يتمكن الناس من الوصول اليها بلا خفارة. وتميزت عكاظ بخلوها من العشور والاتاوات فليست هي بأرض مملكة ولا حاكم يعشر تجارها وروادها وبيعهم فيها متنوع واستعملوا بيع السرار[٩٩].

ومع أن عكاظ في منطقة حرة. ولكن شملتها بعض العادات السيئة. حيث انتشرت ظاهرة أخذ الاتاوات التي فرضتها بعض القبائل تسلطا على الناس وابتزازا. مثلا دفعت هوازان اتاوة لزهير بن خزيمة العبسي بأن تعطيه السمن والغنم، والجبن في كل عام. وقد ضاقت هوازان ذرعا بذلك فقتلت زهيرا، وتخلصت منه. حيث أنها هي صاحبة السوق ومع ذلك تدفع له نتيجة لالتزام أدبي وليس خوفا منه ولا اتقاء لشره[١٠٠].

وتلتقي جماعات العرب زرافات، ووحدانا في عكاظ في ذلك المهرجان والمعرض العام، فيتناشدون الأشعار، ويتحاجون ويتفاخرون، ويتفادون أسراهم حيث يسعى كل من له أسير لفكه وفدائه. ومن له حكومة رفع مشكلته الى صاحب القضاء ليدلي

٩٣ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٦٧، المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٥.
٩٤ ــ حافظ، المرجع السابق ص ١١.
٩٥ ــ حمور، المرجع السابق ص ٩٩
٩٦ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٨١، حمور، المرجع السابق ص ١٠٤، ١٠٥.
٩٧ ــ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٤، ابن حبيب، المحبر ص ١٨٢.
٩٨ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٢٠٢، عوض الله، المرجع السابق ص ١٧٤.
٩٩ ــ المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٥.
١٠٠ــ حمور، المرجع السابق ص ١١٤، ١١٥

بحكمه الفاصل فيها[١٠١]. ويضبط أشراف القبائل وقادتها أفرادهم. ويمارسون عرض سلعهم للبيع والشراء[١٠٢].

واعتادت عكاظ استقبال لطيمة النعمان بن المنذر كل عام لبيع عطرها وطيبها في السوق وقد كانت اللطيمة سببا لوقوع الحرب يوم السلان بين النعمان وصنائعه وبين بني عامر بن صعصعة لأنهم تعرضوا لهذه اللطيمة[١٠٣].

ولهم في عكاظ نظام تجاري دقيق، بل نظام متقدم وراقي فقد عرفوا فيها وفي غيرها من أسواقهم المحاكم التجارية. وخير مثال على ذلك حلف الفضول بسلطانه القوي عليهم. ولضمانه حقوق المظلومين الضعفاء اذ هو بمثابة المحكمة القانونية.

وهي منطقة حرة حيث أن بضائعها المجلوبة (المستوردة) والمصدرة معفاة من أية رسوم (مكوس) أي ضرائب. اضافة إلى أنها مشمولة بحرمة الحرمتين - حرمة الحرم وحرمة الشهر - واستعملوا شهادة المنشأ. أي العلامة التجارية. فهي تلك السمات التي يتخذونها على بضائعهم. ولكل تاجر منهم وسمة خاصة يميز بها بضائعه. ثم أنهم استعملوا الصكوك التجارية أيضا[١٠٤] ومن نتائج هذه التجمعات في الأسواق الموسمية تبارى العرب في ألوان الترف المختلفة فتغالوا بالثياب والبرود، والطيب، والسلاح. وتزعم أشرافهم ذلك كله. فلجأوا إلى اللهو والتنعم في مشربهم ومأكلهم. حتى أصبحوا يجلبون الخمور من بصرى وغزة وأذرعات وأندرين خصيصا لهذه المواسم. وقد اعتاد الرجال شرب الخمور والنساء كذلك على حد سواء. فتلك امرأة يبعثها زوجها لتبيع له السمن في سوق عكاظ، ومعها راحلتان. فإذا بها تبيع سمنها، وتشتري بثمنه الخمر لتشرب، ولشدة ولعها بالخمر تبيع الراحلتين أيضا ثم ينتهي الأمر بها إلى أن ترهن ابن زوجها لتشرب الخمر[١٠٥].

واعتاد فرسان العرب على التقنع في المواسم والمجامع التي مثل سوق عكاظ ونحوها. ولكن طريف بن تميم أحد بني عمرو بن جندب أماط القناع عن وجهة فقلده جميع العرب وكان القناع من سيماء الرؤساء[١٠٦].

١٠١ـ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٦٤، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/ ٢٧٠.
١٠٢ـ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/ ٢٨٢.
١٠٣ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/ ٢٧٥.
١٠٤ـ حمور، المرجع السابق ص ١١١، ١١٢.
١٠٥ـ الأفغاني، أسواق العرب ص ١٩٦.
١٠٦ـ الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/ ١٠٠، ١٠٢ حمور، المرجع السابق ص ١٣٠

وقد اهتم العرب بالروح وما يتصل بها في عكاظ وفي أغلب مواسمهم، لذلك حرصوا على اقامة تلك المواسم السنوية التي هي عبارة عن أعياد واحتفالات تضج بمختلف ألوان التراث الشعبي الرائع. حيث يتتجعون الخيام المضروبة لاحتساء الخمور، والنبيذ المحبب اليهم. وأقاموا الحفلات الغنائية والسمر. حتى اشتملت على المبارزات والألعاب[١٠٧]. وقد وقف عمر بن الخطاب قبل اسلامه مصارعا في عكاظ[١٠٨].

واهتموا بالأدب الانساني. فكانت تلك أبرز سمات أسواق العرب الموسمية وأفضل مميزاتها بالاضافة الى التجارة النشطة وأرباحها الثرة ولكن اهتمامهم البالغ بالأدب وفنونه في تلك المواسم جعلها بحق مؤتمرات للشعر حيث ترنم الشعراء بشعرهم من المدح أو الغزل. أو الفخر بالشجاعة أو بالكرم. أو الوصف لطبيعة البيئة بكل مشاهدها ومظاهرها.

وبذلك يسود الأدباء جمهور أهل السوق يؤثرون فيهم حتى تراهم يتبعون رأي الشاعر في مدحة أو ذمه لما امتدح أو هجا. وبحسب ما تمليه القصيدة على مشاعرهم الجياشة. ومن هنا ترى وجه الشبه والمقارنة بين هذه المواسم العربية بأحداثها وبين تلك الدورات الرومانية (دورة الألعاب الأولبية)[١٠٩].

وقد ضربوا قبة حمراء من أدم في عكاظ وخصصوها للأدب والشعر حيث يجلس حكام الشعر واللغة فيها، لانتخاب الأجود فيمنحون الشاعر وسام عكاظ عند فوز قصيدته وأنها بزت قريناتها فيتناقلها الرواة لتطبق شهرتها الأفاق. ويخلد الشعر وكل قصائده ثم تكتب معلقته هذه بماء الذهب وتعلق على جدار الكعبة. وبقي لنا من ذلك الشعر المجيد سبع معلقات فقط من كل المعلقات التى فازت في سوق عكاظ بجائزة الموسم السنوية[١١٠]. والجائزة هي المرتبة الأولى التي تحتلها القصيدة والألقاب المميزة التي تمنح للشاعر. وقد كان حكم الحكام في الشعر هو النابغة الذبياني منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. حيث كان يجلس في قبة الأدم الحمراء[١١١].

واضافة إلى ما تقدم من دور فعال في خدمة الأدب والشعر فقد كانت عكاظ سوقا

١٠٧ـ SALIBI, OP. CIT. P. 69.
١٠٨ـ حافظ، المرجع السابق ص ٣٧.
١٠٩ـ سيديو، المرجع السابق ص ٤٦، ٤٧.
١١٠ـ حتي، تاريخ العرب ص ١١١، ١١٢.
١١١ـ حمور، المرجع السابق ص ١٥٣، حافظ، المرجع السابق ص ٢٢، ٢٣.

أعلامية لها دور الصحف، والاذاعات الحديثة حيث يتم فيها الاعلان عن كل شي لاعلام الناس وأخبارهم بذلك[١١٢]. ومن أمثلة الاعلانات أن يأتي أحدهم ببناته للاعلان عن رغبته في تزويجهن في عكاظ. ومن أراد أن يستلحق امرأ بنسبه، أو خلعه لجريرة شائنة ارتكبها. حيث خلعت خزاعة حليفها قيس بن الحدادية في عكاظ.

ومن أراد إسداء المعروف لأحد أفراد المجتمع فعل ذلك في عكاظ فمثلا يعلن منادي عامر بن الطفيل عن استعداد سيده لتقديم تلك المساعدات. تجد كل هذه الارهاصات الاجتماعية طريقها ومنفذها في عكاظ أيضا. وقد يهدف فاعل الخير إلى تخليد صنيعه واسمه بين العرب.

ويجتمع في عكاظ عراف، وعائف، وقائف، وكاتب معه صحف الكتابة، وغنم وقرد. وما إلى ذلك. ويتم فك الأسرى، ومن له ثأر بحث عن موتوره ليتعرف عليه أيضا في عكاظ[١١٣].

ولموقع عكاظ بالقرب من مكة مركز المناسك الدينية، والحركة التجارية فقد أصبحت أهم المراكز الموسمية. وخاصة من الناحية الاجتماعية والأدبية. ويجتمع فيها الشعراء الذين اتصلوا بأهل فارس عن طريق المناذرة، واتصل آخرون بالروم عن طريق الغساسنة. فتأثروا ببعض افكار أولئك الأقوام. وعقائدهم وعاداتهم ونقلوها عبر أشعارهم أو خطبهم البليغة التي تؤثر في الناس أبلغ الأثر. ومن خطبائهم المصقعين قس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت، وأكثم بن صيفي، وورقة بن نوفل[١١٤].

اضافة إلى ذلك فانهم يتداولون بعض أمور السياسة في عكاظ فيقضون بعض شؤونهم السياسية. فمن كانت عليه إتاوة جاء بها الى صاحبها في موسم عكاظ، ومن أراد اعلان حرب أو مقاطعة ضد قبيلة ما أعلن ذلك. ولتخليد نصر حي من أحيائهم، أعلنوا ذلك في عكاظ أيضا.

وقد تحل قضايا ومشاكل، وقد تثار أخرى. ويعقد الصلح بين المتخاصمين، أو تقوم الخصومة في عكاظ كذلك[١١٥].

وإذا أجمع العكاظيون على أمر فهو قرار. فالاجتماع يعتبر قرارا عاما (رسمي أو دولي)

١١٢ـ حافظ، المرجع السابق ص ٣.

١١٣ـ الأفغاني، أسواق العرب ص ٢٠٤، ٢٠٥، حافظ، نفس المرجع ص ٣٨، ٣٩.

١١٤ـ حسن، المرجع السابق جـ١/٦٦، حمور، المرجع السابق ص ١٢٣.

١١٥ـ حافظ، المرجع السابق ص ٤١.

حيث أجمعوا أن فارس تميم هو عتبة بن الحارث بن شهاب. وفارس قيس عامر بن الطفيل وفارس ربيعة بسطام بن قيس بن بكر بن وائل[١١٦].

ويعلنون عن الوفاء كما في قصة عمرو بن الشريد السلمي[١١٧]. أو اعلان الغدر حيث يرفعون راية غدر باسم الغادر لتعريفه في عكاظ فيحكم المجتمع عليه بعقوبة النفي الاجتماعي، وعدم التعامل معه، وفي عكاظ منبر الحكمة والوعظ. ويؤمها المعمرون كذلك[١١٨]. ويؤمها المبشرون فقد وافاها النبي صلى الله عليه وسلم في أعوام متتالية لمقابلة القبائل ودعوتها[١١٩].

وترفع رايات الحزن في عكاظ مثل التي رفعتها الخنساء ثم هند بنت عتبة. وترفع رايات البغاء للاعلام عن ذوات الرايات اللائي يتكسبن بالفجور والمجون[١٢٠].

فكانت عكاظ منتدى أدبيا، اجتماعيا، تجاريا حتى قيل عنها (فيها أشياء ليست في اسواق العرب) حيث يبعث ملوك اليمن اليها بكل مستطرف من سيف أو حلة حسنة أو مركوب فاره ليشتريه أعز العرب وهكذا يتعرف الملك على أشرافهم وسادتهم لعقد الصلات ودعوتهم لتكريمهم ووفادتهم[١٢١].

وقد ذكرنا أن عكاظ خربت سوقها وتوقفت سنة ١٢٩هـ. وهي السنة التي خرجت الحرورية فيها بمكة مع أبي حمزة المختار الأباضي[١٢٢].

وبذلك انتهت سوق عكاظ الذائعة الصيت بعد أن دامت قرابة الثلاثة قرون.

سوق المجنة وذي المجاز :

تقع مجنة بمر الظهران قرب جبل يقال له الأصفر جنوب مكة. وقيل بل أنها قرب جبل طفيل بتهامة، كثير الجن. وتقوم سوقها بعد سوق عكاظ من عشرين ذي القعدة إلى آخره[١٢٣].

١١٦ــ حمور، المرجع السابق ص ١٢٩، حافظ، المرجع السابق ص ٤٦.
١١٧ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٣١٩، حافظ، نفس المرجع ص ٣٩.
١١٨ــ حمور، المرجع السابق ص ١١٩، ١٢٢، ١٣٥.
١١٩ــ ابن بكار، المرجع السابق ص ٣٦٨.
١٢٠ــ حمور، نفس المرجع ص ١٣٧، ١٤١.
١٢١ ــ المرزوقي، المرجع السابق جـ٢/١٦٥.
١٢٢ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٩٠، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٣.
١٢٣ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٥/٥٨، ٥٩.

وذو المجاز موضع سوق بعرفة من ناحية جبل كبكب. وقيل هي ماء من أصل كبكب خلف عرفة وهو لهذيل. تقوم سوقها ثمانية أيام[١٢٤]. من أول ذي الحجة إلى الثامن منه وهو يوم التروية[١٢٥]. سمى بذلك لأنهم يتنادون للتروية بالماء واعداده لحمله إلى عرفة والمزدلفة حيث لاماء بهما. ويوم التروية آخر أيام أسواقهم[١٢٦].

ويتضح أن هاتين السوقين تقومان بعد عكاظ مباشرة. فتقوم المجنة في العشر الأواخر من ذي القعدة. وذو المجاز في أوائل ذي الحجة وذلك يجعلهما تليان عكاظا في الأهمية وأنهما صورة مكملة لأحداث عكاظ. وأن جميع من بعكاظ يؤم السوقين ليتوجه بعدها إلى عرفة ومنى لحضور الحج[١٢٧].

ومن ليس له غرض فيهما يتوجه إلى المناسك للحج فقط[١٢٨]. ولكن سوق مجنة وذي المجاز تعتبران صورة مصغرة عن عكاظ وأقل ازدحاما وبالتالي فهما أقل نشاطا عن عكاظ حيث أن الجموع التي كانت في عكاظ تحتاج إلى فترة سكينة، وراحة بعد المهرجان العكاظي الكبير استعداد لموسم الحج بطقوسه وشعائره وكانت مجنة لكنانة لأنها بأرضها وليس بها عشور ولا ضرائب[١٢٩].

وانتهت سوق مجنة وذي المجاز وخربتا مع عكاظ أو قبلها حيث استعاض الناس بأسواق مكة الدائمة وكذلك أسواق عرفة ومنى[١٣٠].

أفادت قريش من هذه المواسم السنوية عامة، واستفادت من سوق عكاظ والمجنة وذي المجاز. حيث حازت المكانة المرموقة في هذه المراكز الثلاثة. وجنت الأرباح أدبيا وماديا، وبذكائها وفكرها العملي المنظم، أقرت قريش النظم الأمنية في مكة. فأعلنت أنها لا تقر ظالما أبدا، ولا باغيا وضبطت التنظيم التجاري حتى جعلت مكة مركزا تجاريا هاما حقا. احتل الصدارة بين مراكز الجزيرة العربية. وقد احترم جميع العرب حرمة مكة وحفظوا لقريش مكانتها مما أسبغ على أسوق مكة مميزات خاصة. مما جعلها في وضع واطار خاص بها دون غيرها.

---

١٢٤ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٥/٥٥.
١٢٥ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٦٧.
١٢٦ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٨، الفاسي، نفس المرجع جـ٢/٢٨٢.
١٢٧ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ٥٦.
١٢٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٨.
١٢٩ ــ حمور، المرجع السابق ص ١٦٠، ١٦٣.
١٣٠ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٩٠.

الايلاف ورحلتا الشتاء والصيف :

وهكـذا ما أن حل القرن السادس الميلادي حتى كونت قريش اتحاد قبائل كنانة الحجازية بزعامتها[١٣١]. وأمسكت بزمام تجارة جزيرة العرب[١٣٢]. ولكن كيف تسنى لقريش ذلك لقد ارتقت التجارة حتى اعتبرها القرشيون والعرب من أشرف المهن. ولذلك اشتغل بها أشراف مكة. فأتجروا مع بلاد الشام، والعراق، ومع اليمن[١٣٣].

ولأهمية التجارة البالغة في مكة فقد ذكرها القرآن العظيم[١٣٤] ممتنا بخيراته عليهم ويفضله جل وعلا قال تعالى: ﴿لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[١٣٥].

ولكن ما هو الأيلاف ومن هم أصحابه ؟

لقد عرف الايلاف بأنه العهود[١٣٦]. والمواثيق التي كتبت لسادة قريش وهي (كتب الأمان)[١٣٧]. وهي العصم[١٣٨].

وذلك أن تجارة قريش كانت في مبدأ أمرها تجارة داخلية تقتصر على مكة، وداخل الجزيرة العربية فقط[١٣٩]. وبعد أن انتظم عقد أمور قريش في مكة وتولى هاشم بن عبد مناف السيادة والزعامة القرشية فيها. قرر هاشم الارتحال الى الشام. فنزل بها مقيما عدة أيام يقرى الضيف فيذبح في كل يوم شاة ويطعم الطعام. ثم وصل خبره إلى القيصر الذي طلب لقاءه. ولما التقى هاشم بالقيصر حدثه عن قومه من بني قريش وأنهم تجار العرب. وطلب هاشم الأمان من القيصر ليدخل تجار قريش إلى بلاد القيصر فيجلبون له الأدم الحجازية بسعر أقل. فكان هذا الاغراء هو الذي حث القيصر ودفعه على امضاء العهد لهاشم وقريش.

---

١٣١ ــ ENCY. BRITANNICA, AMC, VOL. 1/1046.
١٣٢ ــ عوض الله، المرجع السابق ص ١٢١.
١٣٣ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٤٧.
١٣٤ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٧.
١٣٥ ــ سورة قريش آية ١ـ٤.
١٣٦ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٦٢، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٧٦.
١٣٧ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٣٢.
١٣٨ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥٩.
١٣٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٣١، ٣٢، كستر، المرجع السابق ص ٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٢٠

وهكذا نال هاشم تلك الحظوة المعتمدة من القيصر نفسه، فلما ارتحل قاصدا مكة عبر طريق الشام، شرع يأخذ أمانا من كل شريف من أشراف العرب كلما مر بحي من أحيائهم.

وينص ذلك الأمان على أن يمر تجار قريش بأمن وسلام عبر هذه الأرضين، وأن تحمل لهم قريش البضائع بدلا عنهم. فتتحمل قريش المشقة وبعد الفراغ من بيعها ترجع لهم رؤوس أموالهم بأرباحها كاملة[١٤٠].

فبذلك قام هاشم بن عبد مناف بأعظم عمل قدمه لمكة عامة ولقريش خاصة. ونظم التجارة في رحلتين. رحلة الصيف إلى الشمال الغربي في بلاد الشام مع الروم، والغساسنة. وإلى الشمال الشرقي سافر نوفل بن عبد مناف إلى الأكاسرة فأخذ الايلاف الذي يعطيهم حرية التجوال في العراق وأرض فارس. ثم اتجه المطلب بن عبد مناف إلى اليمن حيث أخذ الايلاف أيضا من ملوك حمير. وكذلك اتجه عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة ليأخذ الأمان من نجاشي الحبشة. وهكذا اشترك الاخوة الأربعة (بنو عبد مناف) في أخذ العصم من ملوك وعظماء الدول المعاصرة في ذلك الحين. وبذلك سمي بنو عبد مناف بالمجبرين[١٤١].

وهكذا نجح القرشيون في عقد المعاهدات التجارية مع كل من البيزنطيين والفرس. ولكنهم لم يرتبطوا معهم بأكثر من ذلك. حيث أناب الأمبراطور البيزنطي عظيم بصري عنه في تمثيل العلاقات مع العرب بعد ذلك. وفعل كسرى الفرس الشيء نفسه حيث أناب مرزبان البحرين عنه. وقد حرص الروم والفرس على الارتباط التجاري مع العرب فقط، والحد مما عدا ذلك من العلاقات، وهذا ما أراده القرشيون أيضا. وأخذ الروم والفرس حذرهم من العرب، ورفضوا التفاوض معهم على مبدأ (الباب المفتوح) حتى في أمور التجارة. وذلك لأن الروم والفرس قد اعتبروا كل غريب جاسوسا وعينا. وقرروا مراقبة العرب عن كثب. ولذلك جعلوا المعاملات التجارية مع العرب تقوم ضمن الحدود السورية في بصرى أو في المدن الفلسطينية مثل أيلة وغزة والقدس[١٤٢]

١٤٠ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٣١، وما بعدها، ابن سعد، المرجع السابق جـ١/٧٨، كستر، المرجع السابق ص ٥ـ٦.

١٤١ ـ الطبري ، تاريخ جـ٢/١٨٠ ، ابن حبيب، المحبر ص ١٦٢، العسكري، المرجع السابق ص ٢١ ، شلبي ، المرجع السابق جـ١/٧٦، كستر ، المرجع السابق ص ٦ ، الأفغاني أسواق العرب.

١٤٢ ـ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 368.

ولكن هذا لا ينفي أن هاشما قد التقى بالقيصر وذلك لأنه لقاء مثبت وقد أجمعت المصادر على وقوعه. وأن هاشما قد أظهر هيبته وعظمته الشخصية حتى بلغت اخباره للقيصر فطلب لقاءه. وأن الذي كان يتم على الحدود بعد ذلك هي المعاملات التجارية الدائمة.

وهكذا انتظم قيام رحلة الشتاء والصيف. وكان هاشم بن عبد بمناف أول من استنها وجعلها دورة منتظمة تقوم في موسمها صيفا الى الشمال، وشتاء إلى الجنوب[١٤٣]. وأما الترتيب الزمني لأخذ العصم من الملوك على أيدي الاخوة الأربعة فقد تضاربت آراء المؤرخين في ذلك. فقد ذكر الطبري ما يوحي بأنهم خرجوا معا من أرض الحرم. وقد خططوا سيرهم، وحددوا لكل منهم جهة معينة يقصدها[١٤٤]. وذكر اليعقوبي أن هاشم أخذ الايلاف ومات بغزة، فخافت قريش على تجارتها فلذلك اتجه عبد شمس الى النجاشي. وبعد عودته الى مكة مات بها.

ونستنتج من هذه الرواية أن قريشا لم تعتقد أن العهد مرتبط بالشخص الذي أبرم العهد معه، ومن ثمة يجب تجديد العهد بعد وفاته. فيقوم صاحب الزعامة بعقد ايلاف جديد ومع جهة جديدة غير السابقة مع المحافظة على الايلاف السابق.

وهكذا انتظمت تجارة قريش في رحلتين رئيستين، وانضوى التجار القرشيون كلهم تحت لواء الرحلتين في ذمة وحماية الاخوة الأربعة وعصمهم العظيمة التي أبرموها[١٤٦]. فحققوا الازدهار لتجارة مكة، ونفوذها وتوطد نفوذ هاشم في مكة وخارجها كذلك.[١٤٧] وجنى المكيون أرباحا طائلة، فكثرت أموالهم. فحل الرخاء والثراء على المجتمع المكي والأمان والسلام في مكة وخارج حدود الحرم بل عبر الجزيرة كلها[١٤٨]. واحتكرت قريش تجارة الهند بفضل مجهودها العظيم[١٤٩].

وخير ما تميزت قريش به أنها تمكنت من تكوين علاقات جيدة مع الفرس والروم والمناذرة والغساسنة، والحبشة. وعقدت الأحلاف مع سادات القبائل داخل الجزيرة.

١٤٣ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٠، العسكري، المرجع السابق ص ٢١، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٦٢، البلاذري، المرجع السابق جـ١/٥٩. NARAYAN, OP. CIT. P. 17.
١٤٤ ــ الطبري، تاريخ جـ١/١٨٠.
١٤٥ ــ اليعقوبي، تاريخ جـ١/٢٤٤، ٢٤٦.
١٤٦ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٦.
١٤٧ ــ نافع، المرجع السابق ص ١٤٢.
١٤٨ ــ كستر، المرجع السابق ص ١٢، يحي، المرجع السابق ص ١٧٦.
١٤٩ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٤٤.

ورغم التنافر الكبير بين هذه الدول والتباغض والتنافس إلا أن قريشا بفضل حرصها على تجارتها حافظت على الحياد التام مع الجميع . وحسن المعاملة ، حتى أنهم عرفوا دائما باسم قريش التجار[١٥٠] وينفي هذا عنهم أية أغراض سياسية أو غيرها .

وقد نظم هاشم تجارة قريش في قوافل جماعية . وضم الفقير إلى الغني في تلك الرحلات فأدى ذلك إلى حماية النفوس والأموال من أخطار السلب والنهب على أيدي قطاع الطرق وهذا ما افتقدته القافلة الفردية التي كانت رحلتها محفوفة بالمخاطر. فكان رأي هاشم وعمله هذا خطوة جريئة حيث أنه لم يكتف بضم الفقير إلى القافلة فقط بل أعطاه حصة من الأرباح مكافأة على عمله في القافلة . أو مقابل توظيف رأس مال هذا الفقير مهما صغر. ولقد كانت فكرة مخالطة الفقير مع الغني رائعة حقا . وتعتبر من أرقى المثل العليا للتكافل الاجتماعي في مجتمع مكة الجاهلي[١٥١] .

وشارك الفرد منهم برأس ماله الذي قد يتدنى إلى دينار واحد أو حتى نصف دينار[١٥٢] . فقد خرج أبو سفيان متاجرا إلى اليمن فمكث خمسة أشهر ثم عاد إلى مكة ، فجاءه الناس مسلمين طالبين بضائعهم ، ومعهم محمد بن عبد الله ﷺ ، سلم على أبي سفيان وأستفسر عن الرحلة ثم خرج دون أن يسأل عن بضاعته . فعجب أبو سفيان له ، وناقش هندا في أمره . فأخبرته بأنه يدعي النبوة . فخرج أبو سفيان إلى الطواف والتقى محمدا . فحادثه عن بضاعته وكم بلغت . وطلب منه أن يأخذها ، ولكن لن يأخذ منه ما يأخذه أبو سفيان من قومه ، فرفض محمد أخذها . حتى رضي أبو سفيان أن يأخذ منه كغيره فأرسل محمد لأخذ بضاعته .[١٥٣]

وتوضيح هذا أن التاجر الذي يسافر بأموال غيره من أهل مكة ليشتري لهم بضاعة أو يتاجر بأموالهم ، انما يأخذ أجرا على ذلك . كما فعل محمد ﷺ عندما تاجر بأموال السيدة خديجة ، أو يأخذ نسبة من الأرباح أو جعلا كما فعل أبوسفيان هنا .

والايلاف في نظرنا نظام اقتصادي ، سياسي . فقد هدف إلى تأمين تجارة مكة والمحافظة على أرواح وأموال أهلها . وقد رمت هذه المعاهدة الاقتصادية إلى أهداف سياسية منها ربط تلك الأمم الخارجة عن نطاق الجزيرة من حيث العرف والتقاليد والجنس فليس هنالك أية محالفات أو اتفاقيات سابقة ، وتلك الأمم غير خاضعة لحرمة

---

١٥٠ ــ جواد علي ، المرجع السابق جـ٤ / ١٩ ، ٣٨٨ .

١٥١ ــ كستر ، المرجع السابق ص ١١ ، عوض الله ، المرجع السابق ص ١٣٦ .

١٥٢ ــ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 370.

١٥٣ ــ ابن كثير ، المرجع السابق جـ٢ / ٢٢٣ .

الحرم ولا لحرمة الأشهر الحرم. وهنا مكمن الخطر. فعقد بنو عبد مناف الايلاف واعتبروه نظاما (مكملا للحمس)[١٥٤].

وبذلك يكون الايلاف أحدث وأهم نظام عرفته مكة في عهد حكومة الملأ القرشية. اضافة إلى كل ذلك أن الايلاف أو عهود الأمان تشبه البراءات التي كانت تمنح لمشايخ القبائل أيضا كنوع من التكريم والتقدير الأدبي لهم. ثم الروم كانوا يعتبرون ذلك ثمنا للصداقة والتحالف معهم[١٥٥]. ولكن الايلاف أكبر وأهم من البراءات حيث كان عهدا وميثاقا له صفة اقتصادية فعالة. يشمل التقدير المعنوي، والمصلحة المادية.

ويضاف إلى الأيلاف نظام آخر وضعته قريش مع القبائل العربية داخل الجزيرة. وبمقتضى هذا النظام تقوم قريش بإشراك شيوخ تلك القبائل في قوافلها التجارية. حيث يحملون لهم بضائعهم ويتاجرون لهم بها دون أن يتحمل أولئك الشيوخ في نقلها شيئا، ولا تأخذ قريش من أرباحهم جعلا.

وهكذا ربطت قريش مصالحها بمصالح القبائل الضاربة على الطرق التجارية. وبذلك ضمنت سلامة قوافلها وتأمينها من الغزو، والسلب ليس ذلك وحسب بل عقدت أحلافا مع بعض القبائل على أساس التكافؤ والتعهد بالحماية والدفاع في وقت الخطر. فكان أبرز أولئك الحلفاء الأحابيش[١٥٦].

وخارج نطاق رحلتي الشتاء والصيف كانت هنالك تجارة خاصة مارستها بعض الأسر الغنية من قريش مع مناطق الجزيرة العربية المختلفة مثل اليمن. وكذلك مع أقاليم خارج الجزيرة مثل الأنبار والحيرة في العراق، ومع بصرى وغزة وأذرعات في بلاد الشام. وكان لتلك الأسر وكلاء في هذه المناطق يتولون عمليتي البيع والشراء. وبالتالي تتوكل هذه الأسر لتجار تلك البلاد وهي العراق والشام واليمن فتجني قريش بذلك أرباحا مجزية[١٥٧].

التنظيمات التجارية والمعاملات والنقود :

قامت كل هذه التجارة على نظم معينة خاصة تلك التجارة التي تولتها قريش من حيث الاستيراد والتصدير داخل الجزيرة ومكة والوساطة التجارية بتوصيل البضائع إلى

---

١٥٤ ــ كستر، المرجع السابق ص ١٩.
١٥٥ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٤١.
١٥٦ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٣٢.
١٥٧ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٤.

الفرس والروم مثلا. فقد عقد رجال قريش المعاهدات لتنظيم التجارة وتأمينها. وضبطوها وسجلوها في مهارق وصحف. أو على الأديم لحفظ تلك العقود والمواثيق. وكانت آخر معاهدات قريش تلك المعاهدة التي عقدتها مع الرسول محمد ﷺ في السنة السادسة للهجرة والتي عرفت باسم صلح الحديبية. وناب عن قريش سهيل بن عمر الملقب بذي الأنياب أحد سادتهم المرموقين ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى وهي معاهدة سياسية أمنية وقد ذكرنا المعاهدات التجارية وأهمها الايلاف.

وعرفت قريش أنماطا من النظم ففرضت الاتاوات على التجار الأجانب من غير العرب والذين لا يرتبطون معها بحلف أمان. ومن تلك الاتاوات ضريبة العشور التي أخذتها قريش من تجار الروم عند دخولهم مكة[١٥٨].

وألمّ بعض أهل مكة بالكتابة والحساب وأعداده وعملياته البسيطة نظرا لاشتغالهم بالتجارة كما عرفوا نظام الصكوك، ونظام الأمانات والودائع وغير ذلك من أعمال التجارة وأصولها. وعرفوا المقاييس والمكاييل والموازين. فاستعملوا الميزان ذا الكفتين، وكالوا بالمد والصاع، والرطل، والأوقية، والنش (يساوي نصف أوقية)[١٥٩] وكتبوا في صكوكهم كل حساباتهم التجارية ومالهم من حقوق لدى الآخرين وما عليهم أيضا ليكون محفوظا ومسجلا[١٦٠].

وقد أفاض القرآن الكريم في ذكر تنظيم الكثير من المعاملات التجارية قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ إلى آخر الآية[١٦١].

واستعملوا نوعا آخر من الصكوك هي صكوك المسافرين والتي يمنحها الملوك وسادات القبائل مختومة بخاتم الحاكم أو شيخ القبيلة أو نقشه. يحملها المسافرون معهم أينما ارتحلوا فلا يعترضهم معترض (فهل تشبه جوازات السفر الحديثة فتكون بمثابة وثيقة) هذا ما يدل عليه تعريفها. ولكن هذه الصكوك ليست عامة وتمنح فقط للوفود وأعيان الناس وأكابرهم. ولا يكون هذا الصك وثيقة مكتوبة بل يكون عبارة عن شعار لقوم. فقد كان شعار أهل مكة ومن في حلفهم (جواز سفرهم، ورمز هويتهم) عبارة

---

١٥٨ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٥٩، ٣٦٠.

١٥٩ ــ السالم، نفس المرجع ص ٣٦٥، الشريف، مكة والمدينة ص ٢١٦، ٢١٧، عوض الله، المرجع السابق ص ١٤٠.

١٦٠ ــ حمور، المرجع السابق ص ٣٨، ٤٢، يحي، المرجع السابق ص ٢٧٥، ٢٧٦.

١٦١ ــ سورة البقرة آية ٢٨٢.

عن لحاء شجر الحرم يجعلونه في أعناقهم أو أعناق ابلهم فلا يعترضهم معترض لأن قريشا لها عهود وعقود مع سادات القبائل أيضا[١٦٢]

وذكروا أن سيماء أهل الحرم إذا خرجوا إلى مناطق الحل في غير الأشهر الحرم فانهم يتقلدون القلائد. ويعلقون العلائق. أما إذا عزموا على الحج فانهم يلبسون ملابس الحاج (تزي أحدهم بزي الحاج)[١٦٣] فلا يعترضه عارض.

وتفتق الذهن التجاري الرائع عن أعظم تنظيم عرفته الجزيرة منذ أقدم عصورها حتى وقبل قريش حيث عقدوا هدنة مقدسة للحج. وشملت التجارة أيضا[١٦٤]. وقد حققت صيانة الأرواح والأموال. وأعلنوا تحديد الأشهر الحرم. فالصبغة لهذه الهدنة دينية لنشر السلام في أيام الحج، والأهداف انسانية رائعة، واقتصادية أمنية. وخصصوا لهذه الفترة ذا القعدة وذا الحجة والمحرم ثلاثة أشهر متوالية، وشهر رجب في منتصف السنة، رابعها لتكون الأربعة الأشهر الحرم[١٦٥] وقد امتنعوا عن القتال وسفك الدماء، ونعموا فيها بحرية التنقل في أنحاء الجزيرة بسلام وحرية[١٦٦].

وتفنن العرب في الاستفادة من التجارة بشتى الوسائل ففرضوا المكوس والاتاوات حتى على مرور القوافل في أرضهم. فقد جبى ملك قتبان الضرائب على كل الطيوب التي تمر عبر منطقتهم ونال رجال الدين حصصا من الطيب نفسه كضريبة. وكذلك الأمر لحراس الملك وأمنائه وخدمه وجميع حاشيته. وتضاف هذه الضرائب على أسعار العطور مما يؤدي إلى ارتفاع أثمانها[١٦٧].

وكذلك انتفعت القبائل المتبدية من مرور القوافل التجارية بأرضها أو عند النزول بأحيائها حيث يتحصل البدو على أجرهم من تلك القوافل كجعل مفروض على القافلة وتجارها. ويدفع التجار جعلا آخر عند الحاجة إلى أدلاء أو عند شراء بعض اللوازم من طعام، أو علف للدواب ونحو ذلك. وحينا يسير بعض أفراد القبيلة مع القافلة لحمايتها إلى أن يصلوا أرض قبيلة أخرى فيتولى الآخرون حراستها وهكذا.[١٦٨]

---

١٦٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٣٣١.
١٦٣ ــ الجاحظ، المرجع السابق جـ٣/٩٥.
١٦٤ ــ بروكلمان، المرجع السابق ص ٢٥، ٢٦، ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٢.
١٦٥ ــ الأفغاني، أسواق العرب ص ٧٠.
١٦٦ ــ حتي، تاريخ العرب ص ١١٢.
١٦٧ ــ يحي، المرجع السابق ص ٣١٦.
١٦٨ ــ يحي، نفس المرجع ص ٢٩٢.

ذكرنا سابقا أن القرآن الكريم نظم العلاقات التجارية. وأن النبي ﷺ لم يحتقر التجارة بل عمل بها قبل النبوة وبعدها ولكنه أقر النظم الجيدة منها. وندد بالسيء ناهيا عن الاستغلال والجشع المادي. وحذر المحتكرين الذين يحتجزون السلع لاستغلال حاجة الناس لها وعندئذ يعرضونها بأسعار عالية. وكذلك هدد الطامعين الذين يحرصون على جني الأرباح الكبرى(١٦٩).

ويدل ذلك على قيام نوع من الشركات الاحتكارية، حيث يتشارك مجموعة من تجار مكة ويسيطرون على سوق عكاظ(١٧٠). ومن شركاتهم مثلا شراكة نوفل بن الحارث بن عبد المطلب مع عمه العباس بن عبد المطلب وكانا متفاوضين، متحابين، وكان نوفل ثريا جدا، حيث أعان النبي بثلاثة آلاف رمح يوم حنين واعتاد أن يخبيء رماحه في جدة. وقد علم النبي ﷺ بمكانها فطلب النبي من نوفل أن يفتدي نفسه يوم بدر بتلك الرماح. فدهش نوفل جدا حيث لا يعرف أحد مكان رماحه(١٧١).

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد تاجرة ذات مال وشرف تضارب الرجال بمالها أي تستأجرهم بنسبة تجعلها لهم من مالها فتعقد معهم شركة مضاربة تدفع هي رأس المال ويساهم الرجل بمجهوده فيخرج يبيع ويشتري ويأخذ لقاء ذلك العمل من أرباح المال وقد عمل معها في تجارتها النبي محمد ﷺ(١٧٢). وكذلك تاجر لها ابن أخيها حكيم بن حزام كما ذكرناه.

واعتادوا عند التعاقد للبيع أن يضرب أحدهما على يد الآخر أي يتصافقا، ولذلك قالوا على انعقاد البيع والشراء صفقة وقالوا: (بارك الله في صفقة يمينك) قالوا: (احذر صفقة المغبون)(١٧٣).

ونظرا لعلاقات قريش الوطيدة مع الأمم المجاورة فقد فتحت في مكة بيوتا تجارية (وكالات) للروم والأحباش(١٧٤).

واستثمر الكثير من أثرياء مكة رؤوس أموالهم في اقراض المحتاجين بربا

---

١٦٩ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/٥٩.
١٧٠ ــ ول ديورانت، نفس المرجع جـ١٣/١٨.
١٧١ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٤٦.
١٧٢ ــ ابن الأثير، نفس المرجع أعلاه جـ٥/٤٣٥.
١٧٣ ــ الألوري، المرجع السابق ص ١٤٣.
١٧٤ ــ الرفاعى، المرجع السابق ص ١٣٩.

فاحش،[١٧٥] ويسمونه الفائض. وكان في يثرب والطائف واليمن وغيرهم مرابون محترفون ليس لهم سوى العيش على الربا[١٧٦]. لأن الربا كان من المعاملات الاقتصادية المنتشرة بين أهل الحجاز وعامتهم. وخاصة يهود المنطقة الذين يعيشون في يثرب وخيبر. وقد استباح اليهود المراباة مع غير بني جنسهم[١٧٧].

بل اعتمد الكثير منهم على الربا وقد يتضاعف القرض بالربا وعند عجز المدان عن السداد تؤكل أمواله وتضيع حقوقه مقابل تسديد الدين مما يؤدي إلى الكوارث والفقر تحت ضغط الحاجة وقد حرّم الإسلام الربا لمساوئه.

ورغم أن العرب قد ضربوا السكة في اليمن وفي قرية الفاو وربما غيرها الا أنهم تعاملوا بالنقد الأعجمي (الأجنبي) من دنانير ودراهم واستعملوا هذه النقود في الشام والعراق، ومصر[١٨٠] وفي الحجاز كذلك. وقد كانت الدراهم فارسية ورومانية ولكن لفظها مشتق من الدراخمة اليونانية[١٧٩]. والدرهم عملة فضية وهو على صنفين، الدراهم البغلية[١٧٩]، تحمل نقش رأس بغل وهي السوداء. ودراهم طبرية نسبة الى طبرية في الشام[١٨١].

أما الدينار فهو عملة ذهبية لفظه مشتق من الكلمة اليونانية (اللاتينية) أيضا وهي ديناريوس. والدينار عملة رومانية[١٨٢]، ويساوي حوالي عشر شلنات انجليزية[١٨٣]. وتدر تجارة العرب وقريش الكثير من الدنانير والدراهم.

وتعامل أهل مكة في بيوعهم وقروضهم بالربح الفاحش الذي يبلغ مائة بالمائة حيث كانوا يربحون دينارا لكل دينار، ودرهما لكل درهم لما عاب القرآن عليهم ذلك وندد بهذا الربح الذي يعتبر نوع من الربا. ثاروا ورفضوا ذلك بعناد واصرار، وقالوا أنها أرباح أموالهم[١٨٤].

١٧٥ ــ SIDDIQUI, OP. CIT. P. 30 جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٣.
١٧٦ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ١٠٢، ١٠٣.
١٧٧ ــ قرضاوي، المرجع السابق ص ٣٨.
١٧٨ ــ الشريف، مكة والمدينة ص ٢١٣، ٢١٥.
١٧٩ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٦٤.
١٨٠ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/٦١.
١٨١ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ١٠٩.
١٨٢ ــ كحالة، مباحث اجتماعية ص ١٠٩.
١٨٣ ــ SHOR[ER ENCY. OF ISLAM, P. 370.
١٨٤ ــ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 370.

وتعامل العرب عامة ببيوع جاهلية كانت معروفة في المدن والبوادي في أسواقهم الدائمة والموسمية وهي كما يلي :

١ ــ بيع الحصاة ، بالرمي وهو رمي الحجارة الصغيرة وله صور متعددة ومستعمل في سوق دومة الجندل .
٢ ــ بيع المنابذة ويكون على ثلاثة أوجه .
٣ ــ بيع الملامسة وهو على ثلاثة أوجه ومن أنواعه الايماءة والهمهمة ويستعمل في سوق المشقر.
٤ ــ بيع المعاومة وهو خاص ببيع ثمار الأشجار لعامين وثلاثة أو أكثر.
٥ ــ بيع المزابنة وهو بيع الرطب في رؤوس النخيل بالتمر كيلا .
٦ ــ بيع المحاقلة وهو بيع الزروع بطريقة مشابهة لبيع الرطب .
٧ ــ بيع المخابرة وهذا بيع خاص بالزراعة وما تخرجه الأرض أيضا .
٨ ــ بيع حبل الحبلة وهو بيع خاص بالمواشي ونتاجها .
٩ ــ بيع التصرية وهو عند بيع الشاة يمنع حلبها لأيام حتى يمتلىء ضرعها بالحليب .
١٠ ــ بيع السرار وهو بيع يشترط فيه الشراكة في الربح ويستعملونه في سوق عكاظ .
١١ ــ بيع الناجز وهو البيع المتعارف عليه حيث تتم المبادلة يدا بيد . وناجز بناجز. أي تسليم السلعة المباعة واستلام ثمنها .
١٢ ــ بيع الجس وهو البيع بالملامسة ويستعمل في سوق صنعاء .

ولهم بيوع أخرى فاسدة وسيئة مثل بيع النجش وهو يعني التواطؤ مع رجل على مدح السلعة وزيادة ثمنها لترغيب الشاري فيها أكثر وأكثر. ولهم عادة فرض المكوس التي تؤخذ من التجار وهي بما يشبه الاتاوة أو الضريبة التي تفرضها الحكومات على البضائع حاليا في بعض البلاد الأخرى[١٨٥] .

أنواع التجارة :

كانت تجارة الجزيرة العربية في أساسها الأول تجارة قوافل ، والحيوان عمادها التي تقوم عليه ، وخاصة الجمل فهو وسيلة القافلة الأساسي . والتي تتألف من ألف إلى ألفي بعير في أغلبها الا ما ندر من خيول أو بغال[١٨٦] .

وقد عرف الساميون الجمل منذ القرن الحادي عشر ق . م[١٨٧] . واقترن بالعربي في

١٨٥ ــ الأفغاني ، أسواق العرب ص ٤٦ ، ٥٦ بتصرف .
١٨٦ ــ SHORT ENCY. OF ISLAM, P. 370
١٨٧ ــ GRUNEBAUM OP. CIT., P. 16.

جزيرتـه منذ القرن التاسع ق.م وقد اعتمد العربي على الجمل كثيرا. في أكل لحمه وشرب لبن النياق واتخـذ من وبره وجلده مسكناً وملبساً وأغطية . واستفاد حتى من فضلاته في البيئة الصحراوية حيث يصلح روثه وقودا للطهي ، وبوله علاجا للشعر[١٨٨] وهو وسيلة مواصلاتهم عبر صحاري جزيرتهم بحكم تكوينه، وطباعه تؤهله لتحمل مشاق الصحاري، من وعورة وجفاف. فالجمل له القدرة على تحمل الجوع والعطش أياما، وله المقدرة على السير فوق الرمال الرخوة[١٨٩]. ويتمكن الجمل من السير وعلى ظهره حمولة وزنها بين ٢٥٠ إلى ٦٠٠ كيلوجراما أو أكثر[١٩٠]. ليقطع بها مسافة ٦٠ ميلا في اليوم الواحد. وقد أهتم العربي بالجمل حتى استعمله في معاملات كثيرة. فقد قدم العربي مهر عروسه من الابل. ودفع عددا من الأبل في دية القتل أيضا. ولعب الميسر على الجمال. وقدروا ثروة الرجل منهم بما يمكله من الجمال والنوق. ونجد العربي يعطي الجمل أسماء وصفات متعددة لتمييز أنواعه، ومواكبة لمراحل نموه وألوانه أو حتى طريقة سيره[١٩١]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا يصلح العرب الا حيث تصلح ابلهم)[١٩٢] وذلك لتوافق الجمل والعربي مع البيئة الصحراوية.

وقد اعتبر الجمل العربي ذو السنام الواحد أفضل أنواع الابل، وأفضل أنواع الجمال العربية المري منها. وقد استأنس العرب بعض الحيوانات الأخرى مثل الخيل والأغنام من ماعز وشاء. ونحوها والحمير والبغال والكلاب والبقر والجاموس والقردة[١٩٣].

واعتمـد العـرب على الحـمار في ركـوبهم وتنقـلاتهم بعد الجمل والذي هو سفينة الصحراء ومركبها أولا وأخيرا. ثم استعمل العربي الحصان، ولكن ليس وسيلة للنقل مثـل الجمـل والحمار، وانما للغارات والحروب بين القبائل لسرعته ومميزاته الأخرى. واتخذه الأثرياء وسيلة ترف للصيد والسباق. فاعتبر العرب الحصان مظهرا من مظاهر الثـراء لما يتـطلبه هذا الحيوان من عناية فائقة أيضا. وهنالك عدد من خيول قريش لاهتمامهم بالصيد والخيل والسباق لثرائهم.

ثم اعتمـدوا على البغـال في تنقـلاتهم وركوبهم[١٩٤]. واهتم عرب الجزيرة بتربية

١٨٨ ــ حتي، تاريخ العرب ص ٢٦. ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٢.
١٨٩ ــ يحي، المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣.
١٩٠ ــ GRUNEBAUM, OP. CIT., P. 16.
١٩١ ــ يحي، نفس المرجع والصفحة.
١٩٢ ــ حتي، تاريخ العرب ص ٢٧.
١٩٣ ــ نافع، المرجع السابق ص ٢٩.
١٩٤ ــ يحي، المرجع السابق ص ١١٥، ١١٦.

الحيوانات ورعيها والمتاجرة بها. واشتغل بدو الجزيرة بالرعي ولذا رحلوا بقطعانهم بحثا عن الكلأ في المراعي الجيدة حسب فصول السنة، وتوزيع أمطار الشتاء(١٩٥). واذا كبر القطيع من الابل أو الغنم قصدوا أسواق الجزيرة الموسمية والدائمة لبيع مواشيهم فالحيوان مادة التجارة المحلية الأولى التي تنتج وتستهلك محليا. ويتبادلون الفائض المحدود منها بسلع تجارية مما يحتاج أهل البادية إليه ويشكل هؤلاء البدو خطرا دائما يزعج الدول المجاورة(١٩٦).

وكما تختلف طبيعة مناطق الجزيرة العربية كذلك تتباين طبيعة المنطقة الواحدة مثل منطقة الحجاز التي تختلف في شمالها عن وسطها فتوجد مناطق خصبة جدا وأمطارها غزيرة في نفس المنطقة على المرتفعات مثل منطقة الطائف وما حولها وكذلك منطقة يثرب وفي جنوب الحجاز. وقد وصف القرآن الكريم أنواع الزروع والأشجار دليل على معرفة عرب الجزيرة وأهل مكة بكل تلك الأصناف(١٩٧). مثل الأعناب والتين والزيتون والرمان(١٩٨) وفي المناطق الحجازية المتوسطة الخصب تنمو أعشاب، وأشجار مثل أشجار السلم والسمر والأثل، والحمض، والغضا، والرمث(١٩٩). وفي جنوب الجزيرة في البلد السعيد زرعوا الشعير، والذرة الرفيعة، والقمح. وصدر أهل اليمن زراعة هذه الحبوب واستئناس المواشي إلى بلاد الرافدين وبلاد النيل(٢٠٠). وفي البلد السعيد أيضا انتجوا الدهون. وزرعوا السنا المكي واللبان واشجار البن. فالبن العربي من أجود أنواعه منذ القدم وحتى الوقت الحاضر. وكذلك القطن وقصب السكر(٢٠١).

والنخلة أكثر أشجار الجزيرة شهرة، والتي تعطي اجود انتاج التمور على الاطلاق. فالتمر والماء هما الأسودان اللذان يتمناهما كل عربي. والتمر مادة الغذاء الأولى في الجزيرة كلها مع اللبن. ولكن محصول التمور يستهلك محليا أيضا فيأكل العرب التمر، ومن شرابه المخمر نبيذهم. ومن نواه طعام لابلهم ولهم استعمالات متعددة لأليافه وأخشابه وسعفه.

١٩٥ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٢.
١٩٦ ــ يحي المرجع السابق ص ٢٩٣.
١٩٧ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٧،٨.
١٩٨ ــ يحي، نفس المرجع ص ١٠٨.
١٩٩ ــ حتي، تاريخ العرب ص ٢٣، أبو العلا، المرجع السابق جـ١/١١١، يحي، نفس المرجع ص ١١١.
٢٠٠ ــ ول ديورانت، نفس المرجع جـ٢/٤٣.
٢٠١ ــ لوبون، المرجع السابق ص ٤٢.

وأجود التمور من هجر والبحرين. وأندرها وأطيبها مذاقا. وقد عدوا مائة نوع من تمور منطقة يثرب وتقاس ثروة الرجل منهم بما يملك من نخيل[٢٠٢]. ويكثر البخور في الجنوب أيضا وخاصة في ظفار وكذلك الورس والكندر، والخطر والعقيق وكلها نباتات مستعملة محليا وتصدر كسلع تجارية مرغوبة جدا اضافة إلى السيوف والبرود اليمنية[٢٠٣].

واكتسب اللبان، وأنواع البخور والطيوب أهمية كبيرة خاصة للطقوس الدينية في كل العالم القديم. ويدخل اللبان في استعمالات طبية أيضا. فأصبحت هذه المواد سلع تجارة الجنوب العربي الأساسية لأغراض دينية وطبية. وللزينة والترف بما يشبه المواد العطرية الحديثة[٢٠٤].

ومن أنواع البخور الأخرى نباتات عطرة كالياسمين والخزامي، والسعتر والبلسم أو المر الذي يحصلون عليه من حفر سيقان بعض الأشجار[٢٠٥]. ومن حاصلات اليمن اضافة الى ماذكرناه الحجارة الكريمة مثل اليشب، والعقيق، والجلود ذات الرائحة الطيبة[٢٠٦]. وخشب الأصطرك. والحجارة الكريمة سلعة عربية مرغوبة دائما[٢٠٧].

وأهم السلع البحرية التجارية العنبر، فهو مادة ثمينة يستخرجها سكان السواحل على البحر الأحمر، والبحر العربي، ويبيعونها بثمن غالي فيربحون ربحا مجزيا. وعمل السكان أيضا على صيد الأسماك لأكلها. وصيد الأصداف التي تستخرج منها اللآلي الطبيعية لتستعمل في صياغة حلي النساء وللزينة[٢٠٨]. حيث أن اللؤلؤ أهم سلعة تجارية تستخرج من الخليج العربي.

ويقوم سكان الجزيرة العربية بنقل وتوصيل بضائع الهند وهي التوابل والمنسوجات والسيوف وكذلك الحرير من الصين. وبضائع شرق أفريقيا والحبشة خاصة مثل الرقيق، والعاج والذهب، وريش النعام والقردة[٢٠٩]. وكذلك خشب الصندل،

٢٠٢ ــ حتي، تاريخ ص ٢٣، يحي المرجع السابق ص ١٠٩.

٢٠٣ ــ حمور، المرجع السابق ص ٣٦.

٢٠٤ ــ يحي، نفس المرجع ص ١١٠، ١١١.

٢٠٥ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١١.

٢٠٦ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٤٣، شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٥، حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق جـ١/٦٢.

٢٠٧ ــ حوراني، المرجع السابق ص ١٥٣.

٢٠٨ ــ شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٥، كحالة، مباحث اجتماعية ص ١٠٢.

٢٠٩ ــ حتي، تاريخ العرب ص ٥٩.

وخشب الصنوبر الذي جلبه عرب شرق الجزيرة من الهند وصدروه الى السومريين والبابليين منذ الألف الثالثة ق.م[٢١٠].

ومنذ القرن الخامس ق.م. وبلاد العرب معروفة في العالم القديم بأنها بلد الطيوب والبخور وقد ذكرها المؤرخ اليوناني هيرودتس بذلك في كتبه. وقد اشتهرت قبل ذلك بتجارتها[٢١١].

والمسك أهم المواد العطرية خصصوا له قافلة وعندما تحمله تسمى اللطيمة. وهي العير التي تحمل تجارة ملوك الحيرة إلى سوق عكاظ خاصة لبيعها هناك. ثم تعود محملة ببضائع اليمن والحجاز وكان لهذه اللطيمة خفراء لحمايتها واجارتها طوال رحلتها في ذهابها وايابها[٢١٢].

والذهب من أهم معادن الجزيرة العربية وهو يتوفر بكثرة وبصورة نقية على طول الساحل الغربي للجزيرة من مدين الى اليمن[٢١٣]. وخاصة في منطقة أوفير جنوب غرب الجزيرة[٢١٤] كما يظن. وقد استخرجه النبي سليمان من أوفير مع غيره من حجارتها الكريمة[٢١٥].

اضافة إلى معادن أخرى مثل الفضة، والرصاص الذي استعمل في صب قواعد الأعمدة لتأسيسها[٢١٦]. وعرفوا الحديد وفوائده وتعدينه كذلك. قال تعالى؛ ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره﴾[٢١٧] شكلت كل هذه المعادن والمواد سلعا تجارية أولية هامة ومتداولة بين الناس حتى أن مصر كانت تستورد بعض المعادن من بلاد العرب[٢١٨].

وقامت بعض الحرف اليدوية في أنحاء الجزيرة ففي الطائف اشتغلوا في دباغة الجلود، وتصديرها إلى أسواق الجزيرة وبذلك اشتهرت الأدم الحجازية[٢١٩].

---

٢١٠ ــ أبو العلا، المرجع السابق جـ١/١٢٤.
٢١١ ــ يحيى، المرجع السابق ص ٣٠٧، حتي، تاريخ العرب ص ٥٦.
٢١٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٣/٢٧٧.
٢١٣ ــ حتي، نفس المرجع أعلاه ص ٥٧.
٢١٤ ــ حوراني، المرجع السابق ص ١٥٢.
٢١٥ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ٢/٣٣٣.
٢١٦ ــ كحالة، مباحث أجتماعية ص ١٠٢.
٢١٧ ــ سورة الحديد آية ٢٥.
٢١٨ ــ ول ديورانت، نفس المرجع جـ٢/٨٤.
٢١٩ ــ كحالة، نفس المرجع أعلاه والصفحة.

وجلب اليمنيون المواد الخام من الهند، فصنعوا البرد اليمنية المشهورة، ودبغوا الجلود أيضا وصنعوا منها الدروع السميكة. كذلك السيوف اليمنية الأكثر شهرة حتى صاروا إذا امتدحوا سيفا قالوا (سيف يماني)[٢٢٠]. وصنعوا الأسلحة المختلفة في مكة أيضا مثل السكاكين والنبال والسيوف والدروع أيضا. فقد كان سعد بن أبي وقاص يبري النبل، والوليد بن المغيرة حدادا. وكذلك كان العاص بن هشام أخا الحكم بن هشام (أبو جهل). وكان خباب بن الأرت عبدا يعمل السيوف. وعرفوا صناعة أواني الفخار مثل القدور، والجفان، والصحاف، والأباريق. وباع أمية بن خلف البرم. وعرفوا الأرائك والأسرة وقد ذكر القرآن الكريم كل ذلك[٢٢١].

وعرفوا فن صناعة التعدين فقد أصيب طرفة بن عرفجة في أنفه يوم الكلاب، فصنع أنفا من فضة غطاء لمكان الأصابة، وتأكسدت الفضة فأنتن الأنف. ولذلك استذن طرفة من النبي ﷺ في أن يصنع أنفا من ذهب[٢٢٢]. وتدلنا هذه الحادثة على براعتهم في التعدين وصناعة الفضة والذهب على وجه الخصوص ولأغراض ملحة وليس للزينة والتجميل فقط.

وكانت القوافل تعود من بلاد الشام حاملة حاصلات تلك البلاد. وأهم ما تجلبه منها فهو القمح، والدقيق، وزيت الزيتون، والخمور، ومصنوعات فينيقيا. اضافة الى منتجات بلاد العرب الشمالية من البلح والقرظ، والصوف والشعر، والوبر، والسمن[٢٢٣]. ولكن أهم سلع بلاد الشام كانت الزيت والدرمك (دقيق القمح الأبيض مقابل التمر والأدم الذي يجلبونه من جزيرتهم الى بلاد الشام[٢٢٤]. والحناء، والصمغ أيضا[٢٢٥]. وأهم المصنوعات الفينيقية الأرجوان الذي اشتهروا به[٢٢٦].

وطلبت روما سلعا تجارية متعددة أهمها المنسوجات، والطيوب والعقاقير من تدمر. وجلبت من بلاد العرب البخور، والصمغ، والصبر، والمر والأفيون، والزنجبيل، والقرفة، والأحجار الكريمة. وجلبت من مصر الحبوب والورق، والتيل، والزجاج، والحلي، وحجر الدعبل، والبازلت والمرمر. والأدوات المصنوعة المتنوعة من

٢٢٠ ــ نافع، المرجع السابق ص ٧٧.
٢٢١ ــ السالم، المرجع السابق ص ٣٦٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٢٥، ١٢٦.
٢٢٢ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/٥١.
٢٢٣ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٤٣، شلبي، المرجع السابق جـ١/٧٥.
٢٢٤ ــ حمور، المرجع السابق ص ١٦.
٢٢٥ ــ وهبة، المرجع السابق ص ١٦.
٢٢٦ ــ السالم، نفس المرجع ص ٣٦١.

الاسكندرية، وصيدا، وصور وأنطاكية، وطرسوس، ورودس، وميلنيس، وأفسوس. واستوردت بلاد الشرق، وبلاد العرب من روما المواد الخام والنقود[٢٢٧].

تجار من قريش :

راجت تجارة مكة ونجحت اعتمادا على موقعها الجغرافي وحياد سكانها حيث قام التجار القرشيون بدور الوسطاء بين عالمين[٢٢٨]. وأعطوا التجارة اهتماما كبيرا. وبذلوا كل ما تمخض عنه فكر حكمائهم وساداتهم وتجارب ذوي الأسنان منهم. حتى تكتمل نهضة قريش الاقتصادية.

وانخرط جل أهل مكة في الاشتغال بالتجارة ماليا وعمليا. أي بأموالهم ومجهودهم بالمشاركة والممارسة الفعلية لكل أعمال التجارة من بيع وشراء وسفر أو بالمشاركة المالية فقط حيث يدفع المال للتجار ويبقى صاحب المال في مكة حتى ترد اليه أمواله بأرباحها وبضائعه المطلوبة.

ولكن يتضح أن نوعا من التخصص كان سائدا بين كبار التجار، وزعماء القوم فكان متجر عبد شمس إلى الحبشة فكأنه تخصص بالتجارة والسفر إلى هذه المنطقة وتاجر المطلب إلى اليمن فكأن الأمر كذلك بالنسبة له. وكان متجر نوفل إلى العراق[٢٢٩]. وذكرنا أن متجر هاشم كان إلى الشام. وهي أساسا كانت خطة الايلاف، الذي فرض نمطا من التخصص فهؤلاء الرؤساء الأربعة من بني عبد مناف قد مارسوا تجارة متخصصة. فتعين على كل منهم الأتجار مع هذه الجهة. وبالتالي فهو متخصص بجلب السلع التجارية من تلك الجهات التي اكتسب الخبرة بها وبأهلها. فقد اختص أحدهم بتجارة المواد الغذائية والتي تجلب من الشام كالحنطة والنبيذ. واختص الآخر بتجارة المواد الكمالية مثل التوابل والبخور، واللبان ونحو ذلك من الهند عن طريق الجنوب العربي. بالاضافة إلى منتجات الجنوب نفسه مثل بعض الأكسية والأسلحة. وهذا ما يطبقه تجار العصر الحديث حيث يختص كل تاجر باستيراد سلع معينة. وقد مارس الاخوة من بني عبد مناف هذا التخصص. ونعتقد باستمراريته حيث تخصصت كل مجموعة من التجار بارتياد جهة معينة لجلب منتجاتها[٢٣٠].

٢٢٧ ـ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٠/ ٢٣٠.
٢٢٨ ـ السالم، المرجع السابق ص ٣٥٧.
٢٢٩ ـ ابن حبيب، المحبر ص ١٦٣.
٢٣٠ ـ الشريف، دور الحجاز ص ٣٨.

ولكن ذلك التخصص لم يمنع قيام التاجر منهم بزيارة منطقة أخرى غير منطقة اختصاصه فقد تاجر عبد المطلب بن هاشم إلى بصرى التي كان لها أهمية قصوى كمحطة تجارية من محطات بلاد الشام . وكذلك تاجر اليها محمد بن عبد الله ﷺ بأموال السيدة خديجة بنت خويلد والتقي الراهب بحيرا فيها(٢٣١) .

وتاجر هاشم بن عبد مناف إلى الشام ونزل بيثرب مرتادا أسواق النبط للبيع والشراء من هذه السوق الموسمية . وهنالك التقى سلمى بنت عمرو من بني النجار . وهي امرأة ذات جمال وحزم وجلد تشارك التجار في البيع والشراء . فأعجبته وتزوجها وهي أم ابنه عبد المطلب(٢٣٢) . وكان من أشهر تجار مكة حكيم بن حزام بن خويلد، ذو شرف ومال كثير وهو من بني أسد ومن سادات قريش أمه فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد . وقد ولدت حكيما هذا في جوف الكعبة حيث فاجأها المخاض هناك . فكان ذلك وسام شرف لحكيم حيث صارت الكعبة المشرفة مسقطا لرأسه . وقد ولد قبل الفيل باثنتي عشر سنة (أي حوالي ٥٥٨م) وكان حكيم سديد الرأي ، ناضج التفكير حتى سمح له بدخول دار الندوة قبل بلوغ سن الأربعين اذ دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة(٢٣٣) .

وكان له مال كثير لأنه اشتغل في صناعة البر ومعالجته في الجاهلية ، وفي التجارة حيث ضرب في آفاق الأرض للتجارة فسافر إلى اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف وجنى الأرباح وامتلك الأموال الطائلة فعلا . وحضر الأسواق في مكة وتهامة أثناء رحلاته التجارية وذكر أن أعظم الأسواق كانت سوق حباشة ، ارتادها ذات مرة لشراء البر، ويصحبته ميسرة غلام عمته خديجة بنت خويلد ليشتري برا لها أيضا، لأنه سلعة مدرة للربح الوفير(٢٣٤) . وهو الذي اشترى لعمته زيدا بن حارثة من سوق عكاظ . واشترى من سوق عكاظ أيضا حلة ذي يزن والتي أهداها إلى النبي ﷺ فيما بعد(٢٣٥) .

جمع حكيم بن حزام ثروة طائلة ولكنه لم يكتنزها بل كان جوادا كريما حتى أنه قاسم الفقراء وذوي الحاجات أرباح تجارته(٢٣٦) . وكان لا يأكل طعامه وحيدا بل يدعوا اثنين وثلاثة من أيتام قريش لمشاركته الطعام في كل وجبة . وأعتق في الجاهلية مائة رقبة في يوم

٢٣١ ــ TRIMINGHAM, OP. CIT., P. 258.

٢٣٢ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٥٢، ابن بكار، المرجع السابق ص ٣٥٣، ابن حبيب، المنمق ص ٤٥٧ .

٢٣٣ ــ ابن بكار ، نفس المرجع ص ٣٧٦، ٣٧٧ .

٢٣٤ ــ ابن بكار ، نفس المرجع ص ٣٦٧، ٣٧١ .

٢٣٥ ــ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٥٥، ٣٦٧ .

٢٣٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٥/٨٣، ٨٤ .

عرفة، ونحر مائة بدنة يوم النحر.

ولجوده وخلقه العربي ومرؤته، فقد أبى يوم حصار بني هاشم في الشعب إلا أن يكون جوادا، ذا مروءة كما عهدوه. فكان عندما تصل قوافله من الشام حاملة الحنطة والمؤن يوجهها الى الشعب فتدخل العير عليهم ليأخذوا حنطتها ومؤنها.

وكانت الرفادة بيد حكيم بن حزام يوم جاء الإسلام، وكان أحد المطعمين يوم معركة بدر الكبرى، وانهزم فيها مع صفوف المشركين.

أسلم يوم فتح مكة مع أبي سفيان[٢٣٧]. وكان دائم الحلف في الإسلام بالذي نجاه يوم بدر[٢٣٨]. ثم أعتق مائة رقبة ونحر مائة بدنة في الإسلام أيضا. وسأل حكيم محمدا عن فعله ذلك في الجاهلية، وأجابه النبي بحصول الأجر والثواب في ذلك الحين أيضا[٢٣٩].

وبعد اسلامه حث حكيم قومه بني أسد على الدخول في الإسلام والهجرة إلى المدينة وأقنعهم بذلك حتى تم له ما أراد[٢٤٠]. ويعتبر من معمري قريش فقد أسلم وهو في الستين من عمره وعاش حتى بلغ المائة والعشرين سنة. ولكنه لم يضعف ذهنيا ولم (يهرف) حيث احتفظ بحدة ذهنه وسداد رأيه ولكنه فقد بصره[٢٤١]. وازداد جوده وكرمه في الإسلام لأنه ابتغى رضاء الله فكان يعين المحتاجين، ويمد أبناء السبيل بالراحلة والكسوة ومؤنة الطريق من طعام ودراهم. ويصل الرحم ويحض على فعل الخير والبر[٢٤٢]. استشاره الخلفاء الراشدون في أمور المسلمين من ذلك استشارة عمر بن الخطاب له في أمر عطاء المهاجرين[٢٤٣]. ولما حج معاوية بن أبي سفيان أكرم حكيما بصلة مجزية. فرفض أن يأخذها. واشترى معاوية دار الندوة من حكيم بن حزام بأربعين ألف دينار[٢٤٤].

ومن أبرز سادة بني تيم ومن أغنيائهم أبوبكر الصديق رضي الله عنه وهو عبد الله بن

---

٢٣٧ ـ ابن بكار، المرجع السابق ص ٣٥٤، ٣٥٦، وص ٣٧٢، ٣٧٥.
٢٣٨ ـ السدوسي، المرجع السابق ص ٥٢، ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٧٢، ٣٧٣.
٢٣٩ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٥٦، ٣٥٧.
٢٤٠ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٧٤، ٣٧٥.
٢٤١ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٥٦، ٣٧٢، ٣٧٧.
٢٤٢ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٦٨، ٣٦٩.
٢٤٣ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٣٧.
٢٤٤ ـ ابن بكار، نفس المرجع ص ٣٦٨، ٣٧١.

أبي قحافة وسمي عبد الكعبة في الجاهلية. أسماه النبي ﷺ عبد الله. ولجمال وجهه وعتقه من النار لقبه النبي بعتيق. ولد بعد عام الفيل بعامين[٢٤٥]. أي حوالي عام ٥٧٢م أو ٥٧٣م. من أرستقراطية مكة ووجهائها الأغنياء. اشتغل بتجارة البر وهو في الثامنة عشرة من عمره وكان يجيد القراءة والكتابة[٢٤٦]. عالم بأخبار العرب، نسابة ذو فضل ومروءة يعين كل ذي حاجة ويكرم الضيف. وحرم على نفسه شرب الخمر[٢٤٧]. ولفضله في قومه كان يحمل الأشناق (الديات) وكان أول مسلم من الرجال فهو الصديق، وثاني الاثنين وهو الخليفة الأول في الإسلام[٢٤٨]. وكان أبو بكر من دهاة قريش وكذلك أبوعبيدة بن الجراح صاحبه[٢٤٩] اشتغل أبوبكر بالتجارة وجمع منها مبلغ أربعين ألف درهما[٢٥٠]، أنفق منها خمسة وثلاين ألف في شراء العبيد الذين أعتنقوا الإسلام ليحررهم ويخلصهم من تعذيب سادة مكة[٢٥١].

ومن أغنى أغنياء تيم (حاسي الذهب) اسم اشتهر به حتى ضرب المثل بذلك فقيل في مدح الكريم (أقرى من حاسي الذهب)[٢٥٢] وهو عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة[٢٥٣]. وكنيته أبو زهير[٢٥٤] كان سيدا في قريش ومن رؤسائها يوم الفجار أعظم أيام العرب وكان ابن جدعان يومئذ رئيس بني تيم. تولى القيادة وتسليح مائة رجل، وتقسيم الأموال يعاونه في قيادة قريش حرب بن أمية وهشام بن المغيرة. وقد ترادفت قريش يومها بالأموال، لتسليح الرجال. فسلح هشام بعض الرجال وموهم أيضا[٢٥٥]. فهو ذو مكانة وشرف وزعامة بين قومه. وقد تم في داره

---

٢٤٥ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/٢٠٥، العظم، المرجع السابق ص ١٧، العقاد، عباس محمود، عبقرية الصديق ١٩٦١م مصر ص ١١.

٢٤٦ ـ ATHAR, HUSAIN, THE GLORIOUS CALIPHATE, Ist. ED, P. 9 - 10.

٢٤٧ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/١١٢، ١١٣، العظم، نفس المرجع ص ١٩، ٢٠.

٢٤٨ ـ ابن الأثير، نفس المرجع أعلاه جـ٣/٢٠٥، HUSAIN, OP. P. 10

٢٤٩ ـ العقاد، عبقرية الصديق ص ٤٥.

٢٥٠ ـ SHORTER ENCY, OF ISLAM, P. 371.

٢٥١ ـ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/٢٨.

٢٥٢ ـ الأصمعي، المرجع السابق جـ١/١٦٥، ابن حبيب، المنمق ص ٤٦٤، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٧٩.

٢٥٣ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ١٣٦، السدوسي، المرجع السابق ص ٧٦.

٢٥٤ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٢٣٣.

٢٥٥ ـ ابن حبيب، المنمق ص ١٩٨، ١٩٩.

اجتماع هام في تاريخ قريش. أبرموا فيه حلفهم المشهور (حلف الفضول). [٢٥٦]

أثرى عبد الله بن جدعان ثراء فاحشا حتى شرب في آنية الذهب فهو حاسيه كما ذكرنا، أما مصدر ثرائه فمن شقين أولهما التجارة التي اشتغل بها وتخصص في تجارة الرقيق (النخاسة) فقد كان هذا النوع منها رائجا وشائعا ومربحا، وقد سافر إلى البلاد بحثا عن العبيد والاماء وجلبهم إلى مكة لبيعهم[٢٥٧].

والمصدر الثاني لثروته أسطورة مشهورة، مذكورة في كتب التراث مفادها أن عبد الله هذا كان شريرا فاتكا غضب عليه أبوه وخلعه فهام على وجهه حتى دخل مغارة قرب الطائف أصاب فيها ثروة هائلة من المجوهرات، من ذهب وأحجار كريمة ولؤلؤ كانت آخر مابقي من أموال جرهم، فأخذ ما استطاع حمله وخرج مع قافلة إلى أرض مصر، وهنالك باع ما معه من جواهر وذهب وفضة، وجنى أموالا جمة ورجع إلى قومه في مكة، وأثبت لهم مشروعية أمواله هذه وقص عليهم قصة المغارة. فأرسلوا معه شهود عيان هم: خويلد بن أسد بن عبد العزى أبو السيدة خديجة، ثم وهب بن عبد مناف الزهري جد النبي ﷺ لأمه. وأعطى قومه العطاء الجزيل حتى رضوا عنه وأحبوه. وقد عرف الموضع وعلمه باشارات وعلامات فكان يعاود زيارة المغارة كلما احتاج إلى ذخائرها وكنوزها[٢٥٨].

والقصة معقولة إذا أدركنا أن الركاز وهي دفائن الجاهليين كانت كثيرة ومنتشرة وأن التمتع بأموال الكنوز مشروع حتى في الإسلام الذي قرر له زكاة مقدارها الخمس (وفي الركاز الخمس)[٢٥٩].

ولكن في نظرنا هنالك مصدر لثروة عبد الله بن جدعان. حيث كانت له دار، وقيان للبغاء، واللهو والشرب والغناء[٢٦٠]. ولذلك هجاه أبو اهاب قائلا:

دار ابن جدعان مأوى كل باغية فكيف يجمع فيها البر والحوب[٢٦١]

---

٢٥٦ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٢٠٣، ٢١٧.

٢٥٧ ـ الأسد، القيان والغناء ص ٨٢، ٨٣.

٢٥٨ ـ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، الأكليل حرره وعلق على حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة، بيروت جـ٨/١٦١، ١٦٧، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢١٧، ٢١٨، الأصمعي، المرجع السابق ص ١٦٧، ١٦٩، العصامي، المرجع السابق ص ٢٠٠، ٢٠١، ابن حبيب، المنمق ص ١٧١، ١٧٢، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/١٠٥/١٠٦.

٢٥٩ ـ الماوردي، المرجع السابق ص ١٢٠.

٢٦٠ ـ الأسد، نفس المرجع ص٦٣، ٦٤، ٨٢.

٢٦١ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٦٣.

فكانت هذه الدار مصدرا ثابتا ومربحا جدا لابن جدعان كغيرها من دور اللهو واشتهر أمر القينتين فهما أمتان من أماء ابن جدعان دعيتا ظبية والرباب وعرفتا بالجرادتين، وسميتا جرادتا عاد، وقد غنتا لابن جدعان نفسه ولصحبه وكل من أم تلك الدار ثم وهبها ابن جدعان إلى أمية بن أبي الصلت الثقفي جزاء على مدحه لعبد الله بن جدعان(٢٦٢).

وكان عبد الله بن جدعان نديما لحرب بن أمية كعادة أهل مكة(٢٦٣) حيث يكون لكل منهم نديم. وكان سيدا جوادا كريما إلى حد الاسراف نصب مناديين يكون أو لهما في أعلى مكة والثاني في أسفلها لدعوة الضيوف إلى اللحم والشحم على مائدة ابن جدعان(٢٦٤).

وأقام جفنة كبيرة جدا للطعام يأكل منها الراكب والماشي وقد ذكر أن النبي ﷺ استظل بها من الهاجرة، ولكبر حجمها أنه إذا وقع طفل فيها غرق في مرقها(٢٦٥). وهو أول من أطعم الفالوذ بمكة(٢٦٦).

وبلغ به الكرم في أخريات أيامه أن حجر عليه قومه لكثرة عطائه فكانوا يسترجعون عطاياه. فاحتال عليهم بأن يقول للرجل السائل، ألطمك لطمة فلا ترضى ألا أن تستقص مني اللطمة أو يرضيك قومي بالمال. فيرضخ القوم ببذل المال عن لطم شيخهم وسيدهم(٢٦٧).

فهو من سادة قريش ووجوهها كان رئيسا في الفجار الرابع، وكان مسرفا في كرمه وفي قتاله يومئذ(٢٦٨) له حلف مع مسعود بن عمرو من القارة. ثم رغب مسعود في ارتجاع حلفه من عبد الله بن جدعان حيث لم يكن لابن جدعان ولد حيئذ. وقد ولد أبنه أبو مليكة بعد وفاة ابن جدعان(٢٦٩). وكانت له مواقف حزم وشدة أهمها موقفه مع سارقي

---

٢٦٢ ـ الأصفهاني، الأغاني جـ٨/٤، ٥، الأسد، المرجع السابق ص ٨٥.
٢٦٣ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٤٥٥.
٢٦٤ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٤٦٥، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/١٠٤.
٢٦٥ ـ الأصمعي، المرجع السابق جـ١/١٦٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٨٠.
٢٦٦ ـ الفالوذ حلوى تصنع من البر الممزوج بعسل النحل أنظر الأصفهاني، نفس المرجع جـ٨/٧، ابن حبيب، المنمق ص ٤٦٥.
٢٦٧ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٤٦٤، المحبر ص ١٣٧، ١٣٨، العصامي، المرجع السابق ص ٢٠٠، الزبيري، المرجع السابق ص ٢٩٢، ٢٩٣.
٢٦٨ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٢٠٦، وما بعدها.
٢٦٩ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٣٠٠.

غزالي الكعبة فقد رافق أبا طالب والزبير ابن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل، والعوام بن خويلد إلى منزل مقيس بن عبد قيس ليتحروا عن سرقة الغزالين وقد أخبرهما بهذا النبأ العباس بن عبد المطلب فكان ابن جدعان أشدهم حزما حتى أنه باشر بنفسه قطع يد دييك سارق الغزال، وكانت شفرته ثلمة فما لبث دييك أن مات في اليوم الثاني، وحكموا على الحارث بن عامر بالنفي إلى خارج مكة لمدة عشر سنين، حيث كان مشاركا مع السراق في مجلسهم وكان معهم أيضا أبو لهب والحكم بن ابي العاص، والفاكه بن المغيرة. ومليح بن الحارث وأبو اهاب بن عزيز وقيس بن سويد، وأبو مسافع الأشعري حليف بني مخزوم، وديك، ودييك من خزاعة يخدمانهم، وقد هموا بالسرقة لأن خمرتهم نفقت، فأشار أبو لهب عليهم بأخذ غزالي الكعبة لأنه اعتبرهما لأبيه، وأشار ببيعهما وتداولوا أمر الغزال ومعاقبة سارقه حتى كادوا أن يحتربوا، ولكنهم اتفقوا على دفع خمسين ناقة من كل مشارك منهم، سلمت الى أبي طالب والزبير فرفدوا بها الكعبة، وهرب من لم يدفع الخمسين ناقة. ثم عاد المنفيون فيها بعد يوم معركة بدر لمحاربة محمد[٢٧٠].

وشارك ابن جدعان مع وفد التهنئة الذي ذهب الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن مع عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، ورياح بن عبد الله وسلموا على الملك في قصر غمدان[٢٧١].

وكان عبد الله ابن جدعان مولعا بالخمر وشربها، ولكنه عافها عندما أسن وحرمها على نفسه، وهذه أيضا عادتهم فقد عافها معظم كبراء قريش في أخريات أيامهم استحياء من دنسها[٢٧٢].

وكان عبد الله بن جدعان أغرجا[٢٧٣]. أثطا من الكواسجة أي قليل شعر الوجه والجسم[٢٧٤].

وكان من أبرز شخصيات بني أمية حرب بن أمية من رؤساء يوم الفجار ومن سادة قريش وحكامها، وابنه أبو سفيان كذلك[٢٧٥]. وهو صخر بن حرب الذي ولد قبل

---

٢٧٠ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٥٤، وما بعدها.

٢٧١ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٥٣٩.

٢٧٢ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/١١٢، ١١٣، العصامي، المرجع السابق ص ٢٠٠، الزبيري، المرجع السابق ص ٢٩٢، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٠١.

٢٧٣ ــ ابن الجوزي، الامام عبد الرحمن، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، سنة ١٩٧٥م ص ٤٤٨.

٢٧٤ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٥٠٨، المحبر ص ٣٠٥، حاشية رقم ٥.

٢٧٥ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٤٥٩، ٤٦٠، السدوسي، المرجع السابق ص ٣٠.

الفيل بعشر سنوات (أي حوالي ٥٦٠م) وهو من كبار تجار الزيت والأدم[٢٧٦]. وكان واسع الثراء. ليس ذلك وحسب بل كان يمول ويجهز تجار مكة. وهو صاحب عير قريش جاب أرض الشام طلبا للتجارة[٢٧٧]. وقد تعلق بنو أمية بالشام فارتحل بنوهم اليها في عهد الإسلام حتى أن معاوية بن أبي سفيان جعل دمشق عاصمة للدولة الإسلامية في عهد الأمويين[٢٧٨].

ومن أثرياء بني أمية الخليفة الثالث عثمان بن عفان بن أبي العاص وزوج ابنتي النبي ﷺ (ذو النورين)[٢٧٩]. فعثمان بن عفان من بني أمية الأسرة الغنية صاحبة النفوذ والكلمة العليا في مكة تنافس في ذلك بني هاشم. وعثمان كان يجيد القراءة والكتابة[٢٨٠]. ويصغر النبي، ولد بعد الفيل بست سنوات (حوالي ٥٧٧) وهو حفيد عمة النبي ﷺ، اشتغل في التجارة وكان بزازا[٢٨١]. له سيرة معروفة في الجاهلية والإسلام. والوليد بن عقبة بن أبي معيط كان أخو عثمان لأمه. ويعتبر الوليد من رجال قريش وشاعرا أديبا ظريفا، وخليما شجاعا[٢٨٢].

ومن بني العاص بن أمية أبو أحيحة سعيد بن العاص، من سادة قريش وعظمائها لقبوه (بذي العمامة) و (التاج) لشهرة عمامته التي لا يعتم بمثلها أحد. وله من البنين عشرة مات نصفهم في الجاهلية وآخرهم في الإسلام[٢٨٣].

وتخصص عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بعدل قريش بالتجارة إلى اليمن وهو أحد بني مخزوم الذين هم أثرياء مكة وأرباب المال فيها نتيجة لاشتغالهم بالتجارة ومثلهم بعض أسر قرشية أخرى كانت واسعة الثراء كذلك. وقد تشارك بعض الأفراد ومنهم أبو أحيحة سعيد بن العاص الذي أسهم بثلاثين ألف دينار في تجارة القافلة التي قادها أبو سفيان سنة ٢هـ[٢٨٤]. واشتهر الوليد بن المغيرة المخزومي من أثرياء مكة[٢٨٥]. فهو

---

٢٧٦ ــ جواد علي، المرجع السابق، جـ٤/١٢٥.
٢٧٧ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/١١٠.
٢٧٨ ــ ابن حبيب، المنمق، ص ١٠٣.
٢٧٩ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٣/٣٧٧، السدوسي، المرجع السابق ص ٣١.
٢٨٠ ــ HUSAIN, OP. CIT., P. 92.
٢٨١ ــ العظم، المرجع السابق ص ٦٣٥.
٢٨٢ ــ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٩٠، ٩١.
٢٨٣ ــ السدوسي، المرجع السابق ص ٣٤، ٣٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٠٨.
٢٨٤ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٤٥، ٤٦.
٢٨٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١١٤.

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[٢٨٦] ثري أثرياء بني مخزوم فاحش الثراء، وهو من بني (العدل) لقبه قومه بذلك لأنه يعدل قريش كلها ثروة تقريبا. فقد كانت قريش كلها مجتمعة تكسو الكعبة عاما ويكسوها الوليد وحده في العام الآخر. وهو أول من سن القسامة عندما حكم في قضية خداش[٢٨٧]. واشتغل جزارا[٢٨٨]. وقد أنزل الله في الوليد قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾[٢٨٩]. وقيل أنه كان يستنكر بكبرياء نزول القرآن والوحي على محمد الفقير اليتيم وهو أغني أغنياء قريش وعظيمها وقد شارك الوليد في هذا الشعور سيد ثقيف أبو مسعود عمرو بن عمير قال تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك﴾[٢٩٠]. وللوليد شخصية مهيبة وكان ذكيا، عميق التفكير حاضر الذهن والبديهة وقد اعتمد على المنطق في جميع آرائه. من ذلك أنه أشار على قومه بأن يقولوا للناس أن محمدا ساحرا حيث أن صفة شاعر أو مجنون لا تنطبق على محمد كما زعم بعض قريش. وكان الوليد سيدا وقورا من عظماء مكة[٢٩١] أبناؤه سادات وأبطال هم هشام، وخالد، والمغيرة، والفاكه، وأبو قيس، وقيس، وعبد شمس، وعماره. أوصى بنيه عندما حضرته الوفاة بأن يقضوا عنه عدة أمور ثقيلة عليهم ومكروهة. فقالوا بأنها كانت شرّ وصيّة. ومن تلك الوصية أنه كان للوليد ربا في ثقيف يأخذه منهم فأوصى الوليد بنيه بالمداومة على المراباة[٢٩٢].

واشتغل صفوان بن أمية بتجارة الفضة (فضة النقد والآنية)[٢٩٣]. وكان صفوان بن أمية بن خلف من المطعمين في الجاهلية، وفصيحا شريفا في قريش يقال له سداد البطحاء واليه كانت الأيسار (الأزلام) وقد بلغت أمواله مع أموال أبيه حدا كبيرا حتى كأنها توزن بالقنطار، وكذلك الأمر لأولاد صفوان. وهو أحد العشرة الذين لهم الشرف في الجاهلية ووصله لهم الإسلام[٢٩٤]. وأما مال أبيه أمية بن خلف فقد بلغ عشرين ألف دينار ساهم بهم في قافلة أبي سفيان يوم بدر. وكذلك اشترك الحارث بن عامر

٢٨٦ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ١٤٤.
٢٨٧ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٢/٤٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٠٧.
٢٨٨ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٤/١٢٥.
٢٨٩ ـ سورة المدثر آية ١١، السيوطي، المرجع السابق ص ٧٦٩.
٢٩٠ ـ سورة الزخرف آية ٣١ ـ ٣٢، السيوطي، نفس المرجع ص ٦٤٩.
٢٩١ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٢/٤٨ طه حسين، المرجع السابق ص ٤٣٥.
٢٩٢ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٢٢٥.
٢٩٣ ـ السالم، المرجع السابق ص ٣٦٢.
٢٩٤ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٧/٣٠٠.

بعشرة آلاف دينار في نفس القافلة. والعباس عم النبي كان من أثرياء التجار. وقد وظف بعضهم رأس ماله في بعض الصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة[٢٩٥].

ومن تجار مكة المعروفون بالأمانة والمال والتجارة الجيدة أبو العاص زوج زينب بنت محمد ﷺ. وقد عرف أبو العاص بالأمين حيث يخرج للتجارة بماله وأموال غيره من الناس وبعد عودته يؤدي الى كل ذي حق حقه[٢٩٦].

والسهمي العبقري الداهية عمرو بن العاص بن وائل[٢٩٧]. الذي أرسلته قريش في وفدها إلى النجاشي ليرد أوائل المهاجرين المسلمين من أرض الحبشة ويسلمهم إلى قريش[٢٩٨].

كان أبو العاص بن وائل سائسا للخيل والابل، أما عمرو فقد كان جزارا[٢٩٩]. ثم أصبح تاجرا، مارس التجارة والترحال. فزار الشام ومصر والحبشة، مما اعطاه سعة في الاطلاع والمدارك وكان قارئا وكاتبا بليغا فصيحا قال الحكمة والشعر. وزار الاسكندرية في الجاهلية فحضر فيها احتفالات وشارك في لعبة الكرة الذهبية التي دخلت في كم ثوبه. وكانوا يتنبأون لحائز الكرة بحكم البلاد. فعجب الناس لدخول الكرة في كم ثوب هذا الغريب. ثم تحققت النبوءة وحكم عمرو بن العاص أرض مصر في صدر الإسلام[٣٠٠].

وكان عمرو سيدا في قومه، ذو مكانة بارزة ومرموقة، وذو دهاء وحنكة. وهي صفات الساسة الدبلوماسيين. وقد عدوه من أشهر دهاة العرب المعروفين. فهو أولهم ثم المغيرة بن شعبة الثقفي، وقيس بن عبادة الأنصاري[٣٠١]. ومعاوية بن أبي سفيان، وزيادة بن أبيه وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي[٣٠٢].

وافتخر عمرو بابيه واعتز بنسبه اليه. وكان خجولا من نسبه لأمه لأنها كانت أمة يقال لها النابغة واسمها سلمى بنت حرملة[٣٠٣]. ولما أثرى عمرو وملك كرما كثيرا في وادي

٢٩٥ ـ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 371.

٢٩٦ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٧/ ٢٩٩.

٢٩٧ ـ السدوسي، المرجع السابق ص ٨٧.

٢٩٨ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٤/ ١١٥، ١١٦.

٢٩٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ١٣٥، نقلا عن ابن رستة، الأعلاق النفسية.

٣٠٠ ـ محمد فرج، المرجع السابق ص ٢١٥.

٣٠١ ـ العظم، المرجع السابق ص ٥٤٨، ٥٤٩.

٣٠٢ ـ ابن حبيب، المحبر ص ١٨٤.

٣٠٣ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٤/ ١١٥، ١١٦، محمد فرج، نفس المرجع ص ٢١٨.

وهط بنواحي الطائف، بلغ عدد شجره ألف، ألف عود (مليون كرمة) حيث يشكل هذا العنب وزبيبه عماد الثروة النباتية والاقتصادية في الطائف[٣٠٤].

وتخرج القافلة التجارية، بآلاف الإبل فهي أشبه ما تكون بالحملة[٣٠٥]. فقد كان قوامها ١٥٠٠ بعيرا يتقدمها كشافة الطرق، ومن حولها الهداة (الأدلاء والحراس). والقوافل التي تقصد بلاد الشام تنزل في محطات معينة من قبل الحكومة الرومانية. وذلك لضمان جباة الضرائب على الواردات إلى الشام. ولتراقب روما جميع الأجانب المرافقين للقافلة داخل البلاد. وتنزل تلك القوافل أولا في أيلة ثم تتجه الى غزة ومنها إلى بصرى وتتولى حماية القوافل بعض القبائل مقابل جعل يأخذونه، واذا هوجمت القافلة وفتك بها السلب والنهب ترجع القبيلة ذاك الجعل إلى أصحابه[٣٠٦].

وتوزع الميرة والمؤن التي تجلبها القوافل مرتين في العام التوزيع الأول يتم في رجب، والأخير يكون عند وصول وفود الحجاج إلى مكة وهو ما يوافق نهاية شهر ذي القعدة ومطلع ذي الحجة. ولكن التمر يصل دائما إلى مكة من بعض مناطقه المعروفة. وكذلك العنب الذي يجلب من الطائف[٣٠٧].

ويوازي الثراء مكانة، الرئاسة والشرف. فقد حازت بعض الشخصيات الثراء العريض وحاز البعض الاخر المكانة العالية بشرف أو رئاسة وسيادة على القوم. وجمع البعض من قريش بين هذا وذاك. وحاز بنو قصي من بين بيوتات قريش على الشرف والرئاسة بلا منازع حتى أنهم أحرزوا المآثر الست دون سائر قريش فحاز بنو قصي على الحجابة والسدانة والسقاية، والرفادة، اللواء، والندوة[٣٠٨]. وقد استمد بنو قصي مكانتهم الروحية من جدهم قصي ثم بعد ذلك من جدهم هاشم فنالوا جاه مكة وسيادتها أما المال فرغم أن بعضهم اشتغل بالتجارة ومارسها الا أن غالبيتهم كانوا متوسطي الثراء فقد مات أبو طالب بن عبد المطلب وحالته المادية مضعضعة، ومات قبله عبدالله بن عبد المطلب ولم يترك لأهله شيئا[٣٠٩]. رغم أن عبد الله كان يمتار التمر وهو المادة الغذائية الرئيسة من المدينة ومات بها في احدى سفراته.[٣١٠]

---

٣٠٤ ـ يحي، المرجع السابق ص ٣٠٣.
٣٠٥ ـ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٤١٨.
٣٠٦ ـ حمور، المرجع السابق ص ٢٠، ٢١.
٣٠٧ ـ نافع، المرجع السابق ص٢٠.
٣٠٨ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٥٣٠، ٥٣١.
٣٠٩ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٨٢.
٣١٠ ـ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٥.

وقد اهتم بنو هاشم بشؤون الحرم وخدمة الحجاج. مما أشغلهم فيما بعد عن التجارة، أما بنو عبد شمس فقد تفرغوا للعمل بالتجارة والسفر إلى الشام لأجلها. وقد كانت تجارتهم هذه تشكل موردا يصرف منه على الحجيج والسقاية، حيث كان الماء يحلى بالعسل أو الزبيب أو التمر[٣١١].

فهل يمثل هذا اتفاقا بين الاخوة على أن يقوم البعض منهم بالعمل في أمور البيت والحج ويعمل الآخرون في التجارة وأمورها. فإن كان هذا الحدس صحيحا فقد تحقق بين الاخوة في أيام حياتهم وأما فيما بعد فقد تفرقت الرئاسة في جميع بيوتات قريش خاصة بعد موت عبد المطلب بن هاشم[٣١٢].

وجمع بعض بني عبد المطلب بين الرئاسة والتجارة، فكان العباس بن عبد المطلب تاجرا ثريا ويسافر في رحلاته التجارية متشبها بالملوك من شدة ثرائه[٣١٣]. وتولى السقاية التي انتزعها من أخيه أبي طالب مقابل سداد الدين الذي كان للعباس عليه. كما مر بنا ذكره. وقد وظف أثرياء قريش رؤوس أموالهم في مشاريع مختلفة فهذا العباس بن عبد المطلب قد امتلك أرضا في الطائف استغلها في زراعة العنب الذي يعصر فيأخذون نبيذه. ويجفف بعضه فيصير زبيبا ينبذه في الماء لسقاية الحاج. وقد اشترى معاوية أملاكه التي في الطائف من اليهود الذين كانوا مقيمين بها وكانت مفروضة عليهم ضريبة الرؤوس[٣١٤].

واشترى البعض الآخر من أثرياء مكة المياه (الآبار) وامتلكوا المنازل في الطائف ليسكنوها عندما يحضرون إلى الطائف في الصيف. وشاركوا رؤساء ثقيف في التجارة والأرباح. وحاولوا ربط الطائف بمكة تجاريا.[٣١٥]

وقد بلغت التجارة والاقتصاد مستوا رفيعا في مكة وصفه القرآن الكريم مبينا رؤوس الأموال التي تستغل في التجارة والربا، لتربو وتزيد. كما أشار إلى البيع والشراء والشركات والتكاتب، والتعامل التجاري والقروض والرهائن وما الى ذلك[٣١٦]. ولكن رغم ذلك المستوى الراقي والحيوية الاجتماعية والاقتصادية في مكة فقد وجد فيها الثراء

---

٣١١ ـ عبد الحميد، المرجع السابق ص ٢٩٣.

٣١٢ ـ ابن حبيب، المنمق ص ٥٣١.

٣١٣ ـ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 86.

٣١٤ ـ HITTI, THE ORIGIN OF THE ISLAMIC STATE, P. 86.

٣١٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٥٣.

٣١٦ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٧/٢٨٥.

الفاحش في الطبقة الغنية المترفة. وكذلك وجدت طبقة وسطى تعيش بين المجتمع وسطا في مالها ودخلها ومعيشتها وهنالك طبقة فقيرة معدمة تشمل جماعات من الفقراء المدعقين عانوا من الربا والاستغلال. وكان من هذه الجماعات الساخط الثائر على أوضاعه. والآخر الساكت على مضض لهذا التناقض الواضح بين مثرين هانئين، وفقراء ناقمين. وجماعات مترفة منعمة وأخرى في بداوة وخشونة، نعيم وشقاء(٣١٧).

ففي النصف الثاني من القرن السادس م. بعد استقرار قريش وتنظيم أمرها الذي حقق لها الانتعاش الاقتصادي. صار القرشيون يرفلون بأثواب الثراء والبذخ واتخذوا البيوت اللائقة بأثريا عظماء زاروا العالم وتعرفوا على بيوت أثريائه والتي تحتشد بالخدم والحشم. وتنفق في سرف وبذخ(٣١٨). حتى أنهم اتخذوا بيوتا خاصة للضيافة مثل بيت الضيافة الذي امتلكه الفاكه زوج هند بنت عتبة(٣١٩) والذي مر بنا ذكره وفي المقابل فقد لجأ بعض المفلسين من تجار مكة الأشراف والذين تعرضت أموالهم للضياع والهلاك إلى الاعتفاد حيث أنه وسيلة للتخلص من عار الفقر ومذلته فيخرج أهل البيت سرا ـ إذا خسروا أموالهم ـ الى الصحاري (مكان مجهول)، ويضربون الخباء على أنفسهم. محتبسين داخله حتى يموتوا، ويهلكوا جوعا، دون أن يعلم أحد بورطتهم أوباعتفادهم وتراهم بذلك يفضلون الموت على الاستجداء(٣٢٠) والفقر الذي يعتبر مذلة في مجتمع مكة الغني. وعزة نفس القرشي وأبنائه وشممه يمنعون سقوطه إلى درك الفقر والمذلة والمهانة فالموت أهون عليهم من ذلك الموقف. ونستنتج من ذلك أن طبقة الفقراء التي كانت في مكة انها تتكون في أغلبها من العبيد والاماء، وذوي الحاجات من غير القرشيين.

---

٣١٧ ـ الدوري، المرجع السابق ص ٣٥، ٣٦.
٣١٨ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/ ٢١، ٢٢.
٣١٩ ـ الألوري، المرجع السابق ص ٨٩.
٣٢٠ ـ كستر، المرجع السابق ص ١٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٥/ ٨٠.

الفصل الثالث
دور قريش الديني

أديـــان ومعتقـــدات :

عَرَف العرب في جزيرتهم أغلب أنواع المعتقدات. فقد كانت دياناتهم قبل الإسلام متباينـة مختلفـة. فكـان غالبيتهم وثنيين وهم الذين عبدوا الأصنام، وحجوا البيت واعتمـروا. ومـارسـوا طقوس العبادة من احرام، وطواف، وسعي، ووقفوا المواقف كلها[1]. ونتج أصل الشرك عن طريق التقرب إلى الله بالتماثيل والأصنام. ثم تحولوا تدريجيا إلى عبادة الأصنام نفسها. وبقوا على تعظيم الكعبة[2].

والأدلة على اثبات ذلك كثيرة ومتواترة في القرآن والسنة[3]. وقد ذكر القرآن الكريم اعترافهم باتخاذهم الأصنام واسطة وزلفى تقربهم إلى الله.

ورفض أبو بكر الصديق، وأمية بن أبي الصلت، ورباب بن البراء، وأسعد بن كرب الحميري عبادة الأوثان[4]. ورفضها أبو أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن النجار أيضا وأسلم وهو شيخ كبير[5].

وكان بعضهم أهل أديان سماوية مثل اليهود والنصارى[6]. فكانت اليهودية في حمير وبعض كنانة وبني الحرث بن كعب وكندة[7]. وقد عرف العرب اليهودية منذ عهد الملك

---

١ ـ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٥٢.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٢٤.

٣ ـ سورة لقمان آية ٥٢، سورة الزخرف آية ٩ وآية ٨٧.

٤ ـ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٥٦.

٥ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٣٥٠.

٦ ـ الألوسي، المرجع السابق ص ٧٣،

٧ ـ العطار، المرجع السابق ص ٨٨، المقدسي، المرجع السابق جـ٤/٣١. ابن حزم، نفس المرجع ص ٤٩١

سليمان في القرن العاشر ق.م[٨]. ولكنها لم تنتشر في الجزيرة الا بعد عام التشتيت الموافق ٧٠م حيث سكنها كثير من اليهود بل وتفرقوا في أنحاء البلاد الأخرى[٩].

وقد بدأت الهجرات اليهودية إلى الجزيرة وإلى شمال الحجاز في القرنين الأول ، والثاني للميلاد[١٠].

واستقرت الطوائف اليهودية الوافدة في خيبر ويثرب ، وفي وادي القري في أرض تيماء[١١]. وانتشروا في فدك، وفي الطائف[١٢].

وانتشروا في جنوب الجزيرة أيضا. ثم تهودت بعض الطوائف العربية[١٣]. وبلغ عدد قبائل اليهود نيفا وعشرين قبيلة. وعدد آطامهم حوالي ٧٠ أطما.

وانقسم يهود الحجاز إلى أحبار وجهلة. وأبرز شخصياتهم السموءل بن عاديا صاحب تيماء. وكعب بن الأشرف من أصحاب النفوذ بين اليهود. ولدى قريش أيضا. وكان شاعرا وفارسا.

وتوقفت هجرة اليهود في القرن الخامس الميلادي. وقد انتهى وجودهم في الجزيرة بإجلاء الخليفة عمر بن الخطاب لآخر طوائفهم عن الجزيرة في صدر الإسلام[١٤]. أما وجود اليهود في مكة فقد اقتصر على بعض الأفراد الذين توافدوا عليها. وعاشت قلة منهم فيها لا تتعدى بعض الأفراد. فلم تجتمع بها طائفة كبيرة كما أنه لم يتهود أحد من قريش. برغم اتصالهم بيهود الحجاز عامة عن طريق التعامل التجاري. وقد ذهب القرشيون إلى اليهود في يثرب لمسائلة الأحبار عن خبر النبي محمد ﷺ[١٥]. حتى العبيد اليهود في مكة كانوا أقلية. نعرف منهم الغلام اليهودي عبد الدار بن جبر الذي اعتنق الاسلام بعد أن سمع سورة يوسف[١٦].

ويتضح من ذلك أن اليهودية اعتمدت في انتشارها على الهجرات بينما اعتمدت

---

٨ — SALIBI, OP. CIT., P. 23.

٩ — ول ديورانت، المرجع السابق جـ١١/ ١٩٠.

١٠ — ولفنسون، المرجع السابق ص ٦،٨.

١١ — ولفنسون، المرجع السابق ص ١٤.

١٢ — عبد الحميد، المرجع السابق ص ٣٦٤، ٣٦٥.

١٣ — ولفنسون، نفس المرجع ص ١٠، الحوفي، المرجع السابق ص ١٩.

١٤ — ولنفنسون، نفس المرجع الصفحات ١٦ ، ٢٠، ٣٢ ، ٤٢.

١٥ — مهران، بيومي، الديانة العربية القديمة، ١٩٧٨م ص ٥٣، ٥٤.

١٦ — ولفنسون، نفس المرجع ص ٩٤، مهران، الديانة العربية ص ٥٣.

المسيحية على التبشير. ودخول النساك، والرقيق الأبيض خاصة إلى بلاد العرب ومكة[١٧]. وكانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة[١٨]. في شمال الحجاز. وفي فلسطين وشبه جزيرة سيناء. وفي وسط الجزيرة بل في قلب نجد، وفي الشرق في البحرين أيضا[١٩]. وفي الجنوب في مدينة نجران[٢٠]. ذات المأساة المشهورة التي وقعت حوالي سنة ٥٢٠م حيث تم اضطهاد النصارى مما أدى إلى هروبهم[٢١]. وأن يوسف ذا نواس هو الذي أحرقهم في الأخدود[٢٢].

وتنصّر أهل حمير، ونجران ثم تهودوا. ورفض بعض القرشيين عبادة الأوثان وطلبوا الأديان الأخرى. فتنصر عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى. وتنصر عبد الله بن جحش كذلك. وبقيا الى أن ماتا وهما على النصرانية[٢٣]. وتنصر شيبة بن ربيعة بن عبد شمس[٢٤]. وقوم من بني تميم. وبعض ربيعة بنى تغلب. ومن القبائل اليمنية طيء، ومذحج، ومهراء، وسليم، وتنوخ وغسان، ولخم[٢٥]. ودان بالنصرانية ورقة بن نوفل بن خويلد بن أسد وهو ابن عم خديجة بنت خويلد وقد زهد الدنيا، وكره عبادة الأصنام. وقرأ الكتب وكان شاعرا ومن العلماء وقيل أنه تهود أولا ثم تنصر[٢٦]، ثم تحنف. وقد صدق بنبوءة محمد ﷺ. وروي أن النبي قد أكد أن ورقة ليس من أهل النار، ونهى عن شتمه أو النيل منه[٢٧]. وتميز ورقة بن نوفل عن غيره ممن تنصر. بأنه أحب الدين والتعبد ولم يهدف بتنصره السياسة أو زعامة، ولم يكن تنصره نتيجة لمخالطة الروم بالذهاب اليهم وتأييدهم كما فعل ابن الحويرث. بل آثر لموطنه أن ينعم بالحرية حتى لو بقوا على وثنيتهم إلى أن يهديهم الله[٢٨]. وكان ورقة سيدا شريفا مجيدا، وفي

---

١٧ ـ مهران، الديانة العربية ص ٦١.

١٨ ـ العطار، المرجع السابق ص ٧٨٨ المقدسي، المرجع السابق جـ٤/٣١.

١٩ ـ بروكلمان، المرجع السابق ص ٢٨، الحوفي، المرجع السابق ص ٣٦، ٣٧.

٢٠ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ١٠.

٢١ ـ NARAYAN, OP. CIT., P. 4.

٢٢ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٣٧.

٢٣ ـ ابن حبيب، المحبر ص ١٧١، ١٧٢، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٥٣، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٢٢٦، ٢٢٧.

٢٤ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩١، مهران، الديانة العربيةة ص ٦٣.

٢٥ ـ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٧، ابن حزم، نفس المرجع ص ٤٩١.

٢٦ ـ السدوسي، المرجع السابق ص ٥٤،٥٥.

٢٧ ـ ابن الأثير، أسد الغابة جـ٥/٨٨، ٨٩، ابن بكار، المرجع السابق ص ٤٠٨.

٢٨ ـ طه حسين، المرجع السابق ص ٣٩٦.

شعره ورع وتدين[٢٩]. ولأنه لم يقتنع بتلك الأديان عاد إلى الحنيفية.

وقد تركت النصرانية آثارها على حياة المتنصرين. فمال بعضهم الى الرهبنة في الأديرة أو في الصحاري. حيث عاش قس بن ساعدة في القفار متزهدا لا يتناول الا القليل من الطعام. يعظ القساوسة، والرهبان، وكل الناس مذكرا اياهم بالبعث والحساب[٣٠]. أما ورقة بن نوفل فقد تزهد أيضا. وأنقطع إلى البحث في الكتب. ولكن مهما انتشرت المسيحية فلا نجد من أتباعها إلا أقلية[٣١].

ففي مكة مثلا لا نعرف سوى أولئك النفر السابق ذكرهم مع مجموعة من الرقيق النصراني، الأسود منه أو الأبيض. ومنهم زيد بن حارثة الذي تبناه النبي محمد ﷺ[٣٢]. ومجموعة أخرى لم نتعرف اليها مع مجموعة من النساء النصرانيات اللائي هن زوجات لبعض القرشيين، وغدون أمهات أبنائهم. ولكن كل هؤلاء لم يكونوا مؤهلين للقيام بنشر الديانة[٣٣]. بل أنها كانت حالات فردية محدودة.

فإذا عرفنا أن قريشا تشترط التحمس على أبناء البنات اللائي يتزوجن من غير قريش فالأجدر أنها تفرض الوثنية على الزوجات والاماء والعبيد مما يدعونا إلى الاعتقاد بعدم إنتشار النصرانية في مكة.

وكان فريق من العرب مجوسا، بل كانوا منبثين في جهات الجزيرة مثل نجران، واليمن وهجر، وعمان، والبحرين، وبعض بني تميم ومنهم زرارة بن عدس، وابنه حاجب والأقرع بن حابس، وسلمان الفارسي الذي أتى مكة. مما يشير إلى معرفة قريش لهذه النحل والملل. ولعل تحالفهم قرب النار من أصل شعائر المجوسية[٣٤]. والتي تعنى عبادة النار. وقد ألف العرب اشعال النار لمناسبات مختلفة[٣٥]. كما مر بنا. وكان منهم الصابئة ـ عبدة الكواكب والنجوم مثل الشمس والقمر. وعبدها بعض قريش وأهل مكة. فقد خرج أبو كبشة (وجرة بن غالب الخزاعي) عن قريش وترك عبادة الأصنام فعبد الشعرى. الذي تسميه العرب بنجم العبور، لأنه يقطع السماء عرضا في دورانه وأبو كبشة هو أحد أجداد النبي لأمه. ولذلك نسبوه اليه يوم الدعوة فقالوا: (خالف كما

٢٩ ـ عبد الجبار، المرجع السابق ص ٢٢٣.
٣٠ ـ الأصفهاني، الأغاني جـ١٤/٨٧، ٨٨، الحوفي، المرجع السابق ص ٣٩.
٣١ ـ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/٢٣.
٣٢ ـ TRIMINGHAM, OP. CIT. P. 260.
٣٣ ـ مهران، الديانة العربية ص ٦٣.
٣٤ ـ الحوفي، المرجع السابق ص ٥١، ٥٢.
٣٥ ـ مهران، الديانة العربية ص ٧١.

خالف أبو كبشة)[٣٦]. وقد عبدت قيس نفس النجم (الشعرى) وعبد بعض العرب الشمس وسجدوا لها وعبدوا القمر وغيره من النجوم[٣٧] وتعبد قوم من أهل مكة لزحل[٣٨]. وقد شجعهم على عبادة النجوم والكواكب صفاء صفحة سمائهم، واهتداؤهم بنجومها في البر والبحر[٣٩].

وقد نهى القرآن قريشا وعامة العرب عن عبادة الشمس والقمر وغيرها. ولعلهم كانوا يرهبون الشمس في شروقها وغروبها، وعظيم نفعها فيخافونها مما حملهم على أن يخروا لها ساجدين نوع من الاجلال والتعظيم. وكذلك الأمر للقمر لسحر ضوئه في ليلهم الدامس عبر الفيافي والقفار. وقد نهاهم الإسلام عن ذلك. وتعبد أهل الجنوب إلى القمر والنجوم، وخروا للشمس ساجدين. وقد وردت في نقوشهم كلمة ورخن وهي التي اشتق منها التأريخ على دورة القمر[٤٠]. وعبدو الثريا وتسموا بها فمن أسمائهم عبد الثريا وعبد نجم. عبدوا المريخ وسهيلا وعطارد وغيرهم. وتعبدوا الجمل أو ناقة أو نخلة أو شجرة ذات أنواط قرب مكة والتي اعتاد العرب أن يعلقوا أسلحتهم عليها[٤١]. وهي لقريش وغيرها من العرب[٤٢].

واعترفت أقلية من العرب بالتوحيد. فأقروا بوحدانية الله. وهم الأحناف الذين كانوا على ملة ابراهيم عليه السلام. وقد مارس الوثنيون طقوس دين ابراهيم مع شركهم[٤٣]. وعظموا الأشهر الحرم وأنكروا الفواحش، وعاقبوا على الجرائم[٤٤] ومن أمثلة اعترافهم بوجود الله وعبادته أنهم كانوا حريصين على افتتاح كتبهم بكتابة (باسمك اللهم . . .)[٤٥] ثم أنهم يقسمون باسمه تعالى في أيمانهم[٤٦].

---

٣٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٥٨.
٣٧ ــ ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٧، A. SIDDIQUI, OP. 40.
٣٨ ــ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٧.
٣٩ ــ حوراني، المرجع السابق ص ٢٧٦.
٤٠ ــ مهران، الديانة العربية ص ٢١، ٢٢.
٤١ ــ مهران، الديانة العربية ص ٢٥، ٢٦، ذات أنواط شجرة خضراء عظيمة أنظر الحموي، المرجع السابق جـ١/٢٧٣.
٤٢ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٢٩.
٤٣ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٠٢، مهران، الديانة العربية ص ١٢، ٧٥، النجيرمي، المرجع السابق ص ١٢.
٤٤ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٤، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٣٤٦.
٤٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/١١٣.
٤٦ ــ النجيرمي، نفس المرجع ص ١٣.

ومن أنواع عبادة التوحيد في الجاهلية التحنث وهو التقرب والانقطاع إلى الله، وممن تحنث إلى الله عبد المطلب بن هاشم. ثم ورقة بن نوفل حيث كانوا يعتكفون في كهوف الجبال وغيرانها بقصد التعبد والانقطاع إلى الله. وفعل الرسول محمد قبل مبعثه كذلك.

وتحنث البعض الآخر إلى الله بطريقة أخرى مثل حكيم بن حزام الذي تحنث بواسطة صلة الرحم والتصدق(٤٧).

ومن الموحدين الذين لا يقرون بشيء مثل قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل اللذين وحدا الله ولم يعتنقا دينا آخر(٤٨). بل أن زيد رفض عبادة الأوثان واعتزل أكل الميتة والدم، والذبائح التي تقدم للأوثان ونهى عن الوأد. وندد بعبادة قريش للأصنام ومات قبل الإسلام(٤٩). وقد اطلع على اليهودية والنصرانية فلم يجد فيهما صفاء العقيدة، ولا افراد الله بالعبادة فرفضهما أيضا(٥٠).

وأنكر فريق من قريش القدر فلم يكونوا مؤمنين به بل اعتقدوا أن كل فعل الانسان نابع منه ومناط به ولا سلطان فوقه يسيره أو يحده ويمنعه(٥١). وآمن كفار قريش بأن الملائكة هن بنات الله(٥٢). واعتقدوا أن أمهاتهن من سروات الجن(٥٣).

وأنكر صنف من العرب وجود الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحي، والدهر المفني - آمنوا بالطبيعة - . واعترف آخرون بالخالق ولكن أنكروا البعث وقالوا ماهي الاحياتنا الدنيا نحيا ونموت(٥٤). واعترف صنف بالخلق والبعث ومنهم الزبير بن عبدالمطلب(٥٥). وقريش من أولئك الذين اعتقدوا بإله أكبر ولم يجحدوا وجود الله كما لم ينكروا عبادته ولكنهم جعلوا معه شركاء(٥٦).

وأنكر فريق من قريش البعث والآخرة وكذلك أنكروا الربوبية فعرفت هذه الطائفة

---

٤٧ ـ جواد علي، المرجع السابق ص ٦/٣٤٣.
٤٨ ـ ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٥٦، العطار، المرجع السابق ص ٧٧.
٤٩ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٢٢٨، ٢٢٩، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٢٣٧.
٥٠ ـ مهران، الديانة العربية ص ٧٧.
٥١ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/١٦٠.
٥٢ ـ سورة الاسراء آية ٤٠.
٥٣ ـ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ١٢٠، ١٦٥.
٥٤ ـ القلقشندي، المرجع السابق ص ٤٥٢، العطار، المرجع السابق ص ٨٧.
٥٥ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٣٢.
٥٦ ـ جواد علي، نفس المرجع والجزء ص ١١٨، طه حسين، المرجع السابق ص ١٢.

باسم زنادقة قريش. وقد ثقفوا هذه الزندقة من أهل الحيرة[٥٧]. فتعبد هؤلاء إلى الأصنام وتقربوا بالهدايا اليها ليس لنيل الثواب في الآخرة بل لنيل رضائها في الحياة الدنيا[٥٨].

ومن زنادقة قريش أبو سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف الجمحي والنضر بن الحارث بن كلدة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي. وقد أخذوها من نصارى الحيرة أيضا ويقول الزنادقة بالنور والظلمة وبانكار الحياة بعد الموت أو يقولون ببقاء الدهر[٥٩]، والتعطيل[٦٠] وهو أن يبطن الكفر ويظهر الايمان[٦١]. وزندقة قريش لا تعني المجوسية والثنوية وانما تقتصر على الاعتقاد بالدهر والتعطيل بالدهر والتعطيل وانكار البعث والحساب[٦٢].

ولعل زندقتهم ترجمة لواقعهم الذي يتلخص في أن غالبية قريش أظهروا تعبدهم للأصنام مع أنهم يبطنون في نفوسهم وعقولهم عدم الايمان بها[٦٣]. وبدا ذلك منهم تقربا إلى الله وقد عبر القرآن الكريم عن واقعهم قال تعالى: ﴿ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾[٦٤]. فاتخذوا تلك الواسطة من الأصنام الحجرية والخشبية[٦٥]. ولأنها دين آبائهم وأجدادهم. وتعبدوا لجميع أصنام القبائل العربية بدافع ترغيب الأعراب في تقديس أصنام قريش. ولتشجيعهم على زيارة كعبة مكة، ولو من أجل الأصنام المنصوبة فيها. وبذلك يتحقق استمرار مصالح قريش المادية وتجارتها واكتساب المكانة الروحية والاجتماعية للهيمنة على جميع العرب دينيا. فكانت بذلك مكة مركز الوثنية وعبادة الأصنام التي جمعت في الكعبة المعظمة من جميع العرب.

---

٥٧ ــ العطار، المرجع السابق ص ٨٨.
٥٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ ٦/ ص ١٢٦.
٥٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٤٨٧، ٤٨٨، وما بعدها، المحبر ص ١٦١.
٦٠ ــ المقدسي، المرجع السابق جـ٤/ ٣١.
٦١ ــ العطار، المرجع السابق ص ٨٩.
٦٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ١٤٦، ١٤٨.
٦٣ ــ طه حسين، المرجع السابق ص ١٣.
٦٤ ــ سورة الزمر آية ٣.
٦٥ ــ طه حسين، نفس المرجع ص ١١ - ١٢.

الكعبة والأصنـــام :

ذكـرنا بناء إبراهيم واسماعيل للبيت العتيق (الكعبة المعظمة)[٦٦] عندما أمره الله بالبناء وبوأ له مكانها قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[٦٧].

وهكـذا حدد الله مكـان البيت بأمـره لنبيه إبـراهيم الخليل بصريح قول القـرآن الكريم. ليس ذلك فقط بل شرع الله الحج عبادة وفريضة ومعه غيره من العبادات مثل الصلاة.

وقد ذكر الرواة أن الملائكة بنت الكعبة، ثم بناها أبو البشر آدم، ثم ابنه شيت ولن نبحث في هذه الرواية حيث لا تتوفر لدينا التفاصيل المبنية على الأساس العلمي المتين. فمكان البيت معلوم ومقدور من الله تعالى منذ الأزل وإلى يوم البعث[٦٨].

نزل الأمر الالهي على ابراهيم الخليل فشاد البيت في المكان المحدد. والزمان المقدر. بمساعدة ابنه اسماعيل بجوار بئر زمزم المباركة. واستعملا أحجارا رمادية اللون مهيئة من جبال مكة. وأهمها الحجر الأسود في موضعه المعروف[٦٩]. وبعد أن اعتلى البنيان صعد ابراهيم عليه السلام على الصخرة التي هي مقام إبراهيم. واسماعيل يناوله مواد البنـاء. وتم بنـاء الكعبـة على شكـل مكعب طوله قامة أي حوالي تسعة أذرع وغير مسقوف، له مدخل يشرع الى جهة الشرق وليس عليه باب[٧٠].

ونسبت أركان الكعبة الأربعة إلى الجهات التي تتجه اليها فسميت: الركن الشامي (يتجه شمال غربي)، والركن اليماني (جنوب غربي)، والركن العراقي (شمال شرقي)، والركن الأسود الذي به الحجر الأسود جنوب شرقي، وعلى بعد خمسة أقدام من الحجر الأسود يقع باب الكعبة في جهتها الشرقية بين الركنين العراقي والأسود[٧١]. وقد قيل

---

٦٦ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ٤٦.

٦٧ ــ سورة الحج آية ٢٦، ٢٧، الطبري، تاريخ جـ١/١٢٨، ١٢٩.

٦٨ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٣/٢٣، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣٥٥.

٦٩ ــ إبن بطوطة، المرجع السابق ص ٩١، SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 191

٧٠ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٢١.

٧١ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٦٤، ابن جبير، المرجع السابق ص ٦٥، ابن بطوطة، نفس المرجع والصفحة، الحموي، المرجع السابق جـ٤/٤٦٥.

أن الحجر الأسود والمقام من أحجار الجنة[٧٢].

فكانت الكعبة أول بناء مقدس وضع للناس في مكة[٧٣]. وانما سميت كذلك لتكعيبها على الأرض. لشكلها المربع والمرتفع فهي مكعبة الشكل[٧٤]. وهي البيت العتيق وبكة، وقادس، وبنية ابراهيم، ونادرة، والدوار، والمسجد الحرام وبعض الأسماء تطلق على الكعبة وعلى مكة أيضا مثل بكة وقادس والقرية القديمة[٧٥].

الحجـر الأســـود :

وهو حجر قاتم اللون لامع بيضاوي الشكل قطره سبع بوصات في ركن الكعبة الجنوبي الشرقي، ويرتفع عن سطح الأرض خمسة أقدام. وهو مقدس للأعتقاد بنزوله من السماء أو من الجنة على يدي جبريل الذي سلمه إلى ابراهيم، وهو جزء من النيزك الأسود[٧٦].

جب الكعبة : وهو جب عميق حفره ابراهيم في باطن الكعبة الى يمين الداخل بمثابة خزانة لها، لحفظ ما يهدى الى الكعبة. وقيل بل هي بئر كانت تسمى الأخشف[٧٧].

الحطيـــم :

وهو المنطقة التي بين المقام والباب، وقيل بل ما بين الركن والمقام، وزمزم، ويطلق هذا الاسم على جدار الكعبة أيضا. وقيل هو الجدار الذي فيه الميزاب فقط وتعليل هذه التسمية، أنهم كانوا يتحاطمون بالأيمان عنده[٧٨].

---

٧٢ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/ ص ٣٤٢، الحموي، المرجع السابق جـ٢/٢٢٣، وجدي - المرجع السابق جـ٨/١٤٤.

٧٣ ــ سورة آل عمران آية ٩٦ ﴿أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾ العسكري، المرجع السابق ص ٣٣٤.

٧٤ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٢٧٩، الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٢٦، حتي، تاريخ العرب ص ١٢١، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٢.

٧٥ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٢٨٠، ٢٨١، الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٢٦، ١٢٧.

٧٦ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٢/٢٢٤، جـ٤/٤٦٤، حتي، تاريخ العرب ص ١٢١، ١٢٢، ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٨، والخمسة أقدام تساوي أكثر من المتر والنصف أنظر وهبة، المرجع السابق ص ٢٤.

٧٧ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١١٧ وص ٢٤٤، الحموي، نفس المرجع جـ٤/٤٦٦.

٧٨ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٢٠، وجـ٢/٢٣.

مقام إبراهيم :

مر بنا ذكره، وهو صخرة صلدة، اتخذها ابراهيم الخليل عليه السلام مقاما له لقضاء شؤون مختلفة حيث ارتقاه أثناء بناء الكعبة. وعند المناداة إلى حج بيت الله بعد مانزل الأمر الالهي بذلك. ويحمل المقام آثار قدمي إبراهيم إذا أنها محفورة في الحجر الصواني[٧٩].

الملتزم : وهو ما بين الحجر الأسود والباب. ويسمى المدعى والمتعوذ[٨٠].

المستجار : من الركن اليماني إلى الباب المسدود الذي كان في دبر الكعبة، وسمي أيضا ملتزم عجائز قريش حيث يقف الملتزمون في الملتزم وقوفا، بينما يجثون على الركب جثيا في المستجار[٨١].

وهكذا تأسس البيت وقامت معه شعائر العبادة، وكانت أولى الشعائر الطواف بالبيت سبعا. فقد طافت الملائكة بالبيت بعد أن وضعوا العرش. وقد طافوا حول البيت المعمور في السماء، والذي تأمه آلاف الملائكة. ويقع أعلى موضع الكعبة ويسمى الضراح. وهو في السماء السادسة أو السابعة. ثم كان أول عمل آدم بعد أن أهبط من السماء، أن طاف بالبيت سبعا. فأصبح الطواف سنة من ذلك الحين[٨٢].

وأمر الله نبيّه إبراهيم الخليل بتطهير البيت للطائفين، والقائمين، والركع والسجود. وبدأ ابراهيم بنفسه ممتثلا للأمر فطاف البيت ومعه اسماعيل ثم استلما الركنين. وصليا خلف المقام ركعتين (سنة الطواف). وعرفه جبريل جميع مناسك الدين وشعائره. وعلمه السعي بين الصفا والمروة كما سعت هاجر (أم إسماعيل) أثناء بحثها عن الماء. ثم عرفه المشاعر عرفات، والمزدلفة ، ومنى ، ورجم الجمار وأذن في الناس بالحج[٨٣]. ففرض الحج عبادة وفريضة منذئذ حوالي القرن التاسع عشر ق.م.[٨٤]

---

٧٩ ــ الطبري، تاريخ جـ١/١٣٢، الأزرقي، المرجع السابق، جـ٢/٢٩، ٣٨، الحموي، المرجع السابق جـ٤/٤٦٤. باسلامة، المرجع السابق ص ١٣٦، وص ١٥١، ١٥٢ الماوردي، المرجع السابق ص ٥٩، أخبار مكة المشرفة جـ٣/٣٦، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٠٢.

٨٠ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣٤٧.

٨١ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٣٤٨، الفاسي، نفس المرجع جـ١/١٩٦.

٨٢ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٣٣، ٣٤، ٤٣.

٨٣ ــ الماوردي، نفس المرجع ص ١٥٩، الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٤٥.

٨٤ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب ص ٣٩٨، الشريف، مكة والمدينة ص ٩٦، نافع، المرجع السابق ص ١٢٥.

واستمرت الكعبة مبنية قائمة في بطن الوادي المبارك ليس حولها جدار ولا دار[٨٥]. وهي على ما تأسست لم يتغير فيها شيء إلى أن قام العماليق باصلاحها وترميم بنائها ثم في عهد جرهم اجتاح مكة سيل عرمرم من سيولها الموسمية المفاجئة أدى الى تهدم بناء الكعبة فقامت جرهم باعادة عملية الاصلاح والبناء.

ثم في عهد خزاعة تكرر السيل والتهدم أيضا. فأعادت خزاعة البناء وأضاف الشاذروان الذي يقع بين الركنين العراقي والشامي على هيئة قوس الدائرة، له مدخلان من الجانبين بحذاء كلا الركنين[٨٦].

وادخلت خزاعة حجر اسماعيل في الشاذروان. وظلت الكعبة رضما فوق القامة غير مسقوفة ولا محاطة بسور فيما حولها[٨٧].

ثم بعد قدوم قصي بن كلاب إلى مكة، وأخذ ولاية البيت هدم الكعبة، وأعاد بناءها وجعل لها سقفا اتخذه من خشب الدوم وجريد النخل[٨٨]. ثم أعادت قريش تجديد بناء الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ حوالي عام ٦٠٥، ٦٠٦م[٨٩] فهذا هو البناء الثامن لها[٩٠]. لما رأت قريش أن كعبتهم المقدسة قد طال العهد على بنيانها وخشيت عليها من السيول. فكرت في حمايتها من العابثين خاصة بعد حادث السرقة لذلك قررت تجديد بناء الكعبة[٩١]. ووضعت خطة للعمل وتوزيعه:

١ ـ بأن جعل شق باب الكعبة لبني عبد مناف، وبني زهرة. وما بين الركنين الأسود واليماني لبني مخزوم ومعهم قبائل أخرى من قريش. وظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، وجعل شق الحجر لبني عبد الدار، ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي بن كعب وهو جهة الحطيم. وقد كلفوهم بالهدم والبناء كل منهم في الجهة التي تخصه. ولكن هاب الناس هدم الكعبة وتخوفوا من ذلك ولم يجرءوا عليه.

---

٨٥ ـ باسلامة، المرجع السابق ص ٥.

٨٦ ـ أخبار مكة المشرفة جـ٣/٢٣، ٤٢، ٤٩، رفعت، المرجع السابق جـ١/١٩٧، ٣٦٩.

٨٧ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٢١، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٣٥٥ و ص ٣٧٢، ٣٧٣، رفعت، المرجع السابق جـ١/١٩٨.

٨٨ ـ أخبار مكة المشرفة جـ٣/٤٣، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٣٥٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٥٣، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٢.

٨٩ ـ سيديو، المرجع السابق ص ٥٩، جواد علي، نفس المرجع جـ٤/٩٠.

٩٠ ـ أخبار مكة المشرفة جـ٣/٤٩.

٩١ ـ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٢٧، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/٣٠٠.

ثم بدأ الـوليد بن المغيرة بالهدم من ناحية الركنين، فراقبه الناس خشية وقوع الأذى به. فلما أصبح معافا غاديا على عمله. أقبل الناس معه على الهدم الى أن بلغوا أساس ابراهيم عليه السلام، الذي كان من حجارة خضر كالأسنة[٩٢]. ووجدوا كتاب في الكعبة باللغة السريانية مطلعه (أنا الله ذو بكة . . .)[٩٣].

٢ ــ وقد أتفقوا على أن يبنوا الكعبة من مال حلال، ولا يدخلوا فيها مالا حراما من مهر بغي ولا من ربا أو نحو ذلك. وقد اشترط الوليد بن المغيرة عليهم كل ذلك[٩٤].

٣ ــ جمعت القبائل الحجارة اللازمة للبناء، فجمعت كل قبيلة موادا كافية للجهة المختصة بها[٩٥].

٤ ــ أعدوا الخشب اللازم وأحضروه من سفينة رجل رومي وهي التي تحطمت بجدة.

٥ ــ اتفقوا مع النجار القبطي باقوم (باخوم)[٩٦] للعمل معهم في تسقيفها[٩٧].

٦ ــ قرروا أن يرفعوا باب الكعبة عن الأرض. وألا يرقي اليها الا بدرج لحمايتها من السيل. وليتحكمـوا فيمن يدخلهـا من النـاس فيسمحـون لبعض النـاس، ويمنعون الآخرين[٩٨]. وتم رفع الباب بحوالي مترين عن الأرض[٩٩].

وأنفذوا خطة الهدم والبناء على نحو ما وضعوه. ولكن أخافتهم حية ضخمة من دواب الأرض ثم خلصهم منها العقاب الذي خطفها ثم قتلها[١٠٠] ولما وصلوا الى موضع الحجر الأسود عند نهاية البناء. دب الخلاف بينهم وأراد كل حي منهم أن يكون له

---

٩٢ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠٠، ٢٠١، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٩٧، ١٩٨، الأصمعي، المرجع السابق.ص ١٦٦، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٦١.

٩٣ ــ ابن هشام، نفس المرجع والجزء ص ١٩٨، الأزرقي، نفس المرجع جـ١/٧٩، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٢٧.

٩٤ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/ ص ٢٢٦.

٩٥ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠١، ابن هشام، نفس المرجع والجزء ص ١٩٩، ابن كثير، نفس المرجع والجزء ص ٣٠٣.

٩٦ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١/٩٥/، ١٩٦، الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠٠، السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٢٥، الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٥٧.

٩٧ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٧٠، أخبار مكة المشرفة جـ٣/٤٩، طه حسين، المرجع السابق ص ٤٠٤.

٩٨ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٣.

٩٩ ــ وهبة، المرجع السابق ص ٢٤.

١٠٠ ــ السهيلي، نفس المرجع والجزء ص ٢٢٥، ٢٢٨.

شرف وضع الحجر في مكانه بيده. وكادوا أن يحتربوا فتحزبوا منحازين متحاجزين كل منهم الى فريقه فتعاقد بنو عبد الدار (لعقة الدم) على تجديد حلفهم القديم هذا وظلوا أربع أو خمس ليال على ذلك متربصين للحزب. حتى اجتمع أبو أمية بن المغيرة وهو أسن قريش عامئذ، واقترح عليهم أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد، فدخل محمد بن عبد الله ـ النبي ﷺ ـ (وسنه ٣٥ عاما) فقالوا هذا الأمين هو خير حكم بيننا.

فلما أحاط بالخبر طلب منهم ثوبا بسطه على الأرض، ووضع الحجر عليه بيده ثم طلب منهم أن يأخذوا جميعا بأطراف الرداء، حتى أوصلوه الى موضعه ثم حمله بيده ورفعه في مكانه وبني عليه[١٠١]. فظهر ابليس بينهم (على صورة شيخ) وقال صائحا كيف ترضون بأن ينال هذا اليتيم شرفكم العظيم فيضع الحجر بيده وكاد الشر أن يقوم بينهم ثانية، ولكنهم سكتوا وتراضوا[١٠٢].

وقد اشترك سادة قريش في حمل الرداء، ومنهم عتبة بن ربيعة من بني عبد مناف وزمعة بن الأسود، والعاص بن وائل، وأبو حذيفة بن المغيرة[١٠٣]. وقالوا أن الرداء هو كساء للنبي ﷺ، وقيل بل هو للوليد بن المغيرة[١٠٤].

وقد أخرجوا حلية الكعبة، وقرنى كبش الفداء الذي ذبح فداء لاسماعيل[١٠٥]. وأموالها وحفظوها لدى أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى من بني عبد الدار بن قصي. ونصبوا الصنم هبل عند المقام أثناء عملية تجديد البناء. وطمسوا الصور والتماثيل التي كانت في جوف الكعبة وتركوا صورة مريم العذراء وابنها عيسى على حجرها[١٠٦].

وتجدد بناء الكعبة في الإسلام أولا في عهد عبد الله بن الزبير عام ٦٤هـ وكان ذلك في خلافة يزيد بن معاوية[١٠٧]. اثر احتراق أستارها عندما أرادت احدى النساء

---

١٠١ ـ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٠١، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٥٩، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٢، ١٤٣.

١٠٢ ـ السهيلي، المرجع السابق ج١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٤.

١٠٣ ـ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٤.

١٠٤ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٧٢.

١٠٥ ـ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٢٢٤.

١٠٦ ـ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٦٥، ١٦٦.

١٠٧ ـ حسن، المرجع السابق جـ١/٢٩٥، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٣.

تجميرها[١٠٨]. فهدمها وبناها[١٠٩].

ثم عندما لحق الكعبة ضرر كبير ابان محاربة عبد الله بن الزبير بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي حيث صدعها ضرب المنجنيق فتخرب البناء. وبعد مقتل ابن الزبير جدد الحجاج بناءها في عهد عبد الملك بن مروان عام ٧٣هـ[١١٠]. وتلاها عدة تجديدات مع المحافظة على صفتها وشكلها الأساسيين.

وذكرنا أن الكعبة كانت رضما فوق القامة، حوالى تسعة أذرع. ثم لما جددت قريش بناءها زادت في ارتفاعها تسعة أذرع أخرى[١١١]. فأصبح ارتفاعها حوالي ثمانية عشر ذراعا. ورفعوا بابها عن الأرض بنحو مترين كما قرروا. وبذلك أصبحوا يصعدون اليها بدرج أو سلم. وأول من اتخذ بابا لها أحد تبابعة اليمن (تبع) ثم عبد المطلب بن هاشم. ولما بناها ابن الزبير زاد في ارتفاعها تسعة أذرع أخرى. حتى بلغ ارتفاعا سبعة وعشرين ذراعا[١١٢].

ولم يكن للمسجد سور، بل كانت الدور تحدق به من كل الجوانب، وبين الدور طرقات، يدخل منها الناس إلى ساحة الحرم. ثم في عهد عمر بن الخطاب تمت التوسعة الأولى للحرم. حيث اشترى عمر بعض الدور، وهدمها ثم ألحق أرضها بالحرم. وأتخذ له سورا سنة ١٧هـ[١١٣]. وجعل الأبواب على جميع المنافذ، التي كانت بين الدور سابقا. ومن أقدم أبواب الحرم باب بني شيبة[١١٤]. وأما مقاييس الكعبة من خارجها فتبلغ على النحو التالي: الارتفاع ٢٧ ذراعا وطول ظهرها من الركن اليماني الى الركن الشامي ٢٥ ذراعا أيضا. وشقها اليماني الذي بين الركنين (الأسود واليماني) عشرون ذراعا. وشقها الذي بين الركن الشامي والركن العراقي ٢١ ذراعا[١١٥].

وقصرت قريش من طول احدى نواحي الكعبة وهي التي بها الحجر بين الركنين

١٠٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/ ٢٢١.
١٠٩ ــ الأزرقي، المرجع السابق والجزء ١/ص ٢٠١.
١١٠ ــ الماوردي، المرجع السابق ص ١٦٠، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٣٥٥، حسن، المرجع السابق جـ١/ ٤١٦، وجدي، المرجع السابق جـ٨/ ١٤٣.
١١١ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٣/ ٨٢، السهيلي، نفس المرجع والجزء ص ٢٢١،
١١٢ ــ السهيلي، نفس المرجع والجزء والصفحة.
١١٣ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ٢٢٥.
١١٤ ــ باسلامة، المرجع السابق ص ٢٢٣.
١١٥ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/ ٢٨٩، ٢٩٠، الفاسي، نفس المرجع جـ١/ ١٠٧.

الشـامي والعـراقي . وبلغ طول ما أنقصـوه حوالي ستـة أذرع وشـبرا حيث جعلوه للحجر[١١٦] . الذي هو حجر اسماعيل وفيه قبر أمه هاجر. وابن الزبير هو الذي أدخله إلى الكعبة ثم أعاده الحجاج الى خارجها، كما كان منذ بناء قريش[١١٧] .

أما مقاييسها الداخلية فهي : الجدار الشمالي ١٧ ذراعا، وجدار وجه الكعبة الذي فيه الحجر الأسود والباب ١/٨ ١٥ ذراعا . وجدار الدرجة ثلاثة أذرع وقيراط فيصبح هذا الجـدار حوالي ١٩ ذراعا. والجدار الجنوبي ١٦ ذراعا، وظهر الكعبة حوالي عشرون ذراعا[١١٨] ، وتبلغ مقاييسها بالقدم كالتالي جدار وجه الكعبة والذي يقابله حوالي ٤٠ قدما والجدارين الآخرين ٣٥ قدما، أما ارتفاعها فهو ٥٠ قدما[١١٩] .

وبقيت الكعبة معبدا مقدسا وحيدا في مكة بل وفي الجزيرة كلها رغم انتشار بعض البيوت الأخرى مثل كعبة العبلات، وكعبة نجران[١٢٠] .

وقد عظموا الكعبة وصانوها، وكانوا يخلعون الأحذية عند دخولها . بعد أن سن لهم ذلك الوليد بن المغيرة . وقد حددت قريش يومي الاثنين والخميس لفتح باب الكعبة لزيارتها ، ويجلس حجاب البيت على الباب لمراقبـة الداخلـين ولمنـع مـن لا يرغبـون دخولـه اليهـا[١٢١] .

وكانت الكعبة تكسى الأنطاع في الجاهلية . وأول من كساها أسعد الحميري وهو تبع وقيل هو أبو كرب[١٢٢] . وقد كانت كسوة تبع قبل الإسلام بسبعمائة عام (حوالي مطلع القرن الأول ق . م) .

وقد كست نتيلة ـ أم العباس بن عبد المطلب ـ الكعبة ديباجا . فهي أول من كساها

١١٦ ــ الأزرقي ، المرجع السابق جـ١/ ٢٨٩ .

١١٧ ــ الحموي ، المرجع السابق جـ٢/ ٢٢١ .

١١٨ ــ الأزرقي ، نفس المرجع والجزء ص ٢٩١ ، الفاسي، المرجع السابق والجزء ١/ ص ١١٠ .

١١٩ ــ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 191 . ويبلغ ارتفاعها بالأمتار حوالي ١٥ مترا، ثم طول جدارها الشمالي ٩٫٩٢ مترا، والجنوبي ١٠٫٢٥ مترا، والشرقي ١١٫٨٨ مترا، والغربي ١٢٫٢٥ مترا والباب في الجدار الشرقي مرتفعا عن الأرض بنحو مترين أنظر وهبة، المرجع السابق ص ٢٤ .

١٢٠ ــ GRUNEBAUM, OP. CIIT., P. 24.

١٢١ ــ الأزرقي ، المرجع السابق جـ١/ ٨٢، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٣٤ .

١٢٢ ــ المقدسي، المرجع السابق جـ٤/ ٨٢، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٣٤ ، العسكري ، المرجع السابق ص ٤٣ ، الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ١٢٠، وجدي، المرجع السابق جـ٨/ ١٤٨ .

الـديباج. وقصة ذلك أنها أضاعت ابنها العباس فنذرت ان وجدته لتكسين الكعبة ديباجا وعندما وجدته فعلت[١٢٣].

وكسيت الكعبـة بالخصف، والمعـافر، والمـلأ، والوصائل، والعصب، وكسيت بمـطارف الخز الأخضر، والأصفر. وبأكسية مختلفة ونمارق عراقية وكساها أبو ربيعة المخزومي حبرات يمانية، وكستها قريش بعد تجديد بنائها كذلك[١٢٤].

ثم كساها النبي ﷺ الثياب اليمانية، وكساها الخليفتان عمر وعثمان، رضي الله عنهما، القباطي[١٢٥]. وكساها الحجاج الديباج[١٢٦].

وكانت كساوي الكعبة توضع الثوب فوق الآخر الجديد فوق القديم. ولما كساها معاوية بن أبي سفيان الديباح والقباط اقترح شيبة بن عثمان، تخفيف الكسى عنها. وازالة الثياب القديمة منها، واستأذنوا معاوية في ذلك فأذن لهم[١٢٧].

وقد اعتادوا أن يعلقوا على الكعبة القمص من الديباح أو القباطى أو الحبرات يوم الـتروية لتـزداد جمالا وبهاء. فيعجب الناس بعظمتها. ثم يوم عاشوراء (١٠ محرم) تكسى بكسائها الجديد[١٢٨].

ويتضح أن الديباج دخل في كسوة الكعبة قبل الإسلام وأن النبي ﷺ قـد أقـره. والا لما جرأ الحجاج على ابتداع ذلك.

وكانت قريش تترافد في كسوة الكعبة فيجعلون على كل قوم قدر احتمالهم منذ عهد قصي. ولما أثرى أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي جعل كسوة الكعبة عليه سنة وعـلى قريش كلهـا في السنة الأخرى. وكساها الحبرة الجيدة من الجند باليمن، وقد أسمته قريش العدل لأنه عادل فعلـه بفعـل قريش كلهـا. ولذلك عـرف بنوه باسـم

---

١٢٣ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٤١، ٤٢، وص ١٣١، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٨.

١٢٤ ـ الأزرقي، نفس المرجـع جـ١/٢٥١، الفـاسي، المرجـع السـابق جـ١/١١٩، ١٢٠، السهيلي، نفس المرجع والجزء ص ٤٠، رفعت، المرجع السابق جـ١/٢٨١.

١٢٥ ـ ابن هشـام، المرجع السابق جـ١/٢٠١، والقباطى ثياب من كتان نسبة إلى القبط أنظر العسكري، المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤ وحاشية ١.

١٢٦ ـ الأزرقي، نفس المرجـع والجـزء ص ٢٥٣، أبـو الفـدا، المرجـع السابق جـ١/١٢١، العسكري، نفس المرجع والصفحة.

١٢٧ ـ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٢٥١، ٢٦٠.

١٢٨ ـ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ٢٥٢، ٢٥٣.

بنـو العـــدل[١٢٩].

وقيل أن باقوم أعاد تزيين الكعبة من الداخل بصورة مريم العذراء وابنها المسيح وصـورة ابـراهيم، وصور للملائكة[١٣٠]. وقد يكون باقوم هو الذي أدخل الصور، عندما شارك في عملية البناء فلربما أنها لم تكن موجودة قبل ذلك[١٣١].

ولما استخرج عبد المطلب دفائن زمزم الذهبية وهي الغزالين والسبعة سيوف والدروع ضرب ذهب الغزالين صفائح في وجه الكعبة وعلق السيوف على بابها وجعل قفل الباب ومفتاحه من الذهب أيضا[١٣٢].

أما هذه الأموال من الغزالين والسيوف فقد أهداها ساسان بن بابك إلى الكعبة. منذ عهد كلاب بن مرة وقد حفظت هذه الذخائر فيها. [١٣٣]

ومن ذلك نرى أهمية الكعبة البالغة لدى قريش وكل العرب. وقد عبروا عن ذلك بالتعظيم والتكريم، وجعلوا سدانتها من أعظم المناصب لديهم في كل الجزيرة. وقد بذلت قريش قصارى جهدها في سبيل خدمة البيت[١٣٤].

فاهتموا بجميع أمور البيت، وعينوا الوظائف المختصة بخدمة البيت الحرام ونظموا جميع شؤونه من سقاية وعمارة وخدمة. وحددوا أياما خاصة فقد رأينا أن أم حكيم بن حزام ولدته في داخل الكعبة عندما كانت تزورها وفرشت لها النسوة نطعا لتلد عليه ثم غسل بماء زمزم وجعلوا ثيابها التي ولدت فيها لقى مطروحة لا يستفاد منها. [١٣٥]

وكانوا يخلقون الكعبة بالخلوق من عطور دهنية، وبخور مما يحرق في النار فيعطي رائحة زكية ودام ذلك حتى في الإسلام[١٣٦].

وصانوا حرمة الكعبة والحرم، فلم تسمح قريش لعابث أن يمسها بشيء فذات مرة

---

١٢٩ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٢٥١، ٢٥٢، البتنوني، المرجع السابق ص ١٣٤، ١٣٥.

١٣٠ ــ TRIMINGHAM, OP. CIT. P. 261.

١٣١ ــ مهران، الديانة العربية ص ٦٣.

١٣٢ ــ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/١١٦.

١٣٣ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/١١٦.

١٣٤ ــ SIDDIQUI, OP. CIT. P. 2-3

١٣٥ ــ الفاسي، نفس المرجع والجزء ص ١٢٨، الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٧٤.

١٣٦ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٢٥٧، الفاسي، المرجع السابق جـ١/١٢٦. والخلوق نوع من الطيب راجع ابن منظور، المرجع السابق جـ١/٨٩١، الزبيدي، المرجع السابق جـ٦/٣٣٧.

هتك أحد الأطفال ستار الكعبة أثناء لعبه. فقام اليه عبد شمس بنفسه وأمسك به صائحا في قريش كلها يؤنبها على فعلة هذا الطفل. فأشار عليهم هاشم بقطع يد الصبي اذا كان بالغا الحلم. والا فيكتفى بضربه. فضرب الصبي على فعلته هذه ضربا شديدا لأن قريشا اتعظت واعتبرت بها حل بالأقدمين، وكرهت أن تقع في ذلك[١٣٧].

ولشدة اجلال العرب واعزازهم للبيت العتيق وأرض الحرم كان الرجل منهم يلقى قاتل أبيه أو أحد ذويه في أرض الحرم أو في الشهر الحرام ولا يعترضه بشر[١٣٨]. وكذلك قدس اليهود والنصارى البيت الحرام في مكة[١٣٩]. وعظم المجوس (عبدة النار) الكعبة وأرسلوا لها الهدايا. وكذلك احترموا سدنة الكعبة وقريشا كلها. ولكن رغم ذلك فقد عزم أبرهة على هدمها[١٤٠]. لتحويل العرب عن مكة وعن الحج. ورغب بعض ملوك اليمن في نقل الحجر الأسود الى صنعاء لنفس الغرض. ولكن فشلت كل أعمالهم[١٤١].

وقد ذكرنا أن بعض العرب لم يرع حرمة للحرم ولا للشهر الحرام مثل خثعم وطيء، وصعاليك العرب وذؤبانهم[١٤٢].

وحرمة أرض الحرم تعني أنهم حرموا القتال بل حرموا حتى الصيد في منطقة الحرم مثل صيد حمام الحرم وجراده كذلك[١٤٣].

ولا تقتصر منطقة الحرم على الكعبة والمسجد بل أنها تشمل جميع وادي مكة وكل ما طاف به من جوانبه الى خارجه[١٤٤]. وأول من وضع أنصاب الحرم ابراهيم الخليل عليه السلام بارشاد جبريل. ثم أعاد نصبها قصي بن كلاب ثم أكدتها قريش. ثم أمر النبي ﷺ بنصبها عام الفتح[١٤٥] والأنصاب هي علامات أرض الحرم تقام على جميع حدود الحرم ماعدا الحدود الغربية من ناحية جدة، ومن ناحية الجعرانة. أي لم تقم

---

١٣٧ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٤٦.
١٣٨ ـ الفاسي، المرجع السابق ج١ ص ٧٢.
١٣٩ ـ مدني، العرب في أحقاب التاريخ جـ٢/٣٨، وجدي، المرجع السابق جـ٨/١٤٦.
١٤٠ ـ سيديو، المرجع السابق ص ٥١.
١٤١ ـ الدينوري، المرجع السابق ص ٣٩.
١٤٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٣٥١.
١٤٣ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/١٤١.
١٤٤ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٥٤.
١٤٥ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٢٨، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٥٥، باسلامة، المرجع السابق ص ٣٠٧.

عليـها أنصـاب[١٤٦].

وتعرف الأنصاب حاليا باسم الأعلام أو العلمين. ونعرف نحن أن هنالك انصابا أيضا من جهة جدة ومن جهة الجعرانة أيضا.

وعـلى ذلك تكون أبعاد أرض الحرم كالتالي: من البيت العتيق إلى العلمين على طريق العراق عند المقطع حوالي ٧٫٥ ميلا تقريبا. ومن الحرم إلى عرفة على طريق نمرة إلى الـطائف حوالي ١١ ميلا[١٤٧] ومن الحـرم إلى التنعيم على طريق المـدينـة حوالي ٣٫٥ميلا[١٤٨]. وعـلى طريق اليمن في ثنية لبن ٧ أميال. وعـلى طريق جدة منقـطع الأعشاش ١١ ميلا. وإلى الجعرانة حوالي ٩ أميال[١٤٩].

الأصنـــــــام :

زعموا أن مبدأ أمر عبادة الأصنام عندما كان كل خارج من مكة لسفر أو بقصد الاقـامـة في مكان آخر ـ خاصة أنهم تعلقوا بمكة، وبالكعبة ـ عمد كل من أولئك الراحلين إلى أن يحمل معه حجرا من أحجار أرض الحرم تعظيما له. وأينما حلوا نصبوا ذلـك الحجـر، و طـافوا به كطوافهم بالكعبة حتى غلبت عبادة الأحجار. وجعلوا يعبدون كل ما استحسنوه من تلك الأحجار فلما درج بهم الزمان، ونسوا دين ابراهيم وما كانوا عليه، فانتهوا إلى عبادة الأوثان. ولكنهم حافظوا على تعظيم البيت، والطواف به والحج اليه واهداء البدن[١٥٠].

أي أن عبادة الأصنام بدأت من التبرك بأحجار الكعبة والحرم في مكة، ثم عادت إليها لتدخل على هيئة متطورة. وبأشكال مختلفة متمثلة في تلك الأصنام التي جلبها عمرو بن لحي.

ومن أولئك النفر الذين عبدوا الأحجار، استحسانا لشكلها واعجابا بها الحرث بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد السهمي، وهو ابن الغيطلة. وكان كلما عبد حجرا ثم رأى أحسن منـه ترك الأول، وعبـد الثـاني، وقـد أنكـر البعث أيضا. وكان من

١٤٦ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ص ٥٤.
١٤٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/ ص ١٣١، الفاسي، نفس المرجع والجزء ص ٥٩، ٦٣.
١٤٨ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء والصفحة، الفاسي، نفس المرجع والجزء ص ٦٣.
١٤٩ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١٣٠، ١٣١، الماوردي، المرجع السابق ص ١٦٤، ١٦٥، جواد علي، المرجع السابق جـ٤/٤٦.
١٥٠ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٨٥، ٨٦، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١١٦، ابن الكلبي، الأصنام ص ٦.

المستهزئين الذين آذوا النبي ﷺ[١٥١].

ومر بنا أن خزاعة حكمت مكة قبل قريش وكان الخزاعيون قوم سوء في ولايتهم. ومن أعظم آثامهم أن مبدأ دخول الأصنام إلى مكة كان في عهدهم وعلى أيدي أحد زعمائهم. وهو عمرو بن لحي. فهو أول من دعاهم إلى ذلك وكان رجلا ثريا جدا حتى أنه فقأ أعين عشرين بعيرا. ويعني هذا انه امتلك عشرين ألف بعير حيث كان من عادة العرب فعل ذلك اعتقادا منهم أنه يدفع العين الحاسدة. وكان يذبح في أيام الحج عشرة آلاف بدنة، ويكسي عشرة آلاف حلة سنويا. ويطعم العرب الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق وكان أمره مطاعا في مكة.[١٥٢]

وذكروا أن اسمه عمرو بن لحى بن قمعة[١٥٣]. وهو أول من غيّر الحنيفية دين ابراهيم ونصب الأوثان. وهو أول من سيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة وحمى الحام[١٥٤]. (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال سمعت سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس. والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا تحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبة في النار وكان أول من سيب السوائب)[١٥٥].

وكان عمرو بن لحي كاهنا حكم خزاعة، ووضع سنن دينهم. واستبد بأمر مكة. وكان عهده غير بعيد عن عهد قصي[١٥٦].

وقد سافر مرة إلى الشام بسبب مرضه. وهنالك رأى الأصنام في أرض البلقاء ولما رآهم يتعبدونها سألهم عنها. فشرحوا له عبادتهم لها والحالات التي تستوجب عبادتها. حيث أنهم يستمطرونها، ويستنصرونها. وطلب منهم صنما منها. فأعطوه هبل الذي

---

١٥١ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/٤٨، ابن حبيب المنمق ص ٤٨٤، ٤٨٥.

١٥٢ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٨٧، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٢، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٠٠.

١٥٣ ــ السهيلي، نفس المرجع والجزء ص ١٠٠، العصامي، المرجع السابق ص ١٨٤، ١٨٥.

١٥٤ ــ الأزرقي، نفس المرجع والجزء ص ١١٦.

١٥٥ ــ البخاري، المرجع السابق جـ٤/٢٢٣، ٢٢٤، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣١٥، ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٨، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٨٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠١.

١٥٦ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤/١٤.

أصبح أعظم أصنام قريش.

وقيل أنه كان له رئى من الجن وهو الذي جلب له أصناما معدة من شاطيء جدة[١٥٧]. وأن ماء الطوفان قد قذف هذه الأصنام إلى أرض جدة منذ عهد نوح ولما نضب الماء عنها بقيت على الشط[١٥٨]. ولكن الأوفق أنه جلب هبل من الشام على ضوء الرواية الأولى والتي هي أكثر شهرة. ثم أنه أحضر أصناما أخرى من ساحل جدة.

وقد نصب مناة على ساحل البحر قرب قديد، وأنه كان لثقيف صخرة يجلس رجل عليها، يلت لهم السويق بالسمن. فقال لهم عمرو: أن ذلك اللات كان ربهم وجعلت تلك الصخرة إلاهة لهم في الطائف، ثم عمدوا إلى ثلاث شجرات بوادي نخلة وهي العزى، وأول من دعى إلى عبادتها عمرو بن ربيعة، والحارث بن كعب حيث قال لهم عمرو أن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة. وقيل بل أن عمرو بن لحي هو الذي أمرهم باتخاذ العزى إلاهة تعبد. حيث بعد فراغ أمور الحج والطواف يذهبون إلى العزى فيطوفون بها ويحلون من إحرامهم، ويعكفون عندها يوما. وهي لخزاعة، وسدنتها بنو شيبان من سليم. وقد عظمتها قريش وكنانة[١٥٩].

ويتضح أن تعظيم الأحجار لدى الناس موغل في القدم. وأن أصنام العرب ساذجة الشكل مثل طبائع الأشياء البدائية. وقد عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى[١٦٠]. كما ذكرناه.

ثم انتشرت عبادة الأصنام بينهم إنتشارا عاما. حتى دخلت إلى دورهم فكان لكل دار صنمها. يعبده أهل الدار، ويتمسح الرجل به قبل رحيله بحيث يكون آخر ما يصنع عند السفر، وبعد عودته أول ما يبدأ به التمسح بالصنم أيضا[١٦١].

وقد نطلق كلمة صنم على جميع معبوداتهم بينما الواقع أن الوثن يكون من حجارة أما الصنم فيكون من خشب أو ذهب أو فضة وعلى صورة انسان[١٦٢].

---

١٥٧ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٨٥، حاشية ١ و٢، ابن الكلبي، الأصنام ص ٨، ٥٤، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٣٧.

١٥٨ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٣.

١٥٩ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٢٤، ١٢٦، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨١، ٢٨٢.

١٦٠ ــ البتنوني، المرجع السابق ص ١٥٢.

١٦١ ــ جوادي علي، المرجع السابق جـ٦/٦٦.

١٦٢ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٣، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠١.

وكلمـة صنم ليست عربية أصيلة بل انها معربة من كلمة (شنم) والتي هي غير معروفة الأصل. ولكن ورد في النصوص الجنوبية كلمة (صلمو ـ أو صلم) وهي تعني صنم وتمثال وأطلقوها كإسم لإله علم عبد في تيماء من حوالي سنة ٦٠٠ ق. م[١٦٣]

اســـاف ونائلـــة :

أجمعت الروايات على أنهما رجل وامرأة فسقا في جوف الكعبة. فمسخا حجرين. ونصب أهل مكة اساف على الصفا، ونائلة على المروة للعظة والاعتبار. ولما جلب عمرو بن لحى الأصنام وأمر بعبادتها، عبد الناس اسافا ونائلة أيضا. وقيل أنهما نقلا فبقي أحـدهما بجوار الكعبة، والآخر عند زمزم. وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[١٦٤]. ولكن روايات أخـرى تؤكـد أنهما كانـا في الصفـا والمروة، وقد كان السعي بينهما في الجاهلية[١٦٥]. ويدل ذلك على أنهم تركوا الصنمين في جوف الكعبة فترة.ثم أخرجوهما منهـا ليتعظ النـاس بهما. وعنـدما بدأت الوثنية في مكة عبدهما الناس مع الأصنام الأخرى نقلاهما إلى المسعى.

وأساف رجل من جرهم يدعى اساف بن يعلي. والمرأة هي نائلة بنت زيد من جرهم أيضا[١٦٦] . وقد وردت أسماء مختلفة لهما فقيل أنه اساف بن سهيل أو بن بغاء أو بن عمر. وكذلك المرأة مع الثبات على الأسم الأول دائما[١٦٧] ثم في عهد قصي أعيدا إلى المطاف فوضع إساف عند مبدأ الطواف فيستلمه الطائف أولا ثم نائلة في آخر المطاف فيختتم الطواف باستلامها. [١٦٨]

ثم عظمت قريش هذين الصنمين أكثر من تعظيم القبائل الأخرى لهما. فعبدتهما، وكذلك فعل الأحابيش[١٦٩]. ويروى أن القبائل الكارهة لقريش هي التي ابتدعت قصة الفسوق لكون أحد الصنمين على شكل رجل والآخر امرأة[١٧٠]. فذلك لا يعني

---

١٦٣ ــ مهران، الديانة العربية ص ٣٦.

١٦٤ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩١، ٩٢، ابن الكلبي ، الأصنام ص ٢٩. الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٣، ٢٤، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٥، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣٦١.

١٦٥ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٢/٥.

١٦٦ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٩، مهران . الديانة العربية ص ٤٤.

١٦٧ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/ص٨٨، ١١٩، ١٢٢.

١٦٨ ــ الفاسي، نفس المرجع جـ٢/٢٧٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٦٦.

١٦٩ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢.

١٧٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٦٧.

شيئا لقريش ولا يمسها لأن أصلها من جرهم . وليس لذلك علاقة أو ارتباط بها . وكان اساف من قطعة حجر كبيرة وقوية . وقد قيل أن حجرها استخدم لعتبة باب السلام . فصار على شكل درجة غير منتظمة الشكل[١٧١] . ولعلها خرافة[١٧٢] حيث كيف يتفق أن يكون الحجر على شكل رجل يستخدم كاملا لدرجة باب السلام .

وذكر القرآن الكريم بعض الأصنام الأخرى قال تعالى : ﴿ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾[١٧٣] وقال : ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾[١٧٤] .

واهتم الرواة بهذه الثمانية أصنام اهتماما كبيرا . وأفاضوا في الكتابة عنها لأن القرآن الكريم ذكرها مما يثبت انتشار عبادتها قديما في مكة أو في الجزيرة كلها وكانت من أعظم الآلهة على ظهر الكعبة[١٧٥] .

أما ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر فهي الآلهة التي عبدها قوم نوح[١٧٦] وقيل أنها أصنام لقوم صالحين. وبمضي الزمن أغراهم الشيطان بعبادتها[١٧٧] .

الصنم ود :

اتخذت كلب الصنم ودا في دومة الجندل[١٧٨] . وسدنته بنو الفرافصة من بني الأحوص[١٧٩] . وتسميه قريش أد، وقد تعبدت له وكذلك تعبدته بعض القبائل الأخرى مثل تميم وطيء والخزرج وهذيل ولخم . وهو اله عام في كل الجزيرة[١٨٠] .

---

١٧١ ــ البتنوني، المرجع السابق ص ١٥٢ .

١٧٢ ــ الأنصاري، عبد القدوس، الجزيرة العربية في رحلتي ابن حبير والعبدري ص ٣٢٨، مصادر تاريخ الجزيرة، الجزء الثاني، جامعة الرياض ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

١٧٣ ــ سورة نوح آية ٢٣ .

١٧٤ ــ سورة النجم آية ١٩ ـ ٢٠ .

١٧٥ ــ العطار، المرجع السابق ص ٨٨ .

١٧٦ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٣، الحموي، المرجع السابق جـ٥/٣٦٦،

١٧٧ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٥١، مهران، الديانة العربية ص ٣٦، ٤٤، العطار، المرجع السابق ص ٩٣ .

١٧٨ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٠، ٥٥، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٥، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٩٠، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٣

١٧٩ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢، ابن حبيب، المحبر ص ٣١٦ .

١٨٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ١/٣٧٨، جـ٦/٢٩٣، ٣١٤، ٣١٥ .

وقد سمى سادن ود ابنه باسم عبد ود. وتسمى بعض العرب بهذا الاسم. وكان أبوه يأمره أن يسقى ودا لبنا، فيشربه بدلا من الصنم.

والصنم ود على هيئة انسان من أعظم الرجال. عليه حلتان متزر بواحدة ومرتدي الأخرى. وقد تقلد سيفا، وتنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبال[١٨١].

ويشابه هـذا الوصف الإله كهـل المعبود الرئيس في قرية الفاو[١٨٢]. فلعل ود هـو نفسه كهـل معبود أهـل القرية مـع إختلاف الأسماء، والصنم ود يرمز للإلـه القمـر الذي يعتـبر أعظـم الآلهـة المعنية[١٨٣].

الصنـــم ســـواع :

كان سواع يمثل صورة امرأة[١٨٤]. وهو في وادي نعمان قرب مكة من بلاد هذيل. وهو لكنانة، هذيل ومزينة وعمرو بن قيس. وسدنته بنو صاهلة بن هذيل[١٨٥].

وقيل بل أنه برهاط في ينبع التي هي من منطقة المدينة وأن سدنته بنو لحيان[١٨٦]. ونرجح أنه انتشر في كلا المنطقتين وبنفس الاسم وكان له السدنة في كل مكان. وبنو لحيان هؤلاء من بني هذيل بن مدركة[١٨٧].

الصنم يغوث :

وكان لبني مذجح في وادي أنعم. وعبده أهل جرش أيضا[١٨٨].

الصنم يعوق :

وكان لهمدان في اليمن، وخيوان في أرحب[١٨٩].

---

١٨١ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٥، ٥٦، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٧٦.
١٨٢ ـ الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، قرية الفاو، ص ٢٤.
١٨٣ ـ حتي، تاريخ ص ١١٨.
١٨٤ ـ جواد علي، نفس المرجع جـ٦/٧٦.
١٨٥ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢ حاشية ١، ابن حبيب، المحبر ص ٣١٦.
١٨٦ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ٩، ١٠، الحموي، المرجع السابق جـ٣/٢٧٦، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٩١.
١٨٧ ـ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/١٠١٠
١٨٨ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٠.
١٨٩ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢، ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٧، ابن حبيب، المحبر ص ٣١٧، ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٩١.

الصنم نسر :

اتخـذته حمير في أرض بلخع من أرض سبأ قرب صنعاء. وكان لهم بيت رئام في صنعاء أيضا. ولظهور اليهودية بينهم فقد اضمحل شأن الأصنام مبكرا(١٩٠). وكان الصنم نسر على صورة النسر نفسه (طائر)(١٩١).

وقد عظم الآباء هذه الأصنام قبل الطوفان. ثم عبدها الأبناء من بعدهم لاعتقادهم أنها تنفع وتضر(١٩٢).

ثم ننتقل الى الثالوث الصنمي المؤنث والذي أشار اليه القرآن كما مر بنا وقد قيل أنهن بنات الله(١٩٣).

الصنم الـلات :

صخرة مربعة، بيضاء ومنقوشة(١٩٤). اعتاد رجل يهودي الجلوس عليها. فيلت لهم السويق في موضع منارة مسجد الطائف. وكان سدنتها آل أبي العاص بن مالك من ثقيف. وسمـوا أبنائهم بعدها ومنهم زيد اللات، وتيم اللات، وقد عظمت ثقيف اللات وبنت لها بناء(١٩٥).

وقيل أن اسم اللات مشتق من الإلاهات، ولكنه أطلق على معبود معين وقد عبده النبطيون، وأهل البتراء. واعتادوا على القسم باللات في شعرهم. وأقاموا بيتا لها في وادي وج(١٩٦). وقيل أن سدنتها كانوا من بني معتب من ثقيف(١٩٧). وذكروا لفظ اللات على تخفيف التاء، فهي اللاة(١٩٨). وهذا يحتمل المقابلة لتأنيث الاله(١٩٩) ولعل هذا قريب من الصحة أيضا. وقد ذكرها هيرودتس باسم أليلات(٢٠٠).

---

١٩٠ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٥٨.

١٩١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٧٦.

١٩٢ ــ العطار، المرجع السابق ص ٩٤.

١٩٣ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٩، حتي، تاريخ ص ١١٩.

١٩٤ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٦/٧٦.

١٩٥ ــ ابن الكبيي، الأصنام ص ١٦، ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩١.

١٩٦ ــ SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 87

١٩٧ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩٣.

١٩٨ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٢.

١٩٩ ــ SALIBI, OP. CIT., P. 70. حتي، تاريخ ص ١١٩.

٢٠٠ ــ RODINSON, OP. CIT., P. 16. ، ول ديورانت، المرجع السابق جـ١٣/١٩.

وقد حرصوا على مضاهاة بيت اللات بالكعبة. واتخذوا الحجبة لها والكسوة وحرموا واديه أيضا[٢٠١]. فهل قصدت ثقيف منافسة قريش ببيت اللات في الطائف فجعلته مماثلا لبيت مكة.

ومن المؤكد أن ثقيفا رغبت أن يكون لها مجد وجاه مثل قريش. ورغبت في مساواة الطائف بمكة.

وكانت ثقيف تتوجه إلى اللات بالشكر على السلامة بعد العودة من السفر. ولها مراكز عبادة أخرى في غير الطائف. وبيت اللات يمثل معبدا لأهل الطائف. وقد عظمتها قريش أيضا[٢٠٢]. واللات كبيرة آلهة الصفويين أيضا. وعرفها اللحيانيون، وعبدها الأنباط في حوران. وفي شمال الحجاز. وهي تمثل أم آلهة البتراء. وتقابل الإلاهة أرتميس لدى القرطاجيين. وقد ذكرتها النصوص النبطية منذ النصف الأول من القرن الميلادي حوال سنة ٤٠م[٢٠٣].

الصنم العزى :

واسمها مشتق من العزة والقوة[٢٠٧]. وهي تتكون من ثلاث شجرات من شجر السمر. في وادي نخلة الشامية شرق مكة. عبدتها غطفان. وكان بنو صرمة بن مرة سدنتها. وقد عظمتها قريش وباهلة وغني[٢٠٥]. وهي تقابل الزهرة نجمة الصباح[٢٠٦].

وبنت لها غطفان بيتا، ودعوه بسا[٢٠٧] واهدوا لها القرابين. وقالو أن ربهم يصيف عند اللات. ويشتي عند العزى[٢٠٨].

وقيل أن سدنتها وحجابها هم بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم. وقيل أنهم

---

٢٠١ ـ ابن حبيب، المحبر ص ٣١٥.
٢٠٢ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٢٨، جـ٤/١٤٥.
٢٠٣ ـ مهران، الديانة العربية ص ٣٠.
٢٠٤ ـ SALIBI, OP. CIT. P. 70, SHORTER ENCY OF ISLAM, P. 617. حتي، تاريخ ص ١٢٠.
٢٠٥ ـ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩١، ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٥.
٢٠٦ ـ حتي، تاريخ ص ١٢٠، مهران، الديانة العربية ص ٣٨.
٢٠٧ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٤٢.
٢٠٨ ـ العطار، المرجع السابق ص ٩٢.

اتخـذوا للعزى صنم[٢٠٩]. ويوحي لنا هذا بأنها عبدت في مكانها الأول عند الشجرة وسدنتها بنو صرمة. وفي مكان آخر عند الصنم وكان سدنتها هناك بنو شيبان. ويبدو لنا اقتراب الموضعين بل أنهما في نفس الوادي.

وقد تسمى العرب بها وفعلت قريش كذلك، فسموا عبد العزى. وقيل أن أول من اتخـذهـا ظالم بن أسعـد[٢١٠]. وجلب قصي صنم العـزى ومناة إلى مكة لماسافر إلى سوريا[٢١١]. ويدل هذا على أن قصيا تعـرف على معبودات القبائل العربية الأخرى وجلب أصنامها ليضعها في الكعبة.

آخر من تولى سدانة العزى من بني شيبان دبية بن حرمي السلمي[٢١٢]. وقد عبدت العزى خارج الجزيرة العربية حيث عبدها اللخميون في الحيرة[٢١٣]. ولصنم العزى غبغب[٢١٤]. لجمع الهدايا التي تقدم لها. وتنحر عنده القرابين[٢١٥]. فهو المنحر ومراق الدم[٢١٦].

وصفة الغبغب حجر ينصب بين يدي الصنم، وكان لاساف غبغب أيضا يستقبل الركن الأسود. وأشهر الغباغب هو غبغب منى وهو المنحر الذي هو جبيل صغير[٢١٧].

الصـنم منـــاة :

آخر الثالوث الصنمي الأنثوي. ومناة معناها من المنية والموت[٢١٨]. فكانت إلاهة القضاء والقدر على صورة حجر أسود[٢١٩].

---

٢٠٩ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩٢، العطار، المرجع السابق ص ٩٢، مهران ـ الديانة العربية ص ٣٨.

٢١٠ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٨ A. SIDDIQUIT, OP. CIT, P. 36

٢١١ ـ RODINSON, OP. CIT., P. 39.

٢١٢ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٢، مهران، الديانة العربية ص ٣٨.

٢١٣ ـ RODINSON, OP. CIT., P. 39.

٢١٤ ـ مهران، الديانة العربية ص ٣٨.

٢١٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٤٥.

٢١٦ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٠٦.

٢١٧ ـ SALIBI, OP. CIT., P. 70. SHORTER ENCY. OF ISLAM, P. 325,

٢١٨ ـ حتي، تاريخ ص ١٢٠.

٢١٩ ـ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩٤، ابن الكلبي، الأصنام ص ١٣. SHORTER ENCY. OF ISLAM, 325.

وكانت مناة للأوس والخزرج وعامة أهل يثرب. وموضعها بقديد. على ساحل البحر من ناحية المشلل على طريق المدينة[٢٢٠].

ومناة أقدم من اللات والعزى فمناة عبدت قبلهما. وقد تسمى العرب بعبد مناة، وزيد مناة[٢٢١]. ولا تحل الأوس والخزرج من احرامها ولا تحلق الرؤوس الا عند مناة. وقد عظمتها قريش وهذيل وخزاعة وأزد شنؤة وغيرهم من الأزد. وقيل بعض ثقيف أيضا. وسدنته الغطاريف من الأزد[٢٢٢].

واعتاد العرب على اتخاذ البيوت حول الأصنام والأوثان سواء كانت من حجر أو خشب أو شجر. وقد حرصوا على أن يجعلوا وراء كل معبود مخبأ سري يجلس فيه الرجل أو المرأة بحسب نوع الصنم. يقوم السادن بأخفائه في ذلك المكان السري. مما يمكن الاله من الاجابة على أسئلة الناس. ويتولى السادن اقناع كل الناس بأن هذا كلام الاله وصادر عنه كما في بيت العزى.

ويتضح أن قريشا تجامل جميع القبائل فعظمت اللات والعزى ومناة. وعظمت ثقيف العزى أيضا. واقتصر الأوس والخزرج على عبادة مناة[٢٢٣].

وفعلت قريش ذلك رغبة في مسالمة القبائل المحيطة بها ولتضمن الولاء الديني من جميع العرب لمعبودات قريش وكعبة مكة. وقد اعترفت قريش بحرمة أراضي تلك الآلهة لرغبة قريش في توسيع المناطق الحرم، ولا سيما وأن اللات والعزى ومناة كلها في المناطق المحيطة بمكة وعلى طرق التجارة أيضا.

وحرصت قريش دائما على أن تشعر جميع العرب بفضل مكة وحرمها على جميع بيوت العبادة الأخرى. لأن الكعبة بيت الله، وبنية نبيه الخليل عليه السلام. وتعظم قريش تلك الآلهة وتنحر عندها وتطوف بها. وتفرض بذلك على جميع العرب المعاملة بالمثل، مع الالتزام بأفضلية كعبة مكة وأولويتها[٢٢٤]. ويقر جميع عرب الجزيرة بفضل الكعبة

---

٢٢٠ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٣، ١٦، ١٧، الحموي، المرجع السابق جـ٥/٢٠٤، ٢٠٥، SIDDIQUI, OP. CIT., P. 34

٢٢١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣١٦، ابن حزم المرجع السابق ص ٤٩٢، مهران، الديانة العربية ص ٤١، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٤٨.

٢٢٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٤٥.

٢٢٣ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٧.

٢٢٤ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩٢.

وأنها بيت الله دون غيرها ويعتمرون ويحجون اليها[٢٢٥].

الصنم هبل :

أعظم أصنام قريش، وله أهمية بالغة لديهم ولكنه لم يذكر في القرآن مع الأصنام المذكورة[٢٢٦]. وكان هبل في جوف الكعبة منصوبا فوق بئر الأخشف (جب الكعبة) الذي تجمع فيه الهدايا. وكان سادنه هو صاحب أزلام قريش أيضا[٢٢٧].

ويعتقد أن هبل صنم نبطي. وهو أصلا لخزاعة[٢٢٨]. وأن كلمة هبل آرامية الأصل وتعني الروح أو البخار. وهو صنم على شكل انسان أمامه الأزلام (السهام)[٢٢٩]. وأما في اللغة العربية فتعني كلمة الهبل الثكل، أو رجل مهبل وهابل أي ثقيل اللحم وكثيره[٢٣٠].

وهبل أول صنم جلبه عمرو بن لحى[٢٣١] من بلاد الشام إلى مكة. ثم صار لبني كنانة، ثم لقريش. ويدعى هبل خزيمة (بن مدركة) لأن خزيمة هو الذي نصبه على الكعبة[٢٣٢].

وهو مصنوع من العقيق الأحمر. ولما كسرت يده اليمنى صنعت قريش له يدا من ذهب. وأمامه جعبة الأزلام (السهام) أي القداح التي يستعملها السادن عند الاستقسام بالأزلام أو ضرب القداح. وأشهر حادثة للاستقسام بها هي حادثة نذر عبد المطلب بن هاشم واستقسامه بها الذي وقع على أبنه عبد الله[٢٣٣].

وقد عظمت قريش هبلا فهو الإله الأكبر عند كل الجاهليين ويعتقد البعص أنه يرمز

---

٢٢٥ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٣٣

٢٢٦ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٧، مهران، الديانة العربية ص ٤٢، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٥٢.

٢٢٧ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٩٠، جواد علي، نفس المرجع جـ٦/٢٥٢.

٢٢٨ ــ RODINSON, OP. CIT. P. 39.

٢٢٩ ــ حتي، تاريخ ص ١٢١، مهران، الديانة العربية ص ٤٢.

٢٣٠ ــ ابن دريد، المرجع السابق ص ٥٤٠، الحموي، المرجع السابق جـ٥/٣٩١.

٢٣١ ــ ابن كثير، المرجع السابق جـ٢/١٩١.

٢٣٢ ــ البلاذري، المرجع السابق جـ١/٣٧.

٢٣٣ ــ SHORTER ENCY, OF ISLAM, P. 140، ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٨، الأزرقي، المرجع السابق، جـ١/١١٩، مهران، الديانة العربية ص ٤٢، ٤٣.

الى الإله القمر. وهبل إله الكعبة وأهلها. فيتوسلون اليه ليمن عليهم بالخير والبركات، ويحميهم من كل شر وضر[٢٣٤]. ويستعينون بجميع الآلهة في الشدائد والحروب وخاصة هبل. فقد نادى أبو سفيان يوم أحد (أعل هبل . . . . أعل هبل) وتفاخر بأن لقريش العزى وليس للمسلمين ذلك[٢٣٥].

وإذا عاد الرجل منهم من سفره طاف بالبيت ثم سلم على هبل وحلق رأسه عنده فيبدأ به قبل أهله[٢٣٦].

وكانوا يصنعون أصنامهم بأيديهم فقداشتغل عكرمة بن أبي جهل في صناعة الأصنام وعملها. وكانت قريش تبيع تلك الأصنام المصنوعة لكل العرب الوافدين على مكة ليحملوها معهم إلى منازلهم[٢٣٧].

وكان عدد القداح التي يستقسم بها سبعة موزعة على النحو التالي قدح يضرب به على الميت، وعلى العذرة، والنكاح لكل منهم قربان (مائة بعير). وله حاجب وهو السادن المختص بضرب القداح[٢٣٨].

والقداح الأخرى كتب على أحدها صريح والثاني ملصق[٢٣٩]. والثالث نعم والأخير لا. وأضافوا أن واحدا من القداح للمياه فإذا أرادو الحفر للماء ضربوا القداح[٢٤٠]. ولكن المعتقد أنهم في مثل هذه الحالة يضربون بالقدحين نعم ولا.

وكانت قريش وأغلب القبال العربية التي تحج إلى مكة تستشير هبل في أمورها الهامة. فما يخرج مكتوبا على القدح (السهم) فهو الجواب. وإذا لم يوافق الجواب رغبتهم فقد يعيدون الكرة بضرب القداح مرة أخرى[٢٤١]. وقد مر بنا أن صفوان بن أمية آخر من تولى الاستقسام بالأزلام والسدانة.

واشتغل أبو رافع مولى الرسول ﷺ. في نحت القداح وكان يجلس في حجرة زمزم

---

٢٣٤ ــ مهران، الديانة العربية ص ٤٣، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٥٢، ٢٥٣.

٢٣٥ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٧، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٣٧.

٢٣٦ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/ ٢٧٨.

٢٣٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٢٣، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٠.

٢٣٨ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢، الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٢٣.

٢٣٩ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٨، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٢٥١.

٢٤٠ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٩٢، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٧٨.

٢٤١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٤١١.

عند نحتها عندما كان غلاما صغيرا يمتلكه العباس بن عبد المطلب[٢٤٢].

وهنالك مجموعة كبيرة من الأصنام والمعبودات التي انتشرت بين القبائل في مختلف أنحاءَ الجزيرة. واتخذوا لها أصناما بنفس صورتها وأسمائها، لتوضع في جوف الكعبة ولكنها أقل شأنا من الأصنام السابقة الذكر. وسنذكر بعضها والتي نصبوها في مكـة[٢٤٣] فيما يلي :

١ ــ مجاود الريح على الصفا وقيل أن اسمه نهيك مجاود الريح.
٢ ــ مطعم الطير على المروة[٢٤٤].
٣ ــ جهار لهوازن بعكاظ وكان سدنتها آل عوف النصريين ومعهم محارب[٢٤٥].
٤ ــ الاله سلمان ويكنى أبا الايلاف فهو اذن اله القوافل الذي يحميها ويحرسها في رحلتها ذهابا وايابا[٢٤٦]. ولابد أن قريشا تعبدت له فهي صاحبة الايلاف.
٥ ــ الدار : صنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب[٢٤٧].
٦ ــ العبلاء : حجارةة بيضاء أو صخرة بيضاء قرب عكاظ[٢٤٨].
٧ ــ الصنم مناف : وقد سمت قريش به (عبد مناف)[٢٤٩].

وذكروا سبعة أصنام أخرى موزعة في منى على النحو التالي :

الأول : بين مسجد منى والجمرة الأولى.
الثاني : على الجمرة الأولى
الثالث : على المدعى.
الرابع : على الجمرة الوسطى.
الخامس : على شفير الوادي.
السادس والسابع : على الجمرة الكبرى (جمرة العقبة)[٢٥٠].

---

٢٤٢ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/٢٨٧، ٢٨٨، ابن الأثير، الكامل جـ٢/٩٢.
٢٤٣ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٢/٥، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٢٤.
٢٤٤ ــ مهران، الديانة العربية ص ٤٣.
٢٤٥ ــ ابن الكلبي، الأصنـام ص ١٠٨، ابن حبيب، المحبر ص ٣١٥، ابن حزم، المرجـع السـابق ص ٤٩٣.
٢٤٦ ــ كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/٩٥٨.
٢٤٧ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٠٨، ١٠٩.
٢٤٨ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٤/٨٠.
٢٤٩ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٣٢.
٢٥٠ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ١/٣٢٣ حاشية ١.

وقد مر بنا ذكر البيوت الأخرى التي اتخذها العرب مثل بيت الأقيصر وبيت رئام وبيت رضا[٢٥١]. وكذلك كعبة العبلات في جنوب مكة وفيها الحجر الأبيض. ويوجد الحجر الأحمر في مدينة غيامات الجنوبية ولكن بقيت كعبة مكة المعبد الأكثر قداسة وبيت الله المعظم. وهو الذي بقي في الإسلام[٢٥٢]. لأنه بناء نبي الله ابراهيم الخليل. وقد كثر تقليد العرب لكعبة مكة ولقريش على مستوى الأفراد والجماعات حتى أن رجلا من جهينة يسمى عبد الدار بن حبيب حاول مثل ذلك أيضا[٢٥٣].

أثبتنا مجموعة من الأصنام فقط. وهي التي تمكنا من معرفة أسمائها ومواقعها وكذلك القبائل التي عبدتها. وما عدا ذلك فلم نثبته. وهذا عدد قاصرا جدا عن عدد الأصنام الذي وجده النبي ﷺ في جوف الكعبة يوم فتح مكة. والذي هو ٣٦٠ نصبا أو صنما[٢٥٤] شدها ابليس بالرصاص الى بعضها البعض. وطعنها الرسول ﷺ برمحه فكسرها[٢٥٥].

وشدها الوليد بن المغيرة بالرصاص بعد تجديد بناء الكعبة على اقتراح باقوم[٢٥٦].

ونرجح أن هذا النقص الكبير بين عدد الأصنام التي ذكرناها وبين العدد الذي كان موجودا في الكعبة وأثبته الرواة، انما يرجع إلى ضياع الكثير من أسماء الأصنام، ونسيان بيوتها والقبائل التي عبدتها. خاصة وأنهم في صدر الإسلام قد كرهوا ذكر الأصنام، وكرهوا الكتابة عنها كذلك. وتعرض ابن الكلبي صاحب كتاب الأصنام لهجوم شديد شنه عليه جمهور المحدثين والفقهاء[٢٥٧].

ونرى من وجهة نظرنا أن الأصنام كانت موجودة في الكعبة ومنتشرة في بيوت الناس أيضا (ولم يكن رجل في قريش وبمكة الا وببيته صنم)[٢٥٨] ومن المفروض أن المسلمين

---

٢٥١ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٢٥.

٢٥٢ ــ GRUNEBAUM, OP. CIT., P. 24.

٢٥٣ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٤٥.

٢٥٤ ــ مسلم، الجامع الصحيح، منشورات دار الآفاق، بيروت جـ٥/١٧٣، عن عبد الله قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

٢٥٥ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٢٠، ١٢١، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٠، لوبون المرجع السابق ص ٩٩.

٢٥٦ ــ طه حسين، المرجع السابق ص ٤٢٦.

٢٥٧ ــ ابن الكلبي، الأصنام، تصدير المحقق ص ١٣، ١٤، ٢٢.

٢٥٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق، جـ١/١٢٣.

الأوائل كسروا جميع اصنامهم وحطموها.

ومارست قريش وجميع القبائل العربية شعائر متشابهة في عبادتهم لتلك الآلهة من تلبية وطواف، وتقديم القرابين وما الى ذلك من الطقوس التي مربنا ذكرها[٢٥٩].

وكان لقريش عيد تجتمع فيه إلى أحد أصنامها. ومارسوا النحر له في ذلك اليوم (يوم عيدهم) من كل عام. ويعكفون عنده ويطوفون به[٢٦٠].

وقد احترم العرب آلهتهم بصفة عامة، فلم ينعتها أحدهم بسرقة أو لؤم أو اعتداء أو نحو ذلك من التهم والاستخفاف. ولم يفرقوا بين الاله والآخر. فليس لديهم آلهة مختصة بمجال من مجالات حياتهم كما فعل اليونان. وكما عرفناه من أساطيرهم فهذا أله البحر، وذلك اله الهواء، والحب والخمر، والإلاهة الجمال وما الى ذلك. وانما نسب العرب آلهتهم بأسماء القبائل التي تعبدها فهذا هبل اله قريش وذلك المقة اله شعب سبأ[٢٦١].

واعتقد بعصهم في الآلهة وهابوا عقابها. فقد كانت زنيرة رومية ثم أسلمت وعميت بعد ذلك فقالت قريش (ما أذهب بصرها الا اللات والعزى)[٢٦٢]. وقد انتهت الأصنام التي كانت حول الكعبة كلها. فجمعت ثم حطمت وأحرقت بالنار[٢٦٣]. بعد أن أكفأها الرسول عن موضعها منذ دخوله إلى الحرم. هذا بالنسبة للأصنام التي كانت موجودة في داخل الكعبة وفي مكة. أما الأصنام المتفرقة في أنحاء البلاد والتي تعتبر الأساس فكان يرسل البعوث والسرايا تباعا لهدمها وحرقها.

فقد بعث خالد بن ألوليد الى العزى. وعمرو بن حممة بن الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين: وسعيد بن عبيد الأشهلي الى مناة. وبعث عمرو بن العاص الى سواع[٢٦٤] وهدم المغيرة بن شعبة اللات وهكذا[٢٦٥].

وكانت بعض أصنامهم من الخشب فهذا سهل بن حنيف يجمع حطام أصنام قومه التي تولى كسرها. ويأتي إلى المرأة التي نزل عليها علي بن أبي طالب يوم وصوله المدينة.

---

٢٥٩ ــ لوبون، المرجع السابق ص ٩٩.
٢٦٠ ــ العطار، المرجع السابق ص ٧٣.
٢٦١ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ١٨٠.
٢٦٢ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٦/١٨٣.
٢٦٣ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٣١.
٢٦٤ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٣١.
٢٦٥ ــ محمد فرج، المرجع السابق ص ١٥٦.

وهي امرأة لا زوج لها ولا معيل تحتطب بذلك الحطام[٢٦٦].

الأزلام والميسـر :

والأزلام هي طريقة لضرب القداح[٢٦٧]، ولكنهم يذكرون أن الأزلام تكون في حالة المدارأه[٢٦٨]، والنكاح، أو لأمر مجهول يخشون الاقدام عليه.

والمدارأة لها قداح بيضاء ليس فيها شيء. وللحضر والسفر سهمان وغيرهما للأمور الأخرى. فيجيلونها ومن خرج سهمه يكون له الحق. ويدير سادن الأوثان القداح. وهنالك قداح أخرى فيها ملصق، وصريح لبيان النسب فإن خرج صريح الحقوه بنسبهم ولو كان دعيا. وان خرج ملصق نفوه عنهم ولو كان صريحا[٢٦٩].

وعلى رواية أخرى أن القداح سبعة، مكتوب على أولها الله عز وجل، وعلى الثاني لكم، والثالث عليكم، والرابع نعم، والخامس منكم، والسادس من غيركم، والسابع الوعد.

وكانوا لا يقدمون على أمر حتى يضربوا القداح ويستشيرونها. ثم يلتزمون بما تخرج به القداح وتأمرهم بعمله. ولهم أمناء على القداح لا يثقون بغيرهم.

والميسر نوع من المقامرة له عشرة أقداح[٢٧٠]. وقيل بل أحد عشر قدحا[٢٧١]. سبعة قداح منها لها نصيب أو حظ والأخرى لا نصيب لها ولاحظ. وتدعى المنيح، والسفيح، والوعد، والمصدر.

ويجتمع فتيان الحي، فيشترون الجزور ولكن بدون دفع الثمن. ثم يقسمونها بينهم إلى عشرة أجزاء. وتترك البقية من الجزور كالرأس، والفراش للجزار ويدعونه (الريم). ولا يأخذه أحد من المشتركين في اللعبة أبدا، وإذا أخذه سب به وعير بذلك.

ويجيل الحرضة القداح، والحرضة رجل يتأ له لا يأكل اللحم بثمن يدفعه وانما يأتيه

٢٦٦ ــ ابن الأثير، الكامل جـ٢/ ٧٥.
٢٦٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٢.
٢٦٨ ــ المدارأة: المخالفة والمدافعة يقال فلان لا يداري ولا يماري أي المشاغبة والمخالفة أنظر ابن منظور، المرجع السابق جـ٣/ ٩٦٠.
٢٦٩ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٢.
٢٧٠ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/ ٢٥٩.
٢٧١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٣.

من الناس. ومن فازت قداحه أخذ نصيبه من الجزور ومن خاب منهم يغرم بقدر ثمن الجزء الذي لعب عليه فيما لو فاز بالحظ. وأما القداح الأخرى التي لا نصيب لها ولا حظ فهي لا تفوز ولا تخسر وانما هي لمعادلة الأقداح[٢٧٢].

وكانت القداح السبع عند هبل وفي كل منها كتاب[٢٧٣]. أحدها فيه العقل إذا اختلفوا على من يحمل العقل منهم (الدية) ضربوا القداح.

والقدح الثاني فيه نعم، والثالث فيه لا، والرابع فيه منكم، والخامس فيه ملصق، والسادس فيه من غيركم، والسابع فيه المياه. ويستعملونه إذا أرادوا الحفر بحثا عن الماء.

ويجيلون القداح للختان، والنكاح، ودفن الميت، والشك في صحة النسب. وكانوا ينقدون صاحب القداح مائة درهم، وجزور، أجرا على ضرب القداح.

ويلتزمون ممتثلين لما تأمرهم به القداح. ويتحايلون على عدم التنفيذ بأن يؤجلوا الأمر إلى العام المقبل أحيانا عندما لا يتفق هواهم مع ما أمرتهم به القداح[٢٧٤]. .

وقيل أنه قد كتب على أحد القداح أمرني ربي، وعلى الآخر نهاني. وتستعملان للسفر ومعهما قدح ثالث مكتوب عليه غفل. فإذا ضربها وخرج الآمر سافر، وان خرج الناهي، قعد عن السفر، وان خرج الغفل ضرب القداح مرة أخرى[٢٧٥]. .

وقد ضرب عبد المطلب القداح يوم نذره المشهور لمفاداة ابنه عبد الله. وجعل يجيل القداح، ويزيد عشرة من الابل. ويخرج قدح عبد الله، فيعيد الكرة، ويزيد عشرة أخرى حتى بلغت المائة من الابل، وقبلت بها الآلهة. ولما خرج قدح المائة بعير أنقذ عبد الله من الذبح[٢٧٦].

وتولى القداح غاضرة بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي[٢٧٧]. وآخر من تولى الأيسار (الميسر) صفوان بن أمية. ويضربها في الأمور العامة والأحداث الهامة فلا يبتون في أمر حتى يتيسرون على يدي صفوان[٢٧٨]. ويدل هذا على أن هنالك شخص آخر يتولى الاتسار في الأمور الخاصة.

٢٧٢ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٣، ٣٣٤، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٩.
٢٧٣ ــ SIDDIQUI, OP. CIT., P. 37. الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٩٣.
٢٧٤ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٧٣.
٢٧٥ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٩٣.
٢٧٦ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٦٢.
٢٧٧ ــ الأزرق، المرجع السابق جـ١/١٩٣.
٢٧٨ ــ ابن عبد ربه، المرجع السابق جـ٣/٢٣٦.

وكانوا يهتمون كثيرا بهذه الاستشارات التي تقوم في البيت المقدس الذي يعظمونه أشد التعظيم حتى أنهم يكرهون الحلف بالأيمان عند البيت مخافة العقوبة في النفس والمال. فقد أعتبروا من الحوادث التي منها أن أناسا من بني عامر بن لؤي قد حلفوا في الجاهلية على قسامة يمينا باطلة. وبعد أن خرجوا من مكة. جلسوا تحت صخرة ليستريحوا، فلما رأوا أنها ستقع عليهم، فروا هاربين. ولكنها انفلقت إلى خمسين قطعة على عدد أولئك القوم فقتلتهم. ومثلها كثير من هذا القصص[٢٧٩]. والذي يبين لنا أنهم كانوا يتورعون عن الشر والكذب، ويخافون العقوبة التي يعتقدون أنها تقع جزاء على الأعمال الفاسدة.

وكان الحلف بالله رأس الأيمان لدى غلبية العرب الذين هم على ملة الحنيفية وورثه كل بني اسماعيل، وأخوالهم. من جرهم عامة ومن هبط بطحاء مكة من خزاعة، وقريش. وان دخلتها الشوائب والوثنية في تلك الفترة التي امتدت من عهد عمرون بن لحي الخزاعي وإلى قيام الدعوة الاسلامية[٢٨٠].

وكان من عادتهم أن يحلفوا بالله وهو الرب الأعظم في كل جزيرة العرب[٢٨١]. وأقسموا بالآلهة الأخرى مثل حلفهم لا واللات والعزى، لا ومناة وحلفوا بغير ذلك كثيرا مثل حلفهم بالماء والسماء والنجوم[٢٨٢].

الطقوس الدينية ـ القرابين :

ومن جملة الطقوس الدينية أيضا ، اتخذوا طريقتين للتقرب إلى الله أو الأصنام كما يلي :

أولا : تقديم القرابين الحيوانية بذبحها.

ثانيا : وقف القرابين الحيوانية أيضا لله أو للصنم.

فأما ذبح القرابين فان أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام فهو الياس بن مضر[٢٨٣]. ومن قبل الياس تقرب قابيل بثمرات من أرضه، وقدم هابيل ذبيحة من (غنمه) وتقرب ابراهيم الخليل بالخبز والخمر ثم أمره الله بذبح العجل والعنز والكبش

٢٧٩ ـ الأزرقي ،المرجع السابق جـ٢/ ٢٤، ٢٥.

٢٨٠ ـ النجيرمي ، المرجع السابق ص ٣، ٤.

٢٨١ ـ RODINSON, OP. CIT., P. 16.

٢٨٢ ـ النجيرمي ، نفس المرجع ص ٢٦.

٢٨٣ ـ العسكري ، المرجع السابق ص ٤٨.

الذي افتدى به ابنه اسماعيل. بل وتقرب بالحمامة واليمامة ثم تبع العرب سنته[٢٨٤].

وصاروا ينحرون ويذبحون عند كل الأصنام تقربا اليها. ويدعون ذبائح الغنم التي يقدمونها للأصنام والأنصاب العتائر (والعتيرة)، والمذبح (العتر)[٢٨٥].

وتكون الذبائح عند المسيحين على ثلاثة أوجه :

١ ــ الذبيحة المحرقة، التي تحرق كلها ماعدا جلدها فيحفظ للكاهن.

٢ ــ ذبيحة التكفير عن الخطايا يحرق بعضها والباقي يأكله الكاهن.

٣ ــ ذبيحة السلامة فهي اختيارية ولحمها مباح لهم.

والذبيحة عند المسيحين محصورة في لحم المسيح ودمه. ويرمز لها الكاهن بالخبز والخمر. ولما فشت عبادة الأوثان والنجوم أخذوا يحرقون من نباتات الحقول ثم استعملوا النباتات العطرية كالند، والعود من أنواع البخور ذات الروائح الطيبة. ثم عم استعمالها في الحفلات. ويستعمل اليونانيون الملح في قرابينهم لأنه يرمز للصداقة وحسن القرى.

وبالغ الرومان في تقديم القرابين أيضا. وشاركهم الفنيقيون، والكنعانيون والفرس كذلك. ثم المصريون الذين أصبحوا يتقربون بالأضاحي البشرية مثل (تقديم عروس النيل في مصر سنويا)[٢٨٦].

وقدم العرب كل أنواع القرابين وحتى البشرية منها حيث أراد ابراهيم ذبح اسماعيل ثم نزل كبش الفداء. وأراد عبد المطلب بن هاشم ذبح ابنه عبد الله كذلك ثم فداه بمائة من الابل كما ذكرناه. ومارس العرب طقوسا متنوعة مصاحبة لذبح القرابين مثل الغناء والرقص، وغير ذلك مما مارسة عرب شمال الجزيرة مثلا[٢٨٧].

ثانيا : وقف الحيوان :

قال تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[٢٨٨].

وفي هذا النفي والانكار تأكيد لوجود تلك العقائد كلها والعمل بها. وكان أهل الوبر

٢٨٤ ــ البتنوني، المرجع السابق ص ١٩٣.

٢٨٥ ــ ابن الكلبي، الأصنام ص ٣٣، ٣٤.

٢٨٦ ــ البتنوني، المرجع السابق ص ١٩٤.

٢٨٧ ــ الأسد، القيان والغناء ص ١٤٦.

٢٨٨ ــ سورة المائدة، آية ١٠٣.

يقطعون لآلهتهم من أموالهم (من المواشي) وأهل المدر يقطعون لها من الحرث[٢٨٩].

فالبحيرة هي الناقة التي تشق أذنها عندما تولد في خامس بطن للناقة الأم، وهي التي لا يجز وبرها، ولا يذكر اسم الله عليها ان ركبت ولا ان حمل عليها. وتخصص البانها للرجال فقط.

السائبة : هي التي يسيبها الرجل من ماله. إذا برىء من مرض أو نال مطلب تمناه[٢٩٠]. وتكون من الانسان أو الحيوان فتصير حراما[٢٩١]. لا تمس وتخصص للأضياف من الرجال فقط[٢٩٢].

الوصيلة : وهي التي تؤخذ من النتاج السابع للشاة فان كان ذكرا ذبح، وان كانت أنثى تركت مع الشياه الأخرى. وان كانا ذكر وأنثى معا وصلت أخاها فحرما جميعا، ولبن الأنثى للرجال أيضا من دون النساء.

الحام : وهو الفحل الذي يصير ولده جدا أي الذي يدرك أحفاد أولاده. فيترك ولا يحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنع من ماء ولا مرعى : واذا ماتت هذه الأنواع من الحيوانات، وقفوا لحومها لآلهتهم، ويشترك الرجال والنساء على السواء في أكلها. أي أن الحام حمى ظهره.

وصنع أهل المدر والحرث مايشبه ذلك فجعلوا من حرقهم وغرسهم قسما لآلهتهم ومـاذرأه الله حيث يخطون في وسطه خطا يقسم الحرث الى قسمين[٢٩٣]. ولابد أن قريشا فعلت الشيء نفسه في مزارعها وبساتينها في الطائف. وهي معتقدات موغلة في القدم، ومنتشرة بينهم.

وأول من بحر البنحيرة وسيب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحام هو عمرو بن لحى أيضا[٢٩٤]

ونلاحظ أن هذه المعتقدات كلها طريقة ساذجة ليس لها هدف ديني محض بل أن لها فائدة مادية تعود على أصحابها بالنفع من حيث تخصيص بعضها للضيوف فهي عادات ومعتقدات ظهرت وشاعت بينهم.

---

٢٨٩ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٠.
٢٩٠ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١ /٩٨.
٢٩١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣٠.
٢٩٢ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١ /٩٨.
٢٩٣ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣٣١، ٣٣٢.
٢٩٤ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٤٨، ابن الجوزي، المرجع السابق ص ٤٦٥.

ماعدا الحام، فنلمس من ذلك ناحية انسانية رائعة تعطف على الحيوان، وترحمه في تلك السن المتأخرة. فلكبر سنه يترك وترفع عنه المشقة، ثم لا يمنع من أقرب مورد ماء أو أقرب مرعى على قدر طاقته على السير.

زمـــــزم :

كان تفجر الينبوع المبارك (زمزم) من أهم عناصر ومقومات الحياة في الوادي المقدس (مكة)، مما أدى إلى الاستقرار، والاستيطان(٢٩٥).

وقد طمرت جرهم زمزما على خيراتها وثروات الكعبة عندما حاربتها خزاعة وأخرجتها من مكة فظلت زمزم مطمورة طوال عهد خزاعة وإلى مبدأ أمر قريش في مكة حين أمر عبد المطلب بن هاشم باحتفارها. فحفرها واستخرج ماءها وثرواتها الدفينة(٢٩٦). وهي الغزالين، والسيوف القلعية التي أهداها ساسان أو سابور ملك الفرس إلى الكعبة(٢٩٧).

وتقع زمز داخل الحرم (بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل لا تنزف ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم)(٢٩٨).

وتتكون زمزم من ثلاث عيون الأولى بحذاء الركن الأسود، والثانية بحذاء أبي قبيس والصفا ، والأخيرة بحذاء المروة(٢٩٩). ومياهها غزيرة ذات طعم يختلف عن سواها من المياه. وماؤها مبارك يفضل حتى على المياه المعدنية وهي لما تشرب له(٣٠٠).

وذرع زمزم ستون ذراعا، ويبلغ عمق البئر احدى عشر قامة، وارتفاع منسوب الماء فيها سبع قامات(٣٠١).

فذلك وصف دقيق لموقعها بين ثلاث مواقع، وديمومتها وفائدة استعمالها ولزمزم أسماء

---

٢٩٥ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/ ٤١، أخبار مكة المشرفة جـ٣/٣٣، الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ٢٤٧، باسلامة، المرجع السابق ص ١٧٠.

٢٩٦ ــ ابن سعد، المرجع السابق جـ١/ ٨٥، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/ ٤٢.

٢٩٧ ــ المسعودي، مروج الذهب جـ١/ ٢٦٥، رفعت، المرجع السابق جـ١/ ٢٧٨، جواد علي، المرجع السابق جـ١/ ٤٩٧.

٢٩٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/ ٤٢، وهبة، المرجع السابق ص ٢٨.

٢٩٩ ــ الحموي، المرجع السابق جـ٣/ ١٤٨.

٣٠٠ ــ أخبار مكة المشرفة جـ٣/ ٣٤، الحموي، نفس المرجع جـ٣/ ١٤٨، الفاسي، المرجع السابق جـ١/ ٢٤٩.

٣٠١ ــ ابن بطوطة، المرجع ص السابق ص٩٤، ابن جبير، المرجع السابق ص ٦٥، ٦٦.

متعـددة أشهـرهـا زمزم، وطعام طعم، وشفاء سقم وهمزة أو هزمة جبريل، وركضة جبريل، والشبـاعـة، وبرة، ومضنونة، وتكتم وهي شراب، وطعام الأبرار، وطيبة، وسميت حفيرة العباس أيضا[٣٠٢]. ولهذه التسميات تعليلات مختلفة بعضها صفات للماء نفسـه. ويذكرون أنها سميت زمزم لأن الفرس كانوا يحجون إلى البيت الحرام تعـظيما لجدهم ابراهيم كما يعتقدون. وقد كانوا يزمزمون من خياشيمهم عند شرب الماء. ويسمى كلامهم وقراءتهم في صلاتهم وعند طعامهم الزمزمة[٣٠٣]. وأما الزمزمة لغة فتعني الاجتماع والكثرة وقد سميت زمزم لكثرة مائها[٣٠٤].

الطـــــواف :

ومن طقوس العبادة وشعائرها عرف الجاهليوين الطواف حول الكعبة المعظمة[٣٠٥]. وحـول غيرهـا من البيوت المعظمة لديهم، والأنصاب التي اتخذوها. كما ذكرناه آنفا ولكنهم سموا طوافهم هذا (الدوار)[٣٠٦]. وكانت عدة الطواف عند الجاهليين سبعة أشواط أيضا[٣٠٧].

وصفة الطواف: هي أن يدخل الحرم عاريا من الثياب إذا كان صرورة أي يرتاد الحرم لأول مرة. وأن يكون من غير الحمس أيضا. لأن الحمس وهم قريش كلها وما ولدت فيطوفون في ثيابهم. ويبدأ الطائف باساف ثم يستلم الركن الأسود ثم يبدأ من يمينه وتكون الكعبة عن يساره أيضا فإذا أتم طوافه سبعة أشواط استلم الركن ثم أستلم نائلة. ولا يطوف عاريا بعد ذلك. أما إذا لم يرغب في أن يطوف عاريا فله أن يستعير أو يستأجر ثيابا من الحمس فإذا تكرم عليه أحدهم رجل أو امرأة على السواء عليه أن يختار أن يطوف في ثيابه التي أتى بها من الحل ثم ينزعها بعد فراغه من الطواف. ويلبس غيرها مما جلب لنفسه من بلاده، ويلقي تلك الثياب التي طاف بها لتبقى على الأرض (لقى). إلى أن تبلى من وطء الأقدام، والشمس والرياح[٣٠٨].

وقد فتحت قريش الحرم لجميع الناس، وسمحت بعبادة الله في بيته والطواف حول

---

٣٠٢ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٣٤، ١٣٥، الفاسي، المرجع السابق جـ١/٢٥١، الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٥٢.

٣٠٣ ـ المسعودي، مروج الذهب جـ١/٢٦٥، المقدسي، المرجع السابق جـ٤/٨٢.

٣٠٤ ـ المعجم الوسيط جـ١/٤٠٠، البستاني، بطرس، محيط المحيط، ١٩٧٧م، ص ٣٧٨.

٣٠٥ ـ باسلامة، المرجع السابق ص ٧.

٣٠٦ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ٣٣، ٤٢.

٣٠٧ ـ ابن الكلبي، الأصنام ص ١٠٩، جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٣٥٦.

٣٠٨ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٧٨.

الكعبة[٣٠٩] حتى شمل ذلك الصابئة الذين كانوا يرسلون هداياهم إلى الكعبة[٣١٠].

ويؤدي الطواف في كل وقت، وكلما دخلوا الحرم خاصة إذا عزم أحدهم على السفر أو قدم منه، فيودع الكعبة، ويلقاها بعد عودته مباشرة. والطواف من مناسك الحج وأركانه كذلك. وذكرنا أن القبائل الأخرى قلدت قريشا وكعبتها فاتخذت بيوتا تطوف بها أيضا[٣١١].

وامتاز طواف قريش بالتؤدة في المشي، وليونة المناكب[٣١٢]. وقد دام ذلك في الإسلام فإن الرجل من غيرهم يكمل السبعة أشواط، وأمير مكة ابن هشام المخزومي يمشي الهوينا في طوافه واستلامه الركن[٣١٣].

وكانوا يسمون السعي بين الصفا والمروة طوافا أيضا[٣١٤] ويعتبرونه من أركان الحج ومناسكه أيضا. ويطوفون بين الصفا والمروة سبعة أشواط كقدر الطواف حول الكعبة. ويرى بعض الرواة أن الطواف بالصفا والمروة كان مقصورا على قريش دون غيرها[٣١٥]. ولكنه قول مردود فكيف يتفق هذا مع أنهم يعتبرون السعي من مناسك الحج ولا يجوز أن يتخلى عنه بقية العرب وهو أحد أركان الحج.

الصلاة والصوم :

ومارس العرب من طقوس العبادات الصلاة. ولكن لصلاتهم صفة وكيفية ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية . . .﴾[٣١٦] أي أن صلاتهم كانت على هيئة الصفير والتصفيق[٣١٧]. ويؤدون الصلاة أثناء طوافهم حول البيت[٣١٨]. وقد ذكر الاخباريون صلاة الضحى التي عرفتها قريش وأدتها على نحو

---

٣٠٩ ـ الشريف، دور الحجاز ص ٢٧.
٣١٠ ـ سيديو، المرجع السابق ص ٥١.
٣١١ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٣٥٤.
٣١٢ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/ ١٠.
٣١٣ ـ الأزرقي، نفس المرجع جـ٢/ ٧١.
٣١٤ ـ أخبار مكة المشرفة جـ٢/ ٣.
٣١٥ ـ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٣٨٠.
٣١٦ ـ سورة الأنفال آية ٣٥.
٣١٧ ـ السيوطي، المرجع السابق ص ٢٣٩.
٣١٨ ـ الأسد، القيان والغناء ص ١٤٤.

يشبه استقبال الشمس في وقت الضحى بالجلوس أمامها[٣١٩]. وعرفت قريش صيام يوم عاشوراء في الجاهلية. وقد صامه النبي ﷺ[٣٢٠]. وقد كرمت قريش يوم عاشوراء بأن جعلته موعدا سنويا لتغيير كسوة الكعبة أيضا[٣٢١].

وصفة صوم أهل الجاهلية هي صوم امتناع عن الطعام الشراب، وعدم اتيان النساء. وهو صوم عن الكلام وفاحش القول أيضا[٣٢٢]. أي ما يشبه الصوم في الإسلام وقد عللوا صيام قريش بغير السبب الذي صام له اليهود. فقيل أن قحطا ومجاعة أصابا قريشا، فلما ذهبا عنهم صاموا يوم عاشوراء شكرا. وقيل بل صاموه لذنب أرتكبته قريش وتكفيرا عنه صاموا عاشوراء[٣٢٣].

الأشهر الحرم والنسيء :

قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . . .﴾[٣٢٤]

وقد ذكرنا أن العرب اتفقت على اعلان هدنة مقدسة تعقد سنويا هي الأربعة الأشهر المشار اليها في الآية الكريمة. وهو ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. والشهر الرابع المتمم لها هو الشهر السابع من السنة وهو رجب. فهذه هي الأشهر الحرم والتي تشتمل على موسم الحج[٣٢٥].

وقد اختلف على ترتيب الأشهر الحرم وأولية أي شهر منها. فيبدأها البعض بالمحرم ويختتمها بذي الحجة. ويقرر الأخرون أولوية ذي القعدة ويليه ذو الحجة والمحرم ثم رجب[٣٢٦]. وهو الأصح الذي ورد في الحديث النبوي[٣٢٧].

---

٣١٩ ــ جواد علي،المرجع السابق جـ٦/٥٦، ٥٧.

٣٢٠ ــ (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصومه. فلما قدم المدينة صامه. وأمر بصيامه. فما نزل رمضان كان من شاء صامه ومن شاء لا يصومه) البخاري، المرجع السابق جـ٥/٥١.

٣٢١ ــ الألوسي، المرجع السابق ص ١١٠.

٣٢٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/١٤٢.

٣٢٣ ــ جواد علي ، نفس المرجع والجزء ص ٣٣٩، ٣٤٠.

٣٢٤ ــ سورة التوبة آية ٣٦.

٣٢٥ ــ حتي، تاريخ ص ١٢٣.

٣٢٦ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٦٦.

٣٢٧ ــ (حدثنا عبد الله بن عبدو الوهاب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن أبن أبي بكرة عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن الزمان أستدار كهيئة يوم خلق الله =

وكانت هذه الفترة المقدسة (الأشهر الحرم) فترة هدنة وسلام. فلا يخفرون ذمة فيها. ويجتنبون ارتكاب الظلم والغزو، والحرب ويطوفون بالبيت. ويلتزمون بشعائر التحمس وينتهون عن المحظورات[٣٢٨]. التي ذكرناها آنفا.

ولكن الأشهر الحرم أقدم من التحمس وسابقة له حيث قامت قبل الإسلام بفترة طويلة حيث عملوا بنسيء الشهر الحرام منذ عهد خزاعة[٣٢٩].

وأصبحت الأشهر الحرم مرعية بل واجبة التنفيذ على سائر العرب من حمس وغيرهم[٣٣٠]. ما عدا ما ذكرناه من استباحتها أيام الفجار.

وحاول بعض العرب تمديد الأشهر الحرم الى فترة أطول مثل بنو مرة بن عوف الذين ابتدعوا (البسل) وهو ثمانية أشهر حرم لهم من كل عام. وقد اعترف جميع العرب لهم بفترة السلام هذه (البسل)[٣٣١].

فهل تدل هذه الأشهر الحرم التي حددها عرب الجزيرة عامة، وقريش في مكة وبنو مرة على عشقهم للسلام. ومحاولة التخلص من الحرب والغزو ولو لفترة زمنية محدودة الأجل.

هذا ما توحي به هذه الهدنة المقدسة (الأشهر الحرم ـ والبسل). فلا شك أنهم ابتدعوا تحريم هذه الأشهر للعيش في ظل السلام. وتأدية طقوس حجهم. ومزاولة معاملات تجارتهم في جنح الطمأنينة والأمان.

ولكن فكر محبوا الحرب والغزو في التحايل على هذه الهدنة التي تعطل نشاطهم فابتدعوا النسيء. الذي هو تحليل أحد الأشهر من الأشهر الحرم. ثم تحريم شهر آخر من أشهر السنة بدلا منه فيؤجلون الشهر كما يشاؤون[٣٣٢].

قال تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه

= السموات والأرض السنة اثنا عشر شهر منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان.). أنظر البخاري، المرجع السابق جـ٦/٨٣.

٣٢٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٠.

٣٢٩ ــ الطبري، تاريخ جـ٢/١٩٩.

٣٣٠ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٣٠.

٣٣١ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١١٤.

٣٣٢ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٤٨، ٤٩.

عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[٣٣٣].

وكان أول من نسأ الشهور على العرب هو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن ملكان بن كنانة[٣٣٤]. وقيل بل كان أولهم حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة بن خزيمة[٣٣٥] وهو القلمس[٣٣٦] ومفاد القولين أن النسيء بدأ في كنانة.

ثم صار النسيء وراثة في بني فقيم حيث قام بعد حذيفة ابنه عباد بن حذيفة ثم قلع بن عباد، ثم أمية بن قلع، ثم عوف بن أمية. وكان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف الذي جاء عليه الإسلام[٣٣٧] وأبطل النسيء كما اتضح من الآية السابقة.

وقيل كان النسيء في كندة قبل كنانة. حيث كان الكنديون ملوك العرب من ربيعة. وكانت كندة من أرداف المقاول. ثم صهر مالك بن كنانة إلى معاوية بن ثور الكندي فانتقل النسيء منهم إلى القلمس من بني فقيم[٣٣٨].

وعلى هذه الرواية يكون مالك بن كنانة أول كناني ينسيء الشهور بعد أن انتقل اليه النسيء من كندة بالمصاهرة.

وأبو ثمامة آخر النسأة وهو جنادة بن عوف[٣٣٩]. وهو القلمس أيضا حيث اتضح أنها كنية يحملها ناسيء الأشهر الحرم[٣٤٠]. وليس باسم شخص فقيل له القلمس لجوده

---

٣٣٣ ــ سورة التوبة آية ٣٧.

٣٣٤ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ١٨٩، الزبيري، المرجع السابق ص ١٣، اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٣٧.

٣٣٥ ــ العسكري، المرجع السابق ص ٤٤؛ ابن هشام،المرجع السابق جـ١/٥.

٣٣٦ ــ القلمس، تعني البحر أو البئر الكثيرة المياه التي لا تنزح. ورجل قلمس كثير الخير والعطاء. ورجل قلمس واسع الخلق، والداهية المنكر البعيد الغور أنظر الزبيدي، المرجع السابق جـ٤/٢٣٣، ابن منظور، المرجع السابق جـ١٥٦٣، ويسمى القلم CALAMUS, QILL أنظر يوسف خياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت ص ٥٥٠، و CALAMUS نبات طيب الرائحة أنظر DIC, OF BIBLE, P.

٣٣٧ ــ ابن هشام، نفس المرجع جـ١/٥٠، ابنن حبيب، المحبر ص ١٥٧، الطبري تاريخ جـ٢/١٩٩.

٣٣٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٢، ١٨٣. الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٣٩.

٣٣٩ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٦٥.

٣٤٠ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ١٨٩، كحالة، معجم قبائل العرب جـ٢/٧٠٦.

حيث أن القلمس من أسماء البحر[٣٤١] وللتعليل فهنالك تشابه بين طبيعة البحر، وطبيعة عمل هؤلاء النسأة مدا، وجزرا.

وكان هؤلاء القلامسة فقهاء العرب الذين يشرعون ويفتون في أمور الدين فهم علماءهم ولهم مكانة روحية بارزة بين العرب[٣٤٢].

وصفة النسيء: أنه بعد فراغ العرب من الحج . يجيتمعون الى القلمس الذي يقف عند جمرة العقبة[٣٤٣]. فيؤكد تحريم الأشهر الحرم (الأزبعة) المعروفة ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، ورجب. فإذا أرادوا تحليل شيئا منها فيعلق لهم تحليل المحرم مثلا. وتحريم صفر بدلا عنه. فحرموه (فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم أني قد أحللت لهم أحد الصفرين، الأول ونسأت الآخر للعام المقبل)[٣٤٤].

وإذا كان لقوم رغبة في شن غارة أو غزوة في شهر المحرم طلبوا من القلمس أن يؤخر المحرم (أي يحله لهم) وهكذا[٣٤٥]. .

أو أنهم يؤخرون الحج عن وقته. وذلك ليتحروا السنة الشمسية وكان مقدار تأخير الحج أحد عشر يوما أو يزيدون فيها قليلا جتى يدور إلى ٣٣ (ثلالاث وثلاثين) سنة فيعود إلى وقته.

وقد اكتملت هذه الدورة يوم حجة الوداع حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم (أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض)[٣٤٦].

ومعنى استدارة الزمان هي تأخير الشهور بفعل النسيء الذي كانوا يمارسونه فتتحول الشهور المحرفة عن أماكنها. وقد وافقت حجة الوداع شهري ذي الحجة الذي هو شهر الحج المشروع وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على ذلك ومداومة اقامة الحج في شهره المعلوم[٣٤٧].

---

٣٤١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١ / ٦٣.

٣٤٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٤ / ٩١ جـ٦ / ٢١٦.

٣٤٣ ــ الزبيدي، المرجع السابق جـ٤ / ٢٣٣.

٣٤٤ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١ / ٥٠

٣٤٥ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٥٧، المسعودي - مروج الذهب جـ٢ / ٣٠، ٣١.

٣٤٦ ــ المسعودي، التنبيه والأشراف ص ٢١٨، السهيلي، المرجع السابق جـ١ / ٦٤، الفاسي، المرجع السابق جـ٢ / ٤٠.

٣٤٧ ــ العامري، عماد الدين يحي بن أبي بكر، بهجة المحافل وبغية الأماثل، بشرح العلامة جمال الدين محمد الأشخر اليمني، سنة ١٣٣١، مصر جـ٢ / ٩٧، ٩٨، الأزرقي، المرجع السابق جـ١ / ١٨٦.

ويدل هذا على أنهم بفعل النسىء كانوا يحجون في جميع أشهر السنة[٣٤٨]. ولكن اقامة الحج في شهر غير ذي الحجة بعيد الحدوث وأنها مبالغة من الاخباريين والرواة حيث أننا نعلم جيدا أن الحج مرتبط بموعده الثابت، والأسواق الموسمية مرتبطة بالحج. وهي تقام في أيام معلومة وخاصة أسواق مكة الثلاث عكاظ ومجنة، وذي المجاز.

وأنهم نسأوا بسبب اختلاف المواقيت بين السنة الشمسية والقمرية[٣٤٩].

والواضح أنهم كانوا ينسأون الشهر الحرام أي يؤخرون المحرم ورجب لظروف طارئة يقتضيها قيام حرب أو غزو فقط وليس قائمة على قاعدة حسابية وليس دائما. أو أن تأخير الحج لشهر آخر ربما وقع في زمن بعيد جدا قبل عهد قريش وقبل انتظام عقد الأسواق. حيث أن تسلسل الأحداث منذ قيام قصي. ومن بعد قيام الأسوق يدعم وجهة نظرنا في الانتظام وثبوت أيام الأسواق وقيامها. وأما تأخير الحج أحد عشر يوما في كل عام. فهو حادث متعاقب إلى يومنا هذا فيقع الحج ورمضان في الصيف لعدة سنوات. ثم يتحول وقوعها إلى الشتاء في سنوات أخر. وهذا خاضع لتعاقب الفصول السنوية (الأربعة). وحساب الشهور القمرية والمعروفة وهي شهور السنة الهجرية.

وقد ذكر أن العرب حرصوا على إقامة الحج في فصل الربيع دائما. اتقاء لحرارة المناخ[٣٥٠].

وقد عملوا بالنسىء من عهد خزاعة وطيلة عهد قريش[٣٥١]. فداموا عليه قرابة قرنين من الزمان أو أكثر قبل ظهور الإسلام. وقد نسأ جنادة بن عوف آخر القلامسة لمدة أربعين عاما (٤٠) ونسأ أمية بن قلع ١١ عاما قبل ذلك ونسأ قلع بن عباد سبعة أعوام قبلهما أي بما يربو على النصف قرن[٣٥٢]. هذا عدا من سبقهم من أجدادهم.

وقيل أن النسيء مقتبس عن اليهود، الذين كانوا يعملون بكبس الأشهر ليعادلوا بين السنة الشمسية وسنة اليهود. ونسأة اليهود من الرؤساء الدينين ولهم الحق في تأخير أو تقديم الشهور، وتعيين مواعيد الصوم. ويعلن النتائج على الطوائف اليهودية عن طريق الوفود. والناسىء في اللغة العبرية اسم شائع لرؤساء القبائل أيضا.

---

٣٤٨ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٢٧٤، ٢٧٥.
٣٤٩ ــ المسعودي، التنبيه والأشراف ص ٢١٧.
٣٥٠ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٣٤٩.
٣٥١ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/ ٦٦.
٣٥٢ ــ ولفنسون، المرجع السابق ص ٨١،٨٢.

وان كان العرب اقتبسوا عمل كبس الشهور عن اليهود. فقد خالفوا طريقتهم والغرض من النسيء نفسه كان مختلفا لدى العرب عنه لدى اليهود كذلك قد أبطل الإسلام النسيء.

الحـــج والعمـــرة :

وهما من أقدم الشعائر الدينية التي مارستها الأمم القديمة. حيث أدى اليونانيون الحج قبل المسيح إلى هيكل ديانا في أفسوس. وفي القرن الثاني ق.م انتقلوا بحجهم إلى معبد منيرفا في أثينا وجوبيتر في أولمبيا. وحج اليابانيون إلى هيكل مشهور في ولاية أسجي. وحج الصينيون إلى معبودهم تيان. كذلك حج الهنود ولا يزالون إلى هيكل جاغرنات وهو ألورا في حيدر أباد.

وحج العرب إلى الكعبة قبل الإسلام بخمسة وعشرين قرنا منذ قيام دعوة ابراهيم عليه السلام. كما ذكرناه آنفنا. وفي غير أيام الحج أدوا العمرة.

وحج اليهود إلى تابوت العهد منذ القرن الرابع عشر ق.م. وكانوا يحجون ثلاث مرات سنويا. وحج النصارى إلى بيت المقدس منذ سنة ٣٠٦م. وهي السنة التي انشأت فيها القديسة هيلانة (أم الأمبراطور قسطنطين) كنيسة القيامة (هي كنيسة القبر المقدس) في القدس (أورشليم)[٣٥٣].

والحج إلى الأراضي المقدسة نظام سامي قديم. فهو من الطقوس الدينية العريقة الرسوخ الذي مارسته الشعوب. وأقرته الأديان السماوية فهو من أعظم الشعائر التي أقرها الإسلام من التراث السابق[٣٥٤]. وأساسه من شعائر عبادة التوحيد دين إبراهيم الحنيف. ولذلك أقره الإسلام بجميع شعائره وطقوسه التي توافق دين إبراهيم. بدءا من ثياب الاحرام التي عرفها العرب وغيرهم من الأمم الأخرى كذلك. ويتكون لباس الاحرام من وشاح، وازار أبيض اللون. واللون الأبيض مرتبط بشعائر دينية ومعبر عنها وهو شعار الحزن لدى بعض العرب ومنهم عرب الحجاز ولبس أهل مكة من قريش ثياب الاحرام. وكرهوها لغيرهم من العرب وكانت قريش تعير ثياب الاحرام لحلفائها. ويشبه لباس الأحرام لباس رجال الدين المنقطعين إلى الآلهة. والمشتغلين في المعابد لدى الأمم الأخرى[٣٥٥].

ومن شعائر حجهم للبيت ـ الاحرام ـ والطواف بالبيت أسبوعا (سبعة أشواط)

---

٣٥٣ ــ البتنوني، المرجع السابق ص ١٥٠، ١٥١.

٣٥٤ ــ حتي، تاريخ ص ١٦٥.

٣٥٥ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٣٧٤.

ومسح الحجر الأسود، والسعي بين الصفا والمروة والتلبية. وكانت تلبية قريش لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك) وكان لكل قبيلة تلبية خاصة بها. وكانت تلبية من نسك للعزى تختلف عمن نسك لغيرها كاللات ومناة مثلا. ومن لا تلبية لـه يستعمل تلبية غيره . وكانت تلبية من نسك للعزى (لبيك اللهم لبيك وسعديك ما أصبنا اليك)[٣٥٦] وتلبية ناسك اللات (لبيك اللهم لبيك لبيك كفى ببيتنا بنية ليس بمهجور ولا بلية، ولكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البرية).

وتلبية نساك جهار (لبيك اللهم لبيك، لبيك أبنا اليك أن سواع طلبن اليك) وكانت تلبية من نسك لشمس (لبيك اللهم لبيك، لبيك ما نهارنا نجره اذلاجه، وحره، وقره. لاتتقي شيئا ولا تضره حجا لرب مستقيم بره)[٣٥٧].

وكانت تلبية كنانة (لبيك اللهم لبيك اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف) وتلبية بني أسد (لبيك اللهم لبيك يارب أقبلت بنو أسد أهل التواني والوفاء والجلد اليك.).

وتلبية تميم (لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك عن تميم قد تراها قد أخلقت أثوابها، وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها).

وتلبية ثقيف (لبيك اللهم، ان ثقيفا قد أتوك وأخلفوا المال وقد رجوك)[٣٥٨] وهكذا كلها تلبيات متشابهة تقريبا وتدل على الاعتراف بالله، وعلى الشرك حيث يذكرون فيها شريكا لله متمثلا في اسم الصنم أو الاعتراف بأن الشريك ملك لله كما في تلبية قريش.

وذكرنا أن سوق عكاظ تقوم في عشرين ليلة من ذي القعدة ثم ينتقلون فيها إلى مجنة يقيمون بها عشر ليال. فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز حيث يقيمون به ثمان ليال. ثم يخرجون يوم التروية إلى عرفة ليترووا بالماء، وذلك يعني أنهم يجلبون الماء الذي يحتاجونه في عرفة والمزدلفة حيث لا ماء بها. ولذلك سمي اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية وهو آخر أيام أسواق مكة[٣٥٩]. ثم يبدأ الحج في التاسع من ذي الحجة.

وكانوا يرون أن أفجر الفجور هو العمرة في أشهر الحج. حيث فرضت قريش على

---

٣٥٦ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣١١.

٣٥٧ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٣١٢.

٣٥٨ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٥ وما بعدها.

٣٥٩ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٧، ١٨٨.

العرب أن يحضروا الأسواق (عكاظ ـ مجنة ـ ذي المجاز) وهم محرمون بالحج ، ويمتنعون عن ارتكاب المحرمات. ويعظمون الاعتداء على بعضهم البعض في الأشهر الحرم[٣٦٠] . ويدل تصرف قريش هذا على ذكاء حتى يضطر الناس للعودة خلال العام لأداء العمرة. فلا ينقطع ارتياد العرب لمكة. وتستمر الحركة، ويزداد الدخل وتروج التجارة.

وكانوا يمارسون رمي الجمرات، حيث يرمون في اليوم الأول من أيام منى (يوم التضحية) جمرة العقبة فقط. وفي اليومين الثاني والثالث يرمون الثلاث جمرات. ويجمعون للرمي حصى صغير الحجم (في حجم حبة حمص) ومجموع الحصى ٤٩ حصاة.

والرجم قديم جدا وله حكمة حيث كان إبراهيم الخليل يذكر الله في تلك البقاع ويستخدم الحصي ليعد التكبيرات التي يذكر الله بها. وقيل أن ابليس ظهر له في موضع الجمرات الثلاث فأخذ يرميه بالحصى ليطرده عن نفسه[٣٦١] .

وعرف النصارى الرجم أيضا. حيث رجموا مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمرا.

والعرب لم يقتصروا في الرجم على الحج فقط بل رجموا كل من سخطوا عليه حيا أو ميتا. فرجموا الزاني. وقد أقرت الشريعة رجم الزاني المحصن كذلك الزانية المحصنة. ورجم العرب قبور من نقموا عليهم مثل قبر أبي رغال في المغمس بين مكة والطائف[٣٦٢] .

وتولى الغوث بن مر، دفع الناس من عرفة. وقلده ملوك كندا منصبه هذا. وقيل أن أم الغوث نذرت (ان ولد لها ولد وغاش تتصدق به وتهبه إلى الكعبة يخدمها ولذلك سمى الغوث وبنوه باسم صوفة)[٣٦٣] .

---

٣٦٠ ـ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٩٢، ابن حبيب، المنمق ص ٢٧٥.

٣٦١ ـ رفعت، المرجع السابق جـ١/١٣٦.

٣٦٢ ـ أبو رغال الذي قاد جيش أبرهة، وقد رجم المسلمون قبر أبي لهب، وقبر أبي جهينة في طريق العمرة لأنه كان من حكام مكة الظالمين. ورجموا قبر يزيد بن معاوية لسوء سيرته. ورجموا قبر مسلم بن عقبة كذلك وهو الذي فتك بأهل المدينة، أنظر البتنوني، المرجع السابق ص ١٩٠، ١٩١

٣٦٣ ـ ويطلق اسم صوفة على كل من خدم البيت وتولى شيئا من أمره بحيث لا يكون من أهل البيت تشبيها بالصوف في اختلاف ألوانه وأطواله، أنظر السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٤٣، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٢٩، ١٣٠.

وقد ورث بنوه من بعده اجازة الناس ثم لما انقرضوا ورثهم من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم. فتولوا أجازة الناس من عرفة. وكان آخرهم الذي جاء الاسلام عليه هو كرب بن صفوان[٣٦٤]. ولا يستطيع أن يجوز أحد من الحاج حتى يجوز آل صفوان.[٣٦٥]

وقد أجاز صوفه بالناس من عرفة منذ عهد خزاعة[٣٦٦]. وقد أقرت قريش لهم ذلك وبقيت الاجازة بيد صوفة الى أن ظهر الإسلام.

وكانت الافاضة من المزدلفة في عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر في زمن قريش. وكانت في آل زيد بن عدوان يتوارثونه الى أن جاء الاسلام والذي تولاه منهم أبو سيارة وهو عميلة بن الأعزل[٣٦٧].

وكان من عادتهم اذا أقاموا بعرفات أن يتفاخروا بآبائهم، وبأفعالهم ويسألون أمور دنياهم[٣٦٨].

وأعتادت قريش ومنذ عهد قصي أن تشعل نار المزدلفة. وقد بنى قصي المشعر بها لتوقد عليه هذه النار فيهتدي بها من أراد النفرة من عرفة إلى مزدلفة. وجعله الله مشعرا وأمر بالوقوف والدعاء عنده[٣٦٩].

ودام اشعال النار في الاسلام أيضا إلى عهد سليمان بن عبد الملك الذي تساءل عندما رآها. فأخبر أن هذه النار من صنع قريش. وأخبر أيضا أن قريشا كانت لا تخرج من الحرم إلى عرفة حيث تقول نحن أهل الله[٣٧٠].

واعتاد العرب الوقوف بعرفات والنفرة منها والشمس مشرقة فيصلون المزدلفة قبل غروبها. ولكن قريشا لا تخرج من المزدلفة ولا تقف بعرفات[٣٧١]. ويدل ذلك على أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة لجميع حجاج العرب. فنحن هنا رأينا أن العرب

---

٣٦٤ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٣١، ٣٢، السهيلي، المرجع السابق جـ١/١٤٤، ابن خلدون، المرجع السابق جـ٢/٣١٧، ٣١٩.

٣٦٥ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٢٠٦.

٣٦٦ ــ المقدسي، المرجع السابق جـ٤/١٢٦.

٣٦٧ ــ ابن هشام، المرجع السابق جـ١/١٣٢. الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٦.

٣٦٨ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٣٣.

٣٦٩ ــ ابن حبيب، المحبر ص ٢٣٦، الطبري، تاريخ جـ٢/١٨٨.

٣٧٠ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/١٩١.

٣٧١ ــ ابن حبيب المحبر ص ٣١٩.

تقف بعرفات بينما قريش تترك ذلك. واتخذت لنفسها موقفا خاصا بها. وعينت مواقف أخرى لغيرها من العرب[٣٧٢].

ونستنتج من ذلك أن اجازة تميم للناس بالافاضة إلى المزدلفة تشمل جميع الحجاج العرب ماعدا قريش. وما دخل في حكمها من حلفائها وأبناء بناتها وكل من شارك قريشا في التحمس. فقريش إذا غير خاضعة لاجازة تميم بالافاضة لأنها لا تقف بعرفات أصلا. وانما لها موقفها الخاص في المزدلفة فقط. أي أن تميما لا تمنح قريشا الاجازة ولا تتحكم فيها. وانما تجيز تميم لسائر الناس من عامة حاج العرب.

واعتادت قريش بعد الفراغ من الحج أن ينزلوا شعب الصفى أو صفى السباسب وهو موضع استراحة لقريش. يبيتون فيه ويتفاخرون بمفاخرهم في الجاهلية. وهو الشعب المعروف حاليا باسم خيف بني كنانة وقد نهى الإسلام عن ذلك[٣٧٣].

التحمس[٣٧٤] :

رأت قريش تعظيم الناس لها فارتأت أن تزيد من ذلك التعظيم وتلك المكانة فقررت ابتداع التحمس وذلك بعد عام الفيل لما كان لهذه الحادثة بذاتها من أثر عميق زاد في اعلاء شأن قريش حتى كناهم العرب باسم أهل الله[٣٧٥]. وقررت قريش التحمس الذي يفرض على قريش ألا تعظم شيئا من الحل مثل تعظيمها للحرم. فتركوا الوقوف بعرفة والأفاضة منها. مع اقرارهم واعترافهم أن عرفة من المشاعر، والوقوف بها من أركان الحج الذي دعى اليه إبراهيم الخليل. فتركوا ذلك للعرب وقالوا: (نحن أهل الحرم فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا أن نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس، والحمس أهل الحرم. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من الحل والحرم مثل الذي عليهم. وكانت كنانة وخزاعة وبنو عامر بن صعصعة قد دخولوا معهم في ذلك كله الا بكر بن عبد مناة)[٣٧٦].

أي أرادت قريش أن تظهر تعصبها للمكان الذي هو أرض الحرم، ولو كان في ذلك

---

٣٧٢ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/٣٥٣.

٣٧٣ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ٢/٢٧٣

٣٧٤ ــ الحمس: جمع أحمس، وهو البين الحماسة. وسميت قريش بذلك لتحمسهم في دينهم وهو تصلبهم، أنظر ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٢٠١، حاشية ٤.

٣٧٥ ــ ابن الأثير، الكامل جـ١/٢٦٦.

٣٧٦ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٤٣، ١٤٤، ابن هشام، نفس المرجع جـ١/٢٠١، ٢٠٢، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٧٦، ١٧٧.

عدم اتمام لمشاعر الحج وتقصير عنها. وداموا على ذلك إلى ظهور الإسلام وتشريع سنن الحج[٣٧٧].

وليس ذلك وحسب بل ان قريشا أرادت بذلك تمييز نفسها عن سائر العرب، وأظهرت هذا التمييز في عدة نواحي أهمها ترك الوقوف بعرفة، واتخاذ القباب الحمراء (بيوت الأدم الحمراء)[٣٧٨]. وغير ذلك مما أستنته وابتدعته مثل أنه لا ينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن، وهم حرم ولايدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا بغير الأدم. وعلى أهل الحل عدم جلب أطعمة لهم من الحل إلى الحرم إذا قدموا مكة للحج والعمرة[٣٧٩].

وفي هذا ترويج لبضائع تجار مكة، واستغلال واضح للحجاج الوافدين في المواسم إلى مكة.

وإذا كان ظهور التحمس بعد الفيل فيدل على أنه مبدأ جديد فرضته الحنكة السياسية والتجارية. فقد ابتدعوا التحمس لزيادة التشدد في الدين والتميز به عن غيرهم من الأعراب. وابتدعوا ترك الوقوف بعرفة كذلك بهدف حفظ الأمن فيكونون على يقظة من أمرهم، ومجتمعين في منازلهم لا يبرحونها ليحذروا أي هجوم عليهم. فعزموا على البقاء في قباب الأدم الخاصة بهم كفرق الحرس متيقظين متأهبين. (مرابطين للحراسة) فقط والتخلي عن غيرها من أعمالهم الأخرى.

ولربما أن حادثة الفيل كانت بمثابة جرس الإنذار الذي نبههم إلى الخطر وأوحى لهم بالمرابطة كفرق الجنود الحديثة التي ترابط في أوقات الخطر. وقد خشوا على بلدهم من تجمع العرب الكبير في أيام الحج فلذلك فرضوا على أنفسهم هذا التحمس. ثم بعد نزول الناس من عرفة إلى منى ينزل القرشيون في قبابهم، متميزين بها عن غيرهم. وليكونوا علما بين تلك الجموع تعرف به بيوت سادة قريش ورؤسائها من أولى أمر مكة فيقصد اليهم ذوو الحاجات، ويتعرف عليهم الوافدون.

ثم فرضوا على العرب الوافدين لأول مرة الى مكة إلا يطوفوا الا في ثياب الحمس كراء أو إعارة. أو يطوفون عراة أو في ثيابهم التي جاءوا بها من الحل. ثم عليهم أن يلقوها بعد فراغهم من الطواف ولا ينتفع بها وتسمى (اللقي). ودانت العرب لهم بكل ذلك.

---

٣٧٧ ــ مهران، الديانة العربية ص ٤٢٥، ٤٢٦.
٣٧٨ ــ جواد علي، المرجع السابق جـ٦/ ٣٧٠.
٣٧٩ ــ جواد علي، نفس المرجع جـ٦/٣٦٧.

وطاف بعض الرجال عراة الا النساء فانهن يضعن ثيابهن الا درعا لها تطوف به[٣٨٠].

وابتدعوا في التحمس أمورا أخرى مثل أنهم. إذا أحرموا لـم يدخروا لبنا ولم يحولوا بين مرضعة ورضيعها حتى يعافه. ولا يحلقون شعرا ولا يجزون ظفرا. ولا يلبسون في احرامهم وبرا ولا صوفا، ولا شعرا ولا يتطيبون، ولا يتدهنون، ولا يمسون النساء ثم يلبسون ثيابا جديدة. ويتركون أكل اللحم. ويطوفون بالبيت في نعالهم[٣٨١]. إلى أن استن الوليد بن المغيرة خلع النعل عند دخول البيت والطواف[٣٨٢].

ونستنتج أن الحمس هم أهل مكة من قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ممن ولدته قريش. وحلفائهم ولو كان هؤلاء الحلفاء من سكان الحل، وليس من سكان الحرم.

وكانت قريش تشترط عند تزويج بناتها إلى غير القرشيين أن يصير كل أولاد بناتها من الحمس. فيدخل الأولاد مع أمهم في التحمس[٣٨٣].

ومن أبناء القرشيات الذين دخلوا في التحمس من قيس: كلاب، وكعب وعامر وكليب بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر فهي التي أدخلتهم في التحمس[٣٨٤].

وتحمس الحارث بن عبد مناة بن كنانة، ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة. وعامر بن عبد مناة بن كنانة، ومالك وملكان ابنا كنانة. وثقيف، وعدوان، ويربوع بن حنظلة. ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم. وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر. ويقال أن بني عامر كلهم حمس لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر. وعلاف وهو ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وخباب بن هبل بن عبد الله من كلب، وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر[٣٨٥].

ويطوف كل الحمس بثيابهم الكـاملة الا ما ذكـرنـاه من أمر غيرهم من الحجاج

---

٣٨٠ ــ ابن حبيب، المنمق ص ١٤٤ وما بعدها، ابن هشام، المرجع السابق جـ١/٢٠٤، ٢٠٥، ابن سعـد، المرجع السابق جـ١/٧٢، الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٧٧، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٤١.

٣٨١ ــ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٦.

٣٨٢ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٧٩.

٣٨٣ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٤٨٦.

٣٨٤ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٧٨، ١٧٩.

٣٨٥ ــ الأزرقي، نفس المرجع جـ١/١٧٧، ١٧٨.

الصرورة منهم فقط أي من يحج البيت أو يعتمر لأول مرة[٣٨٦]. ولعل الصرورة هو الذي تعرفه العامة من أهل مكة وجدة باسم (السرارة) وهو الذي يحج، أو يزور المدينة المنورة من الأطفال لأول مرة فيقيمون له حفلة (شعبية بسيطة) توزع فيها الهدايا من المكسرات (حمص ولوز) وبعض الحلوى. وتخلط معها بعض قطع النقد المعدنية أو الفضية أو الذهبية بحسب مقدرة أهل الطفل المحتفى به. ولذلك يكون المدعوون من الأطفال وأفراد العائلة المقربين.

وتحمست النساء القرشيات أيضا. واتخذن لتحمسهن شعائر وعلامات مناسبة لطبيعة المرأة. فالأحمسيات لا ينسجن، ولا يغزلن، ولا يسلئن السمن[٣٨٧].

وكان النساء من غير القرشيات ينذرن تحميس أبنائهن فهذه سلمى بنت ضبيعة، زوجة منصور بن عكرمة من قيس عيلان تلد ابنها هوازن الذي عانى مرضا شديدا. فنذرت سلمى ان برأ ابنها لتحمسنه وأوفت بنذرها فعلا فحمسته[٣٨٨].

وتدخل المرأة في دين الحمس عندما تتزوج رجلا قرشيا. وذلك أن ضباعة بنت عامر عندما تزوجت عبد الله بن جدعان ولما طلبت منه الطلاق لتتزوج هشام بن المغيرة. هددها ابن جدعان بأن يجعلها تطوف بالبيت عارية وأن تنحر من الابل وتغزل الوبر بين أخشبي مكة. وهذه الأعمال لا تؤديها الأحمسيات. فساعدها هشام على تلافي تلك المطالب ووفي عنها بعضها، فنحر الابل عنها. وأخلى المسجد قبل الفجر فطافت ضباعة في ظلمة الليل وأعفاها من غزل الوبر بأن قال لها. هذا دين وضعه نفر من قريش ولم يأمر به نبي مرسل. وتزوجته[٣٨٩].

وتمثل فكرة الحمس اقرار بحق المواطنة في مكة أو بالانتماء لأرض الحرم. وليس تعصبا للدين فقط كما يدل المعنى اللفظي لكلمة التحمس[٣٩٠]. بل ويتضمن التمييز الواضح لكل قرشي، أو منتسب لقريش بنسب أو بحلف.

وأما بعض الأمور الأخرى التي ابتدعتها قريش المتعلقة بتأجير الملابس والحظر على جلب الأطعمة فإن الهدف منها هو العامل الاقتصادي البحت حتى يتمكن التجار

---

٣٨٦ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٩٩.
٣٨٧ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/٢٩٩.
٣٨٨ ــ الأزرقي، المرجع السابق جـ١/١٨٠.
٣٨٩ ــ ابن حبيب، المنمق ص ٢٧٠، ٢٧٢.
٣٩٠ ــ الشريف، دور الحجاز ص ٣٢.

القرشيون من تسويق بضائعهم والمحافظة على صحة البيئة بمنع جلب الأطعمة.

تحدثنا عن التحمس وأولئك أهله من الحمس وهنالك طائفتان أخرتان عرفتا أيضا : هما الحلة والطلس.

الحلـــــة :

وهم جميع العرب ما عدا الحمس. فهم الذين يطوفون في ثياب الحمس اعارة أو اجارة كما ذكرناه. أو يطوفون عراة. ويرمزون بذلك إلى طرح الثياب التي اقترفوا فيها الأثام والذنوب.

ويحـرم الحلة الصيد في النسك فقط ويبحونه في غير أرض الحرم. ويتواصلون في النسـك. ويسـلأ فقراؤهـم السمن. ويجزون الأصواف والأوبار والشعر ولا يلبسون جديدا. ولا يدخلون البيوت ولا يأويهم ظل ما دامـوا محرمين. ويدهنون، ويأكلون اللحم، ويخلعون نعالهم عند دخول البيت والطواف به. وكان لكل رجل من الحلة حرمى من الحمس يأخذ ثيابه ليطوف بها اما استعارة أو بأجرة. ويمتنعون عن البيع والشراء الى أن يعودوا إلى بلادهم[٣٩١].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم حرمى عياض بن حمار المجاشعي. فإذا قدم مكة طاف في ثياب النبي صلى الله عليه وسلم[٣٩٢].

ويخـرج الحلة إلى عرفات دون الأنصاب فيها قبل العشاء ويذهبون آخر الليل إلى عرج. ولا يسعى الحلة بين الصفا والمروة ماعدا خندف[٣٩٣].

وقد خالف محمد صلى الله عليه وسلم جميع الحمس. ووقف بعرفات ليقينه الكامل بأنها من مشاعر الحج وذلك قبل الإسلام والذي أمر بذلك أيضا[٣٩٤].

ونستنتج من ذلك تحمس قريش كلها ومن معها ولذلك أدهش تصرف النبي صلى الله عليه وسلم الرواة كلهم وسجلوها كحادثة فريدة مميزة.

وقبـائـل الحلة هم تميم بن مر كلها ما عدا يربوع ومازن وضبة، وحميس وظاعنة

---

٣٩١ ــ ابن حبيب، المحبر ص ١٨٠، ١٨١.

٣٩٢ ــ ابن حزم، المرجع السابق ص ٢٣١.

٣٩٣ ــ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٤٢.

٣٩٤ ــ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٣٤، المرجع السابق جـ٢/١٩٥، الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٢

والغوث بن مر . وقيس عيلان بأسرها ما عدا ثقيف، وعدوان وعامر بن صعصعة. وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافا وجنا. والأنصار وخثعم وبجيلة. وبكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة. وأسد وطيء وبارق[٣٩٥]. ومزينة والرباب وعكل وثور[٣٩٦].

الطلـــــس :

وهم طائفة ليست من الحلة ولا من الحمس، (يأتون من أقصى اليمن طلسا من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الثياب الطلس)[٣٩٧].

ومع أهل اليمن، أهل حضرموت وعك، وعجيب وأياد بن نزار. ويقف الطلس وسطا بين الحلة والحمس. فهم يحرمون مثل الحلة ولكنهم يدخلون البيت ويطوفون في ثيابهم مثل الحمس أي أنهم لا يتعرون حول الكعبة. ولا يستأجرون أو يستعيرون ثياب الحمس. ويدخلون البيوت من أبوابها ولا يئدون بناتهم. ولكن يقفون مع الحلة في عرفات[٣٩٨].

وبمجيء الإسلام أمر الله جميع الناس بالوقوف في عرفات بل جعل (الحج عرفة) أي أن الوقوف بها من أهم أركان الحج. ثم نزل الأمر بإباحة البيع والشراء في الحج وكانوا يجتنبونه قبلا[٣٩٩].

ويتفق تقسيم الحاج الى حلة وحمس وطلس. مع تقسيم القبائل العربية عامة إلى محرمين ـ وحلة ـ وذادة كما مر بنا وكان الحلة أكثر خطرا على مكة من غيرهم في أيام الحج وفي غيرها من الأيام[٤٠٠]. ولكن نعتقد أن جميع العرب قد احترموا حرمة الحرم. ومكة خاصة وان استباحوا حرمة الشهر فلم يستبيحوا قط حرمة الحرم.

---

٣٩٥ ـ إبن حبيب، المحبر ص ١٧٩.
٣٩٦ ـ اليعقوبي، المرجع السابق جـ١/٢٥٧.
٣٩٧ ـ السهيلي، المرجع السابق جـ١/٢٣١.
٣٩٨ ـ ابن حبيب، المحبر ص ١٨١.
٣٩٩ ـ الفاسي، المرجع السابق جـ٢/٢٨٢.
٤٠٠ ـ كستر، المرجع السابق ص ٢٥.

الخاتمــــة

استعرضنا في بحثنا هذا أحوال جزيرة العرب الجغرافية بصورة مجملة ومختصرة جدا. ثم فصلنا بعض الشيء عن مكة المكرمة جغرافيا وتاريخيا حيث أنها ميدان البحث، والأرض التي عاشت عليها قبيلة قريش ذات الشأن الذي دار عليه البحث أيضا.

فتعرفنا على طبيعة مكة وموقعها ثم أدركنا أنها مدينة عربية عريقة ومقدسة منذ نشأتها. وبناء الكعبة المعظمة فيها قد أعطاها التميز على غيرها من المدن. ولكن التدوين التاريخي لهذه البلدة المعظمة جاء متأخرا كثيرا عنها، وليس بين أيدينا نصوص مدونة لتاريخها القديم جدا بل ظهر التدوين عنها مشتتا في كتب الكلاسيكين منذ القرن الثاني الميلادي. وفي الكتب الإسلامية ظهر ذكرها متأخرا أيضا حيث بدأ منذ القرن الخامس الميلادي. ثم ذكرنا المدن المحيطة بمكة وذات الصلة بها وهي المدينة المنورة والطائف وجدة.

وكانت هذه المقدمة، هي التي نفذنا منها إلى صلب موضوع بحثنا. فاستعرضنا الجوانب المعيشية التي مارسها القرشيون في حياتهم في مكة. وتعرفنا إلى المجتمع المكي بأكمله فاستنتجنا حقائقا ومعلومات وافرة عن قبيلة قريش التي وجدنا أنها كانت تشكل قوام المجتمع المكي. فكان القرشيون هم سكان قلب وادي مكة (الأبطح) وهم أول من نزل حول الكعبة المعظمة وبنوا بيوتهم حولها حتى امتلأ بهم الوادي. وأن من عداهم من قريش الظواهر وخزاعة والأحابيش سكنوا خارج مكة في شعابها وعلى جبالها.

وبقيام المجتمع القرشي تمثلت كل المظاهر الاجتماعية والعمرانية بصدق وحيوية. حيث مارس المجتمع كل الأنماط االسلوكية الاجتماعية. وقد ظهرت لهم مجموعة من العادات والتقاليد التي ميزتهم عن غيرهم

دخلت قريش الى مكة تحت زعامة قصي بن كلاب، الذي أسس حكومة الملأ القرشي ومقرها دار الندوة. ونعمت قريش بالهدوء السياسي والأمن التام. الذي هو أهم منجزات قريش في مكة. وتحقق ذلك بفضل قوة زعيمهم ومجمعهم قصي. والتزم القرشيون بالحياد ومع جميع الأمم التي تعاملوا معها.

وبعد ذلك أضاف كل زعيم تحسينات جديدة كما فعل عبد مناف بن قصي الذي سار على خطة أبيه وأضاف خطة جديدة لتوسيع رقعة البناء في الوادي. وعقد الأحلاف مع الأحابيش لتدعيم سياسة مكة.

ثم قام هاشم بن عبد مناف بمتابعة المسيرة ولكنه طرق المجال الاقتصادي لأنه أدرك أن أقتصاد مكة بحاجة إلى دعم جاد فعمل على تنمية المورد الاقتصادي عن طريق التجارة التي رأى أنه لابد من تدعيمها وتنظيم سيرها فعقد هاشم مع اخوته عقود الايلاف مع الأمم المجاورة. ونظم التجارة في رحلتي الشتاء والصيف. وأقر مشاركة الفقير مع الغني في هذه الرحلات حتى غدت تجارة القوافل أبرز عوامل الاقتصاد لحكومة الملأ وللمجتمع القرشي في مكة اضافة إلى موسم الحج.

وانتظم قيام أسواق مكة الموسمية وهي سوق عكاظ، والمجنة، وذي المجاز، وانتظم ارتياد القرشيين لأسواق الجزيرة الأخرى. وقد لاحظنا أن جميع الأسواق الموسمية التي تقوم داخل الجزيرة تدوم لمدة محدودة تتراوح بين العشرة إلى العشرين يوما فقط.

ونظرا للانتعاش الاقتصادي فقد حرص القرشيون على خدمة الحجاج واهتموا بسدانة الحرم وحجابته، وعمارته. وابتدعوا الرفادة، واهتموا بسقاية الحاج.

وتوزعوا الوظائف المتعلقة بالكعبة والحرم وخدمة الحجاج. وتابع عبد المطلب بن هاشم الاهتمام بأمور قريش السياسية والاقتصادية والدينية. بل قام بعمل جليل عندما أعاد حفر بئر زمزم وأجرى مياهها مرة أخرى. مما كان له عظيم الأثر في تحسين موارد المياه داخل الحرم وبجوار الكعبة المعظمة. ومما كان له الأثر البالغ في تدعيم زعامة عبد المطلب الدينية. ومما شجع على توجيه الاهتمام إلى الدين ان أفراد المجتمع قد استقروا ماديا وأمنيا. فألحت الروح على الاشباع مما ضاعف الاهتمام بشؤون الحرم والحج على الوجه الأكمل. فاهتموا بسدانة الحرم وحجابته. وداومت قريش على الرفادة لاطعام الحاج واهتمت بالسقاية. وقد وضعت قريش صنما لكل قبيلة في جوف الكعبة. وأنها عظمت تلك الأصنام مجاملة لأهلها. وعظم جميع العرب كعبة مكة ومعظم أصنام قريش.

واشترعت قريش نظام التحمس لتمييز نفسها وكل من انتسب اليها. ثم يكفي قريش فخرا وحدتها التي حققتها في زمن الحرب والغزو وحافظت عليها ولم يعترها وهن ولا ضعف. وقد التزمت الحياد التام.

وأما ما اعترى قريش من فوضى واضطراب أيام البعثة النبوية فقد كان نذيرا لها بنهاية زعامتها الجاهلية. وهذا ناموس الدولة أو المدينة حيث تمر بفترة نمو وشباب ثم هرم وانهيار. وبالنسبة لقريش فقد اختلف الوضع لأنها كانت فترة عارضة طارئة عصفت بهم. ثم أفاقوا عندما هداهم الله بالإسلام يوم فتح مكة في السنة ٨هـ حوالي ٦٣٠م وعادوا إلى الاتحاد، والالتحام، والانضواء تحت راية الإسلام بدلا من راية الملأ القرشي فقط. فكانت الراية الإسلامية الجديدة أعم وأشمل.

وحسبنا في هذا البحث أن قد جمعنا مادة تاريخية ضافية عن قبيلة قريش وصغناها في قالب بحثنا ليكون وثيقة جمعت الشتات المتناثر عن القبيلة العظيمة وأعمالها الفاضلة.

مصادر البحث ومراجعه

١ ــ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، طبع على ذمة جمعية المعارف، ١٢٨٠ ، ١٢٨٦هـ.
٢ ــ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية بيروت، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
٣ ــ ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة ١٣٨٦ ، ١٩٦٦م.
٤ ــ ابن بكار، الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، شرحه وحققه محمود محمد شاكر، بيروت ١٩٨١م.
٥ ــ ابن بليهد، محمد بن عبد الله، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
٦ ــ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، بيروت ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
٧ ــ ابن الجوزي، الامام عبد الرحمن ، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، القاهرة ١٩٨٥م.
٨ ــ ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية، كتاب المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح أيلزة لنجتن شتيتر، بيروت. د.ت.
٩ ــ ابن حبيب، كتاب المنمق في أخبار قريش، تصحيح وتعليق خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
١٠ ــ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٩٧٧م.
١١ ــ ابن حوقل، أبو القاسم ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ١٩٧٩م.
١٢ ــ ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، بيروت ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات د.ت.
١٣ ــ ابن خميس، عبد الله بن محمد، المجاز بين اليمامة والحجاز، الرياض دار اليمامة. د.ت.
١٤ ــ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، كتاب الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، طبعة ثانية بغداد، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
١٥ ــ ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م.
١٦ ــ ابن سلام، محمد، طبقات فحول الشعراء، باعتناء محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٧٤م.
١٧ ــ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد تحقيق سعيد العريان، دار الفكر، ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م.
١٨ ــ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي الدمشقي، أخبار النساء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٧٣م.

١٩ ـ ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، حققه وعلق عليه عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٩٨هـ، ١٩٣٢م.
٢٠ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا أسماعيل بن عمرو، البداية والنهاية، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م.
٢١ ـ ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب بن بشر، كتاب الأصنام، الطبعة الثانية القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة ١٩٢٤م.
٢٢ ـ ابن الكلبي، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، ١٩٤٦م.
٢٣ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.
٢٤ ـ ابن النديم، محمد ابن اسحق، كتاب الفهرست، بيروت ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
٢٥ ـ ابن هشام، ابو محمد عبد الملك، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، راجعه وعلق عليه محمد هراس، القاهرة مكتبة الجمهورية. د.ت.
٢٦ ـ أبو طاهر، الامام أبو الفضل أحمد، كتاب بلاغات النساء، صححه وشرحه أحمد الألفي، القاهرة١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.
٢٧ ـ أبو العلا، محمود طـه، جغرافية شبه جزيرة العرب، الطبعة الأولى القاهرة، ١٩٦٥م.
٢٨ ـ أبو الفدا، اسماعيل، تاريخ أبي الفدا، القاهرة. د.ت.
٢٩ ـ أرسلان، الأمير شكيب، الإرتسامات اللطاف، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٥٠م.
٣٠ ـ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس. د.ت.
٣١ ـ الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، طبع القاهرة، ١٩٦٩م.
٣٢ ـ الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة الخامسة القاهرة، ١٩٧٨م.
٣٣ ـ الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني أشرفت على ضبطه وتصحيحه لجنة من الأدباء والمدرسين، طبعات مختلفة، القاهرة، ١٩٥٥م الجزء ٣-٤، ١٩٥٦م.
٣٤ ـ الأصفهـاني، الحسن بن عبد الله، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، ساعد المجمع العلمي العراقي عل نشر هذا الكتاب الطبعة الأولى، الرياض، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٣٥ ـ الأصمعي، محمد عبد الجواد، العرب وأطوارهم، طور العرب والعربية في أطوار الجاهلية، الطبعة الأولى القاهرة، د.ت.
٣٦ ـ الأفغاني، سعيد، الاسلام والمرأة، الطبعة الثانية دمشق، ١٩٦٤م.
٣٧ ـ الأفغاني، أسواق العرب، الطبعة الثانية دمشق، ١٩٦٠م
٣٨ ـ الألوري، آدم عبد الله، الأسلام وتقاليد الجاهلية، القاهرة ١٩٧٧.

٣٩ ــ الألوسي، محمود شاكر، المختار من كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، اختيار محمد خالد الصحفي، مراجعة عبد الحميد يونس، القاهرة، دار المعرفة. د.ت.
٤٠ ــ أمين، أحمد، فجر الأسلام، الطبعة السابعة القاهرة، ١٩٥٩م.
٤١ ــ الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الأسلام في المملكة العربية السعودية الرياض، ١٣٧٧هـ، ١٤٠٢.
٤٢ ــ الأنصاري، عبد القدوس، آثار المدينة المنورة، الطبعة الثانية المدينة المنورة، ١٣٧٨هـ.
٤٣ ــ الأنصاري، عبد القدوس، كتاب تاريخ مدينة جدة، الطبعة الأولى جدة، ١٨٨٣هـ، ١٣٦٣م.
٤٤ ــ الأنصاري، عبد القدوس، «الجزيرة العربية في رحلتي ابن جبير والعبدري»، مصادر تاريخ الجزيرة، الجزء الثاني، جامعة الرياض ١٣٩٩هـ.
٤٥ ــ أنيس، إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية القاهرة، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
٤٦ ــ باسلامة، حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الطبعة الثالثة جدة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٤٧ ــ البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٢٩هـ.
٤٨ ــ البخاري، أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل، صحيح البخاري، مكة المكرمة، طبعة قديمة، مكتبة ومطبعة دارالتعاون. د.ت.
٤٩ ــ براون، ادوارد، الطب العربي، ترجمة أحمد شوقي حسن ومحمد عبد الحليم العقبي، القاهرة، مؤسسة الرعب ١٩٦٩م.
٥٠ ــ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة الرابعة بيروت، ١٩٦٥م.
٥١ ــ البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، بيروت، ١٩٧٧م.
٥٢ ــ البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية، الطبعة الأولى مصر، ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.
٥٣ ــ البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م.
٥٤ ــ البلادي، عاتق بن غيث، معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الأولى مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٥٥ ــ البلاذري، أحمد بن يحي، أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، مصر، اخراج معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية بالأشتراك مع دار المعارف ١٩٥٩م.
٥٦ ــ بندقجي، حسين حمزة، أطلس الحج الى بيت الله الحرام، قسم الجغرافيا جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى مصر، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
٥٧ ــ التجيبي، أبو يحي محمد بن صمادح، مختصر من تفسير الامام الطبري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩٠هـ، ١٩٧١م.
٥٨ ــ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٥٩ ــ جاد المولى، محمد أحمد، وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، أيام العرب في الجاهلية، مصر ١٩٦١م.
٦٠ ــ الجاسر ، حمد ، في شمال غرب الجزيرة، الطبعة الأولى الرياض، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.
٦١ ــ الجاسر ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، الرياض، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.
٦٢ ــ الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، الرياض، منشورات دار اليمامة ١٣٨٦هـ.
٦٣ ــ جوهر، حسن محمد ومحمد حسيب عباس ويوسف محمد بدوي ومحمد صلاح الدين باقر، جغرافية آسيا واستراليشيا ، مصر الناشر مكتة الآداب الجماميز. د.ت.
٦٤ ــ حافظ، علي، سوق عكاظ، الطبعة الأولى الرياض، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.
٦٥ ــ حتة، محمد كامل، في ظلال الحرمين، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٨م.
٦٦ ــ حتي، فيليب خوري ، تاريخ العرب، نقله إلى اللغة العربية محمد مبروك نافع، الطبعة الثانية بيروت، ١٩٥٣م.
٦٧ ــ حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة مصر، ١٩٦٤م.
٦٨ ــ حسين ، طه، إسلاميات (مرآة الأسلام، على هامش السيرة)، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٦٧م.
٦٩ ــ حمزة، فؤاد، قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية الرياض، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٧٠ ــ حمور ، عرفان محمد ، أسواق العرب ، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٧٩م.
٧١ ــ الحموي، الامام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت عبد الله، معجم البلدان، بيروت ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
٧٢ ــ حوراني ، جورج فاضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بك ، القاهرة ١٩٥٨م.
٧٣ ــ الحوفي، أحمد محمد، المرأة في الشعر الجاهلي، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٦٣م.
٧٤ ــ خياط ، يوسف معجم المصطلحات العلمية والفنية، بيروت دار لسان العرب . د . ت
٧٥ ــ الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، تخريج الدارمي وتصحيحه وتحقيقه، السيد عبد الله هاشم يماني المدني، المدينة المنورة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.
٧٦ ــ الدناصوري، جمال الدين، موارد المياه في الوطن العربي، القاهرة ١٩٧١م.
٧٧ ــ الدوري، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، الطبعة الثانية بيروت، ١٩٦٠م.
٧٨ ــ الدينوري، أحمد بن داود، كتاب الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشال بغداد، إعادة إصدار طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.
٧٩ ــ الرازي ، الامام الفخر ، التفسير الكبير ، طهران، الطبعة الثانية الناشر دار الكتب العلمية. د . ت .
٨٠ ــ رجب ، عمر الفاروق السيد ، الحجاز ، جدة. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
٨١ ــ الرفاعي، أنور، تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني، دمشق ١٩٧١م
٨٢ ــ رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٤٤هـ، ١٩٢٥م.

٨٣ ــ الريحاني، أمين، نجد وملحقاته، الطبعة الثالثة بيروت، ١٩٦٤م،
٨٤ ــ الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، الكويت ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.
٨٥ ــ الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب، كتاب نسب قريش، عني بنشره لأول مرة ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٧٦م.
٨٦ ــ زيدان، إبراهيم، نوادر الكرام في الجاهلية والإسلام، مصر ١٨٩٩م.
٨٧ ــ زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٩م.
٨٨ ــ سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، بيروت، ١٩٧١م.
٨٩ ــ السدوسي، مؤرج بن عمرو، كتاب حذف من نسب قريش، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٦.
٩٠ ــ السمهودي، نور الدين علي بن أحمد المصري، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.
٩١ ــ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، القاهرة ١٣٩١هـ، ١٩٧١.
٩٢ ــ سيديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٩م.
٩٣ ــ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر وجلال الدين محمد بن أحمد المحلى، تفسير الجلالين، بيروت، د. ت
٩٤ ــ شاكر، محمود، جغرافية البيئات، بيروت، ١٣٩٨، ١٩٧٨م.
٩٥ ــ شاكر، شبه جزيرة العرب، الحجاز الطبعة الأولى دمشق، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٩٦ ــ الشامي، صلاح الدين علي، وفؤاد محمد الصقار، جغرافية الوطن العربي الكبير، طبعة ثانية منقحة الاسكندرية، ١٩٧٢م.
٩٧ ــ شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، الطبعة الثالثة الرياض، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م
٩٨ ــ الشريف، أحمد إبراهيم، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، الطبعة الأولى القاهرة، ١٩٦٨م.
٩٩ ــ الشريف، مكة والمدينة في عهد الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة ١٩٦٧م.
١٠٠ ــ شلبي، أحمد، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٩٦٦م.
١٠١ ــ صادق، دولت، وجمال الدين الدناصوري، جغرافية العالم، الجزء الأول، دولت أحمد صادق، القاهرة ١٩٧٠م.
١٠٢ ــ الصياد، محمد محمود، معالم جغرافية الوطن العربي، بيروت ١٩٧٠م.
١٠٣ ــ ضيف، شوقي، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، الطبعة الرابعة منقحة القاهرة، ١٩٧٩م.
١٠٤ ــ ضيف، العصر الجاهلي، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٧٧م.
١٠٥ ــ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت دار الفكر د. ت.
١٠٦ ــ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.
١٠٧ ــ العامري، عماد الدين بن أبي بكر، بهجة المحافل وبغية الأماثل، شرح العلامة جمال الدين محد الأشخر اليمني، مصر طبع ١٣٣١هـ.

١٠٨ ــ عبد الجبار، عبد الله ومحمد عبد المنعم خفاجي ، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ، القاهرة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٠٩ ــ عبد الحميد، سعد زغلول، في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٦م.

١١٠ ــ العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، الاصابة في تمييز الصحابة، تحقيق طه الزيني ، القاهرة طبعات مختلفة، الجزء الأول وغيره ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨، الجزء الثالث عشر ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

١١١ ــ العسكري، أبو هلال، الأوائل تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، الناشر أسعد طرابزوني الحسين، ١٩٨٥هـ، ١٩٦٦م.

١١٢ ــ العصامي، عبد الملك بن حسن بن عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة ١٣٧٩هـ.

١١٣ ــ العطار، محي الدين، كتاب بلوغ الأرب في مآثر العرب، لبنان ١٣١٩هـ.

١١٤ ــ العظم، رفيق، أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٧٢م.

١١٥ ــ العقاد، عباس محمود، عبقرية الصديق، مصر ١٩٦١م.

١١٦ ــ العقاد، عبقرية عمر، مصر ، الطبعة السادسة. ١٩٦٠م.

١١٧ ــ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الأجزاء ٢ـ٦ الطبعة الأولى ١٩٧٠م، الأجزاء ١ـ٧ـ٨ الطبعة الثانية ١٩٧١م، الجزء ٩ سنة ١٩٧٢م. بيروت.

١١٨ ــ عوض الله، السيد أحمد أبو الفضل، مكة في عصر ماقبل الإسلام، الطبعة الأولى، الرياض، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

١١٩ ــ الغنيم، عبد الله يوسف، أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، الكويت ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٢٠ ــ الفاسي ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد علي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، القاهرة ١٩٥٦م.

١٢١ ــ الفاكهي ، أبو عبد الله محمد بن أسحاق، كتاب المنتقى في أخبار أم القرى، وهي منتخبات. وهو الجزء الثاني من كتاب أخبار مكة المشرفة والجزء الثالث وهو كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام تأليف الشيخ قطب الدين النهروالي ١٢٧٤هـ، ١٢٧٥هـ، مدينة غتنغة.

١٢٢ ــ فرج، محمد ، شخصيات عسكرية اسلامية، الطبعة الثانية القاهرة، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.

١٢٣ ــ فروخ، عمر ، تاريخ الفكر العربي، بيروت ١٩٦٦م.

١٢٤ ــ فروخ، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثالثة بيروت، ١٩٧٨.

١٢٥ ــ الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الظاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مصر، دار الجيل. د.ت.

١٢٦ ــ الفيروز أبادى، المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر ، الطبعة الأولى، الرياض، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

١٢٧ ــ القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي وكتاب ذيل الأمالي والنوادر، بيروت دار الاتفاق ١٩٨٠م.

١٢٨ ــ قرضاوي، يوسف، الحلال والحرام في الإسلام، ١٩٧٨م، دار القرآن الكريم.

١٢٩ ــ القلقشندي، أبو العباس أحمد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الابياري، الطبعة الأولى القاهرة، ١٩٥٩م.

١٣٠ ــ كحالة، عمر رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، دمشق الناشر فؤاد هاشم الكتبي، ١٣٦٤هـ، ١٩٤٤م.

١٣١ ــ كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت ١٩٧٨م.

١٣٢ ــ كحالة، مباحث إجتماعية في عالمي العرب والإسلام، دمشق ١٣٩٥هـ، ١٩٧٤م.

١٣٣ ــ كستر، م. ج.، مكة وتميم مظاهر من علاقاتهم، ترجمة يحيى الجبوري بغداد ١٩٧٥م.

١٣٤ ــ لوبون، جوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة، دار أحياء الكتب العربية ١٩٦٩م.

١٣٥ ــ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٦٦م.

١٣٦ ــ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب روجعت وقوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بمعرفة لجنة من العلماء، القاهرة سنة ١٩٥١م.

١٣٧ ــ مدني، أمين، التاريخ العربي ومصادرة، مصر ١٩٧١ ١٩٧١م.

١٣٨ ــ المرزوقي، أبو علي، كتاب الأزمنة والأمكنة، الطبعة الأولي ٢ حيدر أباد، ١٣٢٢هـ.

١٣٩ ــ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، كتاب التنبيه والاشراف، بيروت ١٩٦٥م. مكتبة خياط.

١٤٠ ــ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الأولي بيروت، ١٩٦٥م دار الأندلس.

١٤١ ــ مسلم، الامام أبو الحسن مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، بيروت منشورات دار الاتفاق. د.ت.

١٤٢ ــ المقدسي، أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، كتاب البدء والتاريخ، مدينة شالون، الجزء الرابع سنة ١٩٠٧م.

١٤٣ ــ مهران، محمد بيومي، دراسة حول الديانة العربية القديمة ١٣٩٨هـ

١٤٤ ــ مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الرياض، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

١٤٥ ــ الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٧٢م.

١٤٦ ــ الموسوي، الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن، نهج البلاغة وهو مجموع ما أختاره من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، شرحه الأستاذ محمد عبده، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، مصر. د.ت.

١٤٧ ــ الموسوي، محمد عبد الله الحسني، رحلة الشتاء والصيف حققها وقدمها وفهرسها محمد سعيد الطنطاوي، بيروت ١٣٨٥.

١٤٨ ــ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٧م.

١٤٩ ــ نافع، محمد مبروك، تاريخ العرب عصر ماقبل الإسلام، مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٢م.

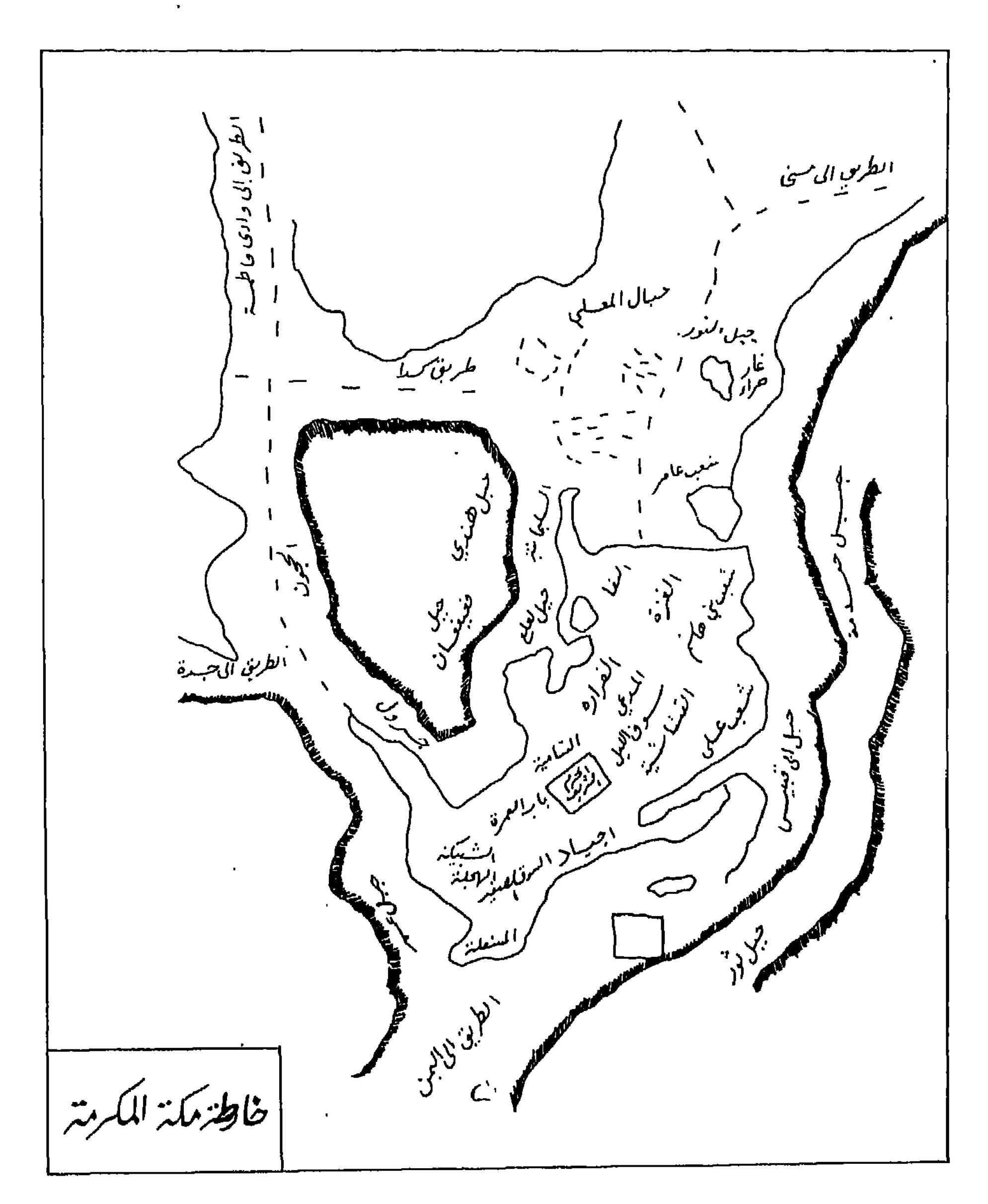
١٥٠ ــ النجيرمي، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله، إيمان العرب في الجاهلية، أعاد نشره، قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية القاهرة، ١٣٨٢هـ.
١٥١ ــ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة.
١٥٢ ــ هارولد بيك، هربرت جون فلير، الأزمنة والأمكنة ترجمة محمد السيد غلاب، راجعه إبراهيم أحمد رزقانة، القاهرة ١٩٥٢م.
١٥٣ ــ الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب القاهرة ١٣٨١هـ، ١٩٦٢م.. د. ت.
١٥٤ ــ الهمداني، أبو محمد الحسن، الاكليل، حرره وعلق على حواشيه نبيه أمين فارس، بيروت. دار العودة، صنعاء دار الكلمة.
١٥٥ ــ الهمداني، صفة جزيرة العرب، الرياض ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
١٥٦ ــ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن الرابع عشر ـ العشرين الجزء ٨ـ٩، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م.
١٥٧ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، نشأة الحضارة، الشرق الأدنى ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥م.
١٥٨ ــ ولفنسون، إسرائيل أبو ذؤيب، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، القاهرة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م.
١٥٩ ــ وهبة، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، الطبعة الثالثة القاهرة، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.
١٦٠ ــ يحي، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام، الطبعة الثانية بيروت، ١٩٧٩م.
١٦١ ــ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٣٧٩هـ، ١٩٧٩م.
١٦٢ ــ يويريش، ن. العلاج بعسل النحل، ترجمة محمد الحلوجي، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٧٧م.

الدوريـــــات

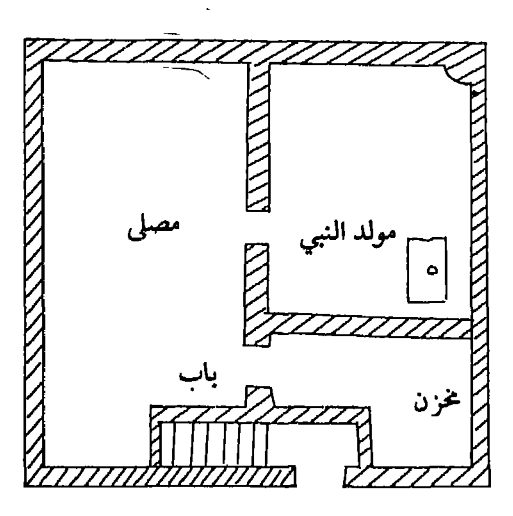
١ ــ الطرازي، مأمونة مبشر، «حقوق المرأة وهي زوجة»، المجلة العربية، العدد الأول، السنة الخامسة، جمادي الثانية ١٤٠١هـ ابريل ١٩٨١م مجلة شهرية، المملكة العربية السعودية.
٢ ــ العلي، صالح أحمد، «تحديد الحجاز عند المتقدمين»، مجلة العرب، الجزء الأول، السنة الثالثة ١٣٨٨هـ، مجلة شهرية، دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض.
٣ ــ مدني، السيد عبيد، «أطوم المدينة المنورة»، مجلة كلية الآداب، المجلد الثالث ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣ الرياض.
٤ ــ الوهيبي، عبد الله، «الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب» مجلة كلية الآداب، العدد الأول، السنة الأولى ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م الرياض.

THE REFRENCES 

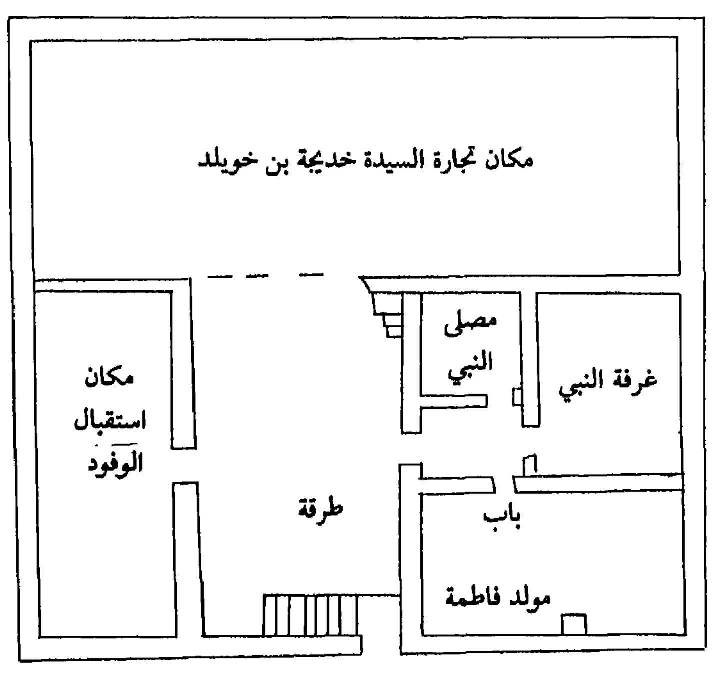
1. AHMED,FAZL, Five Heroes of Islam-Khulfa - El Rashidin, Kutub Khana, Delhi.
2. DICTIONARY OF THE BIBLE, Rev. James L. Dow M.A. 1974, William Collins Sons & Co., Ltd.
3. ENCYCLOPAEDIA BRITANIC, A, Macropaedia- Micropaedia, 15th Edition, 1974, U.S.A.
4. THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM,. New Edition, Prepared by a number of leading orientalists, edited by Lewis CH. Pellat J. Schacht, Leide E.J. Brill 1965 - London Luzac and Co.
5. GRUNEBAUM, G.E VON, Classical Islam; A History 600-1258 Translated by Katherine Waston, English Edition published in 1970, London.
6. HITTI, PHILIPP Khori, the origins of the Islamic State, Being, a translation from the arabic accopanied with annotations geographic and historic notes of the Kitab Futoh Al-Buladan of Al Immam Abu Abbas Ahmed Ibnjabir Al Baladhuri, 1966 Beirut.
7. HUSAIN, S. ATHAR, The Glorious Caliphat, Ist edition 1974, India
8. NARAYAN, B.k., mohammed: The Prophet of Islam-A flame in the Desert, Ist edition 1978, New Delhi.
9. RODINSON, MAXIME, Mohammed, translated from the French by Anne Carter 1971, Great Britain.
10. SALIBI, KAMAL, A History of Arabia, Ist published by Caravan Books, 1980 Delmar, N.Y.
11. SHORTER ENCYCLPAEDIA OF ISLAM, Edited on behalf of the Royal Netherlands Academy by H.A. Gibb and J.H. Kramers Leiden E.J. Brill 1974.
12. SIDDIQUI, ABDUL HAMEED, The life of Mohammed, dar. EL, Fath, Beirut.
13. TRIMINGHAM, J. SPENCER, Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times, Ist published 1979, London.



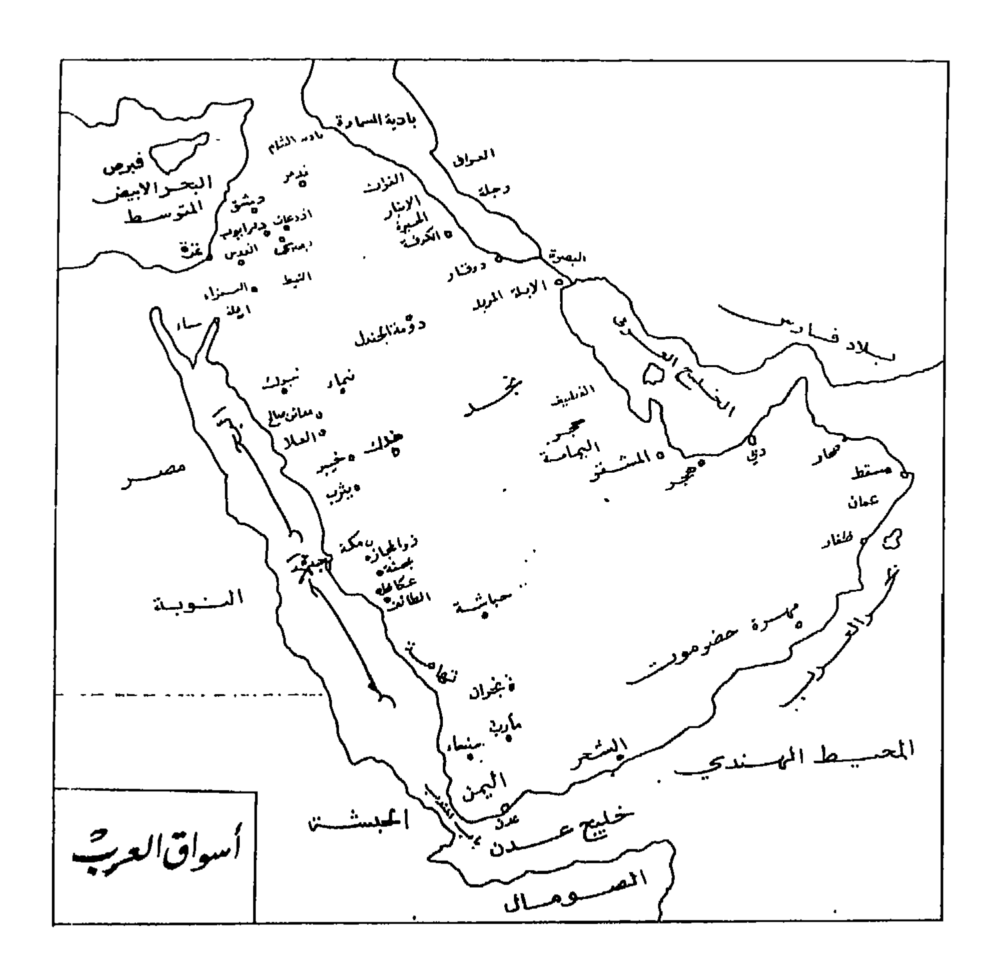
نقلا عن البتنوني، المرجع السابق ص ٢٢٨ ورفعت، المرجع السابق جـ١/ ١٧٩ وبعض الأضافات نقلا عن بندقجي، حسين حمزة، اطلس الحج الى بيت الله الحرام ومكة المكرمة ـ المدينة المنورة، مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.



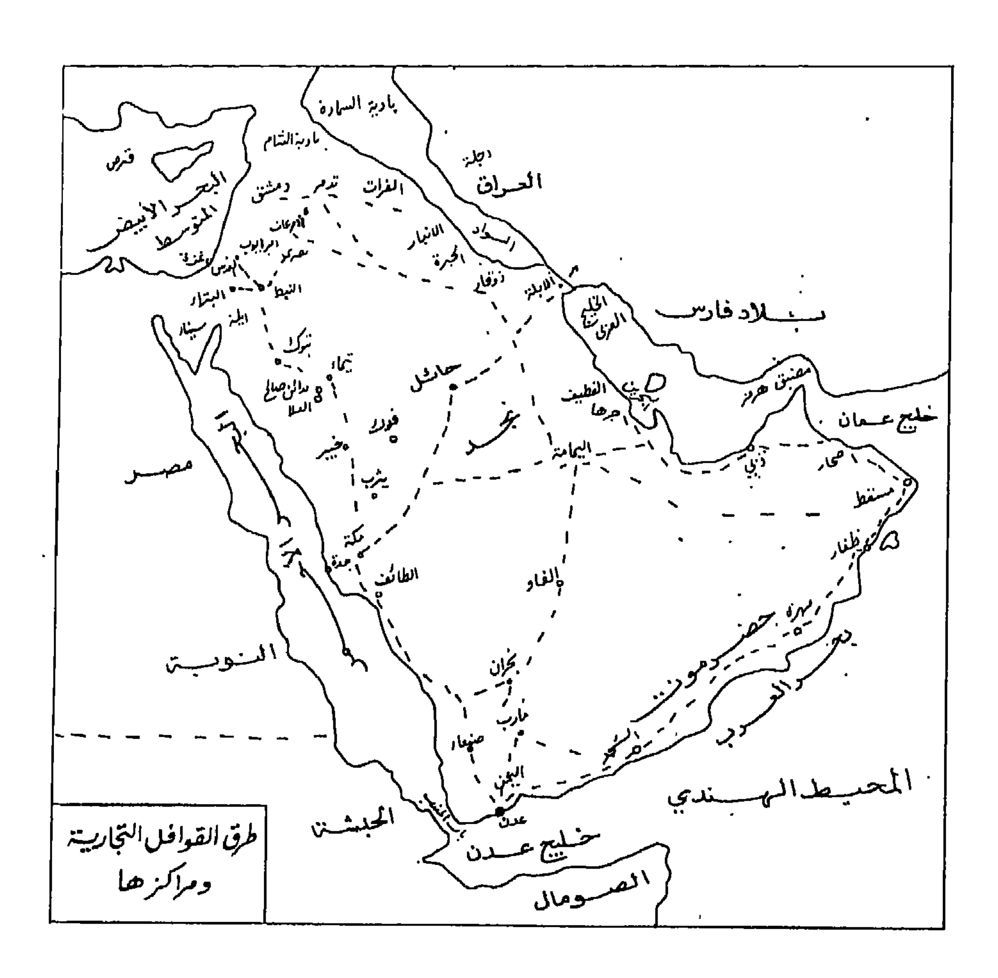
رسم تقريبي لمولد النبي صلى الله عليه وسلم وهي دار عبد الله بن عبد المطلب بمكة.



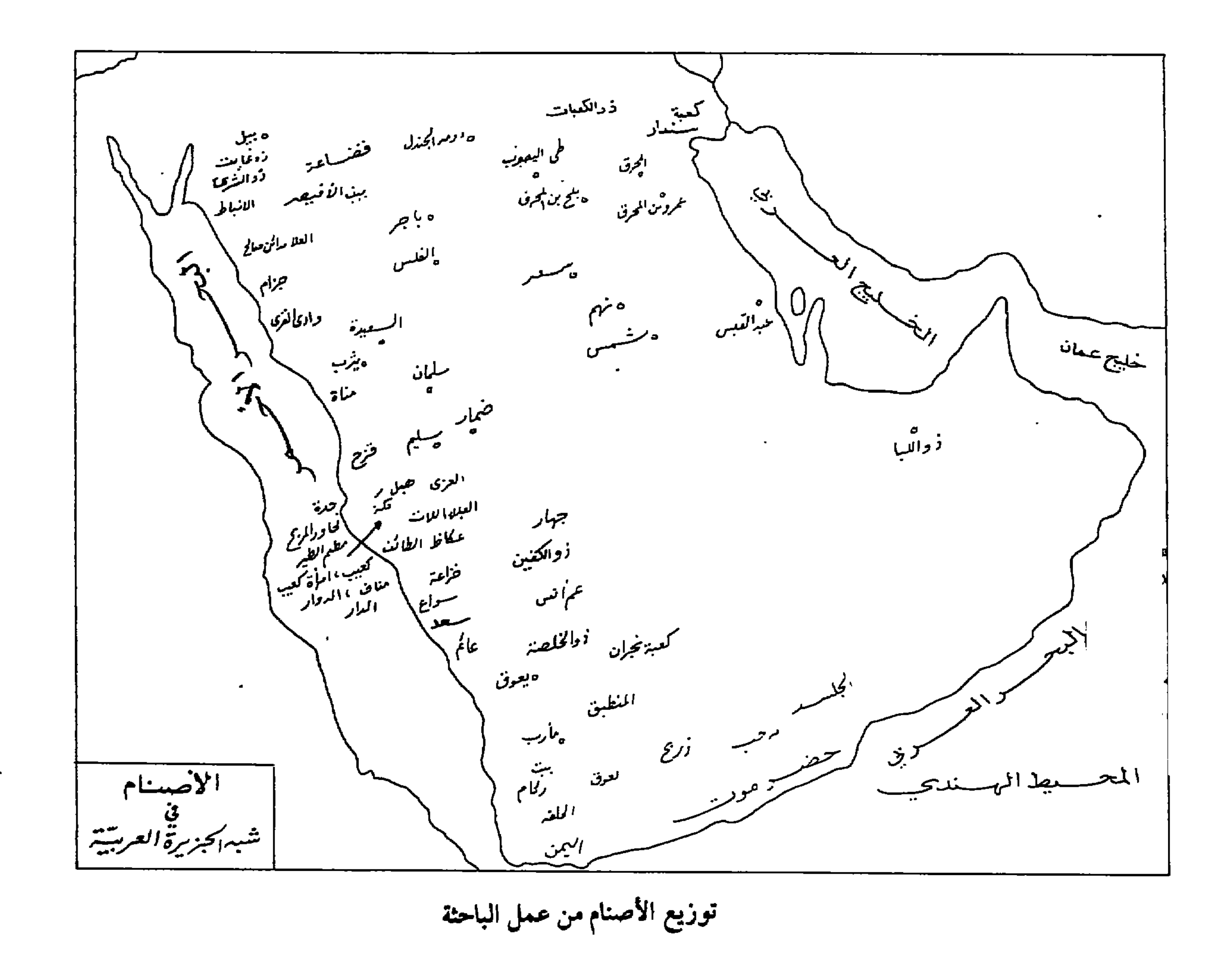
رسم تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة



نقلا عن حمور، المرجع السابق ص٤٦



نقلا عن حمور، المرجع السابق ص٤٦ بتصرف.



توزيع الأصنام من عمل الباحثة

رقم الإيداع ١٠٤٤٢/٩٣

مطابع المكتب المصري الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت : ٢٢١١٠٧١ - ٢٢١١٠٧٢ - فاكس ٢٢١١٠٧٣

هذا الكتاب

يهتم هذا الكتاب بقبيلة قريش ودورها السياسي والإقتصادي والديني قبل الإسلام. وقد تم تقسيم هذا الكتاب إلى بابين رئيسين، يشتمل كل منهما على ثلاثة فصول.

والباب الأول يتحدث عن المجتمع في مكة، ونجد الفصل الأول منه يشمل على دراسات تمهيدية عن منطقة الحجاز والمدن ذات الشأن بموضوع هذا الكتاب. أمَّا الفصلين الثاني والثالث فيشتمل على تفصيل ضافٍ عن المجتمع في مكة وعن كل مظاهرة حياة قريش الإجتماعية والثقافية بما في ذلك العادات والتقاليد.

أمّا الباب الثاني فيتحدث عن دور قريش السياسي والإقتصادي والديني، ويختص الفصل الأول من هذا الباب بدور قريش السياسي، أما الفصل الثاني فيتحدث عن الدور الإقتصادي، والفصل الثالث عن الدور الديني.

